شــرح
الأصول الثلاثة وأدلتها

تَأْلِيفُ
حمد بن إبراهيم العثمان



الطبعة الثانية

١٤٣٨هـ/٢٠١٧م



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

أحمد الله سبحانه علىٰ تيسيره شرح متن «الأصول الثلاثة» للإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي تلقاه طلبة العلم بالقبول، كما حدثني بعضهم بفرحه بإعطاء المتن حقه من الشرح، جزاهم الله خيرًا.

وأسفت لاستغلال أحد الشباب لكلامي ونقولي عن العلماء في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله للتشويش علىٰ مادة الشرح في هذه المسألة!

وكلامي - ولله الحمد - في هذه المسألة وسطٌ بين المجازفين في تكفير الأعيان، والمهونين من شأن الشريعة الذين أعانوا علىٰ تعطيلها وإذهاب حرمتها من نفوس المسلمين؛ شعروا أو لم يشعروا!

وفي هذا المبحث بعد أن تناولت كل أفراد موضوعه بالشرح أتبعته بتحذير العلماء من المجازفة في التكفير، ونقلت كلامهم في تحذير المتعالمين من الخوض في هذه المسائل.

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه

المسائل إنَّما يفتي فيها من أوتي الحكمة وفصل الخطاب».

ومعلوم فرق ما بين ذكر الحكم الشرعي وبين تعيينه في الأشخاص من الأسباب الموجبة لتحقيق واستيفاء الشروط وانتفاء الموانع في الحكم علىٰ الأعيان، ومن أراد معرفة قولي في هذه المسألة فلا بد أن يرجع أيضًا إلىٰ كلامي في كتابي الآخر «الغوغائية هي الطوفان».

قال العلامة أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قد جرت عادة العرب بأن يكون خطابها مرة علىٰ سبيل الإيجاز والاختصار، ومرة علىٰ العدل والكفاف، ومرة علىٰ الإشباع والزيادة في البيان».

وأحكام الشريعة لا بد من بيانها كاملة بأدلتها بالعدل والإنصاف، مع الاستعانة بالعلماء في فهمها وأخذ فتاويهم أيضًا في تطبيق الأحكام علىٰ الأعيان.

والحمد لله رب العالمين.



(١) معالم السنن (١/ ٤٠٣).

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فإن رسالة «**الأصول الثلاثة وأدلتها**» للإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أهم وأنفع المتون في العقيدة وبيان حقيقة الإسلام؛ ففيها بيان حقيقة ما يجب علىٰ كل مسلم معرفته: ربه، ودينه، ونبيه. وهي حقيقة الإسلام والدين كله.

وقد تكلم شيخ الإسلام في هذه الرسالة - علىٰ الرغم من صغرها - في معنىٰ ملة إبراهيم، وحقيقة التوحيد، وأنواع العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله، وتكلّم كذلك في مراتب الإسلام الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وأبان الإمام في هذه الرسالة حقيقة الإسلام والإيمان وأركانهما، وتكلم كذلك في شعب الإيمان، ودوّن فيها عقيدة الولاء والبراء.

وشرح الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته هذه المختصرة معنىٰ: شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، وبيّن سيرة النبي ﷺ في دعوته، وما

قامت عليه من الدعوة للتوحيد، وتطرّق كذلك إلىٰ بيان حادثة الإسراء والمعراج

وقام الإمام في هذه الرسالة ببيان أحكام الهجرة، وما اتفقت عليه دعوة المرسلين جميعًا من الدعوة للتوحيد.

ومع بيان الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رسالته «الأصول الثلاثة» حقيقة التوحيد حذّر من أضداده، وفي خاتمة الرسالة تكلم في معنىٰ الكفر بالطاغوت.

ولمّا كانت هذه الرسالة هي خلاصة وزبدة دعوة الإسلام؛ فإن العناية بها تدريسًا وشرحًا هو من أنفع وأوجب ما ينبغي أن تنصرف إليه همم طلبة العلم.

وهذه الرسالة دراستها والعناية بها تأخذ بك إلىٰ طلب أنواع المتون الأخرىٰ من الرسائل في مفصل الاعتقاد، وقد شرعت بشرح هذه الرسالة في ٢٢ من ربيع الثاني ١٤٣٥هـ بمدينة الرياض، ثم أتممت بقية الشرح بالكويت. وقد كان الانتهاء من مراجعة صف هذا الشرح في ٢٧ محرم ١٤٣٦هـ.

وأود أن أنبّه القاريء إلىٰ أن التبويب الذي يكون في بداية المواضيع مسورًا بالقوس هو من صناعتي للدلالة علىٰ محتوى الموضوع.

والحمد لله رب العالمين.



العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه

قال الإمام المجدّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اعلم - رحمك الله - أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولى: العلم، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه ﷺ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العمل به.

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

والدليل قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾. **قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».**

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢-٤).

تعالى ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل».

الشَّرح:

إن هذه الرسالة لما كانت في بيان حقيقة «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ»، والشهادة لا تكون إلا عن علم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، بيّن الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن طلب العلم النافع هو السبب لتحقيق الاعتقاد الصحيح؛ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل».

وبدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان أهمية العلم في تأسيس الاعتقاد والعمل؛ ليبرهن علىٰ أن محتوىٰ رسائله عامة ورسالته هذه خاصةً قائم علىٰ العلم بأدلة الكتاب والسنة، فهي ليست كعقائد أهل الباطل الذين تلقوها بالتقليد عمن أخذوها عنهم ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزُّخرُف: ٢٢].

ومحتوىٰ الرسالة دال علىٰ حقيقة ما قرره الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٤).

فكل فقرة منها يذكر دليلها من الكتاب والسنة، وهذا وضوحه في الرسالة يغني عن التنبيه عليه.

فأول ما بدأ به الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته «الأصول الثلاثة وأدلتها»: الأمر بتعلم العلم، وهذا من النصيحة للمؤمنين ولعموم الخلق أجمعين، فهو يريد أن يُعلّمهم دينهم بالأدلة، لا بالتقليد الذي قد يُغبن فيه المُقلِّد إذا لم يكن مُقلّده ناصحًا أمينًا صاحب سُنة؛ لذلك قرّر الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كل قطعة من هذه الرسالة المباركة بدليلها من القرآن والسنة، وتجد تنويه الإمام بذلك واضحًا صريحًا في الرسالة كلها من أولها إلىٰ آخرها؛ حيث قال[1]: «معرفة دين الإسلام بالأدلة»، وقال[2]: «أعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهىٰ عنه الشرك، وهو دعوة غيره معه، والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء: ٣٦]».

وقال أيضًا[3]: «فمن صرف منها - العبادة - شيئًا لغير الله؛ فهو مشرك كافر، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١١٧]».

وبيّن العلامة المتفنّن عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثر الجهل في ظهور

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٣).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٧).

(٣) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١١).

الشرك والبدع فقال[١]: «لم يزل ﷺ يدعوهم إلىٰ الله، وينذرهم من الشرك، ويشرح لهم حقيقة ما يدعو إليه؛ حتىٰ هدىٰ الله منهم من هدىٰ، ثم دخلوا بعد ذلك في دين الله أفواجًا، فظهر دين الله علىٰ سائر الأديان بعد دعوة متواصلة، وجهاد طويل من رسول الله ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين لهم بإحسان. ثم تغيرت الأحوال، وغلب الجهل علىٰ أكثر الخلق؛ حتىٰ عاد الأكثرون إلىٰ دين الجاهلية؛ بالغلو في الأنبياء والأولياء ودعائهم والاستغاثة بهم وغير ذلك من أنوع الشرك، ولم يعرفوا معنىٰ «لا إله إلا الله» كما عرف معناها كفار العرب، فالله المستعان.

ولم يزل هذا الشرك يفشو في الناس إلىٰ عصرنا هذا بسبب غلبة الجهل وبُعْد العهد بعصر النبوة».

ولا ريب أن سبب الشرك هو القول علىٰ الله بغير علم قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه عاد المشركين ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، فهذه الآية منطوقها واضح وصريح: أن الشرك لا يقع إلا من جاهل، وإلا فالعاقل لا

(١) حراسة التوحيد (ص٢٠).

يتأله لمخلوق ناقص مربوب لرب العالمين الذي له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، ناصية الخلق جميعًا بيده، فله الخلق والأمر، وملك السموات والأرض وما فيهن.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ذكروا في سبب نزولها: ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلىٰ عبادة آلهتهم ويعبدون معه إلهه؛ فنزلت ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزمر: ٦٤، ٦٥]، وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر علىٰ كل شيء المالك لكل شيء، وكل شيء، تحت قهره وقدرته».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٩٥).

أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالىٰ الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم؛ هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصًا من كل وجه، لا ينفع ولا يضر؛ لم تأمروني بذلك».

وقد صدّر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة ببيان أهمية العلم؛ لأنه الوسيلة إلىٰ صحيح الاعتقاد والقول والعمل، ولا يمكن للمسلم سلوك الصراط المستقيم بدون معرفته.

فالعلم النافع والعمل الصالح هما الهدىٰ والصراط المستقيم الذي من لزمه فاز، وكان من أهل الجنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لفظ «الهدىٰ» إذا أُطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله، والعمل به جميعًا؛ فيدخل فيه كل ما أمر الله به، كما في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، والمراد: طلب العلم بالحق والعمل به جميعًا.

وكذلك قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، والمراد به: أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به؛ ولهذا صاروا مفلحين، وكذلك قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وإنما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع

(١) الإيمان الكبير (ص٣٧٥).

والعمل الصالح».

وقال الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعبادة حق الله وحده، وهذا الصراط هو طريق المنعَم عليهم، ولهذا قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، وأهل العلم والعمل هم المنعم عليهم».

والعلم بالله إذا كان صحيحًا؛ أوجب ذلك التأله لله وعبوديته، إخلاصًا له ومتابعة لرسول الله ﷺ؛ فأثمر العلم والعمل الصحيح، وحقق العبد بذلك توحيد الله؛ لذلك بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته المباركة «الأصول الثلاثة» بالتنبيه علىٰ ذلك، فقال[1]: «قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنه من المعلوم أن معرفة الشيء المحبوب، تقتضي حبّه، ومعرفة المعظّم تقتضي تعظيمه، ومعرفة المخوف تقتضي خوفه، فنفس العلم، والتصديق بالله، وما له من الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ؛ توجب محبة القلب له، وتعظيمه وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته، وكراهة معصيته».

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٣، ٤).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٠٧).

وقد صدّر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته المباركة «الأصول الثلاثة» بالحث علىٰ طلب العلم؛ لأن طلبه واجب، ووجوبه منه ما هو عيني، ومنه ما هو كفائي.

بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته في مجمل الاعتقاد «الأصول الثلاثة» بالأمر بالعلم لأن العقيدة إذا كانت مبنية علىٰ العلم الصحيح فإن إيمان أهله يكون علىٰ بصيرة لا تزعزعه شبهات المبتدعين، ولا تشكيكات المشركين، ولا مشاغبات المبطلين، فالموحّد لا يرتاب في دينه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، والمرتاب والجاهل ينكص علىٰ عقبيه، وربما ارتد، وأسوأ من ذلك أن يكون داعية للإلحاد والردة وتعطيل الشريعة، أو مرتابًا لا يدري هل الرافضة علىٰ ضلال أو لا؟!

وهذا شأن غير المخلص في عقيدته ودينه الذي لم يحقق التوحيد، وجعل سيادة الرافضي مانعًا له من الجزم بضلال الرافضة الذين يُكَفِّرُون الصحابة، ويعتقدون نقص وتحريف القرآن، وكأنه لا يعرف أن الله يداول الأيام، وأن العاقبة للتقوىٰ والحق، قال تعالىٰ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ومؤمنوا الجن تحققوا بالتوحيد عن علم بعد سماع القرآن وتدبّره، ثم

صاروا دعاةً إلىٰ الإسلام، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا الإيمان النافع المثمر لكلِّ خير، المبنيُّ علىٰ هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد والمَرْبىٰ والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشُّبهات والعوارض الكثيرة».

وحثّه المسلمين علىٰ طلب العلم؛ هذا من الخير الذي أراده بالمسلمين؛ فإن النبي ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «طلب العلم الشرعي فرض علىٰ الكفاية، إلا فيما يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره الله به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض علىٰ الأعيان، كما أخرجاه في الصحيحين عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»، وكل من أراد الله به خيرًا لا بد أن يفقهه في الدين، فمن لم يفقهه في الدين لم يُرد الله به خيرًا.

والدين ما بعث الله به رسوله ﷺ، وهو ما يجب علىٰ المرء التصديق به، والعمل به.

وعلىٰ كل أحد أن يصدّق محمدًا ﷺ فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر، تصديقًا عامًّا وطاعة عامة، ثم إذا ثبت عنه خبر كان عليه أن يُصدّق به مفصلًا، وإذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٨٩١).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٣٨٥).

كان مأمورًا من جهة بأمر معين؛ كان عليه أن يطيعه طاعة مفصلة».

وهذه المسائل الثلاث «العلم، والعمل به، والدَّعوة إليه» التي صدّر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته المباركة «الأصول الثلاثة وأدلتها»؛ وجوب تعلمها هو ميراث الأنبياء الذي من قام به قام بما قام به النبيون - عليهم السلام -.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يرث الأنبياء إلا العلماء - اللهم اجعلنا منهم -، العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم من الأنبياء، وورثوا العمل كما يعمل الأنبياء، وورثوا الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وورثوا هداية الخلق ودلالتهم علىٰ شريعة الله؛ فالعلماء هم ورثة الأنبياء».

وتحمل العلم وطلبه أمانة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد أخذ الله علىٰ هذه الأمانة من العلماء ميثاقًا غليظًا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فواجب حمل هذه الأمانة أن تؤدىٰ بأمانة؛ فلا ينصر العالم الباطل، ولا يقول علىٰ الله بغير علم، ويقول: الله أعلم. لما لا يعلم، ويرد الأهواء والبدع والضلالات ولا ينصرها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا

(١) شرح رياض الصالحين (٥/ ٤٤٣).

حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في شأن العلماء وطلبة العلم[١]: «واجبهم عظيم، والخطر عليهم عظيم، **والأمة في ذمتهم**؛ لأنها بأشد الحاجة إلىٰ البلاغ والبيان بالطرق الممكنة».

وقال العلامة محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن العلم أمانة، ومن انتصر للباطل؛ فقد ضيَّع أمانة الله».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ولأنهم - يعني: المحدثين من أهل العلم - وُضعوا موضع الأمانة، ونُصبوا أعلامًا للدين، وكانوا عالمين بما ألزمهم الله من الصدق في كل أمر، وإن الحديث في الحلال والحرام أعلىٰ الأمور، وأبعدها من أن يكون فيه موضع ظنّة، وقد قدّم إليهم في الحديث عن رسول الله ﷺ بشيء لم يتقدم إليهم في غيره، فوعد علىٰ الكذب عن رسول الله ﷺ النار».

وعلماء السنة وأئمتهم في كل طبقة من حين ظهور البدع يُحذّرون منها ومن دعاتها؛ حفظًا وصيانةً لأديان المسلمين من التغيير والتبديل، ونصيحة

---

(١) مجموع الفتاوىٰ البازية (٧/ ٢٢١).

(٢) وصايا الآباء للأبناء (ص٣٤).

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٩).

لله ولرسوله ﷺ وأئمة المسلمين وعامتهم، وحفظًا للدين من تحريف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحال المبطلين.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من عظَّم صاحب بدعة؛ فقد أعان علىٰ هدم الإسلام».

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن توقير صاحب البدعة مظنَّةٌ لمفسدتين تعودان علىٰ الإسلام بالهدم:

إحداهما: التفات الجهّال والعامة إلىٰ ذلك التَّوقير؛ فيعتقدون في المُبتدع أنَّه أفضل النَّاس، وأنَّ ما هو عليه خيرٌ مما عليه غيره، فيؤدِّي ذلك إلىٰ اتِّباعه علىٰ بدعته، دون اتِّبَاع أهل السنة علىٰ سنَّتهم.

والثانية: أنَّه إذا وُقِّر من أجل بدعته، صار ذلك كالحادي المحرِّض له علىٰ إنشاء الابتداع في كل شيء، فتحيا البدع وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه».

وكان الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد بيّن قبل هذا الكلام أن توقير أهل البدع داخل في وعيد قوله ﷺ: «**من أحدث حدثًا، أو آوىٰ محدثًا؛ فعليه لعنة الله**

---

(١) شرح السنة للبربهاري (ص١٢٨).

(٢) الاعتصام (ص٧٦).

والملائكة والناس أجمعين».

والبدع ظهرت بعد قتل عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وظهرت الخوارج والرافضة في عهد علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وظهرت القدرية بعد ذلك، وتتابعت البدع وظهرت الأحزاب، وظهر ما هو كائن مما قضاه الله كونًا؛ من وقوع التفرق والبدع والاختلاف، كما جاء في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»[1]، وكذلك ما رواه معاوية وأبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما؛ أن النبي ﷺ قال: «**افترقت اليهود والنصارىٰ علىٰ اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار، إلا ما أنا عليه وأصحابي**»[2].

وفي الحديثين السابقين توجيه للأمة إلىٰ سبب نجاتها حال الفرقة، وبيان ما تعتصم به في اختلافها، وما يكون سببًا في لزومها الحق، وسلامتها من الباطل، ففي حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**فعليكم**

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (رقم ٤٦٠٧)، وصححه ابن حجر في تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب (١/ ١٣٧)، وصححه شيخ الإسلام كما في الفتاوىٰ (٢٠/ ٣٠٩)، وحسنه ابن القيم في إعلام الموقعين (ص٨٥٦)، وصححه الشاطبي في الاعتصام (٢/ ١١٤).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (رقم ٤٥٩٧)، والترمذي (رقم ٢٦٤٠) وصححه، وصححه أيضًا: ابن حبان، والبيهقي، وابن كثير، والذهبي، وابن حجر، انظر: دفع المراء عن حديث الافتراق لمقيده.

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور»، وفي حديث افتراق الأمة بيّن النبي ﷺ الفرقة الناجية وصفتها؛ فقال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، وهذا هو الذي دلّ عليه منطوق قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، قال أبو محمد الحسن بن علي البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والأساس الذي تُبنىٰ عليه الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ ورحمهم أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم؛ فقد ضلَّ وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار».

وعلماء البدع وأحبار الضلالة يقومون بتحريف الدين وتغييره، ويلبِّسون علىٰ العامة أن ما ابتدعوه هو الدين والشرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أهل الكلام من الجهمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقلية يجب اعتقادها، دون ما دلَّت عليه السمعيات.

ثُمَّ الكتابُ والسُّنَّة إما أن يُحرِّفوا القول فيهما عن مواضعه، وإمَّا أن يُعرضوا عنه بالكُلِّية؛ فلا يتدبرونه، ولا يعقلونه، بل يقولون: نُفوِّضُ معناه

(١) شرح السنة (ص٥٩ - رقم ٣).

(٢) العبودية (ص٤٩، ٥٠).

إلىٰ الله، مع اعتقادهم نقيض مدلوله.

وإذا حُقِّقَ علىٰ هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسُّنَّة؛ وُجِدَتْ جهليات واعتقادات فاسدة».

والتحذير من علماء الضلالة لا بد أن يكون بعلم وعدل، بقصد النصيحة لله ورسوله ﷺ وأئمة المسلمين وعامتهم، فيكون القيام به بالحق لا بالحظ. وعلماء السنة وأئمة الهدىٰ حقهم التوقير، فلا يجوز شحن نفوس العامة للتنفير من العلماء؛ فإن هذا شر. بل الواجب تربية الناشئة من طلبة العلم والعامة علىٰ توقير علماء أهل السنة، والأخذ عنهم؛ هذا الذي أمر الله به ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وخيرٌ للعامي أن يستفتي العلماء من أن يكون هو مفتي نفسه أو قومه.

أما قول النبي ﷺ: «**استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون**»، فهذا يُراد به أن الله فطر عباده علىٰ معرفة الحق وإرادته، وأنه إذا زاغ أحدٌ في فتياه، فإن النفوسَ تنكره، ولهذا لما حذّر معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من زيغة الحكيم، قيل له: كيف نعرف ذلك؟ قال معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن علىٰ الحق نورًا»، رواه أبو داود.

وكلام معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ واضح أنه ليس بإطلاق لكل جاهل ومن تغيرت فطرته عن علم الشريعة، وإنما هو لمن يعرف نور الحق، أي المعلوم من الدين من علومه وأحكامه المعهودة المأخوذة من الكتاب والسنة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا إنَّما يكون إذا كان صاحبُه ممَّن شُرِحَ صدْرُه بالإيمان، وكان المفتي يُفتي له بمجرَّد ظنٍّ أو ميلٍ إلىٰ هوًىٰ من غير دليلٍ شرعيٍّ، فأمَّا ما كان مع المفتي به دليلٌ شرعيٌّ؛ فالواجب علىٰ المستفتي الرُّجوعُ إليه، وإنْ لم ينشرح له صدرُه، وهذا كالرخص الشرعية، مثل الفطر في السفر، والمرض، وقصر الصَّلاة في السَّفر، ونحو ذلك ممَّا لا ينشرحُ به صدور كثيرٍ مِنَ الجُهَّال، فهذا لا عبرةَ به.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ أحيانًا يأمرُ أصحابَه بما لا تنشرحُ به صدورُ بعضهم، فيمتنعون من فعله، فيغضب منْ ذلك، كما أمرهم بفسخ الحجِّ إلىٰ العمرة، فكرهه من كرهه منهم، وكما أمرهم بنحرِ هديِهم، والتَّحلُّل من عُمرة الحُديبية، فكرهوه، وكرهوا مقاضاتَه لقريش علىٰ أنْ يَرجِعَ من عامِه، وعلىٰ أنَّ من أتاه منهم يردُّه إليهم.

وفي الجملة: فما ورد النصُّ به؛ فليس للمؤمن إلا طاعةُ الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ مبينًا صفة علماء السوء[(٢)]:

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٤٨٠، ٤٨١).

(٢) شرح ثلاثة الأصول (ص١٥١).

«علماء السوء الذين يدعون إلىٰ الضلال والكفر، أو يدعون إلىٰ البدع، أو إلىٰ تحليل ما حرّم الله، أو تحريم ما أحل الله؛ طواغيت، والذين يزينون لولاة الأمر الخروج عن شريعة الإسلام بنُظم يستوردونها مخالفة لنظام الدين الإسلامي طواغيت؛ لأن هؤلاء تجاوزوا حدهم، فإن حد العالم أن يكون متَّبعًا لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن العلماء حقيقة ورثة الأنبياء، يرثونهم في أمتهم علمًا وعملًا، وأخلاقًا، ودعوة وتعليمًا، فإذا تجاوزوا هذا الحد وصاروا يزينون للحكام الخروج عن شريعة الإسلام بمثل هذه النظم فهم طواغيت؛ لأنهم تجاوزوا ما كان يجب عليهم أن يكونوا عليه من متابعة الشريعة».

وبيان صفة العلماء الناصحين للأمة من الغاشين ضرورةٌ؛ لصيانة العامة عن الأخذ عن علماء الضلالة، الذين يُحرّفون الدين، ويزيّنون الشرك والبدع للناس، بل ومنهم من يتكسب بصناعة التمائم الشركية، ويقتات بزخرفة القبور، وإشادة بنيانها، وجعلها مزارات شركية يستغيث بها الجاهلون في شفاء الأسقام، وطلب الرزق والذرية، والنصر علىٰ الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

وما زال سلف الأمة يحذّرون من انحراف العلماء؛ لأنه بانحرافهم تنحرف الأمة، قال معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «اتقوا زيغة الحكيم».

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُٱللَّهُ: «من انحرف من علمائنا ففيه شبه من

اليهود، ومن انحرف من عُبّادنا ففيه شبه من النصارىٰ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملًا، أو لا قولًا ولا عملًا، وكفر النصارىٰ من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون علىٰ الله ما لا يعلمون».

وعلماء الأمة الناصحون حذّروا من علماء أهل البدع ومتعالميهم؛ لما في ضلالهم من إضلال الأمة.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «من دلّ علىٰ صاحب رأي ليفتنه؛ فقد أعان علىٰ هدم الإسلام».

وقال ﷺ: «**من دعا إلىٰ ضلالة؛ كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة، دون أن ينقص من أوزارهم شيئًا**» رواه مسلم.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ومن هنا تستشنع زلة العالم؛ فقد قالوا: ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق، وأئمة مضلون.

وكل ذلك عائد وباله علىٰ العالم، وزلله المذكور عند العلماء يحتمل وجهين:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٦، ط: دار الفضيلة).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٥٤).

(٣) الاعتصام (ص٣١٧، ٣١٨، ط: دار ابن حزم).

أحدهما: زللـه في النظر، حتىٰ يُفتيَ بما خالف الكتاب والسنَّة فيتابَع عليه، وذلك الفتيا بالقول.

والثاني: زللـه في العمل بالمخالفات، فيُتابَع – أيضًا – عليها علىٰ التأويل المذكور، وهو في الاعتبار قائم مقام الفتيا بالقول؛ إذ قد عُلم أنه متَّبَع ومنظور إليه، وهو مع ذلك يظهر بفعله ما ينهىٰ عنه الشارع، فكأنه مفتٍ به، علىٰ ما تقرَّر في الأصول.

والثاني من قسمي المفسدة الحالية: أن يعمل بها العوام، وتشيع فيهم، وتظهر فلا ينكرها الخواص، ولا يرفعون لها رأسًا، وهم قادرون علىٰ الإنكار فلم يفعلوا.

فالعامي من شأنه إذا رأىٰ أمرًا يجهل حكمه يعمل العامل به فلا يُنكر عليه؛ اعتقد أنه جائز، وأنه حسن، أو أنه مشروع؛ بخلاف ما إذا أُنكر عليه؛ فإنه يعتقد أنه عيب، أو أنه غير مشروع، أو أنه ليس من فعل المسلمين.

هذا أمر يلزم من ليس بعالم بالشَّريعة؛ لأن مستنده الخواص والعلماء في الجائز مع غير الجائز.

فإذا عُدم الإنكار ممَّن شأنه الإنكار، مع ظهور العمل وانتشاره، وعدم خوف المنكر، ووجود القدرة عليه، فلم يفعل؛ دلَّ عند العوام علىٰ أنه فعل جائز لا حرج فيه؛ فنشأ فيه هذا الاعتقاد الفاسد بتأويل يقنع بمثله من كان من العوام؛ فصارت المخالفة بدعة، كما في القسم الأول.

وقد ثبت في الأصول **أنَّ العالم في الناس قائم مقام النبيّ** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، **والعلماء ورثة الأنبياء، فكما أن النبي ﷺ يدل علىٰ الأحكام بقوله وفعله وإقراره، كذلك وارثه يدل علىٰ الأحكام بقوله وفعله وإقراره**».

ومن أوضح علامات أهل البدع: أنهم يفهمون القرآن بخاصة أنفسهم بدون فهم الصحابة، وبهذا زلَّ وضلَّ الخوارج، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا منكرًا عليهم سوء فهمهم للقرآن بخاصة أنفسهم، ومنبّهًا لهم إلىٰ ضرورة فهمه وأخذه عمن أخذ معانيه من النبي ﷺ: «أتيتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذي نزل عليهم القرآن، وهم أعلم بتأويله».

ومن علامات مشايخ المبتدعة: عدم فهم النصوص بفهم السلف، وترك - بل وكراهية - الانتساب للسلف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن شعار أهل البدع هو ترك انتحال اتِّباع السلف؛ ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة عبدوس بن مالك: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ»».

وقال شيخ الإسلام - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - **أيضًا** [2]: «كل من كان بالحديث من هؤلاء أعلم؛ كان بمذهب السلف أعلم، وله أتبع، وإنما يوجد تعظيم

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٦).

السلف عند كل طائفة بقدر استنانها وقلة ابتداعها.

أما أن يكون انتحال السلف من شعائر أهل البدع فهذا باطل قطعًا فإن ذلك غير ممكن إلا حيث يكثر الجهل ويقل العلم».

بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته المباركة «الأصول الثلاثة وأدلتها» بالعلم؛ لأنها هي السبب الموصل لسعادة الدارين، ولأن علم القرآن والسنة يتعاضد مع العلم الفطري بوحدانية الله الذي جبل الله بني آدم علىٰ معرفته ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وليقوم المسلم بحق كلمة التوحيد، وهي تفاصيل أحكام الشريعة وواجباتها التي لا تُدرَك إلا ببيان من الوحي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله هدىٰ الناس هداية عامة بما جعله فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم، وبما أنزل إليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل، قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلىٰ: ١-٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠١٨).

ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبته له، وقد هداه ربه إلىٰ أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلىٰ سعادة الأولىٰ والآخرة، وجعل في فطرته محبة لذلك، لكن قد يُعرض الإنسان بجاهليته وغفلته عن طلب علم ما ينفعه».

ولضرورة وحاجة العبد إلىٰ العلم والعمل به؛ فإنه يسأل ربه ذلك في كل صلاة، وفي كل ركعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه إذا هداه هذا الصراط أعانه علىٰ طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلىٰ الهدىٰ في كل لحظة، وهو إلىٰ الهدىٰ أحوج منه إلىٰ الأكل والشرب، ليس كما يقوله طائفة من المفسرين: إنه قد هداه، فلماذا يسأل الهدىٰ؟ وأن المراد بسؤال الهدىٰ: الثبات، أو مزيد الهداية. بل **العبد محتاج إلىٰ أن يُعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلىٰ ما يتركه من تفاصيل الأمور في كل يوم. وإلىٰ أن يلهم أن يعمل ذلك؛ فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله الله مريدًا للعمل بعلمه، وإلا كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهتديًا. والعبد محتاج إلىٰ أن يجعله الله قادرًا علىٰ العمل بتلك الإرادة الصالحة؛ فإنه لايكون مهتديًا إلىٰ الصراط المستقيم**، صراط ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣١).

وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ﴾ [النساء: ٦٩]، إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة علىٰ ذلك، ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه.

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة، لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلىٰ شيء أحوج منهم إلىٰ هذا الدعاء».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أول ما بدأ به رسالته في بيان «الأصول الثلاثة» وجوب تعلم العلم، ثمّ بيّن العلم الواجب معرفته فقال[1]: «اعلم - رحمك الله - أنه يجب علينا تعلُّمُ أربع مسائل: الأول: «العلم»، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه ﷺ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة».

وهذا سبيل الله في بيان دينه وشرعه، فإن أول ما نزل علىٰ النبي ﷺ من الوحي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته «الأصول الثلاثة وأدلتها» بالحديث عن العلم؛ لأن العلم الصحيح هو الدال علىٰ حق الله الخالص من التوحيد؛ ولذلك أشهد الله العلماء علىٰ هذا الحق الخالص، وعطف شهادتهم علىٰ شهادته وشهادة ملائكته المقربين؛ قال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته «الأصول الثلاثة»

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٣).

بالعلم؛ لأن العلم النافع والتحقق به والزيادة منه من أسباب زيادة وتجريد الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وتحقيق العبودية بأنواعها لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالعلم يقوىٰ بالعمل، والعمل يقوىٰ بالعلم، فمن عرف الله وقلبه سليم؛ أحبه، وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له، وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له، ومعرفته بأسمائه وصفاته؛ فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب، كما أن البغض يوجب الإعراض عن ذكر المبغَض».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ومن هنا يتبيّن انحراف أكثر الناس عن الإيمان؛ لانحرافهم عن صحَّة المعرفة وصحَّة الإرادة.

ولا يَتمُّ الإيمان إلا بتلقِّي المعرفة من مشكاة النُّبُوَّة، وتجريد الإرادة عن شوائب الهوىٰ وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبسًا من مشكاة الوحي وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصحُّ الناس علمًا وعملًا، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله، ومن خلفاء رسوله ﷺ في أمَّتِهِ».

بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته «الأصول الثلاثة» بالعلم؛ ليؤسس بناء الدين كله علىٰ أساس صحيح، فيقيم المسلم أركان الإيمان والإسلام علىٰ بنيان قوي أساسه العلم، لا الجهل.

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٢٢).

(٢) الفوائد (ص٢١٠).

وإذا كان الأساس صحيحًا قويًّا متينًا ارتفع البنيان واعتلىٰ، وأدرك صاحبه كل خير.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أراد علوَّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علوَّ البنيان علىٰ قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتىٰ كان الأساس وثيقًا حمَلَ البنيان واعتُلِي عليه وإذا تهدَّم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدَّم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همَّتُهُ تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفعُ في البناء علىٰ غير أساس؛ فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قويَّة؛ حملت البدن ودفعت عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفةً؛ ضعف حَمْلُها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك علىٰ قوَّة أساس الإيمان، فإذا تشَعَّثَ شيء من أعالي البناء

(١) الفوائد (ص٣٥٠ - ٣٥٣).

وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

وهذا الأساس أمران:

أحدهما: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله ﷺ دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسَّس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء. فأحكم الأساس واحفظ القوة، ودُمْ علىٰ الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلْطُ، والقصدَ القصدَ، وقد بلغت المراد، وإلَّا فما دامت القوة ضعيفة، والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدومًا :

فاقْرَ السَّلام علىٰ الحياة فإنها قد آذنتك بسُرعة التَّوْديع

فإذا كمل البناء فبيِّضه بحسن الخلق والإحسان إلىٰ الناس، ثم حُطْهُ بسورٍ من الحذر لا يقتحمه عدوٌّ ولا تبدو منه العورة، ثم أرْخ السُّتور علىٰ أبوابه، ثم اقفل الباب الأعظم بالسكوت عمَّا تخشىٰ عاقبته، ثم ركب له مفتاحًا من ذكر الله به تفتحه وتُغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقتَهُ به؛ فتكون حينئذ قد بنيت حصنًا تحصَّنت فيه من أعدائك، إذا طاف به العدوُّ، لم يجد منه مدخلًا، فييأس منك.

ثم تعاهد بناءَ الحصن كلَّ وقت، فإنَّ العدو إذا لم يطمع في الدُّخول من الباب؛ نَقَبَ عليك النُّقوب من بعيد بمعاول الذُّنوب.

فإن أهملت أمرَهُ وصل إليك النَّقْبُ، فإذا العدوُّ معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه علىٰ ثلاث خلال:

إمَّا أن يغلبك علىٰ الحصن ويستولي عليه.

وإمَّا أن يساكنك فيه.

وإمَّا أن يَشْغَلك بمقابلته عن تمام مصلحتك وتعودَ إلىٰ سَدِّ النَّقْب ولَمِّ شعث الحصن.

وإذا دخل نقبه إليك نالك منه ثلاث آفات:

إفساد الحصن.

والإغارة علىٰ حواصله وذخائره.

ودِلالة السُّرَّاق من بني جنسه علىٰ عورته؛ فلا تزال تبتلىٰ منه بغارةٍ بعد غارةٍ، حتىٰ يُضعفوا قُواك ويوهِنوا عزمك؛ فتتخلَّىٰ عن الحصن، وتُخَلِّي بينهم وبينه.

وهذه حال أكثر النفوس مع هذا العدوِّ، ولهذا تراهم: يُسْخِطون رَبَّهم برضا أنفسهم، بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ويُضَيِّعون كسبَ الدِّينِ بكسب الأموال، ويُهلكون أنفسهم بما لا يبقىٰ لهم، ويحرصون علىٰ الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون في الآخرة وقد هجمت عليهم، ويخالفون ربَّهم باتِّباع أهوائهم، ويتكلون علىٰ الحياة ولا يذكرون الموت، ويذكرون شهواتهم وحظوظهم، وينسون ما عهد الله إليهم، ويهتمُّون بما

ضمنه الله لهم، ولا يهتمُّون بما أمرهم به، ويفرحون بالدُّنيا ويحزنون علىٰ فوات حظِّهم منها، ولا يحزنون علىٰ فوات الجنة وما فيها، ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدِّرهم والدينار، ويفسدون حقَّهم بباطلهم، وهداهم بضلالهم، ومعروفهم بمنكرهم، ويلبسوا إيمانهم بظنونهم، ويخلطون حلالهم بحرامهم، ويترددون في حيرة آرائهم وأفكارهم، ويتركون هدىٰ الله الذي أهداه إليهم.

ومن العجب أنَّ هذا العدوَّ يستعمل صاحب الحصن في هدم حصنه بيديه**!!**».

بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة «الأصول الثلاثة» بالكلام عن العلم، والحث علىٰ طلبه؛ لأن العلم وسيلة إلىٰ كل فضيلة، كما قال ربيعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فمن أعظم ما يكون من دلائل الإيمان وحقائقه طلب العلم؛ إذ كيف يقوم المسلم بأداء فرائض الإسلام وأركانه وواجباته، واجتناب نواهيه وهو لا يعرف دين الإسلام، ولا يتطلب معرفة ما يجب عليه فعله وتركه.

قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: «**ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا**». قال الليث: كانا رجلين من المنافقين[1].

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الظن (ص١٠٥٩، رقم ٦٠٦٧).

@@بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته النافعة «الأصول الثلاثة وأدلتها» بالأمر بطلب العلم، فسلك بذلك منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله، وهداية الخلق، وإقامة الحجة عليهم، والإعذار إلىٰ الله؛ فإن العلم النافع هو الموجب لتصحيح العقائد، والهداية إلىٰ الحق، وهذا ما بدأ به خليل الرحمن في محاجة أبيه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٣].

وبالعلم حاجَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عُبّاد النجوم والكواكب والشمس والقمر، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٥، ٧٦] إلىٰ قوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ إلىٰ أن قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٩-٨٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «والأُمَّةُ: هو مُعلِّم الخير، الذي يُؤتم به، كما أنه القدوة الذي يُقتدىٰ به».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فالأمة: هو القدوة المعلم للخير. والقانت: المطيع لله الملازم لطاعته. والحنيف: المقبل علىٰ الله، المعرض عما سواه. ومن فسره بالمائل، فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وانما فسره بلازم المعنىٰ؛ فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل علىٰ شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما علىٰ الأخرىٰ، ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، فـ﴿حَنِيفًا ۚ﴾ هو حال مقررة لمضمون قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ولهذا فسرت «مخلصًا»، فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقىٰ في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرِد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإفراد أن لا ينقسم مطلوبك، الأول: توحيد الطلب، والثاني: توحيد المطلوب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في صفة علماء الحق**[(٣)]: «بهم قام الكتاب، وبه قاموا»، أي: أنهم قاموا بالقرآن والسنة المبينة له، فدعوتهم أساسها

(١) العبودية (ص٩٨).

(٢) بدائع التفسير (٣/ ٦٢).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١).

وقوامها الوحي المعصوم، فسلاحهم وعُدّتهم في نصر الحق الكتاب والسنة.

لذلك قال الخطيب البغدادي في صفة علماء الحق[١]: «الكتاب عُدَّتُهُمْ، والسُّنَّة حُجَّتهم، والرسول فئتهم».

وبيّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن علماء الحق هم الذين قاموا بشروط إشهاد الله لهم، وهي العلم والعدل، فقال[٢]: «شهداء الله في أرضه، الذين استشهدهم علىٰ توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وعدَّلَهُمْ رسوله ﷺ بقوله: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله**»، وهؤلاء شهداء الله علىٰ الناس يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فإنهم قاموا بشروط الشَّهادة، وهي العلم والعدل، فإنَّ الشاهد لا يكون مقبولًا حتىٰ يكون عالمًا بما يشهد له، عدلًا في نفسه، ولم يكن الله سبحانه ليجمع شهادة هؤلاء - الذين هم ورثة رسوله ﷺ، وأنصار دينه، ولهم لسان الصِّدْقِ في الأمة - علىٰ باطل وزور».

وتأمل قول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف علماء الأمة «لهم لسان صدق»؛ أي: أن الله كتب لهم القبول في الأمة، وهذه صفة واضحة لعلماء الأمة بعد

(١) شرف أصحاب الحديث (ص ٨، ٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٢١، ١٤٢٢).

النبي ﷺ؛ ابتداءً بأبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، ومعاذ، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وسعيد بن المسيّب، والأوزاعي، ومالك، والزهري، والشافعي، وأحمد، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وهكذا في سائر الطبقات، إلىٰ أئمة عصرنا: ابن باز، وابن عثيمين - رحمهما الله -.

وعلماء الحق نعتهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «أجمع المسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم» هم الذين أقاموا الإسلام، وأسلموا الوجه لله، وحققوا التوحيد، هؤلاء علماء الحق أهل السنة والجماعة لا يُذكرون إلا بالجميل، وهؤلاء شهادتهم مقبولة؛ لأنهم عدول، أما عوام المبتدعين وعلماؤهم من الرافضة والمعتزلة والأشاعرة والخوارج والقبوريين؛ فشهادتهم غير مقبولة في أهل السنة، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

قال علامة المغرب تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «كل أمة استولىٰ عليها الجهل بالله تعالىٰ، وفشت فيها عبادة الأوثان واتباع الهوىٰ، وعمّها ظلام الكفر؛ تبغض دعاة الحق في كل زمان، وتقابلهم بالتمرد والعناد والتعجب، فالمشركون في هذا الزمان كالمشركين في الأزمنة الأولىٰ، وجوابهم لدعاة الحق

(١) سبيل الرشاد في هدي خير العباد (١/ ٣٩٠، ٣٩١).

كجواب أولئك لرسلهم، **والعلماء ورثة الأنبياء، والوارث يلاقي من أهل الشرك مثل ما لاقاه الموروث**، ففي هذا الزمان إذا قلنا لعبّاد القبور: دعوا عبادة القبور واتخاذها أوثانًا، واعبدوا الله وحده. قالوا: يا عجبًا! منذ خلقنا الله لم نزل نرىٰ العلماء الكبار الذين لا تساوي تراب نعالهم، وهم كانوا يروننا نذبح للأولياء، وننذر لهم، ونتمسح بقبورهم، ونستغيث بهم، فما نهونا عن ذلك، ولا قالوا: إنه شرك ولا كفر. وآباؤنا وجدوا آباءهم كذلك، وعلماء زمانهم كذلك، فمن أين أتيت بهذا الدين الجديد؟!

فإذا تلوت عليهم كتاب الله، وذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ؛ قالوا: إن أولئك العلماء يعرفون القرآن والحديث أحسن منك، وعلماء زماننا كذلك، فهل انحصر العلم فيك وحدك؟ فهل تريد أن تدخلنا في المذهب الوهابي، وتنقلنا من مذهب أهل السنة؟ لا نسمع ولا نطيع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في صفة علماء الحق**[1]: «العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدىٰ بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم؛ إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمَّته، والمحيون لما مات من سنَّته، بهم قام

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٥٨، ٥٩).

الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا».

فأظهر وأبرز علامات علماء الحق - كما ذكر شيخ الإسلام -:

١- أنهم ورثوا علم الأنبياء.

٢- حصل الاهتداء بهم في علومهم، كما حصل الاهتداء بالنجوم التي في السماء لأهل الأرض.

٣- أجمع المسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم، فلهم قبول؛ لأن الأمة عهدتهم يفتون بالكتاب والسنة.

٤- التجديد لهذا الدِّين، فهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ «المحيون لما مات من سنَّته»، فيحيون ما اندرس من السنة، ويزيدون الناس تثبيتًا لما هم ملازمون له من السنة.

٥- الائتمام بالكتاب والسنة، والعمل بهما «بهم نطق الكتاب وبه نطقوا».

ومن صفة علماء الحق أنهم ربانيون كما قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا قيل لك: من ربُّك؟ فقل: ربِّي الله الذي ربَّاني، وربَّىٰ جميع العالمين بنعمته، وهو معبودي، ليس لي معبود سواه».

فالعلماء ربانيون يُربّون الناس بما علّمهم الله من علوم الكتاب والسنة، قال تعالىٰ:

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٨).

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والربانيون هم أهل الله الذين أقاموا الكتاب الذي أنزله الله، خصوصًا توحيد الله الذي هو حقيقة دعوة المرسلين جميعًا، وقاموا ببيان الحق في ذلك وفي كل أمور الشريعة، وقاموا بالرد علىٰ الأئمة المضلين الذي لبسوا الحق بالباطل، وسمّوا الاستغاثة بالقبور تبركًا وتوقيرًا للأولياء والصالحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يجب علىٰ المسلمين بعد موالاة الله ورسوله ﷺ موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصًا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدىٰ بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم؛ إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فإن علماءهم خيارهم؛ فإنهم خلفاء الرسول في أمَّته، والمحيون لما مات من سنَّتِهِ، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا».

والإمام محمد بن عبد الوهاب نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيّن الحد الفاصل بين علماء الحق وأئمة الضلال، فقال[2]: «الأصل الرابع: بيانُ العلمِ والعلماءِ، والفقهِ والفقهاءِ، وبيانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وليسَ منهم. وقد بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ هذا الأصْلَ فِي

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٥٧ - ٥٩).

(٢) الأصول الستة (ص١٦٣)، بشرح شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أَوَّلِ سورةِ البقرةِ، من قولِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، إِلَىٰ قولِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: ٤٧].

ويزيدُهُ وضوحًا ما صرَّحَتْ به السُّنَّةُ في هذا الكلامِ الكثيرِ البيِّنِ الواضح للعامِّيِّ البَليدِ، ثُمَّ صارَ هذا أعزب الأشياءِ، وصارَ العلمُ والفقهُ هو البِدعُ والضَّلالاتُ، وخِيَارُ ما عندَهُمْ: لَبْسُ الْحَقِّ بالبَاطِلِ. وصارَ العلمُ الذي فرضَهُ اللهُ تَعَالَىٰ علىٰ الْخَلْقِ وَمَدَحَهُ؛ لا يتفوهُ به إلّا زنديقٌ أو مجنونٌ، وصارَ مَنْ أنْكَرَ ذلكَ وعادَاهُ وصَنَّفَ في التَّحْذِيرِ منْهُ، والنَّهْيِ عنْهُ؛ هو الفقيهُ العَالِمُ».

وعناية الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نصح الأمة في التمييز بين الأئمة المهتدين والأئمة الضالين ظاهرة في كتبه بصفة واضحة، ذلك أن كثيرًا من الناس إنما صدّهم عن طلب الحق شغب وتحذير أهل البدع والأئمة المضلين عن أهل السنة، من ذلك ما نبّه عليه في كتاب «التوحيد»، فإنه في [باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان][1]، أشاد بالأئمة المهتدين، وحذّر من الأئمة المضلين؛ حيث قال[2]: «رواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «**وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلىٰ**

---

(١) الباب الثاني والعشرون، كتاب التوحيد (ص٤٢).

(٢) كتاب التوحيد (ص٤٥).

يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتىٰ تعبُدَ فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة، لا يضرُّهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

قال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: «**إنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين**»، أي الأمراء والعلماء والعبَّاد؛ الذين يَقتدي بهم الناس، ويحكمون فيهم بغير علم؛ فيضلون ويُضلون، فهم ضالون عن الحق، مُضلُّون لغيرهم، كما قال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

ولشدَّة الضرورة إلىٰ اتِّباع أئمة الهدىٰ ومعرفتهم، والتفريق بينهم وبين أئمة الضّلال المغضوب عليهم والضالين؛ أمرنا الله أن نسأله الهداية إلىٰ سلوك صراط أئمة الهدىٰ، وهم المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ الذين يعلمون الحقَّ ولا يعملون به، ﴿وَلَا

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٧٥٩، ٧٦٠).

ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين يعملون علىٰ غير شرع من الله، بل بما تهوىٰ أنفسهم.

فصراط المنعم عليهم هو الجامع بين العلم بالهدىٰ والعمل به وقد وصف النبي ﷺ أئمة الهدىٰ – لمَّا ذكر التفرُّق من بعده – بأنهم الذين كانوا علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كما رواه أبو داود وغيره. فمن كان علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه؛ فهو من الأئمة المهديين، ومن خالفهم فهو من الضالين».

ومع تحذير الإمام محمد بن عبد الوهاب من أئمة الضلال الذين زعموا أن نصوص القرآن والسنة لا يفهمها إلا أقل القليل، لا بد أيضًا من التنبيه إلىٰ طبقات الناس في العلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فهناك خواص العلماء، ودونهم العلماء، ودونهم طلبة العلم، ودونهم المتعالمون، ودونهم القُصّاص والوُعَّاظ، ودونهم الجهال.

والله وجهنا إلىٰ ضرورة تنزيل العلماء منزلتهم في رد الأمور إليهم، فقال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فالعلماء مرجع الناس فيما جهلوه، ومرجع الأمة في مسائلها العظيمة التي تتعلق بأمنهم ومصالحهم العامة، كمسائل الجهاد ونحوه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي يُفتي في الجهاد خواص العلماء».

وردّ الأمور إلىٰ العلماء الراسخين من أسباب إدراك الصواب، والسلامة من تبعة وآثام التعالم والشرور المترتبة علىٰ إركاس الأمة في مضار ومفاسد أكثر مما هي فيه.

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا يزال الناس بخير ما كان العلم في أكابرهم، فإذا صار العلم في أصاغرهم؛ فذلك حين هلكوا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد قيل: إنما يفسد الناس نصف متكلم، ونصف فقيه، ونصف نحوي، ونصف طبيب، فهذا يُفسد الأديان، وهذا يُفسد البلدان، وهذا يفسد اللسان، وهذا يُفسد الأبدان».

وحذّر الصحابة من تصدر القُصّاص؛ فقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنتم في زمان كثير قراؤه، قليل خطباؤه، وسيأتي زمان قليل قراؤه كثير خطباؤه».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «العلماء حقًّا هم الربانيون الذين يربون الناس علىٰ شريعة ربهم حتىٰ يتميّز هؤلاء الربانيون عمن تشبّه بهم وليس منهم، يتشبّه بهم في المظهر والمنظر والمقال والفعال، **لكنه ليس منهم في النصيحة للخلق وإرادة الحق**، فخيار ما عنده أن يلبس الحق بالباطل ويصوغه بعبارات مزخرفة، يحسبه الظمآن ماءً حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل

---

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٦٢٩).

(٢) شرح الأصول الستة (ص١٦٧، ١٦٨).

هو البدع والضلالات الذي يظنه بعض الناس هو العلم والفقه، وأن ما سواه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون.

هذا معنىٰ كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ - الإمام محمد بن عبد الوهاب -، وكأنه يشير إلىٰ أئمة أهل البدع المضلين الذين يلمزون أهل السنة بما هم بريئون منه؛ ليصدُّوا الناس عن الأخذ منهم، وهذا إرث الذين طغوا من قبلهم وكذبوا الرسل، كما قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. قال الله تعالىٰ: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]».

وإذا أخبر الله عن الضالين، وعن سبل الكافرين والمبتدعة الصادّة عن الصراط المستقيم؛ كان في ذلك أمر بلزوم الصراط وسلوكه والثبات عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنما ينجو العبد منها - البدع - بملازمة أمر الله تعالىٰ الذي بعث به رسوله ﷺ في كل وقت، كما قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان من مضىٰ من سلفنا يقولون: «الاعتصام بالسنة نجاة»، وذلك أن السُّنَّة كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»».

وعند الكلام علىٰ الأئمة المضلين والمبتدعين لا بد من معرفة تفاوت وتغلظ أنواع البدع والمبتدعة، فشرهم من ضرب من كل بدعة من البدع المغلظة بسهم.

---

(١) العبودية (ص٥٤).

قال وكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الرَّافضة شرٌّ من القدرية، والحرورية شرٌّ منهما، والجهمية شرُّ هذه الأصناف، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، ويقولون: لم يُكلِّم!! ويقولون: الإيمان بالقلب».

فالجهمية شر المبتدعة، وهم ليسوا من الاثنتين وسبعين فرقة الضالة، بل هم مارقون من الدين.

قال حفص بن حميد لعبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كم افترقت هذه الأمة؟ فقال: الأصل أربع فرق: هم الشيعة، والحرورية، والقدرية، والمرجئة؛ فافترقت الشيعة علىٰ اثنتين وعشرين فرقة، وافترقت الحرورية علىٰ إحدىٰ وعشرين فرقة، وافترقت المرجئة علىٰ ثلاث عشرة فرقة. قال حفص بن حميد لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن! لم أسمعك تذكر الجهمية؟ قال: إنما سألتني عن فرق المسلمين[٢].

وعند الحديث عن البدع وتغلظها، وتفاوت فرق المبتدعة في الضلال، لا بد أيضًا من معرفة من كان ضلاله منهم من جهة سوء الفهم أو سوء القصد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «البدع نوعان: نوع كان قصد أهلها متابعة النصّ والرَّسول، لكن غلطوا في فهم المنصوص، وكذَّبوا بما يخلف

---

(١) خلق أفعال العباد (٢/ ٤٥ - رقم ٨٣).

(٢) الإبانة (١/ ٣٧٩ - رقم ٢٧٨).

(٣) النبوات (١/ ٤٢٣، ٤٢٤).

ظنَّهم من الحديث ومعاني الآيات؛ كالخوارج، وكذلك الشيعة المسلمين، بخلاف من كان منافقًا زنديقًا يُظهر التشيُّع وهو في الباطن لا يعتقد الإسلام.

وكذلك المرجئة قصدوا اتباع الأمر والنهي، وتصديق الوعيد مع الوعد.

ولهذا قال عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وغيرهما: إن الثنتين والسبعين فرقة أصولها أربعة: الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية. وأمَّا الجهميَّة النافية للصفات؛ فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول ﷺ؛ فإنه ليس في الكتاب والسنَّة نصٌّ واحد يدلُّ علىٰ قولهم، بل نصوص الكتاب والسنَّة متظاهرة بخلاف قولهم، وإنَّما يدَّعون التمسُّك بالرأي المعقول.

وقد بُسط القول علىٰ بيان فساد حججهم العقليَّة، وما يدَّعيه بعضهم من السمعيَّات، وبُيِّنَ أنَّ المعقول الصريح موافق للمنقول الصحيح في بطلان قولهم، لا مخالف له».

وبعض البدع قد تكون أغلظ في نفسها، ويكون ما دونها أشد خطرًا منها إذا كان مبتدعته داعين لبدعتهم، وكانوا يقاتلون المسلمين علىٰ بدعتهم بالسيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الروافض شر من الخوارج في الاعتقاد، ولكن الخوارج أجرأ علىٰ السيف والقتال منهم، فلإظهار القول

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٨٢).

ومقاتلة المسلمين عليه جاء فيهم ما لا يجيء فيمن هم من جنس المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم».

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن فرق المبتدعة؛ أكفار هم أم فاسقون؟ فأجاب بجواب مفصّل يُناسب ما تستحقه كل فرقة من الوعيد، فقال[1]: «إن المبتدعة جنس تحته أنواع كثيرة، وليس حكم جميع المبتدعة سواءً، ولا كل البدع سواء، ولا من ابتدع بدعة تخالف القرآن والحديث مخالفة بيّنة ظاهرة كمن ابتدع بدعة خفية لا يُعلم خطؤه فيها إلا بعد نظرٍ طويلٍ، ولا من كثر اتباعه السُّنَّة إذا غلط في مواضع كثيرة كمن كثر مخالفته للسنة وقلَّ متابعته لها، ولا من كان مقصوده اتّباع الرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا وهو مجتهد في ذلك، لكنه يخفىٰ عليه بعض السنة أحيانًا، كمن هو معرض عن الكتاب والسنة طالب الهدىٰ في طرق الملحدين في آيات الله وأسمائه، المتبعين لطواغيتهم من أئمة الزندقة والإلحاد وشيوخ الضلال والأهواء، فقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

فمن كان من أهل البدع والتحريف للكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

---

(١) جواب سؤال أهل الرحبة (ص١٢٤ - ١٢٧).

ومن كان مُفرّطًا في طلب ما يجب عليه من العلم والسُّنَّة متعصبًا لطائفة دون طائفة؛ لهواه ورياسته؛ قد ترك ما يجب عليه من طلب العلم النبوي وحسن القصد، ولكنه مع ذلك مؤمن بما جاء به الرسول، إذا تبيَّن له ما جاء به الرسول لم يُكذّبه، ولا يرضىٰ أن يكون مشاقًّا للرسول ﷺ متبعًا لغير سبيل المؤمنين، لكنّه يتبع هواه ويتكلم بغير علمٍ؛ فهذا قد يكون من أهل الذنوب والمعاصي وفساقهم، الذين حكمهم حكم أمثالهم من المسلمين أهل الفتن والفرقة والأهواء والذنوب.

ومن كان قصده متابعة الرسول باطنًا وظاهرًا يُقدّم رضا الله علىٰ هواه، مجتهدًا في طلب العلم الذي بعث الله به رسوله باطنًا وظاهرًا لا يُقدّم طاعة أحدٍ علىٰ طاعة الرسول ﷺ، ولا يوافق أحدًا علىٰ تكذيب ما قاله الرسول ﷺ، ولو كان من أهل قرابته أو مدينته أو مذهبه أو فرقته، لكنه قد خفي عليه بعض السُّنَّة؛ إما لعدم سماعه للنصوص النبوية، أو لعدم فهمه لما أراده الرسول ﷺ، أو لسماع أحاديث ظنّها صدقًا وهي كذب، أو لشبهات ظنّها حقًّا وهي باطل، كما قد وقع في بعض ذلك كثير من العلماء والعباد، وأكثر المتأخرين من العلماء والعباد لم يخلصوا من أكثر ذلك، فهؤلاء ليسوا كفارًا ولا فساقًا، بل مخطئون خطأً يغفره الله لهم، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء، وثبت في الصحيح من غير وجهٍ أن الله تعالىٰ غفر

للذي قال: «إذا أنا مت فأحرقوني واسحقوني وذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين». فهذا مؤمن ظن أن الله لا يقدر علىٰ إعادته، وأنه لا يعيده إذا فعل ذلك، وقد غفر الله له هذا الخطأ بخشيته منه وإيمانه.

وقد أنكر كثيرٌ من السلف أشياء خالفوا بها السنة، ولم يكفّرهم أحدٌ من أئمة الدين، فقد كان غير واحدٍ يُكذّب بأحاديث ثابتة عن النبي ﷺ ويُغلّط رواتها؛ لما ظنه معارضًا لها من ظاهر القرآن أو أخبر خبرًا، كما أنكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عدة أخبارٍ، وأبو بكر وعمر وعلي وزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم بعض الأخبار، وأنكر غير واحدٍ بعض الآيات التي لم يُعلم أنها من القرآن، وهؤلاء من سادات المسلمين، وخيار أهل الجنة، وأفضل هذه الأمة، وقد اختلفوا اختلافًا آل بهم إلىٰ الاقتتال بالسيف والتلاعن باللسان، ومع هذا فالطائفتان من أهل العلم والإيمان مبرّءون عند أهل السنة من الكفر والفسوق.

وقد صحّ عن النبي ﷺ الحديث في الخوارج من وجوهٍ كثيرةٍ، قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: صحّ فيهم الحديث من عشرة أوجهٍ. وقد رواها مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ - صاحب أحمد - في صحيحه، وروىٰ البخاري قطعة منها، فثبت بالنص وإجماع الصحابة أن الخوارج مارقون ومبتدعون مستحقون القتال، قد قال فيهم النبي ﷺ: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، فيقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم،**

يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»، ومع هذا فلم يكفرهم الصحابة، بل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي قاتلهم حكم فيهم بحكمه في المسلمين الجاهلين الظالمين، لا بحكمه في الكافرين المشركين وأهل الكتاب، وكذلك الصحابة، كسعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ذكروا أنهم من المسلمين، هذا مع أن الخوارج كفّروا عثمان وعليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ومن والاهما، وكانوا يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، وقد قتلوا من المسلمين ما شاء الله».

وبعض الفرق - كالنصيرية - تنتسب للإسلام، وليسوا بمسلمين، لا يؤمنون بالقرآن، ولا يقيمون أركان الإسلام.

قال العلامة أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٢٠هـ)**[١]: «غلاة أهل البدع، لا يعدّون من الأمة، كالحلولية والنصيرية، وأشباههم من الغلاة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «النصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارىٰ، بل وأكفر من كثير من المشركين».

---

(١) الحوادث والبدع (ص١٠١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٤٩).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ضرر النصيرية والقرامطة الباطنية علىٰ أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم».

وقال فيهم أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «اتفق علماء المسلمين علىٰ أن هؤلاء - النصيرية - لا تجوز مناكحتهم، ولا تُباح ذبائحهم».

وقد أفصح النصيريون أنفسهم عن حقيقة عقيدتهم، قال إسرافيل أربيل ممثل الطائفة النصيرية عن طائفتهم العلوية[٣]: «نحن لسنا مسلمين، نحن لا نؤمن بالقرآن، ولا نقيم أركان الإسلام».

وشيخا الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب - رحمهما الله - ذكرا صفة علماء أهل السنة أهل الحق؛ ليعرفهم عامة المسلمين؛ فينصروا الحق الذي يدعون إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «أما المؤمنون بالله ورسوله عوامُّهم وخواصُّهم الذين هم أهل الكتاب، كما قال النبي ﷺ: «**إن لله أهلين من الناس**»، قيل: من هم يا رسول الله؟! قال: «**أهل القرآن، هم أهل الله وخاصَّتُهُ**»».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٤٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٥٤).

(٣) في مقابلة مع قناة B. B. C، العربية.

(٤) العبودية (ص٤٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وقد صنّف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءًا سماه «تنزيه أئمة الشريعة عن الألقاب الشنيعة» ذكر فيه كلام السلف وغيرهم في معاني هذا الباب، وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يُلقِّب أهل السنة بلقب افتراه - يزعم أنه صحيح علىٰ رأيه الفاسد - كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي ﷺ بألقاب افتروها.

فالروافض تسميهم نواصب، والقدرية يُسمونهم مجبرة، والمرجئة تُسميهم شكّاكًا، والجهمية يسمونهم مشبهة، وأهل الكلام يسمونهم حشوية، ونوابت، وغثاءً، وغثرًا، إلىٰ أمثال ذلك، كما كانت قريش تسمي النبي ﷺ تارة مجنونًا، وتارة شاعرًا، وتارة كاهنًا.

قالوا: فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة، فإن السنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه اعتقادًا واقتصادًا وقولًا وعملًا، فكما أن المنحرفين عنه يسمونهم بأسماء مذمومة مكذوبة، وإن اعتقدوا صدقها بناءً علىٰ عقيدتهم الفاسدة، فكذلك التابعون له علىٰ بصيرة الذين هم أولىٰ الناس به في المحيا والممات باطنًا وظاهرًا».

وأئمة الفرق المبتدعة اقتسموا طريقة ومنهج أهل الملل الذين زعموا أنهم أهل الحق قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١١).

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وسلك المبتدعة سبيل الكافرين في الطعن في النبيين - عليهم السلام -، فقالوا عن ورثة الأنبياء: «حشوية» و«مجسمة» و«وهابية» و«جامية»، كما قال سلفهم الكفار في النبي ﷺ: «ساحر» و«كاهن» و«مجنون».

وأئمة الهدىٰ يُعرفون بمحتوىٰ دعوتهم وحقيقتها وعلومها، فإن كانت من ميراث النبوة بفهم سلف الأمة؛ فهؤلاء أئمة هدًىٰ، وإن كانت دعوتهم من فلسفة المتكلمين وتأويلات الجهم بن صفوان وبشر المريسي، وما تسلل من ذلك إلىٰ ابن فورك وابن كلاب والباقلاني، وما بقي من ذلك مع أبي الحسن الأشعري؛ فهؤلاء أئمة الفرق المبتدعة.

وعلماء أهل السنة علومهم ومحتوىٰ دعوتهم دال علىٰ أنهم أهل السنة، فعلومهم القرآن والسنة بفهم السلف، فتجد مقالاتهم وفتاويهم وكتبهم مادتها ما دلّ عليه الكتاب والسنة بفهم السلف، يذكرون الدليل من القرآن والسنة ثم يُتبعونه بآثار الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان حتىٰ لا تنحرف أفهامهم في دلالة القرآن والسنة، فمعاني الكتاب والسنة تُتلقىٰ من تلاميذ النبي ﷺ الصحابة الذين أخذوا عنه معانيهما، قال أبو عبد الرَّحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حدثنا الذين كانوا يُقرؤوننا القرآن - عثمان بن عفان

---

(١) معرفة القراء الكبار (١/ ٥٤).

وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات، حتىٰ يعملوا ما فيهن ويعملوا بهن، فتعلمنا العلم والعمل معًا».

فمعاني القرآن تلقاها التابعون من الصحابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «التفسير الثابت عن الصحابة والتابعين؛ فذلك إنما قبلوه؛ لأنَّهم قد علموا أنَّ الصحابة بلَّغوا عن النبي ﷺ لفظ القرآن ومعانيه جميعًا».

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «عرضتُ المصحف علىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات، من فاتحته إلىٰ خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها».

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا».

ولهذا لما قيل لشريك بن عبد الله القاضي: إن عندنا أقوامًا ينكرون أن الله ينزل إلىٰ السماء الدنيا، وأنه يُرىٰ في الآخرة، فحدّث بنحو من عشرة أحاديث، وقال: نحن أخذنا ديننا عن التابعين، عن الصحابة؛ فهم عمّن أخذوا؟[4].

وهذا ما اعتصمت به الأمة في ردّها للبدع من حين ظهورها، فلما ظهر

---

(١) السبعينية (ص٣٣٠).

(٢) جامع البيان (١/ ٨٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧١).

(٤) «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد (١/ ٢٧٣ - رقم ٥٠٩)، و«الصفات» للدارقطني (ص١٢٠ - رقم ٦٧).

الخوارج وكفروا علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ناظرهم ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، وقال للخوارج مقررًا المنهج في معرفة الحق ولزومه: «أتيتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وأصحاب محمد ﷺ، وهم الذين نزل عليهم القرآن، وهم أعلم بتأويله».

وهكذا دحر علماء أهل السنة بدعة خلق القرآن كما هو معلوم في مناظرة الشيخ الأذني الشامي لابن أبي دؤاد في حضرة الخليفة الواثق، حيث قال الشيخ الأذني الشامي: «هذا الذي تدعو إليه، هل علمه أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أو جهلوه؟ وهل دعوا الناس إليه»؟ فانقطع ابن أبي دؤاد وأبطل الله بدعته، ونصر الله السنة وأهلها.

فالشأن في طلب علم السنة بفهم الصحابة والتابعين؛ فهم خير القرون، عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: قال رسول الله ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم**». متفق عليه.

قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إن النبي ﷺ حين سُئل عن الفرقة الناجية قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، بمعنىٰ: من كان علىٰ ما أنا عليه وأصحابي، فلابد من تعرف ما كان عليه رسول الله ﷺ، وليس طريق معرفته إلا النقل، فيجب الرجوع إلىٰ ذلك».

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث (ص٤٢).

وقال **الأوزاعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «عليك بآثار من سلف، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت علىٰ صراط مستقيم».

وقال **أبو العباس المقريزي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وأصل كل بدعة في الدين البعد عن كلام السلف، والانحراف عن اعتقاد الصدر الأول».

وقال **العلامة محمد بن علي الشوكاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «والمذهب الحق الذي لا يتمذهب به إلا أهل التوفيق هو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين».

وقال **الإمام عبد العزيز بن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «الوهابية هي: التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والسير علىٰ هديه، وهدي خلفائه الراشدين، والتابعين لهم بإحسان، وما كان عليه السلف الصالح، وأئمة الدين والهدىٰ، أهل الفقه والفتوىٰ، في باب معرفة الله، وإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، التي نطق بها الكتاب العزيز، وصحت بها الأخبار النبوية، وتلقتها صحابة رسول الله ﷺ بالقبول والتسليم. يثبتونها، ويؤمنون بها، ويمرونها كما جاءت، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل،

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٢٨).

(٢) المواعظ والاعتبار (٤/ ١٩٨).

(٣) نثر الجوهر علىٰ حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، (ص١٣٠).

(٤) البدع وآثارها السيئة (ص١٧- ١٩).

ويتمسكون بما درج عليه التابعون، وتابعوهم من أهل العلم والإيمان والتقوىٰ، وسلف الأمة وأئمتها، ويؤمنون بأن أصل الإيمان وقاعدته هي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهي أصل الإيمان بالله وحده، وهي أفضل شعب الإيمان، ويعلمون بأن هذا الأصل لا بد فيه من العلم والعمل والإقرار بإجماع المسلمين، ومدلوله وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، كائنًا من كان، وأن هذا هو الحكمة التي خُلقت لها الجن والإنس، وأُرسلت لها الرسل، وأُنزلت بها الكتب، وهي تتضمن كمال الذل والحب لله وحده، وتتضمن كمال الطاعة والتعظيم، وأن هذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه».

والعلماء تحققهم بالعلم دال علىٰ مرجعيتهم، وفتاواهم متحققة بالصواب، صادرة عن أدلة الكتاب والسنة، وهي سبب في صيانة عقائد المسلمين وأحكامهم من الضلال والاختلال، وأمنهم واستقرارهم من الفوضىٰ والشرور.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا الفرق بين علماء أهل السنة الراسخين والمبتدعة المتعالمين[1]: «تراه - المبتدع المتعالم - آخذًا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها حتىٰ يصير منها إلىٰ ما ظهر له بادي رأيه، من غير إحاطة بمعانيها، ولا رُسُوخٍ في فهم مقاصدها. وهذا هو المبتدع، وعليه نبَّه الحديث الصحيح

(١) الاعتصام (ص٣٦٢).

أنه ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يبق عالم اتَّخذ الناس رؤساءً جهالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا**».

قال بعض العلماء: تدبّروا هذا الحديث؛ فإنه يدل علىٰ أنه لا يؤتىٰ الناس قط من قبل علمائهم، وإنما يؤتون من قِبَل أنه إذا مات علماؤهم أفتىٰ من ليس بعالم، فيُؤتىٰ الناس من قبله، وقد صُرِّف هذا المعنىٰ تصريفًا، فقيل: ما خان أمين قط، ولكنه ائتمن غير أمين فخان. فقال: ونحن نقول: ما ابتدع عالم قط ولكنه استُفتي من ليس بعالم؛ فضلَّ وأضلَّ.

قال مالك بن أنس: بكىٰ ربيعة يومًا بكاءً شديدًا، فقيل له: أمصيبة نزلت بك؟ فقال: لا! ولكن استُفتي من لا علم عنده.

وفي «البخاري» عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**قبل الساعة سنون خداعات، يصدَّق فيهنَّ الكاذب، ويكذَّب فيهن الصَّادق، ويخوَّن فيهن الأمين، ويؤتمن الخائن، وينطق فيهن الرُّويبضة**». قالوا: هو الرجل التَّافه الحقيرُ ينطق في أمور العامة. كأنه ليس بأهل أن يتكلَّم في أمور العامة، فيتكلم».

ونحن لا ندّعي في علماءنا معرفة كل شيء، لكنهم أئمة محققون في العقيدة، متحققون بعقيدة السلف، قائمون بهداية الناس إلىٰ مجمل ومفصل عقيدة الصحابة والتابعين، وفي الأحكام عالمون بما يحتاجه المسلمون من

جمهور مسائله، ويذاكرون سائر إخوانهم في دقائق مسائل الأحكام، وكذلك يتشاورون مع أقرانهم في نوازل المسلمين تحققًا بواقع النوازل، وردًّا لها إلىٰ دليل الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الإحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة».

وقال[2]: «من اعتقد أن كل حديث صحيح قد بلغ كل واحد من الأئمة أو إمامًا معيّنًا فهو مخطيء خطأً فاحشًا قبيحًا».

وقال شيخ الإسلام أيضًا[3]: «ليس كل ما في الكتب يعلمه العالم، ولا يكاد ذلك يحصل لأحد، بل قد يكون عند الرجل الدواوين الكثيرة وهو لا يحيط علمًا بما فيها».

وقال[4]: «ولا يقولن قائل: فمن لم يعرف الأحاديث كلها لم يكن مجتهدًا، لأنه إنْ اشترط في المجتهد علمه بجميع ما قاله النبي ﷺ وفعله مما يتعلق بالأحكام؛ فليس في الأمة مجتهد، وإنما **غاية العالم أن يعلم جمهور ذلك**

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٧٤).

(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص١٠٢).

(٣) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص١٠٢، ١٠٣).

(٤) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص١٠٣).

ومعظمه بحيث لا يخفىٰ عليه إلا القليل من التفصيل، ثم إنه قد يخالف ذلك القليل من التفصيل الذي لم يبلغه فيكون معذورًا».

وعلماء الضلالة وأحبار السوء وشيوخ المبتدعة علاماتهم واضحة، فالأحاديث المنكرة والضعيفة عمدتهم، وتحريف نصوص القرآن والسنة عُدَّتهم، والاعتداد بأنفسهم عن الاعتصام بالكتاب والسنة بفهم السلف طريقتهم، ووضع النصوص في غير مواضعها وفهمها الفهم الخاطيء منهجهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا صفة علماء الضلالة[1]: «قال تعالىٰ في صفة المغضوب عليهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ووصفهم بأنهم ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، والتحريف قد فُسر بتحريف التنزيل، وبتحريف التأويل.

فأما تحريف التأويل: فكثير جدًّا، وقد ابتُليت به طوائف من هذه الأمة، **وأما تحريف التنزيل**: فقد وقع فيه كثير من الناس، يُحرّفون ألفاظ الرسول ﷺ ويروون الحديث بروايات منكرة، وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك، وربما تطاول بعضهم إلىٰ تحريف التنزيل، وإن لم يمكنه ذلك، كما قرأ بعضهم: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وأما تطاول بعضهم إلىٰ السنة بما

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٦١).

يظن أنه من عند الله فكوضع الوضَّاعين الأحاديث علىٰ رسول الله ﷺ، أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين، وليس بحجة، وهذا الضرب من أنواع أخلاق اليهود، وذمُّها في النصوص كثير لمن تدبّره في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، ثم نظر بنور الإيمان إلىٰ ما وقع في الأمة من الأحداث».

وفي التحذير من علماء المبتدعة صيانة لعقائد الناس من الضلال، وأحكامهم من الانحلال، وفيه أيضًا تكثير لسواد علماء أهل السنة والجماعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الكتاب والسنة أيضًا قد دلَّا علىٰ أنه لا يزال في هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق الذي بُعث به محمد ﷺ إلىٰ قيام الساعة، وأنها لا تجتمع علىٰ ضلالة، ففي النهي عن ذلك - الباطل - تكثير هذه الطائفة المنصورة، وتثبيتها، وزيادة إيمانها».

وفي دلالة الناس علىٰ علماء أهل السنة والجماعة والتحذير من شيوخ البدعة تعاون علىٰ البر والتقوىٰ الذي أمر الله به، قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

ومنهج علماء أهل السنة واضح لا يكاد يخطئه طالب علم، يتحرىٰ أهله لزوم الجماعة في الفتيا والتعليم، شديدو الحذر من مخالفة السلف، يلتزمون ذلك منهجًا ويُورِّثونه طلابهم وعموم المسلمين، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٠٩).

«إياك أن تقول في مسألة ليس لك فيها سلف».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المتّبع في إثبات أحكام الله: كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وسبيل السابقين الأولين، لا يجوز إثبات حكم شرعي بدون هذه الأصول الثلاثة، نصًّا واستنباطًا بحال».

وأحبار السوء والمتعالمون والمبتدعون ملئوا الدنيا في هذه الأيام من الإلحاد ونقض عرىٰ الإسلام بدعوىٰ التجديد وطمعًا في الوصول للسلطة؛ فسخط الله عليهم، وأسخط الناس عليهم.

فقالوا: الحرية قبل الشريعة، والدولة الدينية ليست من الإسلام، وتجوز ولاية القبطي لبلاد المسلمين، وسنلتزم العمل بالعلمانية، وتطبيق الشريعة كلام (يقرف)[٢]، والشريعة غير جاهزة للتطبيق.

ركام من الإلحاد والضلال، وتعطيل الشريعة، وإفساد عقيدة الإسلام، ما هكذا الدعوة إلىٰ تطبيق الشريعة.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إن العلماء ثلاثة أقسام: عالم أمة، وعالم دولة، وعالم ملة؛ فعالم الملة لا يشتري بعهد الله ثمنًا قليلًا، بل

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٤٥٦).

(٢) هكذا قال عبد الفتاح مورو من إخوان تونس، وهو مروق من الدين يجب أن يتوب منه.

(٣) تفسير سورة آل عمران (١/ ٤٤٣).

يُبيّن الملة ولا يبالي.

وعالم الدولة يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ليكون له جاه عند الدولة، وربما ليُعطىٰ مالًا.

وعالم الأمة هو الذي يراعي الأمة، ينظر ماذا تشتهي الأمة «أي عامة الناس»، فيُفتي به أو يقول به، وما لا تشتهيه الأمة يسكت عنه، فإذا رأىٰ الأمة علىٰ شيء غير سائغ في الشرع سكت عنه، وإذا طلبوا منه شيئًا غير سائغ في الشرع، ولكنه يرىٰ أنه يرضيهم؛ وافقهم عليه».

والأنبياء وعلماء الصحابة ومن بعدهم من علماء أهل السنة يتعاهدون إيمانهم وتوحيدهم بالتجديد والزيادة والتثبيت، وأحوالهم بالتزكية.

قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقال نبينا محمد ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه**».

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لصاحبه**: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ في صفات الراسخين من العلماء[1]: «هم دائمًا يتضرعون إلىٰ ربهم في صلاح قلوبهم، واستقامتها،

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص٢٩، ٣٠).

وعدم زيغها، ويعرفون نعمة الله عليهم بعظيم هدايته، وتمام البصيرة التي منَّ الله بها عليهم».

فالقلوب الحيّة الحازمة لا تأمن من الشرك بل تخشاه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تأمل قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ولم يقل: «وامنعني»؛ لأن معنىٰ: اجنبني، أي: اجعلني في جانب عبادة، والأصنام في جانب. وهذا أبلغ من: امنعني؛ لأنه إذا كان في جانب، وهي في جانب؛ كان أبعد».

والنبيون - عليهم السلام - كانوا يتعاهدون توحيد ذراريهم وأهليهم، قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣].



---

(١) شرح الأصول الستة (ص١٤٩).

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر وجوب العلم والعمل به، قال في الواجب الثالث[1]: «الدَّعوة إليه».

الشَّرح:

الدعوة إلىٰ الله هي وظيفة المرسلين - عليهم السلام - وورثتهم من العلماء وطلبة العلم الذين يجب عليهم أن يؤدوا ميراث الأنبياء إلىٰ الناس؛ ليأخذ الناس بشرع الله الذي ارتضاه الله لهم، فيقوموا به ويقيموه؛ فتصلح أحوالهم وأحوال البلاد، ويكونوا بذلك من أهل الجنة، ويعتق الله رقابهم من النار.

قال الإمام المجدِّد العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هناك مسألة مهمة، وهي المسئولية الملقاة علىٰ طالب العلم من جهة البلاغ والتعليم للناس؛ فإن العلماء هم خلفاء الرسل، وهم ورثتهم، ولا تخفىٰ مرتبة الرسل - عليهم السلام -، وأنهم هم القادة، وهم الهداة للأمة، وهم أسباب سعادتها ونجاتها، فالعلماء حلوا محلهم، ونُزِّلوا منزلتهم في البلاغ والتعليم؛ لأنهم خُتموا بمحمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلم يبقَ إلا البيان والتبليغ لشريعة محمد ﷺ، والدعوة إليها وبيانها ونشرها بين الناس، وليس لذلك

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ البازية (٧/ ٢٢٠، ٢٢١).

أهل إلا أهل العلم، هم الذين أَهَّلهم الله لهذا الأمر دعاةً وقادةً بأقوالهم وأفعالهم وسيرتهم الظاهرة والباطنة».

فالعلماء شهداء علىٰ كتاب الله ودعاة إليه، وأئمة في حفظه من التغيير والتبديل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: بسبب أن الله استحفظهم علىٰ كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه.

وهم شهداء عليه، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه علىٰ الناس منه.

فالله تعالىٰ قد حمَّل أهل العلم، ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حُملوا، وأن لا يقتدوا بالجهال، بالإخلاد إلىٰ البطالة والكسل، وأن لا يقتصروا علىٰ مجرد العبادات القاصرة، من أنواع الذكر، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا.

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم؛ فإنهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٢١١)، ط: دار الصميعي، ودار ابن حزم.

مطالبون أن يُعلّموا الناس وينبهوهم علىٰ ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصًا الأمور الأصولية، والتي يكثر وقوعها، وأن لا يخشوا الناس، بل يخشوا ربهم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ فتكتموا الحق، وتظهروا الباطل، لأجل متاع الدنيا القليل.

وهذه الآفات إذا سلم منها، العالم فهو من توفيقه وسعادته، بأن يكون همّه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه ما أودعه من العلم، واستشهده عليه، وأن يكون خائفًا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، وأن لا يؤثر الدنيا علىٰ الدين.

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلدًا للبطالة، غير قائم بما أُمر به، ولا مبالٍ بما استُحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشىٰ في أحكامه، وأخذ المال علىٰ فتاويه، ولم يعلِّم عباد الله إلا بأجرة وجعالة.

فهذا قد مَنَّ الله عليه بمنة عظيمة؛ كَفَرَهَا، ودفع حظًّا جسيمًا، محرومًا منه غيره، فنسألك اللهم علمًا نافعًا، وعملًا متقبلًا، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم».

والنبي ﷺ من حين ما أوحي إليه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، أُمِر بالدعوة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فإنه لما نزل عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ [المدّثر: ١-٤]، شمَّر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتمَّ قيام، ودعا إلىٰ الله ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، ولمَّا نزل عليه ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فصدع بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم؛ فدعا إلىٰ الله الصغير، والكبير، والحرَّ والعبدَ، والذكرَ والأنثىٰ، والأحمر والأسود، والجنَّ والإنس».

وأبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال؛ قام داعيًا لله عَزَّوَجَلَّ، فأسلم علىٰ يديه ستة من العشرة المبشرين بالجنة.

ودعوة النبي ﷺ للأنصار في موسم الحج بمنىٰ كانت سببًا في هدايتهم وإسلام أهل المدينة جميعًا؛ حيث رجع هؤلاء إلىٰ قومهم، ودعوهم إلىٰ الإسلام فأسلموا، فهاجر إليهم النبي ﷺ فآووه ونصروه، وصار للمسلمين دولة قوية الأركان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أقام ﷺ بمكّة ما أقام يدعو القبائل إلىٰ الله تعالىٰ، ويَعْرِضُ نفسه عليهم في كل موسم أن يؤووه حتىٰ يبلِّغ رسالة ربه ولهم الجنة، فلم تستجب له قبيلة، وادَّخر الله ذلك كرامةً للأنصار، فلما أراد

---

(١) زاد المعاد (ص ٣٣٤).

(٢) زاد المعاد (ص ٣٣).

الله تعالىٰ إظهار دينه، وإنجاز وعده، ونصر نبيّه، وإعلاء كلمته، والانتقام من أعدائه؛ ساقه إلىٰ الأنصار لِمَا أراد بهم من الكرامة، فانتهىٰ إلىٰ نفر منهم ستة – وقيل: ثمانية –، وهم يحلِقون رءوسهم عند عقبةِ مِنىٰ في الموسم، فجلس إليهم، ودعاهم إلىٰ الله، وقرأ عليهم القرآن، فاستجابوا لله ورسوله ﷺ، ورجعوا إلىٰ المدينة، فَدَعَوْا قومهم إلىٰ الإسلام حتىٰ فشا فيهم، ولم يبقَ دار من دور الأنصار إلَّا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ».

والنبي ﷺ لما أعطىٰ علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ اللواء يوم خيبر قال له: **«انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، وادعهم إلىٰ الإسلام، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا خيرٌ لك من حمر النعم»**. رواه مسلم.

فالدعوة تحتاج إلىٰ علماء وطلبة علم، أدركوا حظًّا من العلم يؤدونه إلىٰ الناس، والدعوة بلا علم تضر، وثمرتها ضعيفة، وربما تفسد أكثر مما تصلح.

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أراد أن ينصب نفسه في مقام الدعوة فليتعلم أولًا».

وقال سماحة العلامة المجدّد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الواجب علىٰ طالب العلم أن يكون له موقف مع ربه؛ موقف يرضاه مولاه،

---

(١) عيون الرسائل (١/ ٤٧٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ البازية (٧/ ٢٢٠، ٢٢١).

موقف يشتمل علىٰ الإخلاص لله، والصدق في طلب رضاه، والحرص الذي لا حدود له، في معرفة الأدلة الشرعية، والتفتيش عنها حتىٰ يقف علىٰ الدليل، وبذلك تنفسح أمامه الدنيا، ويفتي علىٰ بصيرة، ويدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، ويُعلِّم الناس علىٰ بصيرة، ويأمر بالمعروف علىٰ بصيرة، وينهىٰ عن المنكر علىٰ بصيرة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقد فُسِّرت البصيرة بالعلم.

أما من ليس له بصيرة، فلا يُعد من أهل العلم، ولا ينفع الناس؛ لا في دعوة، ولا في غيرها من جهة أمور الدين؛ أعني: النفع الحقيقي المثمر، وإن كان قد ينفع بعض الناس بنصيحة يعرفها، أو مسألة يحفظها، أو مساعدة مادّية يقدمها.

ولكن النفع الحقيقي من طالب العلم يترتب علىٰ صدقه وإخلاصه، وعلىٰ كثرة علمه، وتمكّن فقهه، وعلىٰ صبره ومصابرته».

والدعوة إلىٰ الله لا بد أن تكون خالصة لوجه الله، وتكون علىٰ بصيرة؛ أي: علم وهدًىٰ وإيمان، وعلىٰ منهج النبي ﷺ، وقد جمع الله هذه الشروط في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ فقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ هذا شرط الإخلاص، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ هذا شرط العلم والإيمان، وقوله: ﴿سَبِيلِىٓ﴾ هذا بيان لمنهاجه في الدعوة، وأنَّ هذا غير مختص به، وأنه لازم

لكل من أراد أن يدعو إلىٰ الله؛ لذلك قال: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وفي ختم الآية بتوحيد الله وتنزيهه عن كل نقص بيان لمحتوىٰ الدعوة، وأنها دعوة توحيد ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فكل من لم يخلص لله في الدعوة، ولم يدعُ بعلم، ولم يدعُ إلىٰ التوحيد، ولم يسلك منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله؛ فهو منحرف ضال عن منهج الأنبياء، وما يفسد أكثر مما يُصلح، لو وقع منه إصلاح؛ فأساس الصلاح وقوامه الذي يقوم عليه هو توحيد الله.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا ريب أن هذه الآية دليل واضح علىٰ وجوب الإخلاص لله في الدعوة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الدعوة إلىٰ الله عبادة يجب أن تكون لله وحده كسائر العبادات، فلهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، وهنا يقول سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: قل يا أيها الرسول للناس: هذه سبيلي ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وهذه سبيلي التي أنا عليها، أسير وأعمل وأوجه، أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، وأدعو إلىٰ عبادته وحده، والإيمان به، والاستقامة علىٰ صراطه المستقيم، والالتزام بذلك، وترك ما يخالف ذلك،

---

(١) مجموع تفسير آيات من القرآن الكريم (ص ١٣١، ١٣٢).

هكذا شأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، يدعون إلىٰ الله، يعني: إلىٰ دينه، وإلىٰ عبادته، وإلىٰ الالتزام بأحكامه، وإلىٰ ترك ما يخالف ذلك».

والدعوة إن لم تكن خالصة لوجه الله وعلىٰ منهج الأنبياء، لم تورث الخير الذي هو ثمرة الدعوة الصادقة الملازمة لهدي النبيين - عليهم السلام -، قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد الآية[1]: «ملاحظة الإخلاص؛ لقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾؛ لا إلىٰ أنفسهم، لأن بعض الناس يدعو إلىٰ نفسه، وبعض الناس يدعو إلىٰ الخير، وعلامة الداعي إلىٰ نفسه أنه لا يريد من الناس أن يخالفوه ولو كان علىٰ خطأ، وهذا لا شك أنه داعٍ إلىٰ نفسه.

ثانيًا: من علامة ذلك أنه يكره أن يقوم غيره بذلك؛ أي: بالدعوة إلىٰ الخير، يريد أن يستبدَّ به من بين سائر الناس، هذا أيضًا داعٍ إلىٰ نفسه ليصرف وجوه الناس إليه، نسأل الله الحماية والعافية».

والدعوة إذا كانت بدعية، فإن الله لا يكتب لها الاستمرار، فإن شأن الباطل الاضمحلال والذهاب؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٠، ١١).

كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

والنبي ﷺ بعث العلماء من صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للدعوة إلىٰ الله؛ فقد بعث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن للدعوة إلىٰ الإسلام، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما نعته النبي ﷺ: «**أعلمهم بالحلال والحرام**».

وبالدعوة إلىٰ الله يكثر الخير في الناس، ويقل الشر، وتصلح البلاد والعباد، ويرحم الله الديار؛ فإن النبي ﷺ لما قالت له أزواجه: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**». متفق عليه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وقد قيل في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أنه يدخل فيها دفعه عن العصاة بأهل الطاعة.

وجاء في الآثار: أن الله يدفع بالرجل الصالح عن أهله وولده وذريته ومن حوله».

فالدعوة إلىٰ الله من أجلِّ الطاعات وأفضل العبادات، وبها يحصل تحقيق الإيمان ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، وبها يحصل تكميل المؤمنين؛ فيُقوّم معوجّهم، ويُهدىٰ ضالهم، ويثبّت صالحهم، وبها ترتفع أسباب سخط الله وعذابه، قال ﷺ:

(١) لطائف المعارف (ص ١٩٤).

«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يعمكم بعذاب من عنده». رواه أحمد.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دينه، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والدعوة إلىٰ أصل الدين، والدعوة إلىٰ التزام شرائعه؛ بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وبذلك يكمِّل العبد نفسه، ويُكمِّل غيره، كما أقسم تعالىٰ بالعصر؛ أن جنس الإنسان لفي خُسر، إلا من اتَّصَف بصفات أربع: الإيمان، والعمل الصَّالح، اللذين بهما تكميل النفس. والتواصي بالحق، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق.، وبالصبر علىٰ ذلك كله، وبهم يُكمِّل غيره؛ وذلك أن نفس الدعوة إلىٰ الله والنصيحة لعباده من أكبر مُقوِّيات الإيمان.

وصاحب الدعوة لا بد أن يسعىٰ بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين علىٰ تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسَّل إلىٰ الأمور من طُرُقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضًا: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما سعىٰ إلىٰ تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر علىٰ ذلك، لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص ٩٠، ٩١).

بنور منه، وروح وقوة إيمان، وقوة التوكل؛ فإن الإيمان وقوة التوكل علىٰ الله يحصل به النصر علىٰ الأعداء من شياطين الإنس، وشياطين الجن، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

وأيضًا: فإنه مُتصدٍّ لنصر الحق، ومن تصدَّىٰ لشيء فلا بدَّ أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه».

والدعوة إلىٰ الله ونصيحة الخلق وهدايتهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الواجبات، قال تعالىٰ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وموالاة المؤمنين ودعوتهم للخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر متلازمان، فالمؤمن يوالي المؤمن ويحب له الخير ويرجو هدايته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «منذ بعث الله محمدًا ﷺ، وهاجر إلىٰ المدينة، صار الناس ثلاثة أصناف: مؤمن، ومنافق، وكافر.

فأما الكافر - وهو المظهر للكفر - فأمره بَيِّن، وإنما الغرض هنا متعلق بصفات المنافقين المذكورة في الكتاب والسنة؛ فإنها هي التي تخاف علىٰ أهل القبلة؛ فوصف الله سبحانه المنافقين بأن بعضهم من بعض، وقال في المؤمنين: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٧١]، وذلك لأن المنافقين تشابهت قلوبهم وأعمالهم،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٧٢، ٧٣).

وهم مع ذلك ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤]؛ فليست قلوبهم متوادة متوالية، إلا ما دام الغرض الذي يؤمُّونه مشتركًا بينهم، ثم يتخلىٰ بعضهم عن بعض، بخلاف المؤمن؛ فإنه يحب المؤمن، وينصره بظهر الغيب، وإن تناءت بهم الديار، وتباعد الزمان.

ثم وصف سبحانه كل واحدة من الطائفتين بأعمالهم في أنفسهم، وفي غيرهم، وكلمات الله جوامع؛ وذلك أنه لما كانت أعمال المرء المتعلقة بدينه قسمين:

أحدهما: أن يعمل ويترك.

والثاني: أن يأمر غيره بالفعل والترك.

ثم فعله: إما أن يختص هو بنفعه أو ينفع به غيره؛ فصارت الأقسام ثلاثة ليس لها رابع:

أحدها: ما يقوم بالعامل ولا يتعلق بغيره، كالصلاة مثلًا.

والثاني: ما يعمله لنفع غيره، كالزكاة.

والثالث: ما يأمر غيره أن يفعله، فيكون الغير هو العامل، وحظه هو الأمر به.

فقال سبحانه في صفة المنافقين: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]، وبإزائه في صفة المؤمنين: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

والمعروف: اسم جامع لكل ما يحبه الله، من الإيمان والعمل الصالح.

والمنكر: اسم جامع لكل ما نهىٰ الله عنه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ليس الدِّين بمجرَّد ترك المحرَّمات الظَّاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبئون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأمَّا الجهاد والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله ﷺ وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه؛ فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلًا عن أن يريدوا فعلها، وفضلًا عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلىٰ الله من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلَّ أن ترىٰ منهم من يحمرُّ وجهه ويمعره لله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالًا عند الله من هؤلاء».



---

(١) عدة الصابرين (ص ١٨٠).

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بدأ رسالته في ذكر المسائل الثلاث: العلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة والعمل به، والدعوة إليه،

قال الإمام في «الرابعة»[(١)]: **«الصبر على الأذى فيه. والدليل قوله تعالى:** ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ **[العصر: ١-٣].**

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: **«لو ما أنزل الله حُجَّةً على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم»».**

الشَّرح:

بعد أن أرشد الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ ضرورة طلب العلم لمعرفة دين الإسلام، والعمل به، والدعوة إليه، أوصىٰ بـ «الصبر علىٰ الأذىٰ فيه»، وهذا من تمام نصحه، ومعرفته بدعوة المرسلين، وما أصابهم من أذىٰ أهل الباطل والمعاندين للحق، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أمر الله الرُّسُل - وهم أئمة الأمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر - بِالصبرِ، كَقَوْلِه لخاتم الرُّسُل ﷺ - بل

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٣، ٤).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

ذَلِك مقرون بتبليغ الرسَالَة؛ فَإِنَّهُ أول مَا أرسل أُنزلت عَلَيْهِ سُورَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، بعد أن أُنزلت عَلَيْهِ سُورَة «اقْرَأ» الَّتِي بهَا نُبيء - فَقَالَ الله تعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١- ٧]؛ فَافْتتحَ آيَات الإرسال إِلَىٰ الْخلق بالأمر بالنذارة، وختمها بالأمر بِالصبرِ، وَنَفس الإنذار أمر بِالْمَعْرُوفِ وَنهي عَن الْمُنكر؛ فعُلم أنه يجب بعد ذَلِك الصَّبْر.

وَقَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وَقَالَ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وَقَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وَقَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾ [هود: ١١٥].

فَلَا بُد من هَذِه الثَّلَاثَة: الْعلم، والرفق، وَالصَّبْر؛ الْعلم قبل الْأَمر وَالنَّهْي، والرفق مَعَه، وَالصَّبْر بعده، وإن كَانَ كل من الثَّلَاثَة لَا بُد أن يكون مستصحبًا فِي هَذِه الأحوال.

وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الأثر عَن بعض السّلف، وَرَوَوْهُ مَرْفُوعًا، ذكره القَاضِي أبو يعلىٰ فِي «الْمُعْتَمد»: [لَا يَأْمر بِالْمَعْرُوفِ وَينْهىٰ عَن الْمُنكر إلا من كَانَ فَقِيهًا فِيمَا يَأْمر بِهِ، فَقِيهًا فِيمَا يَنْهَىٰ عَنهُ، رَفِيقًا فِيمَا يَأْمر بِهِ، رَفِيقًا فِيمَا ينْهَىٰ عَنهُ، حَلِيمًا

فِيمَا يَأْمر بِهِ، حَلِيمًا فِيمَا ينْهَىٰ عَنهُ]».

والمسائل الأربع التي أوصىٰ بها الإمام: العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر علىٰ الأذىٰ فيه، مضمّنة في سورة العصر التي استدل بها الإمام في تقرير المسائل الأربع ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذه الصفات الأربع - وهي الأصول الأربع - هي أساس السعادة - وأساس الربح والنجاة: إيمان صادق، وعمل صالح، وتناصح، وتواصٍ بالحق، وتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وتواصٍ بالصبر علىٰ ذلك في الشدة والرخاء، وفي جميع الأحوال».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن الله تعالىٰ أخبر فيها أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا، ومع غيره موصيًا بالحق موصيًا بالصبر».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «أقسم تعالىٰ بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم؛ أن كل إنسان خاسر،

---

(١) مجموع تفسير آيات من القرآن الكريم (ص ٢٤٠).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٩٣).

والخاسر ضد الرابح.

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خسارًا مطلقًا؛ كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

١- الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم؛ فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

٢- والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة.

٣- والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغّبه فيه.

٤- والتواصي بالصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يُكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنه سبحانه قسّم نوع الإنسان فيها قسمين: خاسرًا ورابحًا؛ فالرابح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضًا، فتضمنت السورة النصيحتين، والتكميلتين، وغاية كمال القوتين، بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه، وأحسنه ديباجة، وألطفه موقعًا.

أما النصيحتان: فنصيحة العبد نفسه، ونصيحته أخاه، بالوصية بالحق والصبر عليه.

وأما التكميلان: فهو لتكميله نفسه، وتكميله أخاه.

وأما كمال القوتين: فإن النفس لها قوتان: قوة العلم والنظر، وكمالها بالإيمان، وقوة الإرادة والحب، وكمالها بالعمل الصالح، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر.

فصار هاهنا ستة أمور: ثلاثة يفعلها في نفسه، ويأمر بها غيره: تكميل قوته العلمية بالإيمان، والعملية بالأعمال الصالحة، والدوام علىٰ ذلك بالصبر عليه، وأمره لغيره بهذه الثلاثة؛ فيكون مؤتمرًا بها، متصفًا بها، معلمًا لها، داعيًا إليها؛ فهذا هو الرابح كل الربح، وما فاته من الربح بحسبه، وحصل له نوع

---

(١) بدائع التفسير (٥/ ٣٢٧، ٣٢٨).

من الخسران، والله المستعان، وعليه التكلان».

وأوصىٰ النبيون - عليهم السلام - والحكماء ورثتهم بهذه الوصية، وهي الدعوة إلىٰ التوحيد وحقوقه، والصبر علىٰ الأذىٰ في ذلك، قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧]؛ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]؛ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذًىٰ؛ فأمره بالصبر، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ أي: إن الصبر علىٰ أذىٰ الناس لمن عزم الأمور».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مُرْ بالمعروف، وانهَ عن المنكر، واصبر علىٰ ما أصابك، وانظر إلىٰ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ماذا أصابهم من الأذىٰ؛ أصابهم أذًىٰ عظيم؛ طعن في أجسادهم، وطعن في عقولهم، وطعن في أهدافهم، كل شيءٍ طُعن فيه، ومع ذلك صابرون، أوذي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٣).

(٢) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٣، ٢٤).

موسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنواع من الأذىٰ، وأوذي أول الأنبياء نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩]، وأوذي خاتم الأنبياء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ أوذي أذًىٰ عظيمًا من أقرب الناس إليه، هل قريش فعلت بأي واحد من الناس دخل المسجد الحرام، وجعل يُصلي تحت الكعبة، وسجد لله عَزَّوَجَلَّ، هل آذوا أحدًا من الناس بأن أتوا بسلا الجزور ووضعوه عليه وهو ساجد؟ أبدًا، لكن الرسول ﷺ فعلوا به هذا وصبر.

هل كانوا يأتون بالأذىٰ والقذر والأنتان يضعونها علىٰ أبواب الناس في مكة؟ لا، لكن الرسول ﷺ فعلوا به هذا وصبر.

فالواجب أن يصبر الإنسان، وأن يحتسب هذا الصبر علىٰ الله، وهذا الصبر علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم أجرًا من الصبر علىٰ أعظم مصيبة تنال الإنسان في أقرب الناس إليه؛ لأن هذا صبر علىٰ أذًىٰ في الله؛ ليس صبرًا علىٰ أقدار الله، هذا صبر علىٰ أذًىٰ في الله عَزَّوَجَلَّ؛ فاحتسب الأجر من الله، واصبر علىٰ ما أصابك».

وتأمل اقتران الصبر بالإيمان والعمل الصالح، فإن الصبر هو عُدّة المؤمنين في سيرهم إلىٰ الله، وفي صبرهم علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله، وفي أداء شؤونهم الدنيوية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال النبي ﷺ: «**إن النصر مع الصبر**». رواه أحمد، وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وأهل الكتاب انقطعوا عن السير إلىٰ الله لعدم صبرهم علىٰ طاعة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦]، ونال الموحّدون الإمامة وهداية الخلق وحسن الثواب في الآخرة بالصبر علىٰ التوحيد والطاعة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والصبر آخِيَّة المؤمن التي يجول ثمَّ يرجع إليها، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلَّا عليها؛ فلا إيمان لمن لا صبرَ له، وإن كان فإيمانٌ قليل في غاية الضعف، وصاحبه يعبد الله علىٰ حرف، فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه خسر الدُّنيا والآخرة، ولم يحظَ منهما إلَّا بالصَّفقة الخاسرة.

فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقَّوا إلىٰ أعلىٰ المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلىٰ جنات النَّعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

هذه سنة الله في خلقه، يبتلي المؤمنين بالكافرين، وأهل الحق بأهل

(١) عدة الصابرين (ص ١٠، ١١).

الباطل؛ تمحيصًا للمؤمنين، وصقلًا لنفوسهم، وتكفيرًا لسيئاتهم، ورفعةً في درجاتهم، واصطفاءً لأوليائه في نصرة دين الله وشرعه، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨-١٤١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يعني: القرآن فيه بيان للأمور علىٰ جَلِيَّتها، وكيف كان الأممُ الأقدمون مع أعدائهم ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾، يعني: القرآن فيه خَبَرُ ما قبلكم، ﴿وَهُدًى﴾ لقلوبكم، ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: زاجرًا عن المحارم والمآثم.

ثم قال مسليًا للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تَضعفوا بسبب ما جرىٰ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: العاقبة والنّصرة لكم أيها المؤمنون.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾؛ أي: إن كنتم قد أصابتكم جراحٌ وقُتل منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ أي: نُديل عليكم الأعداء

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٠٧، ٥٠٨).

تارة، وإن كانت لكم العاقبة؛ لما لنا في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في مثل هذا لنَرَىٰ من يَصبر علىٰ مناجزة الأعداء. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾؛ يعني: يُقْتَلُون في سبيله، ويَبْذُلون مُهَجهم في مرضاته. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: يكفِّر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب، وإلا رُفعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.

وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: فإنهم إذا ظفروا بَغَوا وبَطروا، فيكون ذلك سَبَبَ دمارهم وهلاكهم ومَحْقهم وفنائهم».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، في مفردات هذه الآية فيه بيان موجب ثبات المؤمنين علىٰ دينهم وصبرهم عليه؛ وهو أنه دين «حق»؛ فإيمانهم بالإسلام لا تزعزعه في نفوسهم معارضات الكافرين، ولا يتركونه لأذاهم؛ فهو إيمان راسخ عن علم جازم؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

وسأل هرقل أبا سفيان عن أصحاب محمد ﷺ: «هل يرتد أحدٌ منهم سخطةً لدينه؟ قال: لا.

والاستعانة بالله من أسباب الصبر علىٰ الحق، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة علىٰ الرشد**».

والله أرشدنا إلىٰ الاعتصام به في دفع أذىٰ المعارضين للإسلام، والدعوة إليه في أشدها أذًىٰ؛ وهو ضرب الرقاب، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ومن أسباب ثبات أهل الإيمان علىٰ عقيدتهم وتوحيدهم وإسلامهم والدعوة إليه، ثقتهم بوعد الله؛ بظهور دينه ونصرته، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٩]؛ فالمؤمنون قائمون بأمر الله والإيمان به وتوحيده والدعوة إلىٰ شريعته ودينه، ثابتون علىٰ ذلك؛ لأنهم ليسوا ممن يعبد الله علىٰ حرف، بل يسيرون بثقة بالله، واستشعارًا لمعيته الخاصة؛ معية النصر والحفظ والتدبير، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وأنه كلما قوي إيمانهم كانت كفاية الله لأوليائه وعباده بحسبها، قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد آية الأنفال[(١)]: «تقوية لقلوب المؤمنين؛ ليثبتوا عند لقاء عدوهم؛ لكونهم علىٰ ثقة بموعد الله بنصرهم».

ومن أسباب ثبات أهل التوحيد والسنة وطمأنينتهم في الدعوة إلىٰ الله وسيرهم بثبات، هو ثقتهم بوعد الله في اضمحلال الباطل، ومصيره إلىٰ الضعف والتلاشي مهما كان قويًّا، ومهما أوتي أهله من حذق في التدبير، فأمر

---

(١) رموز الكنوز (٢/ ٣٩٤).

الله فوق ذلك كله؛ فالله ينصر الحق ويُثبّته ويقويه؛ فالعاقبة للتقوىٰ، والباطل يوهنه الله ويُضعفه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، فتأمل ما في لفظة ﴿مُوهِنُ﴾ من معانٍ ودلالات؛ فهي تفيد أن الباطل يرتفع وتكون له صولة وجولة، فلا يزال يصيبه من الوهن بما قضاه الله كونًا؛ من اضمحلال الباطل وضعفه وهوانه وذله وصغاره وذهابه؛ حتىٰ يتلاشىٰ، فيكون لا شيء.

قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٨]. قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي مُضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقًا بهم».

ومن أسباب ثبات أهل الإسلام علىٰ عقيدتهم والدعوة إليه، رحمتهم للخلق؛ فهم يريدون عتق رقابهم من النار؛ فالنبي ﷺ بلغ أذىٰ الكفار له ذروته، فكسروا رباعيّته وشجوا وجهه، فيمسح ﷺ عن وجهه الدم، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

وفي ثبات المسلمين علىٰ الحق حصول الثواب، وتحصيل للنعيم الأبدي في الدار الآخرة؛ فلا عذاب ولا عقاب ولا خوف عليهم ولا يحزنون، والكفار تجري عليهم الآلام في الدنيا في باطل وبلا ثواب، ثم في الدار الآخرة يمسّهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٩٥).

سوء العذاب؛ فالعاقل يختار الثواب وحسن العاقبة؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الناس إذا أُرسل إليهم الرسل بين أمرين:

إما أن يقول أحدهم: آمنّا. وإما ألا يقول ذلك، بل يستمرَّ علىٰ السيئات والكفر؛ فمن قال: آمنا. امتحنه ربُّه، وابتلاه، وفتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار؛ ليتبيّن الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا، فلا يحسب أنه يُعْجز الله ويفوته ويسبقه؛ فإنه إنما يطوي المراحل في يديه.

وكيف يفرُّ المرءُ عنه بذنبهِ إذا كان تُطْوىٰ في يديه المراحِلُ

فمن آمن بالرُّسُل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتُلي بما يُؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يُطعهم، عُوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظمَ ألَمًا وأدوم من ألم اتِّباعهم، **فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبةُ في الدنيا والآخرة، والمُعرض عن الإيمان تحصل له اللذةُ ابتداءً، ثم يصير إلىٰ الألم الدائم.**

وسُئل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيُّما أفضل للرجل، أن يُمكَّن أو يُبتلىٰ؟ فقال: لا يُمكَّن حتىٰ يُبتلىٰ.

---

(١) زاد المعاد (ص ٣٣٤، ٣٣٥).

والله تعالىٰ ابتلىٰ أولي العَزْمِ من الرسل، فلما صبروا مكَّنهم، فلا يَظُنَّ أحد أنه يخلص من الألم البتة؛ وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول؛ فأعقلهم من باع ألمًا مستمرًّا عظيمًا بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل: كيف يختار العاقلُ هذا؟ قيل: الحامل له علىٰ هذا النَّقْدُ والنَّسيئة، والنَّفس مُوكلةٌ بِحُبِّ العاجل؛ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١] ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]».

فالمؤمنون ثباتهم علىٰ دينهم ونصرتهم له يزداد يومًا بعد يوم مع ازدياد إيمانهم، وما يحصل لهم من زيادة الطمأنينة بصحة عقيدتهم، وما يرونه من ثمرات ظهور هذا الدين الحاضر، فضلًا عن الظهور الأكبر الموعود من رب العالمين؛ فهم ليسوا ممن ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١].

والمؤمنون شاهدوا من تمكين الله لرسوله ﷺ وصحابته وظهورهم علىٰ دول الكفر، ما يوجب لهم الثقة والطمأنينة بنصر الله لهذا الدين إذا قاموا به، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «انتصاراته ﷺ العظيمة في هذه المدة الوجيزة، وانتصار أصحابه حتىٰ فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، مع أنهم كانوا أذلة مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، هذا

(١) تفسير سورة آل عمران (١/ ٥١٧).

من أكبر الأدلة علىٰ أنه رسول الله حقًّا».

وكذلك شاهدنا من تمكين الله للدعوة السلفية التي علىٰ منهاج النبوة في العصر الحديث، ما جدّد في نفوس المؤمنين الثقة بالله في ظهور دينه ونصرة شرعه، وهذا ما حصل لدولة الإمامين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود - رحمهما الله -.

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تأمل حماية الله ونصره لمن قبل هذه الدعوة ونصرها علىٰ ضعف منهم في الحال وقلة من العُدد والرجال مع كثرة من خالفهم من قريب وبعيد وكثير وقليل مع الكيد الشديد فأبطل الله كيدهم، وصارت الغلبة للحق وأهله، ومحق الله الباطل وأهله».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومن بعض الأدلة العقلية ما أبقاه الله تعالىٰ من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم وما حلَّ بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم وجعل العاقبة لهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وقال في ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا

(١) المقامات (ص١٣)، ط - مكتبة دار الهداية، الرياض.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٦).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣]».

والمسلمون يعلمون سنة الله في خلقه من امتحان الحق بالباطل وأهله؛ ليصطفي الله أهل الحق، ويُكمِّلهم في عبوديتهم لله، ويستعملهم في نصرة دينه وإعزازه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [عمران: ١٤٢].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤].



حقيقة الدين
وما أُرسل به المرسلون

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اعلم - رحمك الله - أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلُّمُ هذه الثلاث المسائل، والعملُ بهنَّ:

(الأولى): أنَّ الله خلقنا، ورزقنا، ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عصاه دخل النار، والدَّليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]».

الشَّرح:

بعد أن بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بالأمر والحث علىٰ العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر علىٰ الأذىٰ فيه ذكر حقيقة الدين وما أُرسل به المرسلون،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الله أمر بالدخول في جميع

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٤، ٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص٥٢١).

الإسلام كما دلَّ عليه هذا الحديث، فكل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه، فإن كان واجبًا علىٰ الأعيان لزمه فعله، وإن كان واجبًا علىٰ الكفاية اعتقد وجوبه، وعزَم عليه إذا تعين، أو أخذ بالفضل ففعله، وإن كان مستحبًّا اعتقد حسنه وأحب فعله».

والتوحيد هو الانقياد لله بالطاعة، وهو حقيقة العبودية لله، قال النبي ﷺ: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**».

فالتوحيد الانقياد لله بالطاعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أن: [**الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**]. كما أن النار لا يُخلد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فجعل الكبر مقابلًا للإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: [**يقول الله: العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذَّبته**]، فالعظمة والكبرياء من خصائص

---

(١) العبودية (ص٩٩).

الربوبية، والكبرياء أعلىٰ من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار».

ويدل لأن الانقياد لله بالطاعة هو حقيقة العبودية، وأن التولي عن الطاعة هو الكفر بالله؛ قوله تعالىٰ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، فالكفار ما أقروا بالشرع ولا انقادوا للشريعة واستكبروا عن عبادة الله.

فالعبادة لا بد أن تكون لله وحده انقيادًا وقصدًا، فمن انقاد لله بالطاعة فهذا آمن بربه ولم يتولَّ، ومن أبىٰ فقد تولىٰ وكفر، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، والعبادة لا بد أن تكون لله وحده قصدًا، فمن صرف شيئًا من العبادات لغير الله من صلاة أو نذر أو استغاثة أو غيره فقد أشرك بالله ولم يُوحِّده.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال تعالىٰ في سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١، ٣]، فأبان سبحانه أن العبادة له وحده، وأنه يجب علىٰ العباد إخلاصها له جَلَّ وَعَلَا؛ لأن أمره للنبي ﷺ بإخلاص العبادة له، أمر للجميع.

ومعنىٰ «الدين» هنا هو العبادة، و«العبادة» هي طاعته وطاعة رسوله ﷺ

---

(١) حراسة التوحيد (ص٥٥، ٥٦).

- كما سلف -، ويدخل فيها الدعاء والاستغاثة، والخوف، والرجاء، والذبح، والنذر، كما يدخل فيها الصلاة والصوم، وغير ذلك، مما أمر الله به ورسوله ﷺ».

وقال الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد عُلم بالنص والإجماع أن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه، وأرسل الرُّسل، وأنزل الكتب؛ لبيان تلك العبادة والدعوة إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود: ١، ٢].

فأوضح سبحانه في هذه الآيات المحكمات أنه لم يخلق الثقلين إلا ليعبدوه وحده، لا شريك له، وبيَّن أنه أرسل الرُّسل - عليهم الصلاة والسلام - للأمر بهذه العبادة والنهي عن ضدها، وأخبر عَزَّوَجَلَّ أنه أحكم آيات كتابه وفصَّلها لئلا يُعبد غيره سبحانه، والعبادة هي توحيده وطاعته، بامتثال أوامره وترك نواهيه، وقد أمر الله بذلك في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] الآية، وقوله عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) حراسة التوحيد (ص٢٨، ٢٩).

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣]. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، كلها تدل علىٰ وجوب إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه من الأنبياء وغيرهم».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلّا له، **وإنّ العبادة موجب إلهيته** وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها، كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شُرعت لأجله؟! وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خُلقوا، ولها أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، ولأجلها خُلقت الجنة والنار؟ وأنَّ فرض تعطيل الخليقة عنها نسبة لله إلىٰ ما لا يليق به، ويتعالىٰ عنه من خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلًا، ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سُدًىٰ هملًا. قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتكم لي ومجازاتي لكم، وقد صرّح تعالىٰ

---

(١) مدارج السالكين (ص٦٦).

بهذا في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة هي الغاية التي خُلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال الله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: هملًا.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يؤمر ولا يُنهىٰ، وقال غيره: لا يُثاب ولا يُعاقب. والصحيح الأمران؛ فإن الثواب والعقاب مترتبان علىٰ الأمر والنهي، والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما، قال تعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متممًا بيان حقيقة العبودية لله**(١): «فأصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يُحَبّ معه سواه، وإنما يُحب لأجله وفيه، كما يُحبُّ أنبياؤه ورسله وملائكته وأولياؤه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرَّها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة،

(١) مدارج السالكين (ص ٦٧).

ولهذا جعل تعالىٰ اتّباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعُلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاءُ محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله ﷺ، وانتفاء المتابعة مُلزم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ.

ودلّ علىٰ أن متابعة الرسول ﷺ هي حبُّ الله ورسوله ﷺ، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتىٰ يكون الله ورسوله أحبَّ إلىٰ العبد مما سواهما، فلا يكون عنده شيء أحبَّ إليه من الله ورسوله، ومتىٰ كان عنده شيء أحب إليه منهما؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء علىٰ طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم علىٰ قول الله ورسوله، أو مرضاةَ أحد منهم علىٰ مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه، علىٰ خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم علىٰ معاملة الله؛ فهو ممن ليس الله ورسوله أحب

إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذبٌ منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه.

وكذلك من قدّم حكمَ أحد علىٰ حكم الله ورسوله، فذلك المقدَّم عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله؛ لكن قد يشتبه الأمر علىٰ من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته؛ ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلّا ما قاله الرسول ﷺ؛ فيطيعه ويحاكم إليه، ويتلقىٰ أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر علىٰ غير ذلك.

وأما إذا قدر علىٰ الوصول إلىٰ الرسول ﷺ، وعرف أن غير من اتبعه هو أولىٰ به مطلقًا، أو في بعض الأمور، ولم يلتفت إلىٰ الرسول ﷺ، ولا إلىٰ من هو أولىٰ به؛ فهذا الذي يخاف عليه، وهو داخل تحت الوعيد، فإن استحلَّ عقوبة من خالفه وآذاه ولم يوافقه علىٰ اتباع شيخه؛ فهو من الظلمة المعتدين، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا».

وقال الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا حقيقة الدين[1]: «دين الإسلام مبني علىٰ أصلين عظيمين: أحدهما: أن لا يُعبد إلا الله وحده. والثاني: أن لا يُعبد إلا بشريعة نبيه ورسوله ﷺ[2]، وهذا معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، فمن دعا الأموات من الأنبياء وغيرهم، أو دعا الأصنام أو الأشجار، أو الأحجار أو غير ذلك من المخلوقات، أو استغاث بهم، أو

(١) حراسة التوحيد (ص ٣٠، ٣١).

(٢) أي الشريعة التي بُعث بها النبي ﷺ، وهي شريعة الإسلام.

تقرَّب إليهم بالذبائح والنذور، أو صلَّىٰ لهم، أو سجد لهم، فقد اتَّخذهم أربابًا من دون الله، وجَعَلَهم أندادًا له سبحانه، وهذا يناقض هذا الأصل، وينافي معنىٰ «لا إله إلا الله»، كما أن من ابتدع في الدين ما لم يأذن به الله لم يحقق معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهذه الأعمال هي أعمال من مات علىٰ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا الأعمال المبتدعة التي لم يأذن بها الله؛ فإنها تكون يوم القيامة هباءً منثورًا؛ لكونها لم توافق شرعه المطهَّر، كما قال النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَد**»، متفق علىٰ صحَّته».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الإسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الإحسان، وهو العمل الصالح الذي أمر الله به؛ هو والإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الإسلام دين، و«الدين» مصدر: دَان يَدين دينًا: إذا خضع وذلَّ، و«دين الإسلام» الذي ارتضاه الله وبعث به رسله؛ هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده، بعبادته وحده دون ما سواه، فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا،

(١) الإيمان الكبير (ص ٥١٢).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٥١٥).

ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية له، هكذا قال أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم، فالإسلام في الأصل من باب العمل؛ عمل القلب والجوارح».

فالإسلام مستلزم العمل، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكنه شيء وقر في القلب وصدّقه العمل».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مما يدل من القرآن علىٰ أن الإيمان المطلق مستلزم للأعمال: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥] فنفىٰ الإيمان عن غير هؤلاء، فمن كان إذا ذُكِّر بالقرآن لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود؛ لم يكن من المؤمنين، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين، وأما سجود التلاوة ففيه نزاع، وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه، لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة».

وحديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيه بيان معنىٰ الإسلام والإيمان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فسَّر النبي ﷺ «الإيمان» بإيمان القلب وبخضوعه، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وفسر «الإسلام»

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٣٦٧).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٥١٥).

باستسلام مخصوص؛ هو المباني الخمس».

وذكر النبي ﷺ مباني الإسلام؛ لأن من أتىٰ بها لا بد أن يأتي بسائر الواجبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لابد من التوكُّل علىٰ الله فيما لا يقدر عليه، ومن طاعته فيما يقدر عليه، وأصل ذلك «الصلاة» و«الزكاة»، **فمن قام بهذه الخمس كما أُمر، لزم أن يأتي بسائر الواجبات.**

بل «الصلاة نفسها» إذا فعلها كما أُمر؛ فهي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، كما روي عن ابن مسعود وابن عباس: «إن في الصلاة منتهًىٰ ومزدجرًا عن معاصي الله، فمن لم تنهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر؛ لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدًا». وقوله: «لم يزدد إلا بعدًا» إذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله؛ أبعدَه ترك الواجب الأكثر من الله أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل، وهذا كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتىٰ إذا كانت بين قرني شيطان، قام فنقر أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا**»».

فمن ظن أن نصوص القرآن والسنة تدل علىٰ أنه يكون العبد مؤمنًا بلا عمل؛ فهذا قد قال علىٰ الله بغير علم، ولو تدبّر هذا حديث - شعب الإيمان - فضلًا عن سائر نصوص السنة والقرآن؛ لأوجب له تصحيح اعتقاده.

---

(١) الإيمان الكبير (ص ١٨٩، ١٩٠).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وقد ورد في بعض روايات «صحيح مسلم» عددُ بعض هذا الخصال، ولفظه: «**أعلاها: قول: لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**».

فأشار إلىٰ أن خصال الإيمان منها ما هو قول باللسان، ومنها ما هو عمل بالجوارح، ومنها ما هو قائم بالقلب».

وقول النبي ﷺ في حديث شعب الإيمان: «**أعلاها قول: لا إله إلا الله**»، وكذلك في كلام السلف؛ لا يُراد به قولًا مجردًا عن الاعتقاد والعمل؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «القول المجرد عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانًا باتفاق المسلمين».

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا**[(٣)]: «وقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وهذا لا يُسمىٰ قولًا إلا بالتقييد، كقوله تعالىٰ: ﴿**يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ [الفتح: ١١]، وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب؛ هي من أعمال المنافقين التي لا يتقبلها الله، فقول السلف يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر».

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٣).

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٤٤١).

(٣) شرح حديث جبريل (ص ٣٧٠، ٣٧١).

واعتقاد القلب وعمله مستلزم لأعمال الجوارح؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» متفق عليه، فيستحيل أن يوجد إيمان في القلب ولا يظهر علىٰ الجوارح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا إيمانًا ثابتًا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج، ويعيش دهره وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم يومًا، ولا يؤدي لله زكاة، ولا يحج إلىٰ بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة، لا مع إيمان صحيح».

والزلل الذي أصاب البعض من قولهم: أن شهادة «لا إله إلا الله» توجب دخول الجنة من غير عمل؛ هو بسبب عدم طلب بيان المجمل من النصوص في ذلك، وعدم تفسير السنة بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الذين لم يُكفِّروا بترك الصلاة ونحوها؛ فليست لهم حجة إلا وهي متناولة للجاحد كتناولها للتارك، فما كان جوابهم عن الجاحد كان جوابًا لهم عن التارك، مع أن النصوص علّقت الكفر بالتولي كما تقدم.

وهذا مثل استدلالهم بالعمومات التي يحتج بها المرجئة، كقوله: «من

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٥٦، ٥٥٧).

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٥٦٢، ٥٦٣).

شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن عيسىٰ عبد الله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه؛ أدخله الله الجنة»، ونحو ذلك من النصوص».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا الإجمال في هذا الأمر العظيم، ومزيلًا للإشكال مستدلًّا بالنصوص الكثيرة في ذلك، منها قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٥] [1]: «إن التائب من الكفر لا يكون تائبًا حتىٰ يُقر بجميع ما جاء به الرسول ﷺ ويلتزمه، ولأن الالتزام إن أريد به اعتقاد الوجوب والإقرار به؛ فليس في اللفظ ما يدل علىٰ أنه المراد وحده، وإن أُريد به الفعل والوعد به؛ فهذا لا يجب إلا إذا وجب قتلهم بالترك، وإلا فلو كان قتلهم بالترك غير واجب، وقالوا: نحن نعتقد الوجوب، ولا نفعل. لحرم قتلهم، وهذا خلاف الآية.

وأيضًا مما هو دليل في المسألة، وتفسير للآية: ما أخرجاه في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم علىٰ الله**»، وليس في لفظ مسلم «**إلا بحق الإسلام**»، وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لما تُوفي النبي ﷺ ارتدت العرب، فقال

---

(١) شرح العمدة، كتاب الصلاة (ص ٦١، ٦٢).

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أبا بكر كيف تقاتل العرب؟ فقال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**»، رواه النسائي، فهذا يدل علىٰ أن القتال مأمور به إلىٰ أن يوجد فعل الصلاة والزكاة، إذ لو كان مجرد الاعتقاد كافيًا لاكتفىٰ بشهادة أن محمدًا رسول الله؛ فإنها تنتظم بصدقه جميع ما جاء به، ولم يكن لتخصيص الصلاة والزكاة بالاعتقاد دون غيرهما معنًىٰ: ثم قوله: «**فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم**» دليل علىٰ أن العصمة لا تثبت إلا بنفس إقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع الشهادتين، ثم فَهِمَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منه حقيقة الاتباع بموافقة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ له علىٰ ذلك حتىٰ قال: «لو منعوني عقالًا - أو عناقًا - كانوا يؤدونها إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ منعها»، ولم يقل: [علىٰ جحدها]، وتعميمه مَنْ منعها جاحدًا أو معترفًا دليل علىٰ أن الفعل مراد».

ومن أصرح الأدلة علىٰ أن العمل والإيمان متلازمان: ما رواه أحمد من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنه سمع النبي ﷺ سُئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله، وتصديق بكتابه**».

قال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فجعل النبي ﷺ الإيمان والتصديقَ والجهادَ والخير عملًا».

---

(١) خلق أفعال العباد (٢/ ٩١).

فمن لم يأتِ بالعمل فهذا ليس بمسلم؛ لأنه ما انقاد ولا استسلم لأمر الله ونهيه، بل تولىٰ، والعياذ بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من لم يستسلم له؛ لم يكن مسلمًا ومن استسلم لغيره كما يستسلم له؛ لم يكن مسلمًا، ومن استسلم له وحده؛ فهو المسلم، كما في القرآن: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]. وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] والاستسلام له يتضمَّن الاستسلام لقضائه، وأمره ونهيه، فيتناول فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، عن أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٢] يقول: من أخلص لله.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن الربيع نحو ذلك.

وقال: ذُكر عن يحيىٰ بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن حيوة بن شريح، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ قال: دينه.

---

(١) النبوات (١/ ٣٤٧ - ٣٥١).

وقال أبو الفرج: أسلم: أخلص. وفي الوجه قولان: أحدهما: أنَّه الدين، والثاني: العمل».

وحقيقة قول من أخرج العمل من الإيمان هو قول الجهم بن صفوان ومن تبعه، فالجهمية عندهم الإيمان هو المعرفة، لكنها معرفة لا تستلزم عملًا، وهذا لا يكون صاحبه حقق شهادة أن لا إله إلا الله، ولا عرف معناها حقًّا، ولا ما تستلزمه من العمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالنفس لها قوة الإرادة مع الشعور، وهما متلازمان، وهؤلاء لحظوا شعورها وأعرضوا عن إرادتها، وهي تتقوَّم بمرادها، لا بمجرَّد ما تشعر به، فإنَّها تشعر بالخير والشرِّ، والنافع والضارِّ، ولكن لا يجوز أن يكون مرادها ومحبوبها إلا ما يُصلحها وينفعها، وهو الإله المعبود الذي لا يستحقّ العبادة غيره، وهو الله لا إله إلا هو، سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ثمَّ مع هذا يكون العلم حقًّا هو ما أخبرت به الرُّسل، فالعلم الحقُّ هو ما أخبروا به، والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له، فهذا هو السعادة، وهو الذي اتفقت عليه الأنبياء كلُّهم، فكُلُّهم دعوا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له؛ وذلك إنَّما يكون بتصديق رسله وطاعتهم.

---

(١) النبوات (١/ ٤١٠، ٤١١).

فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان، عبادة الله وحده، وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] قال أبو العالية: هما خصلتان يُسأل عنهما كل أحد يُقال: لمن كنت تعبد؟ وبماذا أجبت المرسلين؟».

فمن لم يأتِ بالعمل فهذا ما أجاب المرسلين، وإن كان عرفهم معرفة مجرّدة عن حقيقتها، كمعرفة أبي طالب الذي مات علىٰ ملة عبد المطلب، وقد كان يقول في لاميته المشهورة:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينَا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لرأيتني سمحًا بذاك مبينَا

فمن قال: «إيمان بلا عمل» هو في حقيقته أنه يقول: «توحيد بلا عبادة»، وهل يصح توحيد بلا عبادة؟!!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده، ولا نجعل له من خلقه ندًّا ولا كفوًا ولا سميًّا، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]».

وقال الموفق أبو محمد ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الإيمان: قول

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٣٨).

(٢) لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرشاد (ص ٢٤، ٢٥).

باللسان، وعمل بالأركان، وعَقْدٌ بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فجعل عبادة الله تعالىٰ وإخلاص القلب وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة كلَّه من الدين.

وقال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، فجعل القول والعمل من الإيمان، وقال تعالىٰ: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [الفتح: ٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله. وفي قلبه مثقال بُرَّةٍ، أو خردلةٍ، أو ذرَّةٍ من الإيمان**»، فجعله متفاضلًا».

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنىٰ ما طُلب منه علمه، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بمقتضىٰ ذلك العلم في كل مقام بحسبه؛ وهذا العلم الذي أمر الله به فرض عين علىٰ كل إنسان، لا يسقط عن أحد كائنًا من كان.

والضرورة إلىٰ هذا العلم والعمل بمقتضاه – من تمام التأله لله – فوق كل ضرورة، والعلم بالشيء يتوقف علىٰ معرفة الطريق المفضي إلىٰ معرفته وسلوكها».

(١) تيسير اللطيف المنّان (ص ٢٢).

وحديث «شعب الإيمان» الدال علىٰ أن الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح؛ هو منطوق نصوص القرآن في ذلك، وهذا مما أجمع عليه السلف، فأدلة القرآن والسنة والإجماع كلها متعاضدة في تقرير هذا الأصل العظيم.

قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أن الذي عليه علماء المسلمين: أن الإيمان واجب علىٰ جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح.

ثم اعلموا - رحمنا الله وإياكم - أنه لا تجزيء المعرفة بالقلب - وهو التصديق - إلا أن يكون معه إيمان باللسان، وحتىٰ يكون معه نطق، ولا تجزئ المعرفة بالقلب والنطق باللسان حتىٰ يكون معه عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الخصال الثلاثة كان مؤمنًا حقًّا، دلّ علىٰ ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين.

وأما ما لزم القلب من فرض الإيمان؛ فقول الله تعالىٰ وعَزَّوَجَلَّ في سورة المائدة: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ ﴾ إلىٰ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال

---

(١) الأربعون حديثًا (ص ٤٩ - ٥٢).

عَزَّوَجَلَّ في سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، فهذا يدلك علىٰ أن علىٰ القلب فرض الإيمان، وهو التصديق والمعرفة، ولا ينفع القول إذا لم يكن القلب مصدقًا بما ينطق به اللسان مع العمل.

وأما فرض الإيمان باللسان فقول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧] الآية، وقال عَزَّوَجَلَّ في سورة آل عمران: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤] الآية.

وقال النبي ﷺ: «**أمرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، وأني رسول الله**» وذكر الحديث، فهذا الإيمان باللسان نطقًا واجبًا.

وأما الإيمان بما فرض الله علىٰ الجوارح تصديقًا لما آمن به القلب ونطق به اللسان؛ فقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] في غير موضع من القرآن، ومثله فرض الصيام علىٰ جميع البدن، ومثله فرض الحج، وفرض الجهاد علىٰ البدن

بجميع الجوارح، فالأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان.

فمن لم يُصدّق الإيمان بعمله بجوارحه؛ مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وأشباه هذه، ومن رضي لنفسه بالمعرفة والقول دون العمل؛ لم يكن مؤمنًا، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان للعمل تكذيبًا منه لإيمانه، [وكان العمل بما ذكرنا تصديقًا منه لإيمانه]، فاعلم ذلك.

هذا مذهب علماء المسلمين قديمًا وحديثًا، فمن قال غير هذا فهو مرجيء خبيث، احذره علىٰ دينك.

والدليل علىٰ هذا: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة: ٥]».

فلا يتحقق توحيد الله ولا إقامة الإسلام بدون العمل وطاعة الله،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الدين هو الخضوع والانقياد والعمل، فلا بد له من شيئين، من مقصود هو المعبود، ووسيلة هي الحركة، فأي معبود يُسامي الله؟ وأي قصدٍ للمعبود خير من أن يكون القاصد ذليلًا له مخلصًا له، لا متكبرًا ولا مشركًا به؟ وأيُّ حركة خيرٌ من فعل الحسنات؟».

وقال أيضًا[٢]: «إن الإسلام الذي في القلب لا يتمُّ إلا بعمل الجوارح،

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص ٢٦، ٢٧).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص ٢٩).

فكُنَّ مباني له ينبني عليها، فالمباني الظاهرة تحملُ الإسلام الذي في القلب كما يحمل الجسد الروح، وكما تحملُ العُمُدُ السقف، والقبة الأركان، فالإسلام الذي هو دين الله بُني بمبعث محمد رسول الله ﷺ علىٰ هذه الأركان».

قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ١١٢]، فمن لم يأتِ بالعمل فليس بمسلم؛ لأنه تولىٰ واستكبر، ولم يُسلم وجهه لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال قدماء المفسرين في قوله تعالىٰ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: أخلص في دينه وعمله لله، وقال بعضهم: فوّض أمره إلىٰ الله، وقد قيل: خضع وتواضع لله.

وهذا الثالث يليق بالإسلام اللازم، فإن وجهه هو قصده، وتوجهه الذي هو أصل عمله، وهو عمل قلبه الذي هو ملك بدنه، فإذا توجه قلبه تبعه أيضًا توجه وجهه؛ فاستتبع القصد الذي هو الأصل من القلب، الذي هو الأصل للعمل، الذي هو تبع من الوجه وسائر البدن الذي هو تبع، فيكون قد أسلم عمله الباطن والظاهر، وأعضاءه الباطنة والظاهرة لله، أي سلّمه له، وأخلصه لله».

وقال البغوي: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: أخلص دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل: خضع وتواضع لله؛ وأصل الإسلام: الاستسلام

---

(١) الجامع لكلام ابن تيمية في التفسير (٥/ ١٠٠).

والخضوع، وخُصَّ الوجه؛ لأنه إذا جاد بوجهه في السجود؛ لم يبخل بسائر جوارحه. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عمله، قيل: مؤمن وقيل: مخلص.

قلت: قول من قال: خضع وتواضع لربِّه، هو داخلٌ في قول من قال: أخلص دينه، أو عمله أو عبادته لله. فإنَّ هذا إنما يكون إذا خضع له وتواضع له دون غيره، فإنَّ العبادة والدين والعمل له لا يكون إلا مع الخضوع له والتواضع، وهو مستلزم لذلك. ولكنَّ أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الإسلام لله وحده، فذكروا المعنيين: الاستلزام، وأن يكون لله.

وقول من قال: خضع وتواضع لله، يتضمَّن أيضًا أنَّه أخلص عبادته ودينه لله، فإنَّ ذلك يتضمَّن أنَّه أخلص عبادته ودينه لله، فإنَّ ذلك يتضمَّن الخضوع والتواضع لله دون غيره.

وأما ذكر التوجه فقد بُسط الكلام عليه في غير هذا الموضع، وتبيَّن أنَّ الله ذكر إسلام الوجه له، وذكر إقامة الوجه له في قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: ٣٠]، وذكر توجيه الوجه له في قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] لأنَّ الوجه إنَّما يتوجه إلىٰ حيث توجه القلب، والقلب هو الملك، فإذا توجَّه الوجه نحو جهةٍ كان القلب متوجّهًا إليها، ولا يمكن للوجه أن يتوجَّه بدون القلب، فكان إسلام الوجه، وإقامته، وتوجيهه؛ مستلزمًا لإسلام القلب، وإقامته، وتوجيهه. وذلك يستلزم إسلام

كلّه لله، وتوجيه كله لله، وإقامة كله لله، وهذا حقيقة دين الإسلام» .

فإيمان بلا عمل - وهذا أصلًا لا يكون، ولا يوجد حقيقةً - هو التولي الذي توعّد أهله بالاستبدال، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «عن طاعته».

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يستبدل من سائر الناس قومًا غيركم».

فإيمان بلا عمل هو دعوة المنافقين، لا تحقيق الموحدين، قال تعالىٰ: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الإسلام: إظهار الخضوع والقبول لما أتىٰ به النبي ﷺ، وبه يُحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب؛ فذلك الإيمان. والذي هذه صفته: مؤمن مسلم.

فأما من أظهر قبول الشريعة فهو في الظاهر مسلم، وفي الباطن غير مُصدق،

(١) رموز الكنوز (٧/ ٢٨٤).

(٢) رموز الكنوز (٧/ ٢٨٥).

(٣) رموز الكنوز (٧/ ٣٦٦، ٣٦٧).

فقد أخرجه الله من الإيمان بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: لم تصدقوا بما أسلمتم تعوذًا من القتل».

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فهذه الآية صريحة في أن من ترك العمل فقد كفر، فهذا كفر التولي وعدم الانقياد، والله لا يحب الكافرين.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أعرض عن الله وعن طاعة الله ورسوله؛ فهو من الكافرين، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُحبه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وثبوت الرسالة ملزوم لثبوت التوحيد، وأنه «لا إله إلا الله» من جهة أن الرسول ﷺ أخبر بذلك، ومن جهة أنه لا يقدر أحد علىٰ الإتيان بهذا القرآن إلا الله، فإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله، إلىٰ غير ذلك من وجوه البيان فيه».

والرسالة إنما أوحىٰ الله بها إلىٰ رسوله ﷺ ليعبدوه؛ وهذا التوحيد، والرسل بيّنت العبادة التي يحصل بها تحقيق التوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إن التوحيد - وهو معنىٰ قول: «لا إله إلا الله» - هو أن

---

(١) فوائد من التفسير (ص ١٥٦).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٣/ ٥٠٥).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٣/ ١٢١).

يعبد الله، وهو تعالىٰ إنما يُعبد بما أمر به، فهو العمل لله بأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

فكل عمل من أعمال البر فهو جزء من التوحيد، ومن العمل لله، ومن عبادة الله توحيده».

والقرآن يُفسر بعضه بعضًا، ونصوصه تتعاضد لا تتعارض، فقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، هو منطوق قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

فمن لم يأتِ بالعمل هذا ما أقام الدين، ولم يأتِ بمقتضيات ولوازم توحيده، قال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

فالكفار لخواء قلوبهم من الإيمان كبر عليهم طاعة الله وتوحيده، فلم يوحدوه ولم يطيعوه.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لم يبعث الله نبيًّا إلا وصاه بإقام الصلاة وإيتاء

(١) رموز الكنوز (٧/ ٦١).

الزكاة، **والإقرار لله تعالىٰ بالطاعة**؛ فذلك دينه الذي شَرع لهم».

وصدق مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لما ذكر مقامات النبيين – عليهم السلام – في سورة الأنبياء قال في شأنهم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، قال يحيىٰ بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يبعث نبيًّا قط إلا بهؤلاء الخمس: التوحيد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت، وشرائع بعد».

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يقولون: إن فرائض الله علىٰ عباده ليست من الإيمان، وأن برّهم وفاجرهم فيه سواء، وما هكذا عن رسول الله ﷺ، بلغنا: أن رسول الله ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون – أو سبعون – جزءًا، أوّلها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**».

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، والدين: هو التصديق، وهو الإيمان والعمل.

ووصف الله الدين قولًا وعملًا، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٥١).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٥٠، ١٥١).

وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، والتوبة من الشرك هي الإيمان».

وطاعة الرسول ﷺ وحبه، وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وحبه متلازمان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، فالنبي ﷺ داعية إلىٰ الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتحقيق شهادة «أن محمدًا رسول الله» من تحقيق شهادة «أن لا إله إلا الله»، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن هنا يُعلم أنه لا تتم شهادة «أن لا إله إلا الله» إلا بشهادة «أن محمدًا رسول الله» فإنه إذا عُلم أنه لا تتم محبة الله إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه؛ فلا طريق إلىٰ معرفة ما يحبه وما يكرهه إلا من جهة محمد المبلّغ عن الله ما يحبه وما يكرهه؛ فصارت محبته مستلزمة لمحبة رسوله ﷺ وتصديقه ومتابعته.

ولهذا قرن محبته ومحبة رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، كما قرن بين طاعته وطاعة رسوله ﷺ في مواضع كثيرة، وقال ﷺ: «**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،**

(١) التوحيد (ص ٦٢)، ط: دار القاسم.

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقىٰ في النار»».

والعلم في كلام السلف: هو إقرار القلب المستلزم للعمل، هكذا تصرفت اللفظة في اصطلاح وعمل السلف، وتوهمها من نقص علمه أنها مجرد المعرفة، وهذا في الحقيقة تفسير الجهمية، وقد أخطأ البعض علىٰ العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث ظفر بكلام له في كتاب فقهي، وأخذ ينصر مذهب المرجئة شعر أو لم يشعر، وجعل الإيمان هو المعرفة، وجعل الحدّ الفاصل بين الكفر والإيمان التكذيب فقط، وصار يبدي ويعيد في ذكر عبارة العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومع الأسف لم يُجهد نفسه في ضم وجمع كلام العلامة السعدي من سائر كتبه حتىٰ يعرف مراد السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنىٰ ما طُلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين علىٰ كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كل مضطر إلىٰ ذلك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنًا معنىٰ ومقتضىٰ الشهادتين[2]:

---

(١) تيسر الكريم الرحمن (ص ٨٣٦)، ط: مؤسسة الرسالة ناشرون، ط - الثانية.

(٢) الصارم المسلول (ص ٥٢٠).

«من صدّق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمّنت خبرًا وأمرًا؛ فإنه يحتاج إلىٰ مقام ثانٍ، وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره. «وأشهد أن محمدًا رسول الله» تضمنت تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله، فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلتا الشهادتين - وهو الذي يتلقىٰ الرسالة بالقبول - ظنّ من ظنّ أنه أصل لجميع الإيمان، **وغفل عن أن الأصل الآخر لابد منه وهو الانقياد**».

وما تسمعه في هذه الأيام من شعارات الضلال «الحرية قبل الشريعة» ممن حمل لواء الدعوة، فهذا من التنكّب لشرع الله والخروج عن حقيقة العبودية لله، فالعبودية لله والتأله له هو في طاعة الله لا في تقديم الأهواء علىٰ أمر الله وشرعه، قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

ولا يرفع أحد شعار «الحرية قبل الشريعة» إلا من هو جاهل بحقيقة التوحيد، أو راغب عنه، فيجب أن يتجرد القلب لله، وأن يكون عبدًا له، حُرًّا من سواه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الحريَّةُ حُرِّية القلب، والعبودية عبودية القلب».

---

(١) العبودية (ص ٧٨).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وكُلَّما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته قويت عُبوديَّته له، وحُرِّيَّته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنىٰ قلبه عنه».

وقال[٢]: «وعبودية القلب وأسره هي التي يترتَّب عليها الثواب والعقاب، فإن المُسْلِمَ لو أسره كافر، أو استرقه فاجر بغير حقٍّ، لم يضره ذلك إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات.

ومن استعبد بحقٍّ إذا أدىٰ حقَّ الله، وحقَّ مواليه فله أجران، ولو أُكره علىٰ التكلُّم بالكفر، فتكلَّم به وقلبه مطمئن بالإيمان، لم يضره ذلك.

وأما من استُعبد قَلْبُهُ، فصار عبدًا لغير الله، فهذا يضرُّه ذلك، ولو كان في الظاهر مَلِكُ الناس».

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فالقلب إن لم يكن حنيفًا مُقْبلًا علىٰ الله، معرضًا عمَّا سواه؛ كان مشركًا، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟

---

(١) العبودية (ص ٧٥).

(٢) العبودية (ص ٧٧).

(٣) العبودية (ص ١١٩).

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]».

فواجب العبد أن يتجرد من عبودية هواه وضلالات البشر وأهوائهم، فيكون حرًّا من قيد الهوىٰ والضلال، عبدًا لمولاه الذي لا يأمره إلا بما هو خير له في دينه ودنياه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبد المطلق - هو - الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله علىٰ مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو علىٰ مراد ربه عَزَّ وَجَلَّ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسَّر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهىٰ به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارةٌ، ولا يتعبَّدُهُ قيد، ولا يستولي عليه رسم، حرٌّ مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنّىٰ توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل مُحِقّ، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتىٰ شوكها، وهو موضع الغلظة منه علىٰ المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتُهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد

---

(١) مدارج السالكين (ص ٦١).

صحب الله بلا خَلْق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلىٰ عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلىٰ عنها؛ فواهًا له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أُنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان».

وتوحيد الأسماء والصفات موجب لتوحيد الألوهية والعبودية، فإن الإله علىٰ الحقيقة هو الكامل في أسمائه وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وقال إبراهيم مخاطبًا أباه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا أحد سواه يستحق أن يؤلّه ويُعبد، ويُصلىٰ له ويسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل؛ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده علىٰ الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده.

فكلّ عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكلّ محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكلّ غنًىٰ لغيره فقر وفاقة، وكلّ عز بغيره ذل وصغار، وكلّ تكثُّر بغيره قلّة وذلّة، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره، فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات وتوجهت نحوه

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٣٩).

الطلبات، ويستحيل أن يكون معه إله آخر، **فإن الإله علىٰ الحقيقة هو الغني الصمد الكامل في أسمائه وصفاته**، الذي حاجة كل أحد إليه، ولا حاجة به إلىٰ أحد، وقيام كل شيء به، وليس قيامه بغيره، ومن المحال أن يحصل في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان؛ لفسد نظامه أعظم فساد، واختلّ أعظم اختلال، كما أنه يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كلّ منهما مستقل بالفعل، فإنّ استقلالهما ينافي استقلالهما، واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر، فتوحيد الربوبية أعظم دليل علىٰ توحيد الإلهية، ولذلك وقع الاحتجاج به في القرآن أكثر مما وقع بغيره؛ لصحة دلالته وظهورها، وقبول العقول والفطر لها، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية، وكذلك كان عبّاد الأصنام يقرّون به، ويُنكرون توحيد الإلهية، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: ٥]، مع اعترافهم بأنّ الله وحده هو الخالق لهم، وللسموات والأرض وما بينهما، وأنه المتفرد بملك ذلك كلّه.

فأرسل الله تعالىٰ الرسل تذكّر بما في فطرتهم الإقرار به من توحيده لا شريك له، وأنهم لو رجعوا إلىٰ فطرهم وعقولهم لدلَّتهم علىٰ امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات؛ ولذلك كان أكمل الخلق فيه أعرفهم بالله وأسمائه وصفاته».

فتوحيد الأسماء والصفات مُقرّر لاستحقاق الله وحده للعبودية لا شريك له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد، وهما إثبات صفات الكمال؛ ردًّا علىٰ أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو؛ ردًّا علىٰ المشركين».

وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]،

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن الإقرار بالربوبية مستلزم للإقرار بالعبودية، يعني: أن من أقر بربوبية الله لزمه أن يُقرّ بعبوديته، ولهذا قال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۗ﴾، فأتىٰ بالفاء الدالة علىٰ السببية، أي: فبسبب اختصاصه بالربوبية يجب أن تخصوه بالعبادة، ومن ثَمَّ نجد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه يقيم الحجة علىٰ المشركين الذين يقرون بربوبيته لا بألوهيته، يقولون: إنه منفرد بالربوبية. لكن في الألوهية لا يُفردونه، يتخذون معه آلهة وليس إلهًا واحدًا، كل قوم لهم رب يعبدونه، وهذا لا شك بالغ في السفه، فإذا كنت

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٨٣).

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ٣٠١، ٣٠٢).

تعلم وتعتقد بأن الله وحده هو الرب لزمك أن تعتقد بأنه وحده الإله المعبود، وأنه لا إله غيره».

والرب هو الذي يتولىٰ تربية عباده، فخلقهم علىٰ الفطرة، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يُولد علىٰ الفطرة**»، وخلق عباده علىٰ حب الحق ومعرفته، قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق عباده علىٰ الفطرة، التي فيها الحق والتصديق به، ومعرفة الباطل والتكذيب به، ومعرفة النّافع الملائم والمحبة له، ومعرفة الضّار المنافي والبغض له بالفطرة.

فما كان حقًّا موجودًا صدّقت به الفطرة، وما كان حقًّا نافعًا عرفته الفطرة وأحبّته واطمأنّت إليه - وذلك هو المعروف -، وما كان باطلًا معدومًا كذّبت به الفطرة، فأبغضته الفطرة فأنكرته، قال تعالىٰ: ﴿**يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ**﴾ [الأعراف: ١٥٧]».

ولا يزال الله يُربي عباده ويزكيهم بالوحي الذي أنزله علىٰ رسوله محمد ﷺ، فمن اهتدىٰ به زكىٰ وكانت أخلاقه عليّة؛ لذلك قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ: «كان خلقه القرآن».

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٦٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلىٰ جميع أحواله من العبادة وغيرها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقًا للقرآن، تفصيلًا له وتبيينًا، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغَّب فيه، وزهده فيما زهَّدَ فيه، وكراهته لما كرهه، فترجمت أمُّ المؤمنين - لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها - عن هذا كلِّه بقولها: «كان خُلُقُه القرآن»، وفَهِمَ السائل عنها هذا المعنىٰ، فاكتفىٰ به واشتفىٰ».

فالرب هو المربي لعباده بهدايتهم خلقةً، وبما أرسل إليهم من الوحي الذي به استقامة مقاصدهم وأقوالهم وأعمالهم وأحوالهم كلها.

والتزكية التي هي التقوىٰ تجمع الخير كله للعبد، فيجتني العلم والخشية والإنابة إلىٰ الله، ويزداد حبه لربه وطاعته، وتحققه بالتوحيد والمسارعة في الطاعات، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٥/ ١٨).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٣١٧، ٣١٨).

(٣) الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (٤/ ٦١٤).

ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]، دليل علىٰ أن الزكاة هي التقوىٰ، والتقوىٰ تنتظم الأمرين جميعًا، بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات؛ إذ الإنسان حارث همّام، ولا يدع إرادة السيئات وفعلها إلا بإرادة الحسنات وفعلها؛ إذ النفس لا تخلو عن الإرادتين جميعًا، بل الإنسان بالطبع مريد فعال، وهذا دليل علىٰ أن هذا يكون سببه الزكاة والتقوىٰ التي بها يستحق الإنسان الجنة، كما في «صحيح البخاري» عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تكفل لي بحفظ ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**».

ومن تزكىٰ فقد أفلح؛ فيدخل الجنة، والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر، فإذا حصل الخير وزال الشر - من العلم والعمل - حصل له نور وهدًىٰ ومعرفة وغير ذلك، والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية، وغير ذلك. هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتىٰ بالمأمورات، ويحصل له ذلك أيضًا قدرة وسلطانًا، وهذه صفات الكمال: العلم، والعمل، والقدرة، وحسن الإرادة».

والنبيون - عليهم السلام - كانوا يقررون أقوامهم بتوحيد الربوبية الذي يقرون به ليُلزموهم بتوحيد الألوهية، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فالمسيح يقول للخلق وللغلاة فيه خصوصًا: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾، فهو مربوب كسائر البشر ليس برب وإله فيعبد، وأول ما أنطق الله به عيسىٰ

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الكلام هو توحيد الله في العبودية، قال تعالىٰ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٢٩، ٣٠].

ونحن لا نحصي ثناءً علىٰ الله الذي أسبغ علينا نعمه، فخلقنا ورزقنا، وعافانا وهدانا، وأعاننا علىٰ طاعته، ومع فضله هذا كله يدخلنا جنته بعفوه ورحمته ومغفرته، إن ربنا لغفور شكور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والله سبحانه قد أنعم علىٰ المؤمنين بالإعانة والهداية؛ فإنه بيّن لهم هُدَاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأعانهم علىٰ اتباع ذلك علمًا وعملًا، كما مَنَّ عليهم وعلىٰ سائر الخلق بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم، ومنَّ علىٰ أكثر الخلق بأن عرّفهم ربوبيته لهم وحاجتهم إليه، وأعطاهم سؤلهم وأجاب دعاءهم، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]».

ونصوص القرآن واضحة صريحة كثيرة في إيقاظ عقول المشركين وتحريرها من أوهام وضلالات الشرك، يُنبّههم الله إلىٰ استحقاقه الكامل من كل وجه للعبودية دون الناقص الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن أن يملكه لغيره.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ

---

(١) قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة (ص ٩٣، ٩٤).

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، **قال العلامة عبد الرحمن السعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع، علىٰ أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق، والنفع، والضر، مستجلبًا كفايته، مستدفعًا مكرهم وكيدهم: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهتم به».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لمّا كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلىٰ الربّ قبل علمهم بحاجتهم إلىٰ الإله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة، كان **إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته،** وكان الدعاء له والاستعانة والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه. ولهذا إنما بُعث الرسل يدعونهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، الذي هو المقصود المستلزم بالإقرار بالربوبية، وقد أخبر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٩١).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٥٠٤).

عنهم أنهم لئن ﴿سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وأنّهم إذا مسّهم الضرّ ضل من يدعون إلا إياه، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، فأخبر أنهم مقرّون بربوبيته، وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضرّ في دعائهم واستعانتهم، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم».

وتقسيم العلماء التوحيد إلىٰ نوعين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب باعتبار اعتقاد المكلّف، وتقسيمه إلىٰ ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات باعتبار حق الله؛ لم يرد به العلماء تعطيل أحدهما عن الآخر، بل ذكروه لدلالة الأدلة عليه من خلال استقراء أدلة الكتاب والسنة، ومعلوم أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء موجب للتأله لله وحده لا شريك له.

وتقرير القرآن لاستلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية كثير جدًّا معلوم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات: ٤، ٥]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ [الصافات: ٤]: ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٦٨).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥]؛ **أي**: هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبّر لها، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته.

وكثيرًا ما يقرر تعالىٰ توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنه دالٌّ عليه، وقد أقرّ به أيضًا المشركون في العبادة، فيُلزمهم بما أقروا به علىٰ ما أنكروه».

وقال العلامة أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ويحتج الرب سبحانه عليهم بتوحيدهم الربوبية علىٰ توحيد ألوهيته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٥٩،٦٠]. فأبان سبحانه بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد الإلهية لا توحيد الربوبية، علىٰ أن منهم من أشرك في الربوبية».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الجمع الصحيح - الذي عليه أهل الاستقامة - هو جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية؛ فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالىٰ فوق عرشه، يدبّر أمر عباده وحده؛ فلا خالق ولا رازق، ولا مُعطي ولا

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٥٧).

(٢) مدارج السالكين (ص ٩٨٤، ٩٨٥).

مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبّر لأمر المملكة - ظاهرًا وباطنًا - غيره؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته؛ فهذا جمع توحيد الربوبية.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو أن يجمع قلبه وهَمَّهُ وعزمه علىٰ الله، وإرادته وحركاته علىٰ أداء حقه تعالىٰ، والقيام بعبوديته سبحانه؛ فتجتمع شئون إرادته علىٰ مراده الديني الشرعي.

وهذان الجمعان: هما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات، الكمال التي لها كل الأسماء الحسنىٰ، ثم يشهد من قوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ جميع أنواع العبادة؛ ظاهرًا وباطنًا، قصدًا وقولًا وعملًا وحالًا واستقبالًا، ثم يشهد من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض؛ فيشهد منه جمع الربوبية، ويشهد من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ جمع الإلهية، ويشهد من ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، ثم يشهد من ﴿ٱهۡدِنَا﴾ عشر مراتب إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولىٰ: هداية العلم والبيان؛ فيجعله عالمًا بالحق مدركًا له.

الثانية: أن يُقْدِرَهُ عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلًا له.

الخامسة: أن يثبّته علىٰ ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، أخص من الأولىٰ؛ فإن الأولىٰ هداية إلىٰ الطريق إجمالًا، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلًا.

الثامنة: أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه، فيكون مطالعًا له في سيره، ملتفتًا إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلىٰ هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها؛ وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصدًا وعنادًا، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلًا وضلالًا، ثم يشهد جمع «الصراط المستقيم» في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم، فمن حصل له هذا الجمع؛ فقد هُدي الصراط المستقيم».

وقال شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالإيمان بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته يُثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره واجتناب نهيه، والقيام بأمر الله تعالىٰ واجتناب نهيه يحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع؛ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فالإيمان بالصفات وتعرّفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان، وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣] فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم، وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ٥٤).

(٢) مدارج السالكين (ص ٨٨٠).

مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦] ولم يجئ مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه، وجحد صفاته، وإنكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله، كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك؛ فالمعطل شرٌّ من المشرك؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك؛ فالمعطلون أعداء الرسل بالذات، بل **كل شرك في العالم فأصله التعطيل؛ فإنه لولا تعطيل كماله - أو بعضه - وظن السوء به لما أُشرك به**، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧] أي: فما ظنكم به أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتىٰ جعلتم معه شركاء؟ أظننتم أنه محتاج إلىٰ الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم أنه يخفىٰ عليه شيء من أحوال عباده حتىٰ يحتاج إلىٰ شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده علىٰ استقلاله بتدبير وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ فيحتاج إلىٰ شفعاء يستعطفونه علىٰ عباده؟ أم ذليل فيحتاج إلىٰ ولي يتكثر به من القلة، ويتعزز به من الذِّلة؟ أم يحتاج إلىٰ الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالىٰ الله عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه؛ فلا تجد معطلًا إلا وشركه

علىٰ حسب تعطيله، فمستقل ومستكثر».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «توحيد الألوهية، ويُقال له: توحيد العبادة باعتبارَين؛ فباعتبار إضافته إلىٰ الله يُسمىٰ: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلىٰ الخلق يسمىٰ: توحيد العِبادة، وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة.

فالمستحق للعبادة هو الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

والعبادة تُطلق على شيئين:

الأول: التعبد بمعنىٰ التذلل لله عَزَّوَجَلَّ بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً وتعظيمًا.

الثاني: المتعبد به؛ فمعناها - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

مثال ذلك: الصلاة؛ ففعلها عبادة، وهو التعبد.

ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.

فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبدًا لله وحده، تفرده بالتذلل؛ محبةً

---

(١) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (ص١١، ١٢).

وتعظيمًا، وتعبده بها شرع، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ فوصفه سبحانه بأنه رب العالمين كالتعليل لثبوت الألوهية له، فهو الإله؛ لأنه رب العالمين، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ؛ فالمنفرد بالخلق هو المستحقّ للعبادة».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيّن في هذه الرسالة حقيقة التوحيد والعبادة لله ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد، فقال[1]: «ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]». قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس عليهم – المرجئة – أحج من هذه الآية».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنّه قصد «أولًا» أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة؛ ليعلم أنهما عبادتان واجبتان؛ فلا يُكتفىٰ بمطلق العبادة الخالصة دونهما، وكذلك **يذكر الإيمان أولًا؛ لأنه الأصل الذي لا بد منه، ثم يذكر العمل الصالح؛ فإنه أيضًا من تمام الدين لا بد منه، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح**».

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٧، ١٨).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٤١٨).

وقال أيضًا[1]: «أعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة، ثلاثة أمور:

أحدها: الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة علىٰ الصلوات بالقلب والبدن.

والثاني: الإحسان إلىٰ الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

والثالث: الصبر علىٰ أذىٰ الخلق وغيره من النوائب. ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر كثيرًا، كقوله تعالىٰ في موضعين: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤، ١١٥]».

وإيمان القلب يستلزم عمل الجوارح بلا ريب، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»، متفق عليه.

ولا ينبغي لأحد أن يُقدّر أمورًا لا حقيقة لها، فيفترض إيمان من لم يحققه بالعمل الصالح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «التحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٩٤٧).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٤٢٤، ٤٢٥).

إيمان تام بدون عمل ظاهر، ولهذا صاروا يُقدّرون مسائل يمتنع وقوعها؛ لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولهذا فرض متأخرو الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها، وهي أن الرجل إذا كان مُقرًّا بوجوب الصلاة، فدُعي إليها وامتنع، واستتيب ثلاثًا مع تهديده بالقتل، فلم يصلِّ حتىٰ قُتل، هل يموت كافرًا أو فاسقًا؟ علىٰ قولين.

وهذا الفرض باطل؛ فإنه يمتنع في الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه، وأنه يعاقبه علىٰ تركها، ويصبر علىٰ القتل، ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك، هذا لا يفعله بشر قط».

فكيف يُحقِّق المسلمون توحيد العبودية إذا قيل لهم: لا يلزمكم عمل – عبادة – والله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؟**!!**

فأين يذهب المرجئة بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؟**!!**

قال أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الله سبحانه إنما خلق الخلقَ لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره؛ فأصل العبادة محبة الله تعالىٰ، وإفراده بالمحبة؛ فلا يحب معه سواه، وإنما يُحب ما يُحبه لأجله، وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليس

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) تجريد التوحيد المفيد (ص ١١٧، ١١٨).

كمحبة من اتخذ من دونه أندادًا يُحبهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه؛ **فعند اتباع الأمر والنهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة**، ولهذا جعل سبحانه اتباع رسوله ﷺ علمًا عليها وشاهدًا لها كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فجعل اتباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبتهم لله تعالىٰ، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع».

فمن تولىٰ عن طاعة الله فهذا لم يُسلم؛ لأن حقيقة الإسلام الانقياد لله بالطاعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص؛ من قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه، وهذا حقيقة قولنا: «لا إله إلا الله»؛ فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك، والله لا يغفر أن يُشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

قال تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٦٠).

أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا إنكار من الله علىٰ المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد؛ لا تتحرك ولا تسمع ولا تُبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]؛ أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك؟ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] أخبر تعالىٰ أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم، ما استطاعوا خلق ذبابة؛ بل لو سلبتهم الذبابة شيئًا من حَقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها؛ فمن هذه صفته وحاله، كيف يُعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]؛ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٣٧).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ [الأعراف: ١٩٢]؛ أي: لعابديهم، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]؛ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يكسر أصنام قومه ويهينُها غاية الإهانة، كما أخبر تعالىٰ عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا – وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ – فكانا يعدوان في الليل علىٰ أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبًا للأرامل؛ ليعتبر قومهما بذلك، ويرتئوا لأنفسهم؛ فكان لعمرو بن الجموح – وكان سيدًا في قومه – صنم يعبده ويطيّبه، فكانا يجيئان في الليل، فينكسانه علىٰ رأسه، ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرىٰ ما صُنع به، فيغسله ويطيّبه ويضع عنده سيفًا، ويقول له: «انتصر». ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلىٰ صنيعه أيضًا، حتىٰ أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميّت، ودلَّياه في جبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأىٰ ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تَـاللهِ لـو كُنـتَ إِلَهًـا مُسْتَدَن ... لم تَـكُ والكَلْـبُ جَمِيعًـا في قَـرنْ

ثم أسلم فَحسُن إسلامه، وقُتل يوم أحد شهيدًا، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه».

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبكتًا بني إسرائيل الذين عبدوا صنمًا علىٰ صورة عجل

نحتوه بأيديهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

قال الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المعنىٰ: أين ذهبت عقول هؤلاء حتىٰ عبدوا صورة عجل، لا يرد إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا يُكلِّمهم ولا يهديهم سبيلًا؟ فعُلم بذلك أن الله سبحانه هو الضار والنافع الذي يسمع الدعاء، ويجيب المضطر إذا دعاه، ويتكلم إذا شاء، وأن هذه الصفات من صفات الكمال التي يجب أن يكون المعبود بحق موصوفًا بها، وبخلاف الأصنام ونحوها؛ فإنها لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر، ولا تجيب من دعاها، ولا ترجع إليه قولًا، ولا تهديه سبيلًا.

فكيف يجوز أن تعبد مع الملك الحق، السميع المجيب، النافع الضار، العالم بكل شيء، ولا إله غيره، ولا رب سواه».

وكان أنبياء الله - عليهم السلام - يُحاجون أقوامهم بانفراد الله بالربوبية علىٰ وجوب إفراده بالعبودية والألوهية، قال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ١-٨٢].

---

(١) مجموع تفسير آيات من القرآن الكريم (ص ١٥٩).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ من تفرَّد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة، مستحقٌّ أنْ يتفرَّد بالإلهية والعبادة والسؤال والتضرُّع إليه والاستكانة له؛ قال الله - عَزَّوَجَلَّ -: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]».

فالعلاقة بين أنواع التوحيد الثلاثة علاقة التزام فالعبد لا يعبد إلا من كان كاملًا في نعوته وأسمائه وصفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «والإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحق الإلهية مستلزم لصفات الكمال؛ فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو».

والتأله لله إقرار لربوبيته؛ فهو وحده رب كل شيء ومليكه، لا يستحق أحد أن يتأله لغيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إقراره بألوهية الله تعالىٰ دون ما سواه، يتضمَّن إقراره بربوبيته، وهو أنه ربُّ كل شيء، ومليكه، وخالقه،

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤٢٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٦٧).

(٣) العبودية (ص ١٣٠).

ومدبِّره؛ فحينئذ يكون موحِّدًا لله».

وتوحيد الربوبية الذي كان يقر به مشركو قريش حجةٌ عليهم في توحيد الألوهية، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون، وكانوا يعبدون مع الله غيره، ويحبونهم كما يحبونه، فكان ذلك التوحيد - توحيد الربوبية - حجة عليهم، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليكه، ولا خالق ولا رازق إلا هو، فلماذا يعبدون غيره معه، وليس له عليهم خلق ولا رزق، ولا بيده لهم منع ولا عطاء، بل هو عبد مثلهم، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!».

والتعلق بغير الله كما أنه شرك، فإنه سفه في العقول، فإنه لا يحصل به مقصود المتعلِّق بغيره، بل ينعكس مقصوده عليه، عقوبة من الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٦٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلُّها؛ فالحول والقوة التي يُرجىٰ لأجلهما المخلوق ويُخاف إنما هما لله، وبيده في الحقيقة، فكيف يُخاف ويُرجىٰ من لا حول له ولا قوة؟!

بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه، فإنه علىٰ قدر خوفك من غير الله يُسلَّطُ عليك، وعلىٰ قدر رجائك لغيره يكون الحرمان.

وهذا حال الخلق أجمعه، وإن ذهب عن أكثرهم علمًا وحالًا، فما شاء الله كان ولا بدَّ، وما لم يشأ لم يكن، ولو اتفقت عليه الخليقة».

والآيات في القرآن أكثر من أن تُحصىٰ، في بيان استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية، قال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿ذَٰلِكُم﴾. الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿ٱللَّهُ﴾ رَبُّكُمْ؛ أي: الذي له الألوهية والعبادة علىٰ خلقه أجمعين، وهو الذي ربَّىٰ جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فأنىٰ تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلىٰ

---

(١) الفوائد (ص ١٣١، ١٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٤٤).

عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا؟!!».

والتوحيد ينقسم إلى: توحيد معرفة وإثبات، وتوحيد قصد وطلب؛ توحيد المعرفة والعلم هو إفراد الله وحده سبحانه بأفعاله وأسمائه وصفاته، وتوحيد القصد والطلب أن تُصرف العبادات له وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المسلمون يقولون كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية؛ وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له، وهو متضمن لشيئين: أحدهما: القول العملي، وهو إثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته؛ فلا يُوصف بنقص بحال، ولا يماثله أحد في شيء من الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ١-٣]، فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع.

والتوحيد العملي الإرادي: أن لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يرجو إلا إياه، ويكون الدين كله لله؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا

(١) الصفدية (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١-٦]».

والشرك في القصد والطلب والمعرفة والإثبات متلازمان، فمن جهل توحيد المعرفة والإثبات وقع في شرك القصد والطلب، فالجهل أساس الشرك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، ولكن ليس معنىٰ هذا أنه لا يقع شرك ممن له معرفة وإثبات، فقد يقع في الشرك لغلبة هواه له، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لمّا كان الشرك العملي الإرادي أغلبَ علىٰ النفوس؛ لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرَّته وبطلانه؛ لِما لها فيه من نيل الأغراض.

وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته؛ لأن هذا يزول بالعلم والحُجَّة، ولا يُمْكِن صاحبُه أن يعلم الشيء علىٰ غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد؛ فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم علىٰ بطلانه وضرره؛ لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب علىٰ نفسه».

ولا يجوز للمسلم أن يتطلب حوائجه وقضائها بالشرك؛ فهذا منهج المسيح الدجال، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من رأىٰ من رجل مكاشفة أو تأثيرًا، فاتَّبعه في خلاف الكتاب والسُّنَّة كان من جنس أتباع

---

(١) زاد المعاد (ص ١٠١)، ط: مؤسسة الرسالة ناشرون.

(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

الدّجال؛ فإن الدّجال يقول للسماء: أمطري. فتُمطر، ويقول للأرض: أنبتي. فتنبت، ويقول للخربة. أخرجي كنوزك فتخرج كنوز الذهب والفضة، ويقتل رجلًا ثم يأمره أن يقوم فيقوم، وهو مع هذا كافر ملعون عدو الله».

وإيمان بلا عمل هذا توحيد الجهمية، فإن الإيمان عندهم هو المعرفة فقط، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون: الإيمان يقتضي الانقياد والعمل.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإيمان الشرعي هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فمن صدّق وأقرّ، ولكن لم يقبل ويُذعن؛ فليس بمؤمن، ودليل ذلك أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان مقرًّا ومعترفًا بصدق رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم يكن مؤمنًا؛ لأنه لم يقبل ما جاء به، ولم يذعن له، وإلا فإنه يقول في قصائده:

لقد علموا أن ابننا لا مُكذبٌ   لدينا ولا يُعنىٰ بقول الأباطل

لقد علموا - يعني قريشًا - أن ابننا - وهو محمد ﷺ - لا مكذبٌ لدينا؛ أي: نصدقه. ولا يُعنىٰ بقول الأباطل؛ أي: لا يهتم بقول الكذب الباطل؛ ويقول:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البريةِ دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبة   لرأيتني سمحًا بذاك مبينًا

أعوذ بالله! مع ذلك لم ينفعه هذا الإيمان، بل مات علىٰ الكفر؛ فالإيمان

---

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٤٩).

شرعًا هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان».

والإيمان والتوحيد ليس مجرد النطق بالشهادتين؛ فلا بد من الإتيان بالتوحيد وحقه، ومحاذرة أضداده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: ٨١]، بيَّن سبحانه أن الإيمان له لوازم، وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن أضداده موادة من حاد الله ورسوله ﷺ».

من أجل هذا اعتنىٰ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان التوحيد ولوازمه والتحذير من أضداده في عموم مصنفاته، وأفرد رسالة خاصة لأضداد التوحيد والإسلام سمّاها «نواقض الإسلام»، وأبان في هذه الرسالة «الأصول الثلاثة» حقيقة التوحيد،

فقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والخلوص من الشرك».

فالإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **نبّه على ثلاثة أمور عظيمة:**

أولها: الاستسلام لله بالتوحيد.

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٣٦٨).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٥).

وثانيها: الانقياد لله بالطّاعة؛ فحيث لا يوجد عمل لا يوجد إيمان.

وثالثها: الخلوص من الشرك؛ لأن الشرك الأكبر يزيل الإيمان، ولا يجتمع معه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كلمة الإسلام - وهي شهادة أن لا إله إلّا الله - علىٰ النفي والإثبات؛ فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات، وتحقيق معنىٰ الإلهية، وتجريد التوحيد الذي يقصد بنفي الإلهية عن كل ما ادعيت فيه سوىٰ الإله الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فتجريد هذا التوحيد من العقد واللسان بتصوُّر إثبات الإلهية لغير الله كما قاله أعداؤه المشركون، ونفيه وإبطاله من القلب واللسان؛ من تمام التوحيد وكماله، وتقريره وظهور أعلامه، ووضوح شواهده، وصدق براهينه».

وقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخلوص من الشرك» هذا يُريد به الشرك بنوعيه: الأكبر والأصغر، أما ضابط الفرق بينهما:

فقد قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الشرك علىٰ نوعين: النوع الأول: شرك أكبر مخرج عن الملة، وهو: «كل شرك أطلقه الشارع وهو منافٍ للتوحيد منافاة مطلقة»، مثل أن يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغير

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص ٣٤٩).

(٢) شرح الأصول الستة (ص ١٤٧، ١٤٨).

الله؛ بأن يصلي لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو ينذر لغير الله، أو أن يدعو غير الله تعالىٰ، مثل أن يدعو صاحب قبر، أو يدعو غائبًا لإنقاذه من أمر لا يقدر عليه إلا الحاضر، وأنواع الشرك معلومة فيما كتبه أهل العلم.

النوع الثاني: الشرك الأصغر، وهو «كل عمل قولي أو فعلي أطلق عليه الشارع وصف الشرك، لكنه لا ينافي التوحيد منافاة مطلقة»؛ مثل الحلف بغير الله الذي لا يعتقد أن لغير الله تعالىٰ من العظمة ما يماثل عظمة الله، مشرك شركًا أصغر، ومثل الرياء، وهو خطير، قال فيه النبي ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». فسئل عنه، فقال: «**الرياء**». وقد يصل الرياء إلىٰ الشرك الأكبر، وقد مثّل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ للشرك الأصغر بيسير الرياء، وهذا يدل علىٰ أن كثير الرياء قد يصل إلىٰ الشرك الأكبر».

والتوحيد وتحقيقه وأداء حقوقه يدفع الشرك والبدع والذنوب والمعاصي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن ما يُبتلىٰ به العبد من الذنوب الوجودية - وإن كان خلقًا لله - فهو عقوبة له علىٰ عدم فعله ما خلقه الله له وفطره عليه؛ فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له، ودلّه علىٰ الفطرة، كما قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة**»، وقال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣٩).

ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]، فهو لما لم يفعل ما خُلق له وما فُطر عليه وما أُمر به - من معرفة الله وحده، وعبادته وحده - عُوقب علىٰ ذلك؛ بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، قال تعالىٰ للشيطان ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢].

فقد تبين أن إخلاص الدين لله: يمنع من تسلط الشيطان ومن فعل الشيطان الذي يوجب العذاب، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. فإذا كان العبد قد أخلص لربه الدين كان هذا مانعًا له من فعل ضد ذلك، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك، وإذا لم يخلص لربه الدين، ولم يفعل ما خُلق له وفُطر عليه؛ عُوقب علىٰ ذلك، وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه، حتىٰ يُزيّن له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبةً له علىٰ كونه لم يتقِ الله».

ومن أعظم فضائل التوحيد أنه من خُتم له بها دخل الجنة، قال النبي ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**». رواه مسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبدٍ موقن بها، عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمرِّدة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلَّتْ بعد عزِّها، وخرج منها حرصها علىٰ الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربِّها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له، وأرْجىٰ ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرَّد منها التوحيد؛ بانقطاع أسباب الشرك، وتحقُّق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع هَمُّها علىٰ من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجَّهَ العبدُ وجهه بكلِّيته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمِّه عليه، فاستسلم له وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوىٰ سِرّه وعلانيته، فقال: لا إله إلا الله. مخلصًا من قلبه، وقد تخلَّص قلبُهُ من التعلق بغيره والالتفات إلىٰ ما سواه، قد خرجت الدُّنيا كُلُّها من قلبه، وشارف القدوم علىٰ ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة، فصارت نُصْبَ عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهَّرته من ذنوبه، وأدخلته علىٰ ربِّه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها، وسِرُّها علانيتها.

---

(١) الفوائد (ص ١٤٠، ١٤١).

فلو حصلت له الشهادة علىٰ هذا الوجه في أيام الصحة، لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلىٰ الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنَّه شهد بها بقلبٍ مشحون بالشهوات، وحُبِّ الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ، والالتفات إلىٰ غير الله، فلو تجرَّدَت كتجرُّدها عند الموت، لكان لها نبأٌ آخر وعيش آخر سوىٰ عيشها البهيميِّ».

فشهادة «لا إله إلا الله» لابد من تحقيقها في ركني الإثبات والنفي، وهذا ما نبّه عليه الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسائله عمومًا، وفي رسالته هذه «الأصول الثلاثة» خصوصًا حيث قال: «معرفة دين الإسلام بالأدلة وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله».

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من زعم أن من قال: لا إله إلا الله، وتسمّىٰ بالإسلام، أنه يبقىٰ علىٰ إسلامه، ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم، وسمَّىٰ ذلك توسلًا لا عبادة؛ فإنَّ هذا باطل.

فإنَّ الوثن اسم جامع لكل ما عُبد من دون الله؛ لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع - وهو العبادة - فإنَّها حقّ الله وحده؛ فمن دعا غير الله أو عبده؛ فقد اتخذه وثنًا، وخرج بذلك عن الدِّين، ولم ينفعه انتسابه إلىٰ الإسلام، فكم انتسب إلىٰ الإسلام من مشرك، وملحد، وكافر، ومنافق.

والعبرة بروح الدين وحقيقته، لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها».

---

(١) القول السديد (ص ٨٠، ٨١).

وصرف أي نوع من العبادة لغير الله هو الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وهذا الذنب لا يغفره الله؛ لأنه جناية وعدوان علىٰ حقه الخالص، ولأن تعبّد المخلوق لمخلوق تنزيل له منزلة الندّ لله، فهذا أعظم الظلم؛ لذلك لا يغفره الله.

قال أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن من خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص عليه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده: عقلًا وشرعًا وفطرة، فمن جعل ذلك لغيره؛ فقد شبّه الغير بمن لا شبيه له.

ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم، أخبر من كتب علىٰ نفسه الرحمة، أنه لا يغفره أبدًا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فلما كان الشرك أكبر شيء منافاةً للأمر الذي خلق الله له الخلق، وأمر لأجله بالأمر، كان أكبر الكبائر عند الله».

وقال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «صلاح العبد، وفلاحه، وسعادته، ونجاته، وسروره، ونعيمه، في إفراد الله بهذه

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٨١).

(٢) الجواب الكافي (ص ٣٢٩).

(٣) عيون الرسائل (٢/ ٦٢٠، ٦٢١).

العبادات، والإنابة إليه بما شرعه لعباده منها، وأصلها كمال المحبة، وكمال الذل والخضوع، كما تقدم.

هذا سرُّ العبادات وروحها، ولا بد في عبادة الله من كمال الحب، وكمال الخضوع، فأحب خلق الله إليه، وأقربهم منزلة عنده؛ من قام بهذه المحبة والعبودية، وأثنىٰ عليه بذكر أوصافه العلىٰ، فمن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه؛ لأنه يُنقص هذه المحبة والخضوع والإنابة والتعظيم، ويجعل ذلك بينه وبين من أشرك به، والله لا يغفر أن يُشرك به، لأنه يتضمَّن التسوية بينه تعالىٰ وبين غيره في المحبة والتعظيم، وغير ذلك من أنواع العبادة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن من أحبَّ شيئًا دون الله كما يحب الله؛ فقد اتخذه ندًّا، وهذا معنىٰ قول المشركين لمعبوديهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فهذه تسوية في المحبة والتألُّه؛ لا في الذات والأفعال والصفات؛ فمن صرف ذلك لغير إلهه الحق؛ فقد أعرض عنه، وأبَقَ عن مالكه وسيده؛ فاستحق مقته وبغضه، وطرده عن دار كرامته ومنزل أحبابه».

فواجب الخلق أجمعين أن يقدروا الله حق قدره، فلا ينزلوا مخلوقًا منزلة الله، فيتخذوه ندًّا؛ بصرف أنواع العبادة له، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ فالمربوب لا يكون ربًّا، ولا يُقام الوجه إليه ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠]، فصفوة المخلوقين الملائكة والنبيون - عليهم السلام - من عبدهم أو اتخذهم أربابًا؛ فقد كفر وأشرك، فكيف بمن عبد الناقصين من البشر أو الجمادات كالأحجار والأشجار؟

قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالألوهية وصفه تعالىٰ، والعبودية وصف عبده».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إقامة الوجه للدِّين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقىٰ في القلب إرادة لغيره.

والحنيف: المُفْرِدُ لمعبوده، لا يريدُ غيره؛ فالصِّدْقُ أن لا ينقسم طلبك، والإخلاصُ: أن لا ينقسم مطلوبك؛ الأول: توحيد الطلب، والثاني: توحيد المطلوب».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٠٣).

(٢) جِلاء الأفهام (ص ٣٩١).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإخلاص لله معناه: «أن يقصد المرء بعبادته التقرب إلىٰ الله تعالىٰ والتوصل إلىٰ دار كرامته»؛ بأن يكون العبد مخلصًا لله تعالىٰ في قصده، مخلصًا لله تعالىٰ في محبته، مخلصًا لله تعالىٰ في تعظيمه، مخلصًا لله تعالىٰ في ظاهره وباطنه، لا يبتغي بعبادته إلا وجه الله تعالىٰ، والوصول إلىٰ دار كرامته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٤]، وقد أرسل الله تعالىٰ جميع الرسل بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكما وضّح الله ذلك في كتابه كما قال المؤلف[٢]: «من وجوه شتىٰ بكلام يفهمه أبلد العامة». فقد وضّحه رسول الله ﷺ؛ فقد جاء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بتحقيق التوحيد وإخلاصه وتخليصه من كل شائبة، وسدّ كل طريق يمكن أن يوصل إلىٰ ثلم هذا التوحيد أو إضعافه، حتىٰ إن رجلًا قال للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت» فقال النبي ﷺ: «**أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده**». فأنكر النبي ﷺ علىٰ هذا الرجل

---

(١) شرح الأصول الستة (ص ١٤٤، ١٤٥).

(٢) الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أن يقرن مشيئته بمشيئة الله تعالىٰ، بحرف يقتضي التسوية بينهما، وجعل ذلك من اتخاذ الند لله عَزَّوَجَلَّ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده؛ فلا يصلي إلا لله، ولا يصوم إلا لله، ولا يحج إلا بيت الله، ولا يتوكل إلا علىٰ الله، ولا يخاف إلا الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يحلف إلا بالله، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»، وفي السنن: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا»؛ لأن الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله توحيد».



(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٠، ٨١).

النهي عن الشرك

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الثانية: أن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرّب ولا نبي مرسل.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ».

الشَّرح:

أمرنا الله بعبادته وحده، ونهانا عن الشرك به؛ فقال تعالىٰ: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم؛ فلا تشركوا به شيئًا، لا شرك أكبر ولا أصغر، وهو عام للنهي عن الشرك في القصد والإرادات، والقول والعمل.

والأمر بتحقيق التوحيد والنهي عن الشرك هو حقيقة الدين، قال تعالىٰ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

والتوحيد وتجريده وتحقيقه هو حق الله الخالص، فالله لا يرضىٰ أن يُشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرّب ولا نبي مرسل، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٥).

يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وتنصيص الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتحذيره علىٰ وجه الخصوص من اتخاذ الملائكة والنبيين شركاء وأندادًا مع الله؛ سببه وقوع ذلك من الخلق، ولما جُبلت عليه بعض النفوس من الغلو في الملائكة والنبيين والصالحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير وغيرهما؛ فنهىٰ الله عن ذلك، وأخبر تعالىٰ أن هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه، وأنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله عنهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

ولهذا نهىٰ النبي ﷺ أن يُتخذ قبره مسجدًا وأن يُتخذ عيدًا، وقال في مرض موته: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يُحذِّر ما صنعوا، أخرجاه في الصحيحين، وقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا**

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

يُعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، رواه مالك في موطئه. وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**» متفق عليه.

وقال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد. بل ما شاء الله ثم شاء محمد**»، وقال بعض الأعراب: ما شاء الله وشئت. فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»، وقد قال الله تعالىٰ له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وهذا تحقيق التوحيد، مع أنه ﷺ أكرم الخلق علىٰ الله، وأعلاهم منزلة عند الله».



عقيدة الولاء والبراء

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**إن من أطاع الرسول، ووحَّد الله لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب؛ والدليل قوله تعالى:** ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

الشَّرح:

أبان الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القطعة من العقيدة بنيان عقيدة التوحيد وتأسيسها علىٰ البراء من الشرك والمشركين، وكرّر ذلك بوضوح في هذه الرسالة علىٰ إيجازها، وما ذاك إلا لأنها أساس في العقيدة، لا يصح التوحيد بدون تحقيقها؛ ولذلك قال أيضًا في تأكيد بيان هذه العقيدة[2]:

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٥، ٦).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٥).

«الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، **والخلوص من الشرك**».

وقال مقررًا لذلك في معنىٰ ركن كلمة التوحيد[١]: ««لا إله»: نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله، «إلا الله» مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه، وتفسيرها الذي يوضِّحها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]».

وقال مبينًا منهج النبي ﷺ في دعوته[٢]: «نُبئ بـ«اقرأ»، وأُرسل بـ«المُدَّثر»، وبلده مكة بعثه الله بالنِّذارة عن الشرك، ويدعو إلىٰ التوحيد».

وقال الإمام أيضًا[٣]: «ومعنىٰ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] يُنذر عن الشِّرك، ويدعو إلىٰ التَّوحيد».

وقال زيادةً في البيان[٤]: «﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، الرُّجز: الأصنام، وهجرها: تركها، والبراءة منها وأهلها».

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٦).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٤).

(٣) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٤، ٢٥).

(٤) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٥).

وقال أيضًا مبينًا واجب المسلمين في مفارقة ديار الشرك[١]: «والهجرة فريضة علىٰ هذه الأمة من بلد الشِّرك إلىٰ بلد الإسلام، وهي باقية إلىٰ أن تقوم الساعة».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ**؛ مبيّنًا حقيقة دعوة المرسلين**[٢]: «وكلُّ أمة بعث الله إليها رسولًا - من نوح إلىٰ محمد - يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت؛ والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وافترض الله علىٰ جميع العباد الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله».

وقال موضحًا مقررًا ومبيّنًا ذلك في كتاب التوحيد باب [تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله][٣]، في المسائل[٤]: «قول الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للكفار ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فاستثنى من المعبودين ربَّه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسيرة شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨]».

والإيمان بالله وتوحيده لابد فيه الولاء لله والبراء من الشرك والمشركين.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الإيمان بالله والنبي وما أُنزل إليه مستلزم لعدم

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٥، ٢٦).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٣١، ٣٢).

(٣) كتاب التوحيد (ص٣٣).

(٤) كتاب التوحيد (ص٣٤).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٣١).

ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان؛ لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم.

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يوادّ كافرًا، فمن وادّ الكفار فليس بمؤمن، فالمشابهة الظاهرة مظنة المودة؛ فتكون محرمة».

والتشبه بالكافرين مضاد للبراء منهم وكيف يتشبه المسلمون بالكافرين وقد أخبرنا الله بما تكنُّه صدورهم نحونا؟! قال سبحانه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

والكفار فرحهم عظيم بتشبه المسلمين بهم، وكلما عظم تشبه المسلمين بهم عظم فرحهم، ولا يرضيهم إلا أن نكون علىٰ دينهم، قال تعالىٰ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والتشبه بالكافرين يُضعف الدين، ويفسد عقيدة البراء من الكافرين، ويجعل المسلم مجافيًا لدينه متوليًا أعداءه، ساخرًا بقومه، منبهرًا بالكافرين الذين نعتهم الله بأنهم أعداؤه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى

وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

والتشبه بالكافرين هو دهليز المروق من الدين والكفر برب العالمين، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿كَـٰفِرِينَ﴾، المراد به: الكفر المخرج عن الملة، لكنهم قد لا يستطيعون أن يخرجونا من الإيمان بالكلية، لكن بالتدريج مما يلقونه أمامنا من معوقات كمال الإيمان، حتىٰ ينحل الإيمان شيئًا فشيئًا، ولا يبقىٰ في القلوب شيء، وحينئذ يكون الكفر المحض».

والتشبه بالكافرين يُوقع في الشرك، وقد نص النبي ﷺ علىٰ هذا المعنىٰ بعينه؛ حتىٰ يحفظ المسلمون عقيدتهم وتوحيدهم وإيمانهم، ففي «صحيح مسلم» من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «**إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وصف ﷺ أن الذين كانوا قبلنا

---

(١) تفسير سورة آل عمران (١/ ٥٧٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٩٨، ١٩٩)، ط: دار الفضيلة.

كانوا يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وعقّب هذا الوصف بالأمر بحرف الفاء، أن لا يتخذوا القبور مساجد، وقال إنه ﷺ ينهانا عن ذلك، ففيه دلالة علىٰ أن اتخاذ من قبلنا سبب لنهينا، إما مظهر للنهي، وإما موجب للنهي، وذلك يقتضي: أن أعمالهم دلالة وعلامة علىٰ أن الله ينهانا عنها، أو أنها علة مقتضية للنهي».

ومن أوضح الأدلة علىٰ أن التشبه بالكافرين يُوقع في الشرك: حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يُقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله**!** اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر! إنها السنن، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **لتركبن سنن من كان قبلكم**»، رواه مالك، والنسائي، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والبراءة من الشرك والكفر والكافرين، وترك موالاتهم وموادتهم والتشبه بهم؛ من أوضح شعائر الإسلام، وهي صفة المؤمنين الذين تحققوا بالإيمان والتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ونظائر هذا في غير موضع من القرآن: يأمر سبحانه بموالاة المؤمنين حقًّا - الذين هم حزبه وجنده - ويُخبر أن هؤلاء لا يوالون الكافرين، ولا يوادونهم».

وظهور هذه العقيدة في شرع الإسلام ووضوحه يعرفه المشركون معرفة ظاهرة، فضلًا عن أهل الإسلام أنفسهم، فقد روىٰ مسلم في صحيحه عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: «ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلَّا خالفنا فيه.

ومخالفة الشرك والكفر والمشركين هو من تحقيق التوحيد ولزوم الدين، ومن أسباب ظهوره وظهور شرائعه؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: «**لا يزال الدين ظاهرًا ما عجّل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارىٰ يؤخرون**»، رواه أبو داود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وهذا نص في أن ظهور الدين

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١١٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٣١).

الحاصل بتعجيل الفطر لأجل مخالفة اليهود والنصارىٰ.

وإذا كان مخالفتهم سببًا لظهور الدين، فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله علىٰ الدين كله، فيكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة».

ومع كثرة الأدلة من القرآن والسنة الآمرة بالبراء من الكافرين ومخالفتهم، فالعقل يقتضي ذلك، فالتوحيد والصلاة وقراءة القرآن تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، قال تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، والكفر والأهواء لا تبعث ولا تدعو إلا إلىٰ الأعمال الفاسدة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فالكفر بمنزلة مرض القلب، وأشد، ومتىٰ كان القلب مريضًا، لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة، وإنما الصلاح: أن لا تُشبه مريض القلب في شيء من أموره، وإن خفي عليك مرض ذلك العضو، لكن يكفيك أن فساد الأصل لا بد أن يؤثر في الفرع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شأن أعمال الكافرين**[(٢)]: «إن

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٢٥). (٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦١).

جميع ما يعملونه - مما ليس من أعمال المسلمين السابقين - إما كفر، وإما معصية، وإما شعار كفر، أو معصية، وإما مظنة للكفر والمعصية، وإما أن يخاف أن يجر إلىٰ معصية، وما أحسب أحدًا ينازع في جميع هذا».

والواجب علىٰ المسلمين التأسي والتشبه بخير خلق الله أجمعين، الأسوة الحسنة، المعصوم، المصطفىٰ - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، والتشبه بالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم**»، متفق عليه من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وقد قال تعالىٰ لنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وذلك يقتضي تبرّؤه منهم في جميع الأشياء. ومن تابع غيره في بعض أموره، فهو منه في ذلك الأمر، لأن قول القائل: أنا من هذا، وهذا مني. أي: أنا من نوعه، وهو من نوعي؛ لأن الشخصين لا يتحدان إلا بالنوع، كما في قوله تعالىٰ: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنت مني وأنا منك**».

فقول القائل: لست من هذا في شيء. أي: لست مشاركًا له في شيء، أنا متبريء من جميع أموره.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١١٢).

وإذا كان قد برّأ الله رسوله ﷺ من جميع أمورهم، فمن كان متبعًا للرسول ﷺ حقيقة كان متبرئًا من جميع أمورهم، فمن كان متبعًا للرسول ﷺ كان متبرئًا كتبرُّئه، ومن كان موافقًا لهم كان مخالفًا للرسول ﷺ بقدر موافقته لهم، فإن الشخصين المختلفين من كل وجه في دينهما، كلما شابهت أحدهما، خالفت الآخر».

وقد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن أعمال الكافرين ضلال، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٨]، وهذا كافٍ في الزجر عن التشبه بالكافرين، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿وَأَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله؛ أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يُدركوا مما قصدوا شيئًا، وأعمالهم التي يرجون أن يُثابوا عليها، أن الله سيُحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يُراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان، والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة؛ كانت الأعمال لأجلها باطلة».

والموالاة للمؤمنين والبراءة من الكافرين باعثها حب الله والإيمان به، وكلما قوي إيمان العبد قويت محبته للمؤمنين وموالاته لهم، فإن «**أوثق عرىٰ**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٥٠، ٧٥١).

الإيمان الحب في الله والبغض في الله»، كما قال النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإنما عبد الله من يرضيه ما يُرضي الله، ويُسخطه ما يُسخط الله، ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله ﷺ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ﷺ، ويوالي أولياء الله، ويُعادي أعداء الله تعالىٰ، وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: «**من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»، وقال: «**أوثق عُرىٰ الإيمان: الحُبُّ في الله، والبُغض في الله**»، وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يُحبُّ المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقىٰ في النار**». فهذا وافق ربَّه فيما يُحبُّهُ وما يكرهه، فكان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأحبَّ المخلوق لله لا لغَرَضٍ آخر، فكان هذا من تمام حُبِّه لله، فإنَّ محبَّة مَحْبُوبِ المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحبَّ أنبياء الله - عليهم السلام - وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحقِّ، لا لشيء آخر، فقد أحبَّهم لله لا لغيره، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن

(١) العبودية (ص ٨٢، ٨٣).

الرسول ﷺ يأمر بما يُحبُّ الله، وينهىٰ عمَّا يبغضه الله، ويفعل ما يُحبُّه الله، ويُخبر بما يُحبُّ الله التصديق به.

فمن كان مُحبًّا لله لزم أن يتَّبع الرَّسول ﷺ، فيُصدِّقه فيما أخبر، ويُطيعه فيما أمر، ويتأسَّىٰ به فيما فَعَلَ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يُحبُّه الله؛ فيُحبُّه الله».

والبراءة من الشرك والمشركين والكفر والكافرين هو من تجريد التأله لله رب العالمين، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ تحقق القلب بمعنىٰ «لا إله إلا الله»، وصدقه فيها، وإخلاصه بها يقتضي أنْ يرسخَ فيه تألُّهُ الله وحده؛ إجلالًا، وهيبةً، ومخافةً، ومحبَّةً، ورجاءً، وتعظيمًا، وتوكُّلًا، ويمتلئَ بذلك، وينتفيَ عنه تألُّه ما سواه من المخلوقين، ومتىٰ كان كذلك، لم يبقَ فيه محبَّةٌ، ولا إرادةٌ، ولا طلبٌ لغير ما يُريدُهُ الله ويحبُّه ويطلبه، وينتفي بذلك مِنَ القلب جميعُ أهواءِ النُّفوس وإراداتها، ووساوس الشيطان، فمن أحب شيئًا وأطاعه، وأحبَّ عليه وأبغض عليه؛ فهو إلههُ، فمن كان لا يحبُّ ولا يبغضُ إلا لله، ولا يُوالي ولا يُعادي إلا له، فالله إلههُ حقًّا، ومن أحبَّ لهواه، وأبغض له، ووالىٰ عليه، وعادىٰ عليه، فإلهه هواه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قالَ الحسن: هوَ الذي لا يهوىٰ شيئًا إلا ركبه. وقال قتادة: هوَ الذي كلما هَوِيَ شيئًا ركبه، وكلما اشتهىٰ شيئًا أتاه،

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٣٩٦).

لا يَحجزُهُ عن ذلك ورعٌ ولا تقوىٰ».

وهل تغيّرت ملة إبراهيم في جزيرة العرب ووقع الشرك وحُرّم الحلال إلا بسبب التشبه بالكافرين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن عمرو بن لحي هو أول من نصب الأنصاب حول البيت، ويُقال: إنه جلبها من البلقاء، من أرض الشام، متشبهًا بأهل البلقاء، وهو أول من سيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمىٰ الحامي، فأخبر النبي ﷺ أنه رآه «**يجر قصبه في النار**»، وهي الأمعاء، ومنه سُمي القصاب بذلك، لأنها تُشبه القصب، ومعلوم أن العرب قبله كانوا علىٰ ملة أبيهم إبراهيم، علىٰ شريعة التوحيد، والحنيفية السمحة، دين أبيهم إبراهيم.

فتشبّهوا بعمرو بن لحي وكان عظيم أهل مكة يومئذ، لأن خزاعة كانوا ولاة البيت قبل قريش، وكان سائر العرب متشبهين بأهل مكة؛ لأن فيها بيت الله، وإليها الحج، ما زالوا مُعظّمين من زمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتشبه عمرو بمن رآه في الشام، واستحسن بعقله ما كانوا عليه، ورأىٰ أن في تحريم ما حرّمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي تعظيمًا لله ودينًا، فكان ما فعله أصل الشرك في العرب، أهل دين إبراهيم، وأصل تحريم الحلال، وإنما فعله متشبهًا فيه بغيره من أهل الأرض، فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتىٰ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٠٩).

غلب علىٰ أفضل الأرض الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وتغير دينه الحنيف، إلىٰ أن بعث الله رسوله ﷺ فأحيا ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأقام التوحيد، وحلّل ما كانوا يحرمونه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من كانت له خبرة بالسيرة علم يقينًا أن المسلمين علىٰ عهده ﷺ ما كانوا يشركونهم – الكفار – في شيء من أمرهم».

وقال[٢]: «ثم علىٰ هذا جرىٰ عمل المسلمين علىٰ عهد الخلفاء الراشدين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كلما كثرت المخالفة بينك وبين أصحاب الجحيم، كان أبعد عن أعمال أهل الجحيم».

والنهي عن مشابهة الكافرين، هذا عام في كل ما اختصوا به، وإذا كان من شعارهم، فالنهي أغلظ وأشد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «إن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر، بل الأعياد

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٠٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٠٠).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣١٧).

هي من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر، وأظهر شعائره، ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلىٰ الكفر في الجملة بشروطه».

ومشابهة الكفار في صغير أمورهم يفضي إلىٰ مشابهتهم في شعائرهم وأمورهم الكبيرة؛ فلا ريب في تحريم هذا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إذا كانت المشابهة في القليل ذريعة ووسيلة إلىٰ بعض هذه القبائح، كانت محرمة، فكيف إذا أفضت إلىٰ ما هو كفر بالله؛ من التبرك بالصليب والتعميد في المعمودية، أو قول القائل: المعبود واحد وإن كانت الطرق مختلفة. ونحو ذلك من الأقوال والأفعال التي تتضمن: إما كون الشريعة النصرانية واليهودية المبدلتين المنسوختين موصلة إلىٰ الله، وإما استحسان بعض ما فيها مما يخالف دين الله، أو التدين بذلك، أو غير ذلك مما هو كفر بالله وبرسوله وبالقرآن وبالإسلام بلا خلاف بين الأمة الوسط في ذلك، وأصل ذلك المشابهة والمشاركة.

وبهذا يتبين لك **كمال موقع الشريعة الحنيفية**، وبعض حكمة ما شرعه الله لرسوله ﷺ من **مباينة الكفار ومخالفتهم في عامة أمورهم؛ لتكون المخالفة أحسم لمادة الشر، وأبعد عن الوقوع فيما وقع فيه الناس**».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا علّة النهي عن التشبه بالكفار مطلقًا[١]: «استدلالنا بأصول الشريعة يوجب النهي عن هذه الذريعة، فكيف وقد رأينا من المنكرات التي أفضت إليها المشابهة ما قد يوجب الخروج من الإسلام بالكلية؟!

وسر هذا الوجه: أن المشابهة تفضي إلىٰ كفر، أو معصية غالبًا، أو تفضي إليهما في الجملة، وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضىٰ إلىٰ ذلك كان محرمًا، فالمشابهة محرّمة. والمقدمة الثانية لا ريب فيها، فإن استقراء الشريعة في مواردها ومصادرها دال علىٰ أن ما أفضىٰ إلىٰ الكفر - غالبًا - حرم، وما أفضىٰ إليه علىٰ وجه خفي حرم، وما أفضىٰ إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حرم، كما قد تكلمنا علىٰ قاعدة الذرائع في غير هذا الكتاب».

وشريعة الإسلام كمالها يغني عن التشبه بأهل الشرائع المنسوخة والمُحرّفة والمبدّلة، وليت الناس أخذوا ما آتاهم الله بقوة من الشريعة الكاملة الناسخة لما سبقها من الشرائع حتىٰ يأخذوا مما لا يجوز من أعمال الضالين والمغضوب عليهم، ولكن ضيّعوا، إلا ما شاء الله.

ومعلوم أن من تشبّه بالكفار ضعف دينه وإيمانه وربما ذهب بالكلية بحسب ما تشبّه بهم فيه، ومن كان هذا شأنه ضعفت رغبته في الأخذ بالشريعة الكاملة.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله شرع علىٰ لسان خاتم النبيين من الأعمال ما فيه صلاح الخلق علىٰ أتم الوجوه، وهو الكمال المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] ولهذا أنزل الله هذه الآية في أعظم أعياد الأمة الحنيفية، فإنه لا عيد في النوع أعظم من العيد الذي يجتمع فيه المكان والزمان وهو عيد النحر، ولا عين من أعيان هذا النوع أعظم من يوم كان قد أقامه رسول الله ﷺ بعامة المسلمين، وقد نفىٰ الله تعالىٰ الكفر وأهله. والشرائع هي غذاء القلوب وقوتها كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ - ويُروىٰ مرفوعًا: «إن كل آدب يُحب أن تؤتىٰ مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن».

ومن شأن الجسد إذا كان جائعًا فأخذ من طعام حاجته، استغنىٰ عن طعام آخر، حتىٰ لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة وتجشم، وربما ضره أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمَّته إلىٰ المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ويتم دينه ويكمل إسلامه».

ومشابهة الكفار في الظاهر تُوقع في المشابهة في الباطن، ناهيك عما يورثه

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٦).

ذلك من محاكاتهم في أخلاقهم وصفاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الله تعالىٰ جبل بني آدم - بل سائر المخلوقات - علىٰ التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتىٰ يؤول الأمر إلىٰ أن لا يتميّز أحدهما عن الآخر إلَّا بالعين فقط، ولما كان بين الإنسان وبين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص كان التفاعل فيه أشد، ثم بينه وبين سائر الحيوان مشاركة في الجنس المتوسط، فلا بد من نوع تفاعل بقدره، ثم بينه وبين النبات مشاركة في الجنس البعيد مثلًا، فلا بد من نوع ما من المفاعلة.

ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمعاشرة والمشاكلة، وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعًا من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه، ولهذا صار الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمّالون والبغّالون فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلّابون، وصار الحيوان الإنسي فيه بعض أخلاق الناس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة.

فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة علىٰ وجه المسارقة والتدريج الخفي.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٩، ٣٣٠).

وقد رأينا اليهود والنصارىٰ الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفرًا من غيرهم[١]، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارىٰ هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرّد الإسلام، والمشاركة في الهدي الظاهر توجب أيضًا مناسبة وائتلافًا وإن بعُد المكان والزمان».

والتشبه بالكافرين قد يكون كفرًا وقد يكون معصية؛ بحسب ما تُشبه بهم فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ولحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تشبّه بقوم فهو منهم**»، رواه أحمد، وجوّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢].

وقال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من بنىٰ بأرض المشركين، وصنع نيروزهم، ومهرجانهم، وتشبّه بهم حتىٰ يموت؛ حُشر معهم يوم القيامة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «قد يُحمل هذا علىٰ التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد **يُحمل علىٰ أنه منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفرًا، أو معصية، أو شعارًا لها، كان حكمه كذلك**».

(١) لا يخالطهم بقصد دعوتهم للإسلام إلا من كان قويًا في دينه وعلمه.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦٤).

والموالاة للكافر قد تكون كفرًا مخرجًا من الملة وقد تكون ذنبًا؛ بحسب نية من والاهم ونوع موالاته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقد يحصل من الرجل نوع من موادتهم لرحم أو حاجة، فيكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الممتحنة: ١].

وكما حصل من سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما انتصر لابن أُبَيٍّ، نوبة الإفك، فقال لسعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر علىٰ قتله.

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية.

ولهذه الشبهة سمىٰ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حاطبًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ منافقًا، فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال له: «**إنه قد شهد بدرًا**». فكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ متأولًا في تسميته منافقًا للشعبة التي فعلها، وكذلك قول أسيد بن حضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لسعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كذبت لعمر الله لنقتلنه،

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٠٣، ٤٠٤).

إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين. هو من هذا الباب.

وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشن: منافق. إن كان قال ذلك، لما رأىٰ فيه من نوع معاشرة، ومودة للمنافقين.

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعًا واحدًا، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق، وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان، ولما قوي الإيمان - وظهور الإيمان وقوته عام تبوك -؛ صاروا يتعاقبون من النفاق علىٰ ما لم يكونوا يتعاقبون عليه قبل ذلك».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والنفاق كالكفر، نفاق دون نفاق ولهذا كثيرًا ما يقال: كفر ينقل من الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان: شرك أكبر وأصغر».

والأمة - ولله الحمد - مجمعة علىٰ مقتضىٰ الدليل من الكتاب والسنة من تحريم التشبه بالكافرين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «عامة علماء الإسلام من المتقدمين، والأئمة المتبوعين وأصحابهم في تعليل النهي عن أشياء بمخالفة الكفار، أو مخالفة النصارىٰ، أو مخالفة الأعاجم، وهو

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٠٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٣٣).

أكثر من أن يمكن استقصاؤه، وما من أحد له أدنىٰ نظر في الفقه إلَّا وقد بلغه من ذلك طائفة، وهذا بعد التأمل والنظر يورث علمًا ضروريًّا باتفاق الأئمة علىٰ النهي عن موافقة الكفار والأعاجم، والأمر بمخالفتهم».

وقبل كلام الفقهاء إجماع الصحابة السابق، كما جاء في شروط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ أهل الذمة من نهيهم عن إظهار شعائرهم وشرائعهم، ونهيهم عن التشبه بالمسلمين.

فالمؤمن ينظر في علو الكافرين وظهورهم في هذه الأيام في ضوء قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٧].

ومهما أوتي الكفار من حذق في تدبير أمورهم، فإن مآلهم إلىٰ الضعف، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، بينما أولياء الله يدبّر أمورهم الله الذي قال حاثًّا علىٰ التوكل عليه: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

والمبتدع كذلك لا يجوز التشبه به وتجب البراءة من بدعته وردّها ونصيحة المسلمين في ذلك، فإن إقرارها سبب لتغيير الشريعة، والبدع بريد الكفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي؛ التشبه بالكافرين، كما أن من أصل كل

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢١٠).

خير المحافظة علىٰ سنن الأنبياء وشرائعهم، ولهذا عظم وقع البدع في الدين، وإن لم يكن فيها تشبُّه بالكفار، فكيف إذا جمعت الوصفين؟».

وقال أيضًا[١]: «أما مشابهة الكفار فكمشابهة أهل البدع وأشد».

علىٰ كل حال: البدع منهي عنها وعن التشبه بأهلها سواء وافقت الكافرين أم لم توافقهم، فكل من البدعة والكفر منهي عنه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «جميع الأدلة الدالة من الكتاب والسنة والإجماع علىٰ قبح البدع، وكراهتها تحريمًا أو تنزيهًا؛ تندرج هذه المشابهات فيها، فيجتمع فيها أنها بدع محدثة، وأنها مشابهة للكافرين، وكل واحد من الوصفين موجب للنهي؛ إذ المشابهة منهي عنها في الجملة ولو كانت في السلف[٣]، والبدع منهي عنها في الجملة، ولو لم يفعلها الكفار، فإذا اجتمع الوصفان صارا علتين مستقلتين في القبح والنهي».

وعند الحديث عن موالاة الكفار والبراءة منهم، لا بد أن يُميِّز طالب العلم بين موالاة الكافر ومعاملة الكافر، فمعاملة الكافر وفق قوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، لا شيء فيها إذا لم تتضمن محظورًا، فهذا

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣١٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٨٦).

(٣) أي في زمنهم.

ليس كحبهم وحب ظهور دينهم.

والاستعانة بالكافر حيث تقتضيه الحاجة أو الضرورة لمصلحة الإسلام والمسلمين لا بأس بذلك، فالنبي ﷺ استعان بعمه الكافر أبي طالب في بداية الدعوة عند تسلط كل الأعداء عليه، وأبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمكة دخل في جوار ابن الدغنة وهو كافر، رواه البخاري.

والنبي ﷺ أمر بعض أصحابه بالهجرة إلىٰ الحبشة، وكان النجاشي نصرانيًّا، ولم يُسلم بعد.

والنبي ﷺ أعانه بنو هاشم وبنو عبد المطلب وأعيان قريش كالمطعم بن عدي في فك الحصار عنه وعن أصحابه في حصار الشعب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «فحمىٰ الله رسوله بعمِّه أبي طالب، لأنه كان شريفًا مُعظَّمًا في قريش، مُطاعًا في أهله، وأهل مكة لا يتجاسرون علىٰ مكاشفته بشيء من الأذىٰ».

وقال ابن القيم أيضًا[(٢)]: «وكانت قريش في ذلك بين راضٍ وكاره، فسعىٰ في نقض الصحيفة من كان كارهًا لها، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك، مشىٰ في ذلك إلىٰ المطعم بن عدي

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠).

وجماعة من قريش، فأجابوه إلىٰ ذلك».

وقال تعالىٰ في شأن دفع بعض قوم شعيب الكفرة عنه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

والنبي ﷺ في هجرته إلىٰ المدينة استأجر عبد الله بن أُريقط ليدله علىٰ طريق الهجرة، والهجرة كانت هي اللحظة الحاسمة في ظهور الإسلام وعزته وتأسيس دولته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في استئجار النبي ﷺ عبد الله بن أريقط الديلي هاديًا في وقت الهجرة وهو كافر دليل علىٰ جواز الرجوع إلىٰ الكافر في الطب والكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة، ولا يلزم من مجرد كونه كافرًا أن لا يوثق به في شيء أصلًا، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق، ولا سيما في مثل طريق الهجرة».

واستعار النبي ﷺ من صفوان بن أمية أدراعه وكان كافرًا يوم حنين، قال ابن القيم في «فوائده»[2]: «إن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعُدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدراع صفوان، وهو يومئذ مشرك».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٨)، ط: دار الفكر.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٧٩).

وقال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أدركت الأئمة - الفقيه منهم وغير الفقيه - يغزون بأهل الذمة فيقسمون لهم، ويضعون عنهم من جزيتهم».

وسُئل قتادة عن أهل العهد يغزون مع المسلمين؟ قال: لهم ما صالحوا عليه، ما جُعل لهم فهو لهم[٢].

وقال أبو حنيفة الإمام في الاستعانة بالكافر[٣]: «يجوز حيث يستقيمون علىٰ أوامر ونواهي الإمام».

وقال محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «رُوي عن مالك أنه أجاز أن يُستعان بهم في القتال إذا كانوا ناحيةً، قال: ولا بأس أن يقوم بمن سالمه من الحربيين علىٰ من لم يُسالمه».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «وإن كان مشرك يغزو مع المسلمين، وكان معه في الغزو من يطيعه من مسلم أو مشرك، وكانت عليه دلائل الهزيمة والحرص علىٰ غلبة المسلمين وتفريق جماعتهم لم يجز أن يغزو به، وإن غزا به لم يُرضخ له؛ لأن هذا إذا كان في المنافقين مع استتارهم بالإسلام كان

(١) المحلىٰ (٧/ ٣٣٤).

(٢) رواه عبد الرزاق عن معمر سمعت قتادة، المحلىٰ (٧/ ٣٣٤)، إسناده صحيح.

(٣) نيل الأوطار (٧/ ٢٤٤)، ط: دار الكتب العلمية.

(٤) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ١٥٣).

(٥) الأم (٤/ ١٦٦)، ط: دار المعرفة.

في المكتشفين في الشرك مثله فيهم أو أكثر إذا كانت أفعاله كأفعالهم أو أكثر، ومن كان من المشركين علىٰ خلاف هذه الصفة فكانت فيه منفعة للمسلمين بدلالة علىٰ عورة عدو، أو طريق، أو ضيعة، أو نصيحة للمسلمين؛ فلا بأس أن يغزىٰ به، وأحب إليَّ أن لا يُعطىٰ من الفيء شيئًا، ويستأجر إجارة».

وأما بالنسبة لفقه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، فقد قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وعن أحمد ما يدل علىٰ جواز الاستعانة به، وكلام الخرقي يدل عليه أيضًا عند الحاجة».

ثم قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ويُشترط أن يكون من يُستعان به حسن الرأي في المسلمين، فإن كان غير مأمون عليهم لم يجز الاستعانة به؛ لأننا إذا منعنا الاستعانة بمن لا يُؤْمَن من المسلمين، مثل المُخذّل والمُرْجِف، فالكافر أولىٰ».

وأما حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **أنها قالت:** خرج رسول الله ﷺ قِبَلَ بدر، فلما كان بحَرَّة الوبرة - علىٰ مسافة ثلاثة أميال من المدينة -، أدركه رجل قد كان يُذكر منه جُرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله ﷺ: «**تؤمن بالله ورسوله؟**» قال: لا!

---

(١) المغني (١٣/ ٩٨).

(٢) المغني (١٣/ ٩٨).

قال: «ارجع، فلن أستعين بمشرك»[١].

فقد أجاب عنه الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله[٢]: «لعله ردّه رجاء إسلامه، وذلك واسع للإمام أن يرد المشرك فيمنعه الغزو، ويأذن له».

فمعنىٰ كلام الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأمر في ذلك إلىٰ رأي الإمام، وقيل: إن الاستعانة كانت ممنوعة ثم رُخص فيها. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وهذا أقربها».

وعند الحديث عن موالاة الكافرين وعن معاملتهم لا بد من التمييز بين مداراة الكافر ومداهنة الكافر، فالمداراة بذل الدنيا من أجل الدين، والمداهنة بذل الدين من أجل الدنيا، وهذا لا يجوز.

قال العلامة المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران: ٢٨] يعني: إلا أن يفعل ذلك المؤمن تُقاةً له من جورهم وسلطانهم، ويخشىٰ شرهم، فيجاملهم ويداريهم من باب المداراة واتقاء الشر، لا من باب المحبة في الباطن، والله يعلم ما في القلوب، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلۡ إِن

---

(١) رواه مسلم كتاب الجهاد، باب كراهية الاستعانة في الغزو بكافر (رقم ١٨١٧).

(٢) الأم (٤/ ١٦٧).

(٣) التلخيص الحبير (٤/ ١٠١).

(٤) فوائد التفسير (ص١٥٠، ١٥١).

تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، فالله يعلم ما في القلوب والضمائر ويعلم من يواليهم عن محبة وقصد، ومن هو ليس كذلك، ويجازيهم علىٰ نياتهم.

والموالاة تصنع الحبَّ في القلوب، ثم ينتج عنها موالاة بالنصرة والتأييد والمساعدة علىٰ المسلمين. والمعاداة تصنع البغضاء في القلب ثم ينتج عنها ما يجب من مقاطعة ومن جهاد ومن غير ذلك، فالموالاة والمعاداة تكون بالأفعال، وأصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة البغضاء.

فالواجب حبُّ المؤمنين وموالاتهم ونصرتهم علىٰ أعدائهم، والواجب بغض الكافرين ومعاداتهم، وجهادهم في الله عَزَّوَجَلَّ حسب الطاقة والإمكان، ولهذا قال في الآية الأخرىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وفي آية أخرىٰ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وهذا كله يُبيّن لنا وجوب معاداة أعداء الله وبغضهم في الله عَزَّوَجَلَّ، ولو كانوا آباءً أو إخوانًا أو غيرهم من الأقارب، ووجوب محبة أولياء الله وموالاتهم

وإن كانوا بعيدين منك نسبًا وقرابة، فالإسلام جمع بين أهله وإن تباعدت أقطارهم وأنسابهم، والكفر يباعد بينهم وإن تقاربت أنسابهم وأوطانهم».

وقال سماحة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والتَّولِّي: هو الانضمام إليهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٥١] أي: ينضم إليهم ويكون في معسكرهم، أو ينصرهم علىٰ المسلمين، وهذه رِدَّةٌ عن الإسلام، ولهذا ذكر العلماء في نواقض الإسلام: مُظاهرة المشركين ومعاونتهم علىٰ المسلمين، فإن نصرهم وأعانهم علىٰ المسلمين، فهذا هو التولي. والموالاة أوسع من ذلك.

فيجب علىٰ المؤمن أن يحذر التولي والموالاة للكفار، وأن يكون حَذِرًا من هذه الأشياء، وبعيدًا منها، وأن يوالي المؤمنين، ويحبهم في الله جَلَّ وَعَلَا يرجو بهذا مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨] ومسألة التُّقاة شيء آخر، مثل مسألة الإكراه، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فإذا أظهر لهم بعض الموافقة لتوقي شرهم وخطرهم، لا عن حبٍّ لهم، ولا عن موافقة دينهم؛ فهذا شيء آخر غير الموالاة، وذلك من باب التَّقية أو من باب الإكراه.

ومن هذا ما يؤثر عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ ذكره البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

---

(١) فوائد من التفسير (ص١٥٢، ١٥٣).

بعض تراجمه تعليقًا: «إنا لنكْشِرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا تلعنهم»، نكشر أي: نبتسم أو نضحك لهم. وقلوبنا تلعنهم: لبغضهم في الله عَزَّوَجَلَّ، لكن نتقيهم، إما لسلطانهم، وإما لغير هذا من الأسباب التي توجب اتقاء شرهم، حتىٰ لا يضروا المسلمين؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي: أن البهرج والشيء الذي ليس له حقيقة لا ينفعكم، فالله يُحذِّركم نفسه أن تظهروا خلاف ما تبطنون، وأن تشاركوا أهل النفاق في إظهار الحق وأنتم علىٰ غيره، فالله يعلم كل شيء ولا تخفىٰ عليه خافية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وهذا فيه التحذير من محبة أعداء الله وموالاتهم، والأمر ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وأن هذا هو دين الله الذي بعث به رُسُله وأنزل به كتبه؛ ولهذا قال في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

فدل ذلك علىٰ أن هذه العداوة وهذه البغضاء أمدُها دخولهم في الإيمان، فإذا دخلوا في الإيمان انتهت هذه العداوة والبغضاء وصاروا من جملة الأولياء والأحباب في الله».



ملة إبراهيم

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**اعلم - أرشدك الله لطاعته - أن الحنيفية ملة إبراهيم: أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر جميع الناس وخلقهم لها؛ كما قال تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، **ومعنى (يعبدونِ): يوحدون، وأعظم ما أمر الله به: التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى عنه: الشرك، وهو دعوة غيره معه.**

والدليل قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] ».

الشَّرح:

ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي ملة النبيين جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا مما اتفقت عليه الشرائع كلها، وتنصيص الله بخصوص إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذلك؛ لأن النبيين جميعًا من بعده من ذريته، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال النبي ﷺ: «**أنا بشرىٰ أخي عيسىٰ، ودعوة أبي إبراهيم**»، رواه أحمد. والتنصيص علىٰ ملة إبراهيم خصوصًا؛ لأنه سيد

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٦، ٧).

الحنفاء: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، ومقاماته معلومةٌ في الدعوة للتوحيد والنهي عن الشرك والصبر علىٰ الأذىٰ في ذلك، وما أصابه بسبب ذلك من الأذىٰ حتىٰ ألقاه المشركون في نار عظيمة فأنجاه الله؛ لذلك قال الله في وصفه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧] .

والتنصيص علىٰ ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خصوصًا؛ لأمر الله جميع المرسلين باتباعها، خصوصًا خاتمهم محمد ﷺ، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كلٌّ –الرسل –يقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، لا سيما أفضل الرسل اللذيْن اتخذ الله كليهما خليلًا: إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم تسليمًا، فإنّ هذا الأصل بيَّنه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما».

والتنصيص علىٰ إبراهيم علىٰ وجه الخصوص؛ لأنه هو الذي قام ببناء الكعبة بأمر الله، فيصلي المسلمون جهتها، والصلاة من أعظم مقامات الموحدين وأعظم شعائر الملة، ويقيم المسلمون شعائر الحج، ويتخذوا من مقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مكة شعائر لله يجردون فيها التوحيد خالصًا لله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ ﴾ [البقرة: ١٢٥] .

والتنصيص علىٰ ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ وجه الخصوص؛ لأن الله جعلها باقية فيمن هداه من ذريته إلىٰ يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص ٣٧٩).

كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إبراهيم – صلوات الله عليه- هو الإمام الذي قال الله فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي الدين كله، قال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، والنبي ﷺ الذي أُمر باتباع ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بيّن أنها هي الصراط المستقيم الذي أوحي إليه، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] .

والكلمة الجامعة في بيان معنىٰ «ملة إبراهيم» هي الإيمان والعمل الصالح، الذي هو التوحيد والطاعة، لذلك ذكر الله أخص صفات إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (قانتًا حنيفًا)، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿قَانِتٗا﴾ مطيعًا، ﴿لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾: مائلًا إلىٰ التوحيد والطاعة».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ».

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص ٣٧٩).

(٢) رموز الكنوز (٤/ ١٠٥).

(٣) الدرر السنية (٢/ ٢٣).



وجوب تعلم الأصول الثلاثة

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**إذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمد** ﷺ».

الشَّرح:

هذه الأصول الثلاث جماعها قول النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد** ﷺ **رسولًا**»، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها.

وأيضًا: فالرضا به ربًّا يتضمن: توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه.

والشكر علىٰ نعمه يتضمن: رؤية كل ما مِنْهُ نعمةً وإحسانًا، وإن ساء عبده.

فالرضا به يتضمن: «شهادة أن لا إله إلا الله»، والرضا بمحمد رسولًا

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٧).

(٢) مدارج السالكين (ص٤٤٥).

يتضمن: «شهادة أن محمدًا رسول الله»، والرضا بالإسلام دينًا يتضمن: التزام عبوديته، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، فجمعت هذه الثلاثة الدين كله».

وهذه الأصول الثلاثة - من ربك، وما دينك، ومن نبيك -، دلّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢]، فالله يسأل عباده عن تجريدهم التوحيد له وحده لا شريك له، ويُبكّت من أشرك به ويخلّده في نار جهنم أبدًا، ويسأل عباده عمن أرسل إليهم وما التزموه من دعوته التي أُرسل بها، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره: مَنْ ربك، ومَنْ نبيك، وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. وأما الكافر فيقول: هاه.. هاه. لا أدري. ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن مَنْ كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضل سبيلًا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٦]، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فعميت عليهم الحجج».



(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٦).

من ربـــك؟ وبم عرفته

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فإذا قيل لك: من ربُّك؟ فقل: ربِّي الله الذي ربَّاني، وربَّى جميع العالمين بنعمته، وهو معبودي، ليس لي معبود سواه.

والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وكل من سوى الله عالَمٌ، وأنا واحد من ذلك العالم.

فإذا قيل لك: بم عرفت ربَّك؟

فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، ومن مخلوقاته: السموات السَّبع، والأرضون السَّبع، ومن فيهنَّ، وما بينهما؛ والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٧ - ١٠).

مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، **والربُّ هو المعبود، والدليل قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة».

الشَّرح:

استدل الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القطعة من العقيدة علىٰ التوحيد - خصوصًا توحيد الربوبية - بسورة الفاتحة؛ حيث قال[1]: «فإذا قيل لك: من ربُّك؟ فقل: ربِّي الله الذي ربَّاني، وربَّىٰ جميع العالمين بنعمته، وهو معبودي، ليس لي معبود سواه.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وكلُّ من سوىٰ الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم».

ولا ريب أن هذا الاستدلال من أحسن ما يكون وأقواه، فإن سورة الفاتحة هي أم القرآن، فجميع معاني القرآن ترجع إليه، والقرآن كله في تقرير التوحيد؛ فالاستدلال بسورة الفاتحة علىٰ التوحيد استدلال من أقرب الطرق وأقواها.

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **موضحًا دلالة سورة الفاتحة علىٰ التوحيد**[١]: «هذه السورة اشتملت علىٰ أُمّهات المطالب العالية أتمَّ اشتمال، وتضمَّنتها أكمل تضمن.

فاشتملت علىٰ التعريف بالمعبود تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بثلاثة أسماء، مرجعُ الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي [الله، والربُّ، والرحمن] وبُنيت السورة علىٰ الإلهية، والربوبية، والرحمة.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ مبنيٌّ علىٰ الإلهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ علىٰ الربوبية، وطلب الهداية إلىٰ صراطه المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة؛ فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لحمده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم؛ حسنها وسيئها، وتفرُّد الرب تعالىٰ بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكونَ حكمه بالعدل، وكلّ هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع كُل ما يُعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي

---

(١) مدارج السالكين (ص ١٠).

(٢) مدارج السالكين (ص ٩٤٥).

وإلزام بطاعته في نهيه وأمره؛ فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبىٰ من العذاب؛ فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم؛ فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ توحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ توحيد، و﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلىٰ طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد».

فحقيقة دعوة الرسل هي الدعوة إلىٰ توحيد الله وعبوديته وطاعته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، والأوامر الإلهية هي من حقوق كلمة التوحيد وتفصيل لها[1].

---

(١) بدائع التفسير (٥/ ٢٤٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وهذا قد عرّفه الله عباده برسله وكتبه؛ علموهم وزكُّوهم وأمروهم بما ينفعهم ونهوهم عمّا يضرهم، وبيّنوا لهم أن مطلوبهم ومقصودهم ومعبودهم يجب أن يكون هو الله وحده لا شريك له، كما أنه هو ربهم وخالقهم، وأنهم إن تركوا عبادته أو أشركوا به غيره خسروا خسرانًا مبينًا، وضلوا ضلالًا بعيدًا».

والعقل والفطرة يتعاضدان مع الشرع في تقرير التوحيد وحقوقه من شرائع الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بالوحي. ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البيّنة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيمانًا إلى إيمانه».

والنبي ﷺ لما أُسري به، قُدّم له قدح من لبن، وقدح من خمر، فاختار اللبن، فقيل له: أصبت الفطرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: إن القرآن حق.

(١) قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة (ص ٩٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٩٥)، باختصار.

(٣) الإيمان الكبير (ص ٤٧٧).

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به؛ فآمن به المؤمن، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات، ما يدل علىٰ مثل ما أخبر به في القرآن».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من أعلام نبوة محمد ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث؛ فلو كان كونه معروفًا ومنكرًا وخبيثًا وطيبًا، إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم به؛ لكان بمنزلة أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويحل لهم ما يحله، ويُحرِّم عليهم ما يحرمه! وأي فائدة في هذا؟ وأي علم يبقىٰ فيه لنبوته؟ وكلام الله يُصان عن ذلك، وأن يُظَنَّ به ذلك، وإنما المدح والثناء والعَلَم الدال علىٰ نبوته، أنَّ ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفًا، وما ينهىٰ عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا، وما يحلُّه تشهد كونه طيّبًا، وما يحرِّمه تشهد كونه خبيثًا.

وهذه دعوة جميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -، وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين والكذابين والسحرة؛ فإنهم يدعون إلىٰ ما يوافق أهواءهم وأغراضهم، من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب - وقد أسلم - لما عرف دعوته ﷺ: عن أي

(١) مدارج السالكين (ص ١٤٨، ١٤٩).

شيء أسلمت؟ وما رأيت منه ما دلّك علىٰ أنه رسول الله؟ قال: «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهىٰ عنه. ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته أمر به. ولا أحَلَّ شيئًا، فقال العقل: ليته حرَّمه ولا حرَّم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه».

فانظر إلىٰ هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلاله علىٰ صحة دعوته، بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل، ومطابقته ونهيه لما هو قبيح في العقل، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه؛ لو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث مجرد تعلق الأمر والنهي والإباحة والتحريم به؛ لم يحسن منه هذا الجواب، ولكان بمنزلة أن يقول: وجدته يأمر وينهىٰ ويُبيح ويُحرّم، وأي دليل في هذا؟».

وأمر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما أمر به القرآن، من التفكر والنظر والاعتبار بمخلوقات الله الدالة علىٰ ربوبيته وصفاته الموجبة لعبوديته وألوهيته، حيث قال[1]: «فإذا قيل لك: بم عرفت ربَّك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السَّموات السبع، والأرضون السبع، ومن فيهن، وما بينهما».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «دعا الله سبحانه عباده إلىٰ الفكر فيه بقوله

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٨). (٢) مدارج السالكين (ص ٨٨٦).

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۗ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]؛ فيتفكرون في الآيات التي بيَّنها لهم، فيستدلون بها علىٰ توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه، ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، فالفكر الصحيح المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة، يدل علىٰ إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكر مصحوب بموت القلب وعمىٰ البصيرة، فإنما يُعطي صاحبه نفيها وتعطيلها».

وقال أيضًا[1]: «و«الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلىٰ المؤثر، ومن الصنعة إلىٰ الصانع، ومن الدليل إلىٰ المدلول؛ فيتنقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلىٰ لازمه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢]، و«الاعتبار» افتعال من العبور؛ وهو عبور القلب من الملزوم إلىٰ لازمه، ومن النظير إلىٰ نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوىٰ، حتىٰ يستدل صاحبه بصفات الله

(١) مدارج السالكين (ص ٨٨٦، ٨٨٧).

تعالىٰ وكماله علىٰ ما يفعله؛ لحسن اعتباره، وصحة نظره، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم؛ فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا، ولا يفعل كذا؛ فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك، وقد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه، فقال تعالىٰ في الطريق الأولىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ثم قال في الطريق الثانية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت: ٥٣] فمخلوقاته دالة علىٰ ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة علىٰ ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به».

ومما ذكره العلماء من فوائد ابتداء نزول القرآن علىٰ النبي ﷺ بـ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١-٣]، التنبيه بالنظر والاستدلال علىٰ توحيد الله.

قال الحافظ أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن هذا أوّلُ ما نزل، وفي ابتدائه بإنزال هؤلاء الآيات عليه التنبيه علىٰ النّظر والفكر المؤديين إلىٰ علم التّوحيد؛ لذكر الرُّبوبيَّة المنتظمة للتَّربية والتّدبير واللُّطف بالصّحّة والرّزق.

وتنبيه ثانٍ علىٰ الاستدلال بما يراه من خلق جنسه من أهله وولده وغيرهم، ممّا يعلم أنّ حاله وحالهم فيه سواء، من ظهورهم أشخاصًا حسّيةً

---

(١) شرح الحديث المقتفىٰ في مبعث النبي المصطفىٰ ﷺ (ص١٢٧، ١٢٨).

متحرِّكة من نطفة مَواتٍ في الرّحم؛ حيث لا يصلُ إليها يدٌ ولا آلةٌ، ولا يمسُّها شيء، بل يشهد العقلُ بأنّها تحول من حال إلىٰ حالٍ، بإرادة حيٍّ قادر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾».

وتنبيه الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ النظر في ملكوت السموات والأرض ومخلوقات الله هو من أسباب زيادة الإيمان؛ فهذه مخلوقات عظيمة دالة في إحكامها وسيرها في نظام محكم علىٰ عظمة خالقها وكمال قدرته وقوته وعلمه وقيوميته؛ قال تعالىٰ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

والنبي ﷺ كان إذا قام من الليل نظر في السماء، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «التفكر في ملكوت السموات

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤٧١).

والأرض، وفي أمور الآخرة، وما فيها مِنَ الوعد والوعيد ونحوِ ذلك مما يزيد الإيمانَ في القلب، وينشأ عنه كثيرٌ من أعمال القلوب؛ كالخشية، والمحبَّةِ، والرَّجاء، والتوكُّل، وغير ذَلِكَ. وقد قيل: إنَّ هذا التفكُّر أفضلُ من نوافل الأعمال البدنية، روي ذَلِكَ عن غير واحد من التَّابعين، منهم: سعيدُ ابن المسيب، والحسن، وعمر بن عبد العزيز رحمهم الله، وفي كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يدلُّ عليهِ. وقال كعب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأنْ أبكي من خشية الله أحبُّ إليَّ من أنْ أتصدَّق بوزني ذهبًا».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل النظر في ملكوت السموات والأرض ومخلوقات الله مؤكدًا لما فُطر الخلق عليه من الفطرة، وبيّن في رسائله الأخرىٰ أن أول ما يجب علىٰ العبد الإيمان بالله.

فسلك الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ منهج القرآن والسنة وسلف الأمة، في أن أول واجب هو توحيد الله والإيمان به، والنظر مؤكدٌ له، بخلاف منهج المعتزلة والملاحدة ومن اتّبعهم من الأشاعرة؛ حيث قرروا أن أول واجب النظر، فيريدون من الناس أن ينسلخوا من العلوم الضرورية التي فُطر الناس عليها؛ لينظروا بعد ذلك هل يحصل لهم الإيمان بنظرهم، وربما مات أحدهم وقت النظر بلا إسلام، وربما نظره ضل وأورث صاحبه كفرًا.

فالإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرّر الحق في هذه المسألة وغيرها

في سائر مصنفاته؛ ففي كتاب التوحيد، باب [الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله][(١)]، ساق قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ثم ساق حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا المخرّج في الصحيحين في بعث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن؛ حيث قال له النبي ﷺ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**». وختم الباب بحديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ خيبر، وقال له: «**انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله تعالىٰ فيه**». رواه مسلم.

ثم قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في مسائل هذا الباب: «المسألة السابعة: كون التوحيد أول واجب».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «والنبي ﷺ لم يدع أحدًا من الخلق إلىٰ النظر ابتداءً، ولا إلىٰ مجرد إثبات الصانع، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان، وبذلك أمر أصحابه، كما قال في الحديث المتفق علىٰ صحته لمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما بعثه إلىٰ اليمن: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن**

(١) الباب الرابع، كتاب التوحيد (ص ١١).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٦، ٧).

أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً، تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم».

وكذلك سائر الأحاديث عن النبي ﷺ موافقة لهذا، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال النبي ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم علىٰ الله**».

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**».

وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين، وعلماء المسلمين؛ فإنهم مجمعون علىٰ ما عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن كل كافر فإنه يُدعىٰ إلىٰ الشهادتين، سواء كان معطِّلًا أو مشركًا أو كتابيًّا، وبذلك يصير الكافر مسلمًا ولا يصير مسلمًا بدون ذلك».

وقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته: الليل والنهار، والشمس والقمر،

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٨).

ومن مخلوقاته: السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما» هو في الحقيقة سلوك للمنهج القرآني في إيقاظ الغافلين عن تدبّر عقائد عظيمة دلّت عليها الآيات العقلية دلالة صريحة، ومن أعظم ذلك براهين التوحيد والنبوات والبعث.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ومن أسباب الإيمان ودواعيه: التَّفكُّر في الكون، في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في الإنسان، وما هو عليه من الصفات، فإن ذلك داعٍ قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدَّال علىٰ قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يُحيِّر الألباب، الدَّال علىٰ سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تُعد ولا تُحصىٰ، الدالة علىٰ سعة رحمة الله، وجوده، وبره، وذلك كله يدعو إلىٰ تعظيم مبدعها وبارئها، وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وسره.

وكذلك النَّظر إلىٰ فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلىٰ ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين، خصوصًا ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار.

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص ٧٩ – ٨١).

وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلىٰ الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه.

ويوجب له قوة التوكُّل علىٰ ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوىٰ التَّعبُّد، فإن الدُّعَاء مخّ العبادة وخَالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين، فإن هذا يدعو إلىٰ الإيمان.

ولهذا دعىٰ الله الرسول والمؤمنين إلىٰ شكره؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فالإيمان يدعو إلىٰ الشكر، والشكر ينمو به الإيمان، فكل منهما ملازم وملزوم للآخر».

والناس يشاهدون آيات عظمة الله في الكون، ولكنّهم عن آياتها معرضون، فلا ينتفع الكافرون بما يشاهدون؛ لأنهم ينظرون إليها نظرًا مجردًا بأبصارهم من دون أن يتفكروا بقلوبهم وعقولهم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء علىٰ الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٢، ٢١٣).

يُنكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته، وكلها تُكذّبه، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٢-٤] الآية. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ [الجاثية: ٣-٤] إلىٰ قوله: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ﴾ [لقمان: ١٠] إلىٰ قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: ٤-٥] إلىٰ قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وتأمل كيف وحّد سبحانه الآية من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل: ١٠] إلىٰ آخرها، وختمها بأصحاب الفكر، فأما توحيد الآية؛ فلأن موضع الدلالة واحد، وهو الماء الذي أنزله من السماء فأخرج به كل ما ذكره من الأرض، وهو علىٰ اختلاف أنواعه، لقاحه واحد وأمه واحدة، فهذا نوع واحد من آياته.

وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر؛ فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من

الماء موضع فكر، وهو نظر القلب وتأمله، لا موضع نظر مجرد بالعين، **فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتىٰ ينتقل منه إلىٰ نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه، والاستدلال به علىٰ خالقه وباريه، وذلك هو الفكر بعينه**».

ومعرفة مقصود خلق الله للخلق سبب لفهم حكمة الشرع في استرقاق الكافر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حكمة الشرع في استرقاق الكافر[٢]: «وأمر خاتم الرسل مع دعوته جميع الناس إلىٰ ذلك أن يُقاتل جميع الناس علىٰ ذلك، وأباح له ممن امتنع عن عبادة الله وحده أن يسترقَّه ويستعبده ويستفيء ماله، فإن الله إنما خلقه لعبادته، وجعل المال عونًا علىٰ عبادته وطاعته، فإذا امتنع من عبادة ربه أباح أن يفيء المال إلىٰ عباده المؤمنين الذين يعبدونه وحده، فإنهم المستحقون لذلك في دينه الذي هو عبادته وحده، وأن يسترقُّوا تلك الأنفس، فإنَّ خدمتها لمن يعبد الله خيرٌ من معاندتها لهم.

فسبب الرقِّ الكفر، وهو من العقوبات».

---

(١) الأصول الثلاثة (ص ٦).

(٢) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص ٩٠، ٩١).

وأعجب ما في الكون دلالته علىٰ ربوبية الله وكمال نعوته، ودلالته لبني آدم إلىٰ أن كل شيء في الكون مسخر لهم لعبودية الله وتوحيده، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]،

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فسبحان من ألبسه حلل الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق، والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد، فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساع في مصالحه، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه، فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه، والأفلاك سُخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته، والعالم الجوي مسخرٌ له برياحه وهوائه وسحابه وطيره، وما أُودع

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٦٣).

فيه، والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه؛ أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه، كما قال تعالىٰ الله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٢-١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعًا وأملأ صواعًا من اللصيق بمكانه، المقيم في بلد عادته وطبعه، راضيًا بعيش بني جنسه، لا يرضىٰ لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم، يقول: لي أسوة بهم، وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر».

وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، والإقرار بالربوبية أسبق من الإقرار بالألوهية، والشرك في الألوهية أكثر في الخلق منهم في الربوبية، من أجل هذا بُعثت الرسل بالدعوة إلىٰ تصحيحه أكثر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، يعني: أن أكثر الناس يؤمنون بربوبية الله ويشركون في ألوهيته، وهذا حال القوم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ.

وهذه الثلاثة الأصول: ربك، ودينك، ونبيك ﷺ، هي حقيقة الدين كله، فمن قام بتحقيقها في الدنيا وُفق إلىٰ النطق بها عند الاحتضار وفي البرزخ؛ لأنها حقيقة قامت بقلبه وعملت بها جوارحه في حياته، وجزاء الإحسان الإحسان، فيُثبّت الله عبده بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرىٰ لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب، وعليه عبودية أخرىٰ يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلَّهم إلىٰ السجود فيسجد المؤمنون، ويبقىٰ الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره، إذ ليس عند القلب لا أحلىٰ ولا ألذَّ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك

(١) مدارج السالكين (ص٧٠).

(٢) العبودية (ص١٢٣، ١٢٤).

يقتضي انجذاب القلب إلىٰ الله، فيصير القلب منيبًا إلىٰ الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣]. إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه، أو حصول مرهوبه، فلا يكون عبد الله ومحبّهُ، إلا بين خوف ورجاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]».



العبادة وأنواعها

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنها: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]؛ **فمن صرف منها شيئًا لغير الله؛ فهو مشرك كافر، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] **وفي الحديث «الدعاء مُخُّ العبادة»**».

الشَّرْح:

العبادة حق الله الخالص الذي لا يجوز صرفه لغير الله، قال النبي ﷺ «**حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئًا**»، متفق عليه.

فمنطوق الحديث صريح وواضح، أن من صرف شيئًا من العبادة لغير

---

(١) الأصول الثلاثة (ص١٠، ١١).

الله؛ فقد أشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمُرْضية له، والتي خلق الخلقَ لها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبها أُرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]».

وقال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «العبادة هي لله وحده؛ فلا يُصلىٰ إلا لله، ولا يُصام إلا لله، ولا يُحج إلا إلىٰ بيت الله، ولا تُشد الرحال إلا إلىٰ المساجد الثلاثة؛ لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله، ولا يُنذر إلا لله، ولا يُحلف إلا بالله، ولا يُدعىٰ إلا لله، ولا يُستغاث إلا بالله».

وقال سماحة الإمام المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «النذر لا يجوز

---

(١) العبودية (ص ١٩، ٢٠).
(٢) التوسل والوسيلة (ص ٢٩٩).
(٣) الدرر الثرية من الفتاوىٰ البازية (ص ٤٨).

إلا لله وحده؛ لأنه عبادة، فالصلاة والذبح والنذر والصيام والدعاء، كلها لله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ يعني: أمر ألا تعبدوا إلا إياه، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. فالعبادة حق لله، والنذر عبادة، والصوم عبادة، والصلاة عبادة، والدعاء عبادة، فيجب إخلاصها لله وحده».

وقال أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه ينفي شرك المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية، فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه؛ لا في الأفعال، ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات.

فالشرك به في الأفعال؛ كالسجود لغيره سبحانه، والطواف بغير بيته المحرّم، وحلق الرأس عبودية وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه تعالىٰ في الأرض، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الشرك به سبحانه في الأفعال، والأقوال،

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٦٦).

(٢) الجواب الكافي (ص ١٦١)، ط: دار السلام.

والإرادات والنيَّات؛ فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبوديَّةً وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها، والسُّجودِ لها.

وقد لعن النبي ﷺ من اتَّخذَ قبورَ الأنبياء والصالحين مساجد يصلَّىٰ لله فيها، فكيف بمن اتَّخذ القبور أوثانًا يعبدها من دون الله؟

ففي الصحيحين عنه أنه قال: «**لعن الله اليهود والنَّصارىٰ، اتَّخذوا من قبور أنبيائهم مساجد**».

وفي الصحيح أيضًا عنه: «إن من كان قبلكم كانوا يتَّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»».

وقال العلامة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأما الطواف بالقبر، وطلب البركة منه فهو لا يشك عاقل في تحريمه وأنه من الشرك، فإن الطواف من أنواع العبادات فصرفه لغير الله شرك، وكذلك البركة لا تطلب إلا من الله، وطلبها من غير الله شرك كما تقدم من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأما النذر للقبر فلا يجوز، فإن النذر عبادة، وصرفه لغير الله شرك أكبر، كما قال سبحانه ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، وكما في الصحيح من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»».

(١) فتاوىٰ ورسائل سماحة العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٢٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وليس في الأرض مكان يُطاف به إلا الكعبة، كما أنه لا قبلة إلا الكعبة، مع أن الصخرة كانت قبلة، فمن اتخذها اليوم قبلة فهو كافر، والطواف بها وبأمثالها أعظم من اتخاذها قبلة، فإن الطواف لم يُشرع قط إلا بالبيت العتيق».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الطواف بغير البيت العتيق لا يجوز باتفاق المسلمين، بل من اعتقد ذلك دينًا وقربة عُرِّف أن ذلك ليس بدين باتفاق المسلمين، وأن ذلك معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فإن أصرّ علىٰ اتخاذه دينًا قُتل[٣]».

والشرك سبب فساد أحوال الدنيا والناس؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وصلاح السموات والأرض وجريانها علىٰ أحسن نظام، وتسخير ما فيهما لبني آدم لتحقيق العبودية لله؛ دال علىٰ استحقاق الله وحده لهذه الألوهية وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «فصلاح السموات والأرضِ

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص٥٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ٢٥٠).

(٣) الحدود والتعزيرات يقيمها ولي الأمر.

(٤) الجواب الكافي (ص ٢٤٢، ٢٤٣).

واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات علىٰ أتمِّ نظام من أظهر الأدلة علىٰ أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد، يحيي ويميت وهو علىٰ كل شيء قدير، وأن كُلَّ معبود من لدن عرشه إلىٰ قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلىٰ، قال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]،

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإفساد في الأرض بعد الإصلاح يكون بالمعاصي والمخالفات والبدع، والله أصلحها ببعث الأنبياء، وإقامة الشرع فيها؛ فهذا صلاحها، أما المعاصي والشرك فهو فسادها - أعوذ بالله -؛ فصلاح الأرض وصلاح أهلها يكون بطاعة الله ورسوله ﷺ، وتوحيد الله والإخلاص له، أما فساد الأرض وفساد أهلها، فيكون بالشرك والمعاصي والمخالفات، وهذا هو فساد الأرض».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنها: الدُّعاء، والخوف، والرَّجاء،

---

(١) مجموع تفسير آيات من القرآن الكريم (ص ١٠٨).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٠، ١١).

والتَّوكل، والرَّغبة، والرَّهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذَّبح، والنَّذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها؛ كلها لله».

فالإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر ضرورة العلم قبل العمل، وبيّن معنىٰ الحنيفية، ووجوب تجريد التوحيد خالصًا لله وحده لا شريك له، وذكر أعظم ما أمر الله به من التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة؛ أخذ في ذكر أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله وحده لا شريك له.

فلا يصح إيمان عبد بدون العمل، وتصور القول بنفي العمل من الإيمان كافٍ في ظهور بطلانه؛ فإن الشرائع تفصيل لكلمة التوحيد ومن حقوقها.

والقول بتعطيل العمل قدح لمعنىٰ خلق الخلق؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والملك هو الآمر الناهي، لا يخلق خلقًا بمقتضىٰ ربوبيته ويتركهم سدًىٰ مُعطَّلين، لا يؤمرون ولا يُنهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون؛ فإن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢]، فأثبت الخلق

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٥٧).

(٢) تجريد التوحيد المفيد (ص ٥٧، ٥٨).

والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربًّا موجودًا وملكًا مكلّفًا، فهل يُحبّ ويُرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣]، أي مألوههم ومحبوبهم الذي لا يتوجه العبد المخلوق المكلَّف العابد إلا إليه».

فمن نفىٰ العمل من الإيمان ولم يُدخله؛ ما عرف معنىٰ الألوهية لله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التألُّهُ: هو المحبة والطاعة والخضوع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن «الإيمان» أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من «شيئين»: تصديق بالقلب وإقراره، ومعرفته. ويقال لهذا: قول القلب. قال «الجنيد بن محمد»: التوحيد: قول القلب. والتوكل: عمل القلب.

فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب؛ مثل حب الله ورسوله ﷺ، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله ﷺ، وبغض ما يبغضه الله ورسوله ﷺ، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب علىٰ الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله ﷺ، وجعلها من الإيمان».

---

(١) الجواب الكافي (ص ٢٤٠)، ط دار السلام.

(٢) الإيمان الكبير (ص ٤٠٢، ٤٠٣).

وقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنها: الدُّعاء، والخوف، والرَّجاء، والتَّوكل، والرَّغبة، والرَّهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذَّبح، والنَّذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها. كلُّها لله تعالىٰ، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]؛ فمن صرف منها شيئًا لغير الله، فهو مشرك كافر»، فالإمام في هذه العبارة الجامعة لأنواع العبادات لم يذكر المحبة علىٰ وجه الخصوص، لكنّه ذكرها علىٰ سبيل العموم؛ فهي مندرجة في الإسلام والإيمان والإحسان، وقد دلّ علىٰ ذلك قوله: «وغير ذلك من أنواع العبادة».

فالحب منزلته عظيمة في تحقيق التوحيد، وحب الطاعة والمطيعين، وبغض الشرك والمشركين؛ فهو الأساس والمحرّك لتحقيق التوحيد، قال النبي ﷺ: «**أوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله**». رواه البخاري.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٠، ١١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذا الحب والبغض تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وهو إثبات تأله القلب لله ومحبته، ونفي تألهه لغيره وكراهته، فلا يكفي أن يعبد الله ويحبه ويتوكل عليه وينيب إليه ويخافه ويرجوه، حتىٰ يترك عبادة غيره والتوكل عليه والإنابة إليه وخوفه ورجاءه، ويبغض ذلك؛ فهذه كلها أمور وجودية، وهي الحسنات التي يثيب الله عليها.

وأما مجرد عدم السيئات من غير أن يعرف أنها سيئة، ولا يكرهها بقلبه، ويكف نفسه عنها، بل يكون تركها لعدم خطورها بقلبه، فلا يثاب علىٰ هذا الترك، فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والنائم، لكن قد يُثاب علىٰ اعتقاد تحريمها، وإن لم يكن له إليها داعية البتة».

وما ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **من أنواع العبادة**: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستغاثة، وغيرها من أجل الطاعات، والعبادة الجامعة لأفراد هذه العبادات من أفضل الطاعات وأحبها إلىٰ الله، كالصلاة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اشتمال الصلاة علىٰ أنواع العبودية من أولها إلىٰ آخرها: التوحيد التام، والثناء علىٰ الله تعالىٰ بأصول أسمائه وصفاته، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية، وافتتاحها بكلمة جامعة لمعاني العبودية، دالة علىٰ

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٤١، ٦٤٢).

أصول الثناء وفروعه، مخرجة من القلب الالتفات إلىٰ ما سواه والإقبال علىٰ غيره، فيقوم بقلبه الوقوف بين يدي عظيم جليل كبير أكبر من كل شيء، ثم أخذ بتسبيحه وحمده وذكره والثناء عليه، ثم إفراده بنوعي التوحيد؛ توحيد ربوبيته استعانة به، وتوحيد إلهيته عبودية له.

ثم سؤاله أفضل مسؤول، وهو هداية الصراط المستقيم، ثم يأخذ في تلاوة ربيع القلوب وشفاء الصدور ونور البصائر وحياة الأرواح؛ وهو كلام رب العالمين. ثم يعود إلىٰ تكبير ربه عَزَّوَجَلَّ، فيجدد به عهد التذكرة، كونه أكبر من كل شيء بحق عبوديته، وما ينبغي أن يُعامل به.

ثم يركع حانيًا ظهره؛ خضوعًا لعظمته، وتذللًا لعزته، واستكانة لجبروته، مسبحًا له بذكر اسمه العظيم، ثم عاد إلىٰ القيام حامدًا ربه بأكمل محامده، معترفًا بعبوديته له، ثم يعود إلىٰ تكبيره، ويخر له ساجدًا علىٰ أشرف ما فيه وهو الوجه؛ ذلًّا بين يديه ومسكنةً وانكسارًا، وقد أخذ كل عضو من البدن حظه من هذا الخضوع، يُسبّح ربه الأعلىٰ، فيذكر علوه في حالة سفوله هو.

ثم لما أكمل صلاته شُرع له أن يقعد قعدة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات، ويُسلم علىٰ نفسه وعلىٰ سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي علىٰ من علّم الأمة هذا الخير ودلّهم عليه.

ثم شُرع له أن يسأل حوائجه ويدعو بما أحب، فإذا قضىٰ ذلك أُذن له في الخروج منها بالتسليم علىٰ المشاركين له في الصلاة»[١].

فالحاصل: أن الصلاة جامعة لأنواع العبودية كلها، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا تجد منزلةً من منازل السير إلىٰ الله تعالىٰ، ولا مقامًا من مقامات العارفين، إلا وهو في ضمن الصلاة».

ومن أجلِّ الطاعات الجامعة لأنواع العبودية: الجهاد في سبيل الله، من إخلاص الوجه لله، وإسلام الرقبة إليه، والتوكل عليه، والاستعانة والاستغاثة به، وحب ظهور دينه، وأن تكون كلمة الله هي العليا، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنه سبحانه يحب أن يُعبد بأنواع العبودية، ومن أعلاها وأجلها عبودية الموالاة فيه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، والجهاد في سبيله، وبذل مهج النفوس في مرضاته، ومعارضة أعدائه.

وهذا النوع هو ذروة سنام العبودية، وأعلىٰ مراتبها، وهو أحب أنواعها إليه، وهو موقوف علىٰ ما لا يحصل بدونه من خلق الأرواح التي تواليه وتشكره وتؤمن به».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «إن المحبة والإنابة والتوكل والصبر

---

(١) باختصار من شفاء العليل (٣/ ١١٥٥ - ١١٦٣).

(٢) شفاء العليل (٣/ ١١٦٣).

(٣) شفاء العليل (٣/ ١١٣٩).

(٤) شفاء العليل (٣/ ١١٨٩، ١١٩٠).

والرضاء ونحوها؛ أحب العبودية إلىٰ الله سبحانه، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد، وبذل النفس لله، وتقديم محبته علىٰ كل ما سواه؛ فالجهاد ذروة سنام العبودية، وأحبها إلىٰ الرب سبحانه».

وبعد الحديث عن العبادة وأنواعها علىٰ سبيل العموم لابد من شرح أنواع ما ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العبادات.





الدعاء

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل... الدُّعاء**».

وقال مبينًا الدليل على أن دعاء غير الله شرك[2]: «**الدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، **وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة». والدليل قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ **[غافر: ٦٠]**».

الشَّرح:

الدعاء من أعلىٰ مقامات العبودية؛ لأن العبد يظهر افتقاره إلىٰ باريه؛ فيتذلل له ويخضع، وينكسر له وحده لا شريك له.

ومن تحقيق العبودية لله: دعاء العبد ربه، وسؤاله، وطلبه الحاجات منه وحده لا شريك له.

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١١، ١٢).

وتقع العبودية لله في الدعاء من جهة أخرىٰ؛ فإن الله لا يستجيب لعبده كلما رفع يديه لله؛ فلو وقع ذلك ما حصل تكليف ولا ابتلاء، والمقصود: أن يكون العبد متألِّهًا لله في عبادته؛ ينتظر فرجه؛ فيكون العبد دائم الالتجاء إلى الله، قال أبو بكر الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولهذا قال بعضهم: لو استجيب للعبد في كل ما سأل، لخرج عن حدّ العبودية، وإنما أُمر بالدعاء ليكون عبدًا، والله يفعل ما يشاء».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أساس كل خير أن تعلمَ أنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فتتيقَّن حينئذ أنّ الحسنات من نعمه فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأنّ السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلَكَ في فعل الحسنات وترك السيئات إلىٰ نفسك.

وقد أجمع العارفون علىٰ أنَّ كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكلَّ شرٍّ فأصله خِذلانُهُ لعبده.

وأجمعوا أنَّ التوفيق أن لا يكلَكَ الله نفسك، وأنَّ الخِذْلانَ أن يُخَلِّيَ بينك وبين نفسك فإذا كان كلُّ خيرٍ فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبدِ، فمفتاحه الدعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللَّجَأ والرغبة والرهبةِ إليه؛ فمتىٰ أعْطىٰ

(١) الدعاء المأثور (ص ١٠٧).

(٢) الفوائد (ص ٢٣٣، ٢٣٤).

العبدَ هذا المفتاح فقد أراد أن يفتحَ له، ومتىٰ أَضَلَّهُ عن المفتاح؛ بقي بابُ الخير مُرْتَجًا[١] دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إنِّي لا أحمِلُ همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدُّعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاء؛ فإنَّ الإجابة معه.

وعلىٰ قدر نية العبد وهمَّته ومراده ورغبته في ذلك؛ يكون توفيقه سبحانه وإعانته؛ فالمعونة من الله تنزلُ علىٰ العباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخِذلان ينزلُ عليهم علىٰ حسب ذلك.

فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضعُ التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم، وما أتي من أتي إلَّا من قبل إضاعة الشُّكْرِ وإهمال الافتقار والدُّعاء. ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشُّكْرِ وصدقِ الافتقارِ والدُّعاء».

ولولا العبودية لله - التي من أجلها وأعلاها دعاء الله -؛ لغضب الله علىٰ خلقه وانتصر منهم.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «أي: لا يبالي ولا

---

(١) مغلقًا.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٠٠).

يكترث بكم إذ لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرةً وأصيلًا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الدعاء عبوديةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وافتقار إليه، وتذللٌ بين يديه، فكلَّما كثَّره العبد وطوَّله، وأعاده وأبداه، ونوَّع جمله؛ كان ذلك أبلغ في عبوديته، وإظهار فقره، وتذلله وحاجته، وكان ذلك أقرب له من ربِّه، وأعظم لثوابه. وهذا بخلاف المخلوق؛ فإنك كلَّما كثَّرت سؤاله، وكرَّرْت حوائجك إليه؛ أبرمته، وثَقَّلْتَ عليه، وهُنْتَ عليه، وكلما تركت سؤاله كانت أعظم عنده، وأحب إليه. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلما سألته كنت أقربَ إليه وأحبَّ إليه، وكلَّما ألححت عليه في الدعاء أحبَّك، ومن لم يسأله يغضب عليه.

فـالله يغـضبُ إن تركـت سـؤالَه وبُنَـيُّ آدم حـين يُـسأل يَغْـضَب

فالمطلوب يزيد بزيادة الطَّلب، وينقص بنقصانه».

والنبي ﷺ كان يغرس في نفوس الناشئة التوجه إلىٰ الله بالدعاء والمسألة؛ فقد قال لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو غلام: «**إذا سألت فاسأل الله**». قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا منتزع من قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

(١) جلاء الأفهام (ص ٢٧٠)، ط: دار ابن كثير، دمشق - بيروت.

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ٣٥٨).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ السؤال لله هو دعاؤُه والرغبةُ إليه، والدُّعاء هو العبادة، كذا روي عن النَّبيِّ ﷺ من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، خرَّجه الإمامُ أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه».

وإجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد والعمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «فأخبر سبحانه أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ثم أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به، كما قال بعضهم: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾: إذا دعوتهم، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] أني أجيب دعوتهم.

قالوا: وبهذين السببين تحصل إجابة الدعوة: بكمال الطاعة لألوهيته، وبصحة الإيمان بربوبيته؛ فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه؛ حصل مقصوده من الدعاء، وأجيب دعاؤه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورىٰ: ٢٦]؛ أي: يستجيب لهم؛ يقال: استجابه واستجاب له».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٢١).

فالتوحيد مقتض لإجابة الدعاء، والاستغفار رافع لموانع إجابته، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الدواء هو التوحيد والاستغفار، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]، وفي الحديث: «**إن الشيطان يقول: أُهلك بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار، وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء**»؛ فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ولذلك كان الدعاء المفرِّج للكرب محض التوحيد، وهو «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا هو رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم**».

وفي «الترمذي» وغيره عن النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون، ما دعاها مكروب إلا فرّج الله كربه**: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]»، فالتوحيد يُدخل العبد علىٰ الله، والاستغفار والتوبة يرفع المانع، ويزيل الحجاب الذي يحجب القلب عن الوصول إليه».

والدعاء نوعان: دعاء بلسان المقال، وبلسان الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لفظ الدعاء في القرآن يتناول هذا وهذا؛ الدعاء بمعنىٰ العبادة، أو الدعاء بمعنىٰ المسألة، وإن كان كل

(١) شفاء العليل (ص ٤٥٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٢٠).

منهما يستلزم الآخر، لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجته، وتفريج كرباته، فيسعىٰ في ذلك بالسؤال والتضرع، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة، ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب: من الرزق والنصر والعافية مطلقًا، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ومعونته ومحبته، والتنعم بذكره ودعائه، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدرًا عنده من تلك الحاجة التي أهمته، وهذا من رحمة الله بعباده؛ يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلىٰ المقاصد العلية الدينية.

وقد يفعل العبد ما أُمر به ابتداءً لأجل العبادة لله، والطاعة له، ولما عنده من محبته والإنابة إليه، وخشيته، وامتثال أمره، وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أهل السنن - أبو داود وغيره -: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين:

﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ أي: اعبدوني وأطيعوا أمري؛ أستجب دعاءكم. وقيل: سلوني أعطكم. وكلا النوعين حق».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قصد الدعاء عندها - القبور -

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٥٢).

ضلالة ومعصية، كما لو تحرىٰ الدعاء وقصده عند سائر البقاع التي لا فضيلة للدعاء عندها؛ من شطوط الأنهار، ومغارس الأشجار، وحوانيت الأسواق، وجوانب الطرقات، وما لا يحصي عدده إلا الله.

وهذا الدليل قد دلّ عليه كتاب الله في غير موضع، مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]، فإذا لم يشرع الله استحباب الدعاء عند المقابر ولا وجوبه؛ فمن شرعه فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وهذه العبادة عند المقابر نوع من أن يُشرك بالله ما لم يُنزّل به سلطانًا؛ لأن الله لم ينزّل حجة تتضمن استحباب قصد الدعاء عند القبور، وفضله علىٰ غيره، ومن جعل ذلك من دين الله؛ فقد قال علىٰ الله ما لا يعلم».

وقال الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بيّن الله سبحانه في كتابه الكريم، وعلىٰ لسان رسوله الأمين - عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم -؛ أن العبادة حق الله، ليس فيها حق لغيره، وأن الدعاء من العبادة، فمن قال من الناس في أي بقعة من بقاع الأرض: يا رسول الله

(١) الدعاء أحكامه وآدابه ومحظوراته (ص ٣٤ - ٣٦)، ط: مدار الوطن.

- أو: يا نبي الله، أو: يا محمد - أغثني، أو أدركني، أو انصرني، أو اشفني، أو انصر أمتك، أو اشفِ مرضىٰ المسلمين، أو اهدِ ضالهم، أو ما أشبه ذلك؛ فقد جعله شريكًا لله في العبادة.

وهكذا من صنع مثل ذلك مع غيره من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء أو الجن أو الأصنام أو غيرهم من المخلوقات؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ولقوله تعالىٰ في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فسمّىٰ الدعاء عبادة، وأخبر أن من استكبر عنها سيدخل جهنم داخرًا؛ أي: صاغرًا.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟

دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وهذه الآيات وما جاء في معناها من الآيات والأحاديث؛ كلها تدل علىٰ أن العبادة حق الله وحده، وأن الواجب تخصيصه بها؛ لكونه خَلَقَ العباد لذلك وأمرهم به، كما تدل علىٰ أن جميع المعبودين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعوهم، ولو فُرض سماعهم لم يستجيبوا له، كما دلت أيضًا علىٰ أن المعبودين من دون الله يتبرءون من عابديهم يوم القيامة، وينكرون عليهم ذلك، ويخبرونهم أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم إياهم، وتبيّن أنهم يكونون يوم القيامة أعداءً لعابديهم من دون الله».

والدعاء لا يجوز لأحد أن يتحرىٰ إجابته عند قبور الأولياء والصالحين، فإنه من وسائل الشرك، قال النبي ﷺ: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، فلا تتخذوها مساجد**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه العلة التي لأجلها نهىٰ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٤٦، ٤٤٧).

الشارع، هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك؛ فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وبتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك.

فإن يشرك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته أو صلاحه، أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر علىٰ تمثاله. ولهذا تجد أقوامًا كثيرين يتضرعون عندها، ويتخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في السَّحَر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد التي تُشد إليها الرحال.

فهذه المفسدة - التي هي مفسدة الشرك كبيره وصغيره - هي التي حسم النبي ﷺ مادتها، حتىٰ نهىٰ عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد الثلاثة، ونحو ذلك.

كما نهىٰ عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها؛ لأنها الأوقات التي يقصد المشركون بركة الصلاة للشمس فيها، فنهىٰ المسلم عن الصلاة حينئذ - وإن لم يقصد ذلك - سدًّا للذريعة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الدعاء عند القبور وغيرها من الأماكن ينقسم إلىٰ نوعين:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٤٨، ٤٤٩).

أحدهما: أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق، لا لقصد الدعاء فيها، كمن يدعو الله في طريقه، ويتفق أن يمر بالقبور، أو كمن يزورها فيُسلِّم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتىٰ، كما جاءت به السنة؛ فهذا ونحوه لا بأس به.

الثاني: أن يتحرىٰ الدعاء عندها، بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره؛ فهذا النوع منهي عنه، إما نهي تحريم، أو تنزيه، وهو إلىٰ التحريم أقرب، والفرق بين البابين ظاهر؛ فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة، أو كان يدعو في بقعة وهناك صليب هو عنه ذاهل، أو دخل كنيسة ليبيت فيها مبيتًا جائزًا، ودعا الله في الليل، أو بات في بيت بعض أصدقائه ودعا الله؛ لم يكن بهذا بأس.

ولو تحرىٰ الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة؛ يرجو الإجابة في تلك البقعة، لكان هذا من العظائم، بل لو قصد بيتًا أو حانوتًا في السوق، أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة بالدعاء عندها، لكان هذا من المنكرات المحرّمة؛ إذ ليس للدعاء عندها فضل.

فقصد القبور للدعاء عندها من هذا الباب، بل هو أشد من بعضه؛ لأن النبي ﷺ نهىٰ عن اتخاذها مساجد، وعن اتخاذها عيدًا، وعن الصلاة عندها. بخلاف كثير من هذه المواضع».

فالحاصل أن دعاء غير الله أو اتخاذه وسيلة لدعاء الله شرك أكبر، وسيأتي بيان ذلك في شرح الاستغاثة.

الخوف والرجاء والرهبة والرغبة

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها: ...، الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة**».

وقال[٢]: **ودليل الخوف قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [**آل عمران: ١٧٥**]، **ودليل الرجاء قوله تعالى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [**الكهف: ١١٠**]».

وقال أيضًا[٣]: «**ودليل الرغبة والرهبة قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [**الأنبياء: ٩٠**]».

الشَّرح:

الخوف من الله في الدنيا هو الطريق الموصل إلىٰ الأمن التام في البرزخ وعرصات يوم القيامة ومجاوزة الصراط حتىٰ دخول الجنة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «كان الخوف في الدنيا أنفع لهم؛ فبه وصلوا إلىٰ الأمن التام؛ فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يجمع علىٰ عبده مخافتين ولا أمنين؛ فمن خافه في الدنيا أمّنه يوم القيامة، ومَنْ أمّنه في الدنيا ولم يخفه؛ أخافه في الآخرة،

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٢).

(٣) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٢، ١٣).

(٤) طريق الهجرتين (ص ٦٢٤).

وناهيك شرفًا وفضلًا بمقام ثمرته الأمن الدائم المطلق».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال أبو عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله».

وخوف العبودية لا يكون إلا لله، وصرفه لغير الله شرك، كما هو واقع من الرافضة وغلاة الصوفية؛ لاعتقادهم الشركي أن لأوليائهم تصرفًا بالكون، وهذا ما اصطلح عليه بـ «خوف السر».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فالخوف عبودية القلب، فلا تصلح إلّا لله وحده، كالذل والمحبة والإنابة والتوكل والرجاء، وغيرها من عبودية القلب».

والعبد في عبوديته لله لا بد أن يتأله له حُبًّا وخوفًا وطمعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالىٰ في شأن أنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «القلب في سيره إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتىٰ سَلِم الرأس والجناحان، فالطير جيد الطيران، ومتىٰ قُطع الرأس مات الطائر، ومتىٰ فُقد الجناحان

---

(١) مدارج السالكين (ص ٣١٨).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٦٢٣).

(٣) مدارج السالكين (ص ٣٢٠).

فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوي في الصحة جناح الخوف علىٰ جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يُقوي جناح الرجاء علىٰ جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان – الداراني – وغيره؛ قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن كان الغالب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب؛ فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الخشية أبدًا متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمْنًا؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله».

والخشية تتضمن المعرفة بالله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «و«الخشية» أخص من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**»».

والخشية إذا لم تتضمن الرجاء الذي يكون من العمل الصالح والحب لله صارت قنوطًا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) الإيمان الكبير (ص ١٧٤).
(٢) مدارج السالكين (ص ٣١٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصدَ الوسائل؛ ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات؛ ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوف، ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلىٰ وأرفع من منزلة الخوف ومقامه».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وبالجملة: فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعُّد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح؛ هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتىٰ ينجو، وأما إن كان مستقيمًا مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس؛ لعلمه بأنّ الله مقلِّب القلوب، «**وما من قلب إلّا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن** عَزَّوَجَلَّ؛ **فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه**»، كما ثبت عن النبي ﷺ، وكانت أكثر يمينه: «**لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب**».

وقال بعض السلف: القلب أشد تقلُّبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا.

وقال بعضهم: مثل القلب في سرعة تقلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرًا لبطن.

ويكفي في هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾».

---

(١) مدارج السالكين (ص ٣١٨). (٢) طريق الهجرتين (ص ٦٠٤ - ٦٠٦).



التوكل

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها: ...، والتوكل**».

وقال[(٢)]: «**ودليل التوكل قوله تعالى:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [**المائدة: ٢٣**]، **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [**الطلاق: ٣**]».

الشَّرح:

التوكل هو: صدق الالتجاء إلىٰ الله في جلب المنفعة ودفع المضرة مع بذل الأسباب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه؛ فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلىٰ الأسباب، وقطع علاقة القلب بها؛

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١١).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٢).

(٣) مدارج السالكين (ص ٤٠٣).

فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا علىٰ ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا علىٰ قدم العبودية».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **محذرًا من التفات القلب إلىٰ غير الله**[1]: «لا يستقيم توكل العبد حتىٰ يصح له توحيده؛ بل حقيقة التوكل: توحيد القلب؛ فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، وعلىٰ قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل؛ فإن العبد متىٰ التفت إلىٰ غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شُعب قلبه، فنقص من توكله علىٰ الله بقدر ذهاب تلك الشعبة. ومن هاهنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح؛ فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها متصلًا بها».

وقال ابن القيم أيضًا[2]: «فمنع الأسباب أن تكون أسبابًا، قدح في العقل والشرع، وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسبِّبها، قدح في التوحيد والتوكل، والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر إلىٰ مسببها وتعلُّق القيام به؛ جمع

(١) مدارج السالكين (ص ٤٠٣).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٥٥٤، ٥٥٥).

بين الأمر والتوحيد، وبين الشرع والقدر، وهو الكمال».

والتوكل من علم القلب وعمله، وإن كان أدخل في عمل القلب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله؛ أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلىٰ وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن رضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكّل، وهما جماعه، وإن كان التوكّل أدخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوكل عمل القلب. ولكن لا بدّ فيه من العلم: وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته.

والمقصود: أن القلب متىٰ كان علىٰ الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأنّ الله وليه وناصره، وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل علىٰ ربه؟

وإذا كان علىٰ الباطل علمًا وعملًا أو إحداهما؛ لم يكن مطمئنًا واثقًا بربه؛ فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده؛ فإنّ الله سبحانه لا يتولىٰ الباطل ولا ينصره، ولا يُنسب إليه بوجه؛ فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الحق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كلّه حق، ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك.

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٥٥٢، ٥٥٣).

فلما كان الباطل لا يتعلق به سبحانه، بل هو مقطوع عليه البتة؛ كان صاحبه كذلك.

ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعًا عن ربه؛ لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله».

والتوكل مادته الإيمان بالله والعبودية له، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالتوكّل مركب السائر الذي لا يتأتّىٰ له السير إلّا به، ومتىٰ نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته، قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فجعل التوكّل شرطًا في الإيمان؛ فدلّ علىٰ انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكّل، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس: ٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل.

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]؛ فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل علىٰ استدعاء الإيمان للتوكّل، وأنّ قوة التوكّل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكُّله أقوىٰ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكّل، وإذا كان التوكّل ضعيفًا؛ فهو دليل علىٰ ضعف الإيمان ولا بدّ».

فالشأن في تحقيق العبودية لله وبذل الأسباب مع صدق الالتجاء إلىٰ الله؛

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٥٥٠).

فيجمع العبد مع العبادة الاستعانة بالله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فتضييع الأسباب عجز، والنبي ﷺ كان يستعيذ بالله من العجز والكسل، ويبذل الأسباب؛ فيلبس ما يقيه من سهام العدو ويخادعهم، ويحسن تدبير المعارك، وينزل حاجته بالله، ويستعين به في قتال أعدائه، ومع هذا قلبه مُعلّق بالله لا بالأسباب، ويُعلِّم أمته أنه قد يتعطل السبب عن سببيته بأمر الله وحكمته، فقد قال ﷺ: «**ليس السنة أن لا تُمطروا، ولكن السنة أن تُمطروا ولا تنبت الأرض**». رواه مسلم.

وصحابة النبي ﷺ أعظم الخلق توكلًا علىٰ الله، وأخذًا بالأسباب؛ فإنهم لما خرجوا إلىٰ الشام، وكان قد وقع بها الطاعون، وبلغ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وادي «سرغ» قريب منها، استشار عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابة في القدوم علىٰ الشام، فكلهم أشار عليه بالرجوع، فقال أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أفرارًا من قدر الله؟»، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بل نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله». وكان عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متغيبًا في حاجة له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا وقع الطاعون بأرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع بأرضكم فلا تخرجوا منها**». رواه البخاري.

وقد أنكر الله علىٰ من عطّل الأسباب بدعوىٰ التوكل، فقد كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون؛ فإذا وصلوا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ

يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الذي يُحقِّقُ التوكُّل القيام بالأسباب المأمور بها؛ فمن عطَّلها لم يصح توكُّلُه، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلىٰ حصول الخير يُحقِّق رجاءه؛ فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنِّيًا، كما أنَّ من عطَّلها يكون توكله عجزًا، وعجزه توكُّلًا.

وسرُّ التوكُّل وحقيقته هو اعتماد القلب علىٰ الله وحده؛ فلا يضرُّهُ مباشرة الأسباب، مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكَّلْتُ علىٰ الله. مع اعتماده علىٰ غيره وركونه إليه وثقته به.

فتوكُّل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أنَّ توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبةَ القلب وإن لم ينطق اللسان شيء.

فقول العبد: توكَّلْتُ علىٰ الله. مع اعتماد قلبه علىٰ غيره؛ مثل قوله: تبتُ إلي الله. وهو مُصرٌّ علىٰ معصيته مرتكب لها».

والعبد في فعله الأسباب مستعين بالله، متوكلٌ عليه، يسأل ربه تيسير أموره، وتحققها، والتوفيق من الله، قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ومع قيام العبد بالأسباب لابد له من التوكل على الله وسؤاله التوفيق،

---

(١) الفوائد (ص ٢١٣).

فإنه لولا توفيق الله ربما وقعت معارضات تمنع حصول المراد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب، إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب».

وقال[٢]: «فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد، ولهذا يُخذل أمثال هؤلاء».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «إن - العبد - استطاعته بيد الله، لا بيده؛ فهو مالكها دونه، فإنه إن لم يُعْطه الاستطاعة فهو عاجز؛ فهو لا يتحرك إلا بالله، لا بنفسه، فكيف يأمن المكر؟ وهو أن لا يحركه مَنْ حركته بيده، بل يثبطه ويقعده مع القاعدين، كما قال فيمن منعه هذا التوفيق: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توفيقه، ويخلي بينه وبين نفسه، ولا يبعث دواعيه، ولا يحركه إلىٰ مراضيه ومحابه، وليس هذا حقًّا علىٰ الله؛ فيكون ظالمًا بمنعه، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل هو مجرد فضله الذي يحمده علىٰ بذله لمن بذله، وعلىٰ منعه لمن منعه إياه، فله الحمد علىٰ هذا وهذا».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٩).

(٣) مدارج السالكين (ص ٤١٧).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متحدّثًا عن أنواع التوكل**(١): «التوكُّلُ علىٰ الله نوعان:

أحدهما: توكُّلٌ عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدُّنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدُّنيوية.

والثاني: التوكُّل عليه في حصول ما يحبُّه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله؛ فمتىٰ توكَّلَ عليه العبد في النوع الثاني حَقَّ توكُّلِهِ كفاهُ النوعَ الأولَ تمام الكفاية.

ومتىٰ توكَّلَ عليه في النوع الأول دون الثاني؛ كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكِّل عليه فيما يُحبُّه ويرضاه.

فأعظم التوكُّلَ عليه: التوكُّلُ في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل؛ فهذا توكُّلُ الرُسُل وخاصة أتباعهم.

التوكّلُ تارة يكونُ توكُّلَ اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجدُ العبدُ ملجأً ولا وَزَرًا إلا التوكُّلَ، كما إذا ضاقت عليه الأسباب، وضاقت عليه نفسه، وظنَّ أن لا ملجأ من الله إلَّا إليه، وهذا لا يتخلفُ عنه الفَرَجُ والتيسير ألبتَّة.

وتارة يكون توكُّلَ اختيارٍ، وذلك التوكُّلُ مع وجود السبب المفضي إلىٰ

---

(١) الفوائد (ص ٢١١ - ٢١٣).

المراد؛ فإن كان السبب مأمورًا به، ذُمَّ علىٰ تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكُّلَ؛ ذُمَّ علىٰ تركه أيضًا؛ فإنَّه واجب باتفاق الأمةِ ونصِّ القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما.

وإن كان السببُ محرَّمًا؛ حَرُمَ عليه مباشرته، وتوحَّدَ السبب في حقه في التوكُّل، فلم يبق سبب سواه؛ فإنَّ التوكُّلَ من أقوىٰ الأسباب في حصول المراد ودفع المكروهِ، بل هو أقوىٰ الأسبابِ علىٰ الإطلاق.

وإن كان السبب مباحًا؛ نظرت: هل يُضْعِفُ قيامُك به التوكُّلَ أو لا يضعِفُه؟ فإنْ أضعفه وفرَّقَ عليك قلبك وشتَّتَ همَّكَ؛ فتركُهُ أولىٰ، وإن لم يُضْعِفْهُ فمباشرته أولىٰ؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضتْ ربْط المسبَّبِ به، فلا تُعطِّلْ حكمته مهما أمكنك القيامُ بها، ولا سيَّما إذا فعلته عبوديَّة، فتكون قد أتيت بعبوديَّة القلب بالتوكُّل، وعبودية الجوارح بالسبب المنويِّ به القربة».

وعناية الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالدعاء والخشية والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرَّهبة والخشوع والإنابة والاستغاثة والمحبة في رسالته «الأصول الثلاثة» ظاهرة؛ لأنها حقائق التوحيد وأصله وأساسه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه

(١) طريق الهجرتين (ص ٦٧٧، ٦٧٨).

الداخل إلَّا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلّا بها، فليشتغل بها العبد، أو ليعرض عنها، ومن لم يتحقق بها علمًا وحالًا وعملًا لم يتحقق بشهادة «أن لا إله إلا الله» فإنها سرها وحقيقتها ومعناها، وإن أبىٰ ذلك الجاحدون، وقصر عن علمه الجاهلون؛ فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئن بذكره، وتسكن إلىٰ حبه، وليس ذلك إلا لله وحده؛ ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته».

وكل مخلوق فهو فقير إلىٰ الله فقر عبودية، وفقر تدبير وحفظ، ورزق، وكفاية، وسداد، وهداية، قال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «حقيقة الأمر: أن العبد فقير إلىٰ الله من كل وجه وبكل اعتبار؛ فهو فقير إليه من جهة ربوبيته له، وإحسانه إليه، وقيامه بمصالحه، وتدبيره له، وفقير إليه من جهة إلهيته وكونه معبوده وإلهه ومحبوبه الأعظم، الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٧٣٩، ٧٤٠).

أحب شيء إليه؛ فيكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله ووالده وولده، ومن الخلق كلهم.

وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء؛ فإنه إن لم يعافِه منها؛ هلك ببعضها.

وفقير إليه من جهة عفوه عنه، ومغفرته له، فإن لم يعفُ عن العبد ويغفر له؛ فلا سبيل إلىٰ النجاة؛ فما نجا أحد إلا بعفو الله، ولا دخل الجنة إلا برحمة الله».



الخشـوع

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أنواع العبادة[(١)]: **«والخشوع»**.

وقال[(٢)]: **«ودليل الخشوع** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ **[الأنبياء: ٩٠]»**.

الشَّرح:

الخشوع: خضوع وتذلل وانقياد لله، فتباشر مواعظ الله قلوب أوليائه؛ فتخشع؛ فتورث صلاحًا في الجوارح، وإقبالًا على الله، وقبولًا لأوامره بالسعادة والطاعة، وانكفافًا عن نواهيه ابتغاء مراضيه، قال تعالىٰ في شأن عباده العلماء العُبّاد الصالحين: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ -١٠٩].

فالخشوع إذا وقع في القلب صلح، وسرىٰ صلاحه إلىٰ الجوارح، فانقادت

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٢، ١٣).

إلىٰ أمر الله ونهيه، فتواضع العبد لأمر الله وحكمه وقضائه، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «القلب إذا خشع فإنَّه يَسْكُنُ خواطره وإرادته الرديئة التي تنشأ عن اتِّباع الهوىٰ، وينكسر ويخضع لله عَزَّوَجَلَّ؛ فيزول بذلك ما كان فيه من البأو والترفعِ والتعاظم والتكبُّرِ، ومتىٰ سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلُّها حتىٰ الصَّوتُ.

وقد وصف الله تعالىٰ الأصوات بالخشوع في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها.

وكذلك وصف وجوه الكفار وأبصارهم في يوم القيامة بالخشوع؛ فدلَّ ذلك علىٰ دخول الخشوع في هذه الأعضاء كلِّها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبينًا معنىٰ الخشوع**[2]: «الخشوع»: قيام القلب بين يدي الرب تعالىٰ بالخضوع والذلّة، والجمعية عليه.

وقيل: «**الخشوع**»: الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته: أن العبد إذا خُولِف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخشوع تذلُّل

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١٠).

(٢) مدارج السالكين (ص ٣٢٢، ٣٢٣).

القلوب لعلّام الغيوب.

وأجمع العارفون علىٰ أن «الخشوع» محلّه القلب، وثمرته علىٰ الجوارح، فهي تُظْهِرُهُ».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وتمام الخضوع في الركوع: أن يخضع القلبُ لله ويذل له، فيتمَّ بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «**خشع لك سمعي وبصري ومُخِّي وعظامي وما استقلَّ به قدمي**»[٢]. إشارة إلىٰ أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلبُ الذي هو مَلِكُ الأعضاء والجوارح، فإذا خشع خشعت الجوارح والأعضاء كلها تبعًا لخشوعه.

ومن ذلك: السجود، وهو أعظم ما يظهر فيه ذُلُّ العبد لربِّه عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جعل العبدُ أشرف ما له من الأعضاء وأعزَّها عليه وأعلاها حقيقة، أوضع ما يُمكنه، فيضعه في التراب مُتعفِّرًا، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يُقَربه الله عَزَّوَجَلَّ إليه؛ فإن:

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٢٣، ٢٤).

(٢) رواه مسلم.

«**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»، كما صحَّ عن النبي ﷺ، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]».

فالحاصل أن «القرب من الله» إنما يُنال باستباق الخيرات وفعل الطاعات؛ قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، المقرّبة إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رحمته، ويخافون عذابه؛ فيجتنبون كل ما يوصل إلىٰ العذاب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه، والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة - الخوف والرجاء والمحبة - التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده؛ هي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت له؛ تمّت له أموره؛ وإذا خلا القلب منها؛ ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة - ما ذكره الله -: أن يجتهد العبد في كل عمل يُقرّبه إلىٰ الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها علىٰ أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يُحب الله بغير ذلك، فهو كاذب».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٣٥).

فالأصل خشوع القلب، والجوارح تبعٌ لذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]؛ فهذه الآية صريحة في أن خشوع القلب موجب للانقياد لأمر الله وشرعه، وأن مادة خشوع القلب ذكر الله، وأن ضد الخشوع: الغفلة عن ذكره، وقسوة القلب عن طاعة الله والانقياد له.

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من قلب لا يخشع، كما في «صحيح مسلم» عن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد شرع الله لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان، الناشيء عن خشوع القلب وذُلِّه وانكساره، ومن أعظم ما يظهر فيه خشوع الأبدان لله تعالىٰ من العبادات: الصلاة، وقد مدح الله تعالىٰ الخاشعين فيها بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]».

وأخبر الله سبحانه أن الخشوع يورث كل خير، وأنه يحمل علىٰ الإتيان بالطاعات كلها، لا يصدّه عنها ما فيها من الكلفة أو المشقة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، قال الحافظ

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١٨).

ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: مشقة ثقيلة إلا علىٰ الخاشعين. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يعني: المصدّقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ يعني به: المتواضعين. وقال الضحاك: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا علىٰ الخاضعين لطاعته، الخائفين سطوته، المصدقين بوعده ووعيده، وهذا يشبه ما جاء في الحديث: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير علىٰ من يسَّره الله عليه**»».

وحقيقة الخشوع: هو خشوع القلب والجوارح لله، والافتقار إليه، والخضوع لله، والتذلل له الذي له العزة والكبرياء، وهذه أعلىٰ مقامات العبودية، ومن كان هذا حاله صدقًا؛ فإنه قريب من الله، ألا ترىٰ إلىٰ عبودية الصلاة التي هي أجل الطاعات لما فيها من الخشوع والخضوع لله؛ لذلك قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وضع اليد اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ قيامًا بين يدي الله «خضوع بين يدي عزيز»، وأعظم هيئات الخضوع والخشوع والافتقار إلى الله في هذه العبادة العظيمة، هو في السجود.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٢١).

(٢) مدارج السالكين (ص ٢٦٥).

السجود المراد منه، إذا سجد القلب لله - هذه السجدة العظمىٰ - سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجهُ حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خدّه علىٰ عتبة العبودية؛ ناظرًا بقلبه إلىٰ ربه ووليّه نظر الذليل إلىٰ العزيز الرحيم؛ فلا يُرىٰ إلا متملقًا لربه، خاضعًا له، ذليلًا مستعطفًا له، يسأله عطفه ورحمته».

وخشوع وخضوع العبد لربه وافتقاره إليه؛ تذلل محب مبتهج بهذه العبودية فرح بها، يرىٰ عزته في ذله لربه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، فالخشوع والخضوع لمن يستحقه - العزيز الرحيم وحده لا شريك له - أجمل ما تزيّن به المتقون؛ خفضوا جناحهم لربهم، وأخبتوا له، وذلت قلوبهم لطاعة الله، ولهجت ألسنتهم بذكره، وجوارحهم لعبادته.

وهذه الذلّة لله هي موجب الرفعة والعزة، قال النبي ﷺ: «**من تواضع لله رفعه**».

والكافر وإن خرج عن طاعة ربه فهو خاضع لقضائه الكوني، الذي من جملته أن صيّره كافرًا، فالله أعلم بمن يستحق رحمته، ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: ٢]، والله عَزَّوَجَلَّ نافذ قضاؤه في هذا الكافر فيما يجري عليه من القدر في الدنيا من أنواع العقوبات، وما يستدرجه به من النعم

التي بطرها ولم يشكرها ولم يؤدِّ حقوقها، فيذيقه أنواع الحسرات في الدنيا، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ويسومه سوء العذاب في القبر، ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، وفي الآخرة عذاب شديد ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦].

فكل من أظهر عنادًا وكفرًا لربه؛ فإن ذل كفره وشركه ملازم له، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيّم علىٰ كل شيء يدبّره يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلىٰ صاحبه، حتىٰ يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء».

والظلم درجات، أعظمه الشرك بالله، فمن تكبّر وتعزّز علىٰ طاعة الله

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٠٣).

فهو أحرىٰ بهذا الوعيد العظيم.

علىٰ كل حال: ذل المخلوق لخالقه لا يرتاب فيه عاقل، ولا يجادل فيه إلا مسفسط، وإن شئت أن تعرف حقيقة ذلك فانظر إلىٰ حاله إذا نزلت به ضراء، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فُصِّلَت: ٥١]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣]: أي: أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عَزَّوَجَلَّ، كقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ [الذاريات: ٣٩]».

ومن ابتُلي بقسوة القلب فليذبه بذكر الله، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبتدبّر مواعظه في القرآن، وتذكّر مقام الآخرة، والخضوع لحساب الله، وأهوال ذلك اليوم الذي لا يوم بعده.

روي عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ **قال:** يا ابن آدم! إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة أو حدَّثت بها نفسك؛ فاذكر عند ذلك ما حَمَلَك اللهُ من كتابه مما لو حملته الجبال الرواسي لخشعت وتصدَّعت، أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]؛ فإنما ضرب لك الأمثال لتتفكر فيها، وتعتبر بها، وتزدجر عن معاصي الله عَزَّوَجَلَّ، وأنت يا ابن آدم أحقُّ أن تخشع

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٩).

لذكر الله، وما حمَّلك من كتابه، وآتاك من حكمه؛ لأن عليك الحساب، ولك الجنةُ أو النار».

والخشوع حقيقته عزة، وهو أول ما يُرفع من الناس:

قال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لأبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو شئت لحدّثتك بأول علم يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجدَ الجامع فلا ترىٰ فيه رجلًا خاشعًا. رواه الترمذي.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وقد روىٰ سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أول ما يُرفع من الناس الخشوع**»، فذكره.

ورواه أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب مرسلًا.

ورُوي نحوه عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله.

فالعلم النافع هو ما باشر القلوب؛ فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله، والتواضع والانكسارَ له، وإذا لم يباشر القلب ذلك من العلم، وإنما كان علىٰ اللسان، فهو حُجَّةُ الله علىٰ ابن آدم، يقوم علىٰ صاحبه وغيره، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ١٤، ١٥).

تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع». خرَّجه مسلم.

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: العلم علمان: علمٌ باللسان، وعلمٌ بالقلب؛ فعلمُ القلب: هو العلم النافع. وعلم اللسان: هو حجة الله علىٰ ابن آدم.

ورُوي عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مرسلًا عن النبي ﷺ، ورويَ عنه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وعنه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، ولا يصلح وصله.

فأخبر النبي ﷺ أن العلمَ عند أهل الكتابين من قبلنا موجود بأيديهم، ولا ينتفعون بشيء منه لمَّا فقدوا المقصود منه، وهو وصوله إلىٰ قلوبهم، حتىٰ يجدوا حلاوة الإيمانِ به، ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم، وإنما هو علىٰ ألسنتهم تقوم به الحُجَّةُ عليهم.

ولهذا المعنىٰ وصف الله تعالىٰ في كتابه العلماء بالخشية، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]».

ومن أعظم الأسباب المذهبة للخشوع في الطاعات - خصوصًا الصلاة -؛ فعلها عادة، وهذا يأتي من جهة فعلها بالممارسة والاعتياد، والواجب قصدها طاعةً لله، وتحقيقًا للعبودية، وطلبًا لتحصيل مقاصدها التي فُرضت من أجلها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1] في شأن هذا الصنف من الناس: «يفعل الفرائض والسنن عادةً ووظيفةً، وهذا عكس الدين، فيفوته

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٠١).

بذلك ما في الفرائض والسنن من المغفرة والرحمة والرقة والطهارة والخشوع، وإجابة الدعوة، وحلاوة المناجاة، إلىٰ غير ذلك من الفوائد، وإن لم يفته هذا كله، فلا بد أن يفوته كماله».

فالحاصل أن معاني «الخشوع» ترجع إلى الخضوع لله والتأله والانقياد له وخشيته ولزوم أمره.

قال تعالى في وصف صفوة خلقه من أنبيائه ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أي مصدِّقين بما أنزل الله.

وقال مجاهد: مؤمنين حقًّا.

وقال أبو سنان: الخشوع هو: الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا.

وعن مجاهد أيضًا: خاشعين ، أي: متواضعين.

وقال الحسن وقتادة والضحاك: خاشعين، أي: متذلِّلين لله عَزَّ وَجَلَّ. وكل هذه الأقوال متقاربة».



(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٣)، ط – مؤسسة الرسالة ناشرون.

الخشيـــة

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها: ...، الخشية**».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ متممًا[٢]: «**ودليل الخشية قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]».

الشَّرح:

الخشية مقام العارفين، وهي أخص من الخوف؛ فهي خوف مقرون بالعلم بالمخوف؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: ««الوجل»، و«الخوف»، و«الخشية»، و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة علىٰ مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٣).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤١١، ٤١٢).

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الخشية» أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**» متفق عليه.

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرىٰ العدو، والسيل، ونحو ذلك؛ له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية، ومنه انخش الشيء، والمضاعف والمعقل أخوان، كتقضىٰ البازي وتقضض.

وأما «**الرهبة**»: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد «الرغبة» التي هي سعي القلب في طلب المرغوب فيه.

وبين «الرَّهب» و«الهَرَب» تناسب في اللفظ والمعنىٰ، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة علىٰ معنًىٰ جامع.

وأما «**الوجل**»: فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما «**الهيبة**»: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة.

و«**الإجلال**»: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلىٰ قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي ﷺ: «**إني أعلمكم بالله، وأشدُّكم له خشية**».

وفي رواية: «خوفًا»، وقال: «**لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء علىٰ الفُرُش، ولخرجتم إلىٰ الصَّعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**».

فصاحب الخوف: يلتجئ إلىٰ الهرب، والإمساك.

وصاحب الخشية: يلتجئ إلىٰ الاعتصام بالعلم.

ومثلهما مثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلىٰ الحمية والهرب، والطبيب يلتجيء إلىٰ معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفص: «الخوف سوط الله، يُقوِّمُ به الشاردين عن بابه».

وقال: «الخوف سراج في القلب، به يُبصر ما فيه من الخير والشر. وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنك إذا خفته هربت إليه»،

فالخائف هارب من ربه إلىٰ ربه».

فالعلماء والعارفون الموحدون خوفهم من الله فرار إليه، وهروب من معصيته إلىٰ طاعته، ومن الغفلة عنه إلىٰ ذكره.

فالعلماء بالله خشيتهم من الله طمأنينة وليست قنوطًا من رحمة الله؛ لأنهم يعلمون أن لهم ربًّا يغفر الذنب، ويعفو عن السيئات، ويبدِّلها حسنات، وأن الله ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] . وأن العبد إذا صدق في فراره إلىٰ الله وخشيته منه، قد يكون حاله بعد التوبة أكمل منه قبل فعل الذنب.

والخوف دليل حياة قلب صاحبه، وصحة إيمانه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وفي مراقبة العاقبة: زيادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينه بحيث لا ينساه؛ فإنه – وإن كان عالمًا به – لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف؛ فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان؛ وترحُّله من القلب علامة ترحل الإيمان منه».



(١) مدارج السالكين (ص ٣١٩).

الإنابـــة

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها: ...، والإنابة**».

وقال[(٢)]: «**ودليل الإنابة قوله تعالى:** ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ **[الزمر: ٥٤]**».

الشَّرح:

الإنابة منزلة بعد التوبة، والتوبة من نزل مقامها نزل في جميع منازل الإسلام؛ فإن التوبة الكاملة متضمنة لها.

وقد أمر الله بالإنابة، وأثنىٰ علىٰ أوليائه بها، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [هود: ٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الروم: ٣١] [(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «و«الإنابة»: إنابتان؛ إنابة لربوبيته، وهي إنابة

(١، ٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٤٩).

المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]؛ فهذا عام في حق كل داعٍ أصابه ضُرٌّ، كما هو الواقع، وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام؛ بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالىٰ في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«**الإنابة**» **الثانية**: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عمّا سواه؛ فلا يستحقّ اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع.

وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور علىٰ ذلك، وفي اللفظة معنىٰ الإسراع والرجوع والتقدم، و«المنيب» إلىٰ الله: المسرع إلىٰ مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلىٰ محابه».

والتوبة والإنابة من أعظم مقامات العبودية لما فيهما من خضوع العبد إلىٰ ربه وفراره إليه؛ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ولما فيهما من محبة الله الذي يغفر لعباده ويرحمهم، فيتوب عليهم إذا تابوا، ولا يُغلق دونهم أبواب رحمته؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال المذنبون: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

قال يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبد يوحش فيما بينه وبين سيده بالمخالفات، ولا يفارق بابه بحال؛ لعلمه بأن عز العبيد في ظل مواليهم».

علىٰ كل حال: شأن ابن آدم معلوم من الضعف والنقص، فبنو آدم ليسوا كالملائكة الذين قال الله فيهم ﴿**لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطائين التَّوَّابون**»، رواه الترمذي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ينبغي أن يُعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله ويزول عنه ما يكره إلا بها».

والإنابة تقتضي الإقلاع عن الذنوب والمبادرة إلىٰ الطاعات، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠]، فلا تنفع توبة وبطالة؛ فلا بد من توبة وعمل صالح: تركٍ لما يكره، وفعلٍ لما يحب، تَخَلٍّ عن معصيته، وتَحَلٍّ بطاعته».

وقال الله في صفة المؤمنين: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾ [الروم: ٣١].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٥٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٥٠).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل البدن بمقتضى ما في القلب، فشمل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتمُّ ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخصَّ من المأمورات الصلاة لكونها تدعوا إلى الإنابة والتقوى».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٣٣٥).

الاستعانة

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل... الاستعانة**».

وقال[٢]: «**ودليل الاستعانة قوله تعالى:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، **وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله»**».

الشَّرْح:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا معنىٰ «الاستعانة»[٣]: «الاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد علىٰ الله تعالىٰ؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به - لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به - لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلىٰ اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «إذا أراد الله بعبد خيرًا ألهمه

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٣).

(٣) مدارج السالكين (ص ٥٢).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٦٩)، ط: دار الفضيلة.

دعاءه والاستعانة به، وجعل استعانته ودعاءه سببًا للخير الذي قضاه له، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إني لا أحمل همّ الإجابة، وإنما أحمل همّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاء فإن الإجابة معه».

كما أن الله تعالىٰ إذا أراد أن يُشبع عبدًا أو يرويه، ألهمه أن يأكل أو يشرب، وإذا أراد الله أن يتوب علىٰ عبد ألهمه أن يتوب فيتوب عليه، وإذا أراد أن يرحمه ويدخله الجنة يسّره لعمل أهل الجنة.

والمشيئة الإلهية اقتضت وجود هذه الخيرات بأسبابها المقدّرة لها، كما اقتضت وجود دخول الجنة بالعمل الصالح، ووجود الولد بالوطء، والعلم بالتعليم.

فمبدأ الأمور من الله، وتمامها علىٰ الله».

والنبي ﷺ كان يستعين بالله في صغير الأمور وكبيرها، وأرشدنا النبي ﷺ إلىٰ الاستعانة بالله في كل شيء مهما كان، ولو كان يسيرًا؛ ففي حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ: «**ليسأل أحدكم ربَّه حاجته كلَّها، حتىٰ يسأله شسع نعله إذا انقطع**». رواه الترمذي ورجح إرساله، وصححه ابن حبان.

ومن شدائد الأمور التي كان يستعين النبي ﷺ فيها ربه؛ الجهاد في سبيل الله؛ فإنه لما أسر كفار قريش حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما ذهب إلىٰ مكة، ولم يُطلقوه حتىٰ أخذوا عليه عهد الله وميثاقه أن ينصرف إلىٰ المدينة ولا يقاتل مع النبي ﷺ ضدهم، فأتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، قال النبي ﷺ: «**نفي لهم بعهدهم،**

ونستعين الله عليهم». رواه مسلم[(١)].

وقد أرشدنا الله إلىٰ الاستعانة به في كل صغير وكبير من الشؤون الدينية والدنيوية، قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته؛ فاستهدُوني أَهْدِكُم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أُطْعِمكم**». رواه مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ في جلب مصالحهم، ودفع مضارِّهم في أمور دينهم ودُنياهم، وأنَّ العباد لا يملِكُون لأنفسهم شيئًا مِنْ ذلك كلِّه، وأنَّ مَنْ لم يتفضَّل اللهُ عليه بالهدىٰ والرزق؛ فإنَّه يُحرمها في الدنيا، ومن لم يتفضَّل اللهُ عليه بمغفرة ذنوبه؛ أوْبَقَتْهُ خطاياه في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، ومثل هذا كثيرٌ في القرآن، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]».

---

(١) كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد (رقم ١٧٨٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ٤٢٤).

وإذا تذكّر العبد أن مبدأ الأمور من الله وتمامها عليه، وأنه هو الذي هداه للإسلام، ودفع عنه أنواع السوء، وأنه هو الذي يكلأه بالليل والنهار، وأنه هو الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأنه آخذ بناصيته، وأنه هو الذي يقدِّر مقاديره ورزقه وأجله وسعادته، وأنه هو الذي أفرغ عليه صبرًا، أوجب له ذلك مداومة السير إلىٰ الله؛ وأوجب له كذلك التودد والتملُّق لمولاه، وشكره وعبادته، ومضاعفة الاستعانة به وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يُعطي ولا يمنع إلا بإذن الله؛ فالأمر كلّه لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وهو مُقلّب القلوب ومُصرّفها كيف يشاء، المتفرّد بالضرّ والنفع، والعطاء والمنع، والخفض والرفع ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: ٥٦]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]».

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلىٰ الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا؛ فهذا الوجه يحقِّق التوكل علىٰ الله، والشكر له، ومحبته علىٰ إحسانه».

فالاستعانة بالله من أسباب الهمّ بالأعمال النافعة الدينية والدنيوية، ومن

---

(١) طريق الهجرتين (ص ١٧١). (٢) طريق الهجرتين (ص ١٧٢).

أسباب الإتيان بها بعد ذلك، فلولا الاستعانة بالله ما تيسرت لك هذه الأمور، ولو شاء الله لصرف همّتك عنها؛ لذلك روىٰ مسلم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ شيء بقدر، حتىٰ العجز والكيس**».

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «العجز والكيس هما الوصفان المتضادَّان؛ الذي يُنال بالأول منهما - وهو العجز - الخيبة والخسران. وبالثاني - وهو الكيس - الجدُّ في طاعة الرَّحمن.

والمراد هنا: العجزُ الذي يُلام عليه العبدُ، وهو عدم الإرادة، وهو الكسل، لا العجز الذي هو عدم القدرة».

وإذا أردت أن تعرف حقيقة هذا من نفسك، فتذكّر كم من أمر هممت بفعله فصرفك الله عنه، وكم من خير توانيت في فعله ففاتك ثوابه وعائدته الدنيوية والأخروية.

وقيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟

قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يخلق أفعال

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ٦١).

(٢) الإيمان الكبير، لشيخ الإسلام (ص ٧٨١).

(٣) طريق الهجرتين (ص ٦١٤، ٦١٥).

العبد الظاهرة والباطنة؛ فهو الذي يجعل الإيمان والهدىٰ في القلب، ويجعل فيه التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها.

والعبد في كل لحظة مفتقر إلىٰ هداية يجعلها الله في قلبه، وحركات يحركه بها في طاعته، وهذا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو خلقه وقدره، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**».

وعلّم حصين بن المنذر أن يقول: «**اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**». وعامة أدعيته ﷺ متضمّنة لطلب توفيق ربه، وتزكيته له، واستعماله في محابه، فمَنْ هُداه وصلاحه وأسباب نجاته بيد غيره، وهو المالك له ولها، المتصرف فيه بما يشاء، ليس له من أمره شيء؛ من أحق بالخوف منه؟»].

والمخلوق لو وُكل إلىٰ نفسه فإنه يُوكل إلىٰ ضعف؛ فإن نفسه تأمره بالهوىٰ، والشيطان يتسلط عليه فيوقعه في الغفلة فيقع في الزلّة، فلا بد له من الاستعانة بالله علىٰ هواه وشيطانه، وهذا ما نبّه الله به نبيه ﷺ عليه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وهذا مفزع نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية وقد يكون خطأً.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٨).

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع، ويُزيِّنه الشيطان، فلذلك أُمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلىٰ الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلًا».

وكلّ من تغافل عن الإقرار بأنه ما أدرك شيئًا إلا بما أقدره الله عليه، انعكست عليه الأمور، وسلبه الله أنواع نعمه، وأراه الله من ضعفه ما جعله عبرةً له ولغيره.

والجبّارون - كقارون - استكبروا عن الإقرار بالنعم لله، والموفقون - من الأنبياء والصالحين كسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ - يقرون بمنّة الله عليهم بكل نعمة أوتوها، ويسألون ربهم الإعانة علىٰ شكرها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «ذكر عبدُ الله بن الحارث بن نوفل سليمانَ بن داود فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل: هذا من كرامتي! ثم ذكر قارون وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ رأىٰ ما أوتيه من فضل الله عليه ومنَّته، وأنه ابتلىٰ به شُكْرَهُ، وقارون رأىٰ ذلك من نفسه واستحقاقه».

علىٰ كل حال ملاحظة منّة الله علىٰ عبده في أحواله كلها، خصوصًا منّة الهداية والتوفيق إلىٰ الدين ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]؛ تقع

---

(١) الفوائد (ص ٤٤٥).

من قوة التوحيد وتحقيقه، قال أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن التوحيد حقيقته أن ترىٰ الأمور كلها من الله تعالىٰ، رؤية تقطع عن الالتفات إلىٰ الأسباب والوسائط، فلا ترىٰ الخير والشر إلا منه تعالىٰ، وهذا المقام يُثمر التوكل وترك شكاية الخلقِ وترك لومهم، والرضا عن الله والتسليم لحكمه».

وفي قلب العبد فقر اضطراري إلىٰ عبودية الله والاستعانة به، وإذا لم يحقق ذلك رغبةً وإرادةً وطاعةً ومحبةً وخوفًا ورجاءً؛ فسدت أحواله، واضطربت أموره، ولم يسد فقر قلبه شيء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «القلب فقير بالذات إلىٰ الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية.

ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة.

فالقلب لا يصلح ولا يُفلح ولا يلتذّ ولا يُسرُّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئنُّ؛ إلا بعبادة ربِّه وحبِّه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذُّ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلىٰ ربِّه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللَّذة والنِّعمة والسكون والطمأنينة.

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٥١).

(٢) العبودية (ص ٨٧، ٨٨).

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر علىٰ تحصيل ذلك له إلا الله؛ فهو دائمًا مفتقر إلىٰ حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه لو أعين علىٰ حصول ما يُحِبُّهُ ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله، فلن يحصل إلا علىٰ الألم، والحسرة، والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحُبِّ لله، بحيث يكون هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأوَّل، وكُلُّ ما سواه إنما يُحِبُّه لأجله، لا يُحِبُّ شيئًا لذاته إلا الله.

فمتىٰ لم يحصل له هذا لم يكن قد حقَّق حقيقة «لا إله إلا الله»، ولا حقَّق التوحيد والعُبُوديَّة والمحَبَّةَ لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان - بل من الألم والحسرة والعذاب - بحسب ذلك.

ولو سعىٰ في هذا المطلوب ولم يكن مستعينًا بالله، مُتوكِّلًا عليه، مفتقرًا إليه في حصوله، لم يحصل له؛ فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فهو مفتقر إلىٰ الله من حيث هو المطلوب، المحبوب، المراد، المعبود، ومن حيث هو المسئول، المستعان به، المتوكَّلُ عليه؛ فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه».

والاستعانة بالله موجبة للقدرة علىٰ فعل الأوامر وترك النواهي، بل هي موجبة لأكثر من ذلك، وهو تيسير فعلها؛ فإنه لا سهل إلا ما جعله الله سهلًا، فالموفق هو الذي يستعين بالله في فعل كل صغير وكبير، قال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا إرشاد من الله تعالىٰ لرسول الله ﷺ، إلىٰ الأدب فيما إذا عزم علىٰ شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلىٰ مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، علّام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لو كان كيف يكون».

ومن أجل هذا كانت «**لا حول ولا قوة إلا بالله كنزًا من كنوز الجنة**»، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن العبدَ عاجزٌ عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضارّه، ولا معين له علىٰ مصالح دينه ودنياه إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ فمن أعانه الله، فهو المُعانُ، ومن خذله فهو المخذولُ، وهذا تحقيقُ معنىٰ قول: «لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله»؛ فإنَّ المعنىٰ: لا تَحوُّلَ للعبد مِنْ حال إلىٰ حال، ولا قُوَّة له علىٰ ذلك إلا بالله، وهذه كلمةٌ عظيمةٌ، وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبدُ محتاجٌ إلىٰ الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر علىٰ المقدورات كلِّها في الدنيا وعندَ الموت وبعده، من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر علىٰ الإعانة علىٰ ذلك إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله؛ أعانه. وفي الحديث الصحيح عَنِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٩٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ٣٦٢).

النَّبيِّ ﷺ قال: «**احرصْ علىٰ ما ينفعُكَ، واستعن بالله ولا تعجزْ**».

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيرِه، وكَلَهُ الله إلىٰ من استعان به، فصار مخذولًا.

كتب الحسنُ إلىٰ عُمَرَ بنِ عبد العزيز – رحمهما الله –: لا تستعِنْ بغيرِ الله، فيكِلَكَ الله إليه. ومن كلام بعضِ السَّلف: يا ربِّ عَجبت لمن يعرفُك كيف يرجو غيرك، وعجبتُ لمن يعرفك كيف يستعينُ بغيرك».

والاستعانة بالله في السير إليه مع أنه ضرورة، فإنها تهوِّن علىٰ المسلم مشاق التكاليف، ويجد العبد بلذة الصبر علىٰ الطاعة حلاوة الإيمان وقرة العين بطاعة الرحمن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء، ويتحمل الأثقال؛ ولم يجد لها ثقلًا؛ فإنه اذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه؛ كان لقلبه وروحه وجود آخر وشأن آخر غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق، وبهذا الحال لا يجد عناء الصَّبْر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيمًا وقرَّة عين، كما قال بعض الزهاد[2]: عالجت قيام الليل سنة، وتنعَّمْت به عشرين سنة. ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقَّةً وكلفة».

(١) عُدّة الصابرين (ص ٥٨).

(٢) ثابت البُناني.

روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن سعادة الإنسان في حرصه علىٰ ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين:

- أن يكون حريصًا.

- وأن يكون حرصه علىٰ ما ينتفع به.

فإن حرص علىٰ ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص؛ فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك؛ فالخير كله في الحرص علىٰ ما نفع، ولمّا كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه، أمره أن يستعين بالله؛ ليجتمع له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإن حرصه علىٰ ما ينفعه عبادة لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمره بأن يعبده وأن يستعين به، ثم قال: «**ولا تعجز**». فإن العجز ينافي حرصه علىٰ ما ينفعه، وينافي استعانته بالله؛ فالحريص علىٰ ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز؛ فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلىٰ ما هو

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

من أعظم أسباب حصوله؛ وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، فإن فاته ما لم يقدر عليه فله حالتان:

حالة عجز، وهي مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلىٰ «لو»، ولا فائدة في «لو» هاهنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلىٰ القدر وملاحظته، وأنه لو قُدِّر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد؛ فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود «المقدور»، وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: «**فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلتُ لكان كذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»، فأرشده إلىٰ ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته.

فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدًا، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا، في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق».

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فإن التَّوكُّل والاستعانة هي من عبادة الله، لكن خُصَّتْ بالذِّكر ليقصدها المُتَعبّدُ بخصوصها، فإنها هي العوْنُ علىٰ سائر أنواع العبادة؛

(١) العبودية (ص ٥٩).

إذ هو سبحانه لا يُعبد إلا بمعونته».

والاستعانة بالله علىٰ الطاعة تحتاج إلىٰ إقبال علىٰ الله؛ فمن أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه، وأعانه، ويسّر له أسباب كل خير، خصوصًا عبادة الله وتوحيده وطاعته، ورزقه السكينة والطمأنينة في قصد الطاعة وأدائها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفُها ويحبُّها ويُؤثرُها، حتىٰ يُرسل اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برحمته إليه الملائكة تؤزُّهُ إليها أزًّا، وتُحرِّضه عليها، وتُزعجه عن فراشه ومجلسه إليها».

فالله عَزَّوَجَلَّ يتولىٰ عبده المؤمن حفظًا وهدايةً وسدادًا؛ يدفع عنه ما يعوق سيره إلىٰ الله، وييسر له أسباب لزوم الصراط المستقيم، ومداومة السير إلىٰ الله.

وعلىٰ قدر الإيمان والعبودية تحصل النصرة والتوفيق من الله، قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «... أيَّده بجند من الملائكة لا يفارقونه ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ يعقب بعضهم

(١) الجواب الكافي (ص ٧٣).

(٢) الجواب الكافي (ص ١١٩، ١٢٠).

بعضًا، كلما ذهب بدل جاء بدلٌ آخر، يُثبِّتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضُّونه عليه، ويعدونه بكرامة الله، وينصرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد».

والعبد إذا أعرض عن الله أعرض عنه، وإذا لم يُقبل عليه واتّبع هواه؛ وكله الله إلىٰ ضعفه وشيطانه، فصارت الشياطين تأزه إلىٰ المعاصي أزًّا، وتسوقه إليها سوقًا، وتُثقّل عليه الطاعات، والناس في هذا طبقات بحسب إعراضهم عن الله؛ فالمنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهكذا من ألمّ بشعب الكفر ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦].

فشعب الكفر والذنوب والمعاصي تقطع صاحبها عن السير إلىٰ الله، وتُفسد عليه إدراكه، فلا يتصور الحق ولا يطلبه ولا يريده، وإذا أراه الله إياه بسبب من الأسباب لا يسلكه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فمن كان بهذه الصفة حرمه الله خيرًا كثيرًا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٨١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب، فلا يدركُ الحقَّ كما ينبغي، وتُضعفُ قوَّتَهُ وعزيمته، فلا يصبرُ عليه، بل قد يتواردُ علىٰ القلب حتىٰ ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيُدرك الباطل حقًّا، والحقَّ باطلًا، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، فينتكس في سيره، ويرجعُ عن سفره إلىٰ الله والدار الآخرة، إلىٰ سفره إلىٰ مستقرِّ النفوس المبطلة، التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنَّتْ بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه.

ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها؛ لكانت داعيةً إلىٰ تركها والبُعْدِ عنها، والله المستعان».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر أنواع العبادة كالدعاء، والذبح، والنذر، لم يقصد حصرها بذلك؛ بدليل قوله[2]: «وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلِّها لله، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر».

وحقيقة الدين كله في تحقيق شهادة «أن لا إله إلا الله»، وتحقيق العبودية لله وحده لا شريك له في كل ما يحبه الله ويرضاه من الاعتقادات والأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ولزوم هدي النبي ﷺ في تحقيق التوحيد وأخذ

(١) الجواب الكافي (ص ١١٦، ١١٧).
(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١١).

الدين عنه من مشكاة الوحي المعصوم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتىٰ يُسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولىٰ: بتحقيق «لا إله إلا الله» معرفةً وإقرارًا وعملًا. **وجواب الثانية**: بتحقيق «أن محمدًا رسول الله» معرفةً وإقرارًا وانقيادًا وطاعة.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأمينه علىٰ وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحجةً علىٰ الخلائق أجمعين».

فمن كان مُحققًا للتوحيد فإنه يستعين بربه أولًا استعانة التجاء قلبه قبل لسانه إلى ربه وقبل بذله للأسباب، قال تعالى ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: ٢٧] قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾: ملجأً ومعدلًا تميل إليه»، واحذر أن تكون ممن يلتفت قلبه إلى غير ربه، قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هؤلاء[٣]: «إن نابته نائبة سبق إلى قلبه الفزع إلى العباد والاستعانة بهم، يطلب من ربه الفرج إذا أيس من الفرج من قبل الخلق».

---

(١) زاد المعاد (ص ٩، ١٠). (٢) رموز الكنوز (٤/ ٢٧٣). (٣) أخلاق العلماء (ص١٣٤).



الاستعاذة

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : «**وأنواع العبادة التي أمر بها :...، والاستعاذة**».

وقال[٢]: «**ودليل الاستعاذة قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]».

الشَّرح :

الاستعاذة من أنواع الدعاء، وصار استعماله في الدعاء فيما يُحاذر ويُخاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الاستعاذة، والاستجارة، والاستغاثة؛ كلها من نوع الدعاء أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «إن لفظ «عاذ» وما تصرَّف منها تدل علىٰ التحرُّز والتحصُّن والالتجاء، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلىٰ من

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٣).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٤٠٦).

(٤) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٣).

يعصمك منه؛ ولهذا يُسمَّىٰ المستعاذ به: «معاذًا»، كما يُسمىٰ: «ملجأً ووَزَرًا»».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مبينًا معنىٰ ما يقوم في قلب المستعيذ بالله من الالتجاء إلىٰ الله والانطراح له وحده -[(١)]: «معنىٰ الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الربِّ، والافتقار إليه والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة».

والاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، مع أنه شرك أكبر؛ فإنه لا ينفع من استعاذ به، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «كان أحدهم إذا نزل بوادٍ يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه. فقالت الجن: الإنس يستعيذوننا. فزادوهم رهقًا.

وقد نص الأئمة - كأحمد وغيره - علىٰ أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به علىٰ أن كلام الله غير مخلوق؛ قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله التامة وأمر بذلك، كقوله: «**أعوذ بكلمات الله**

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٠٤).

(٢) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٤٨-٤٥٢).

التامات كلها من شر ما خلق»، و«أعوذ بكلمات الله التامات كلها من غضبه وعذابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»، و«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا بخير يا رحمن».

قالوا: والاستعاذة لا تجوز بالمخلوق، وقول القائل: «أعوذ بالله» معناه: أستجير بالله. فإذا لم يجز أن يُستغاث بمخلوق لا نبي ولا غيره؛ فإنه لا يجوز أن يقال له: «أنت خير معاذ يستغاث به»، بطريق الأولىٰ والأحرىٰ.

ولهذا قال بعض الشعراء لبعض الرؤساء الممدوحين:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به فيما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فقول القائل لمن مات من الأنبياء أو غيرهم: بك استجير من كذا وكذا؛ كقوله: بك أستعيذ، وقوله: بك أستغيث. في معنىٰ ذلك، إذا كان مطلوبه منع الشدة أو رفعها. والمستعيذ يطلب منع المستعاذ منه أو رفعه؛ فإذا كان مخوفًا طلب منعه كقوله: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر**»، وإن كان حاضرًا طلب رفعه، كقوله في الحديث الصحيح: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»؛ فتعوَّذ بالله من شر الموجود وشر المحاذر.

والداعي يطلب أحد شيئين: إما حصول منفعة، أو دفع مضرة. فالاستعاذة والاستجارة والاستغاثة كلها من نوع الدعاء والطلب، وقول القائل: لا يستعاذ به، ولا يستجار به، ولا يستغاث به، ألفاظ متقاربة».

والنبيّ ﷺ دلّ أمّته علىٰ الاستعاذة بالله، والتوجه إليه، وإنزال الحاجات به وحده لا شريك له؛ قال النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»، رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

فالذي يرفع الضر بعد وقوعه ويدفعه قبل نزوله هو الله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]؛ فمن أجل هذا لا يستعيذ العاقل إلا بالله وحده.

فالحاصل: أن الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر.

قال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إذا تحقَّق العبد بهذه الصِّفات: الرَّبِّ والمَلِكِ والإلَهِ، وامتثل أمرَ الله، واستعاذ به؛ فلا ريب أن هذا عبادة من أجل العبادات، بل هو من حقائق توحيد الإلهية، فإن استعاذ بغيره؛ فهو عابدٌ لذلك الغير، كما أن من صلَّىٰ لله وصلَّىٰ لغيره؛ يكون عابدًا

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٦٢).

لغير الله، كذلك في الاستعاذة، ولا فرق، إلا أن المخلوق يُطلب منه ما يقدر عليه، ويُستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله؛ فلا يستعاذ فيه إلا بالله، كالدعاء؛ فإن الاستعاذة من أنواعه».

وقال العلامة المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الاستعاذة بالله عبادة وقربة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا صرفها العبد لغير الله: كالاستعاذة بالجن أو بالأموات أو بالكواكب أو ما أشبه ذلك؛ فقد صرف العبادة لغير الله؛ فيكون هذا شركًا بالله عَزَّوَجَلَّ، أما إن كان هذا فيما يتعلق بالمخلوق الحي الحاضر، كأن تقول لزيد: أعذني من شر غلامك، أو: من شر كلبك، أو: زوجتك. بأن يمنعها، أو يتكلم عليها، أو ما أشبه ذلك، أو تقول: أغثني من كذا. كما قال الله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] .

فاستغاثتك بالحي الحاضر في شيء يقدر عليه غير داخلة في الاستغاثة والاستعاذة الممنوعة، أو ما أشبه ذلك».



(١) شرح تيسير العزيز الحميد (٢/ ٣١٣).

الاستغاثة

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أنواع العبادات؛ فقال[١]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل الدُّعاء... والاستغاثة**».

وقال[٢]: «**ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]**».

الشَّرح:

الاستغاثة في الحقيقة نوع من الدعاء، فالدعاء أعم من جهة أنه في طلب المنفعة ودفع المضرة، والاستغاثة أخص من جهة دفع الشدة والمضرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الاستغاثة: هي طلب كشف الشدة؛ فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة، أو دعا الجن، فقد دعا من لا يغيثه، فلا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]،

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٤).

(٣) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٤٨، ٤٤٩).

كان أحدهم إذا نزل بوادٍ يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه. فقالت الجن: الإنس يستعيذوننا. فزادوهم رهقًا».

والنبي ﷺ - سيد ولد آدم، وأعظمهم جاهًا عند الله - منع حال حياته الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، فلأن لا يجوز ذلك بعد موته من باب أولىٰ، وكذلك يحرم الاستغاثة بمن دونه حيًّا أو ميتًا من باب أولىٰ.

فقد روىٰ الطبراني في «معجمه الكبير» أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يُستغاث بي، إنما يُستغاث بالله**»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «فهذا إنما أراد به النبي ﷺ المعنىٰ الثاني، وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «وحقيقة قوله: «**لا يُستغاث بي**»، وإن كان مراده الاستغاثة الكلية، كما يقال: لا يُستغاث بي، ولا يتوكل عليَّ، ولا أُدعىٰ، ولا أُسأل ونحو ذلك؛ فمراده النهي عن الطلب الذي لا

(١) رواه الطبراني، وحسّنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩).

(٢) الرد علىٰ البكري (١/ ٢٩٣، ٢٩٤).

(٣) الرد علىٰ البكري (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

يفعله إلا الله، كما نهىٰ عن السجود له، وكما نهىٰ أن يقال: ما شاء الله وشاء محمد. وقال لمن قال: ما شاء الله وشاء محمد. ما روي عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت. فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»».

فالأنبياء - عليهم السلام - فضلًا عمّن دونهم من الصالحين والأولياء؛ لا يُدعون من دون الله، ولا يُستغاث بهم؛ ففي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة علىٰ رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله! أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة علىٰ رقبته فرس لها حمحمة، فيقول: يا رسول الله! أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إذا كان الأنبياء بعد موتهم لا يُدعون، ولا يُسألون، ولا يُستغاث بهم، فكيف بمن دونهم؟!».

فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله هي في حقيقتها عبادة لغير الله؛ فهذا شرك أكبر مضاد للتوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إن كلّ ما شرعه الله ورسوله ﷺ فهو من أعظم الوسائل إلىٰ الله، لكن

---

(١) الرد علىٰ البكري (١/ ٣٥٧).

(٢) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٢٦).

دعاؤهم بعد الموت لم يشرعه الله ورسوله ﷺ؛ فليس من الوسائل، وكذلك سؤال أحدهم ما لا يقدر عليه إلا الله ليس مشروعًا، وأصل الدين أن لا يُعبد إلا الله بما شرع، وما ذكره هؤلاء يتضمن عبادة غير الله بغير أمر الله».

ومع أن الاستغاثة بغير الله شرك، فإنه سفه في العقول، كيف يستغيث مخلوق بمن لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا، وقد قطع الله رجاء المخلوقين بالتعلق بغيره؛ فأخبر أنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض، فكيف يُطلب منهم تفريج الكربات وشفاء الأسقام وطلب الأرزاق والذرية؟!!

قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فقد تهدد سبحانه من دعا شيئًا من دون الله، وبيَّن أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركًا في ملكه؛ وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين؛ فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات: رغبةً ورهبةً وعبادةً واستعانةً».

وما قيمة أن تقضي حاجة بالشرك الذي لا يغفره الله، وتفسد دينك بما لا يقبل الله معه صرفًا ولا عدلًا لأجل حاجة في فواتها الخلف بلزوم التوحيد،

(١) التوسل والوسيلة (ص ٢٨٠).

ناهيك أن الحاجة الحاصلة بالشرك لا بركة فيها؟!

ومقصود خلق السموات والأرض، وتسخير منافعها، هو تحقيق التوحيد، فأي فعل يخرجه عن هذا المقصود، فهذا سفه وضلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أما القبوريون: فإنهم إذا استجيب لهم نادرًا، فإن أحدهم يضعف توحيده، ويقل نصيبه من ربه، ولا يجد في قلبه من ذوق الإيمان وحلاوته ما كان يجده السابقون الأولون، ولعله لا يكاد يبارك له في حاجته، اللهم إلا أن يعفوَ الله عنهم؛ لعدم علمهم بأن ذلك بدعة».

وأزمَّة الأمور بيد الله، والله يقضي حوائج خلقه مما فيه مصلحتهم، وييسرها لهم بالتوحيد والطاعة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «من كمال نعمة الله علىٰ عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك؛ حتىٰ يصرف قلوبهم إلىٰ التوحيد».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «لا يصح التوكل شرعًا وعقلًا إلا عليه سبحانه وحده، فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده، فهو

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢١٠).

(٢) طريق الوصول إلىٰ العلم المأمور (ص ١٤٥).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣٩٢).

الذي سبَّب الأسباب».

فالله عَزَّوَجَلَّ لم يجعل بينه وبين خلقه وسائط تُرفع من خلالهم حاجات العباد، ويُستجاب بسببهم الدعاء، فإن هذا ما يريده المشركون من الجُهال؛ ليجعلوهم أسرىٰ شركهم، فيأكلون أموالهم بالباطل بما يأخذونه منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

فالله عَزَّوَجَلَّ أعز خلقه بعبوديتهم له وحده لا شريك له، يدعونه مباشرة فيستجيب لهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الحنفاء ليس بينهم وبين الله تعالىٰ واسطة في العبادة والدعاء والاستعانة، بل يناجون ربهم ويدعونه ويعبدونه بلا واسطة، وإنما الرسل بلغتهمم عن الله عَزَّوَجَلَّ ما أمر به وأحبه من العبادات وغيرها، وما نهىٰ عنه، فهم وسائط في التبليغ والدلالة، وهم مع المؤمنين كدليل الحاج مع الحجاج، وكإمام الصلاة مع المصلين.

فالرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - يعرّفون الناس طريق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما يُعرِّف الدليل الحاج طريق مكة - شرّفها الله - ثم الناس يعبدون الله تعالىٰ كما أن الحجاج يقيمون مناسك الحج.

والرسل أيضًا يقتدىٰ بهم في الأفعال التي يتأسىٰ بهم فيها، كما يقتدي

(١) الرد علىٰ البكري (٢/ ٤٧٧، ٤٧٨).

المأموم بالإمام في الصلاة، وكل مصلٍّ يعبد ربه منه إليه بلا واسطة».

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم بطانة النبي ﷺ وتلامذته، وهم الذين تعلموا منه ﷺ ما يجوز وما لا يجوز، وميّزوا بحق وصدق بين حق الله وحق المخلوق، وهم أعرف الخلق بما يدفع البلاء ويرفعه، وما يجلب الخير ويحفظه، فمحال أن تكون الاستغاثة بالموتىٰ من أسباب جلب المنفعة ودفع المضرة ولا يعرفه الصحابة، بل الواضح من سيرتهم زجرهم عن أسباب ووسائل الغلو في الموتىٰ فضلًا عن الاستغاثة بهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فهذه سُنَّة رسول الله ﷺ في أهل القبور بضعًا وعشرين سنة، حتىٰ توفاه الله تعالىٰ، وهذه سُنَّة خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل يمكن لبشرعلىٰ وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع: أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة، قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها، فضلًا عن أن يُصَلّوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم».

والشرك بالقبور صيّر الجهلة غرضًا لأطماع سدنتها، ممن أقاموا القباب والستور عليها، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٦، ٣٧٧).

وكثير من القبور والمشاهد التي تُشد الرحال إليها مكذوبة، بعضها قبور كفرة، وأخرىٰ قبور فجرة، وأحيانًا قبور كلاب - أجلكم الله -.

وهذا كله يدلُّك كيف استزل الشيطان الناس إلىٰ ورطات الشرك، بسبب التلقي عمن يُحسنون بهم الظن، وتصديقهم فيما افتروه، فمن كذب علىٰ الله وجعل له ندًّا، سيفتري أسباب اتخاذ الأنداد من صناعة القبور المكذوبة وتشييد البنيان عليها والتكسب بها.

قال العلامة حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا أتيت قباب المقابر والمساجد المبنية عليها، رأيت بها من الزينة والزخارف، والأعطار والزبرقة، والستور المنقشة المعلمة المرصعة، والأبواب المفصّصة المحكمة، ولها من السدنة والخدام، ما لم تجده في بيت الله الحرام، والداخل إليها والخارج منها من الزوار ما لا تحصيهم الأقلام، وعليها من الأكسية والرايات والأعلام ما لو قُسم لاستغنىٰ به كثير من الفقراء والأرامل والأيتام، فما ظنك بالوقوف المُحبَّسة عليها، والأموال المجبية إليها، من الثمار والنقود والأنعام، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فأي فاقرة علىٰ الدين أصعب من هذه الأفعال؟! وهل جنىٰ الأخابث علىٰ الدين أعظم من هذا الضلال؟!

وهل استطاع الأعداء من هدم قواعد الدين ما هدمه هؤلاء الضُّلال؟!

(١) معارج القبول (١/ ٤٣١).

وهل تلاعب الشيطان بأحد ما تلاعب بهؤلاء الجهّال؟! فأي مُنافٍ للتوحيد وأي مناقض له أقبح من هذا الشرك والتنديد؟

تالله ما قوم نوح ولا عاد ولا ثمود ولا أصحاب الأيكة بأعظم شركًا ولا أشد كفرًا من هؤلاء الملاحيد، وليس أولئك بأحق منهم بالعذاب الشديد، وليس هؤلاء المشركون خيرًا من أولئك، ولا براءة لهم من ذلك الوعيد، ولكن الله يمهل ولا يهمل، وما بطشه من الظالمين ببعيد، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]».

وعُبّاد القبور عمدوا إلىٰ آيات القرآن الدالة علىٰ تجريد التوحيد، فاستدلوا بنقيضها علىٰ اتخاذ الوسائط بينهم وبين الله في الدعاء، فاستغاثوا بالموتىٰ الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم، وهذا من جهلهم أو تلاعبهم بمعاني القرآن.

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وسبب نزول آية الوسيلة وألفاظها كلها، دالة دلالة صريحة علىٰ أن الوسيلة الشرعية المرادة بالآية هي تحقيق التوحيد ودعاءه وحده لا شريك له، والرغبة إليه بالأعمال الصالحة، لا باتخاذ المخلوقين وسائط بين الله وخلقه.

فسبب نزول الآية كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم النفر من الجن، واستمسك الإنس بعبادتهم، فنزلت: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، رواه مسلم.

وألفاظ الآية نفسها كلها دالة علىٰ أن من سوىٰ الله لا يملك جلب المنفعة ولا دفع المضرة، وهذا تجده صريحًا في أول الآية: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وكذلك خاتمة الآية: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهذا لا يكون إلا لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالوسيلة التي أمر الله أن تُبتغىٰ إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه، هي ما يتقرّب به إليه من الواجبات والمستحبات.

فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها، تتناول كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك، سواء كان محرمًا أو مكروهًا أو مباحًا؛ فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول ﷺ، فأمر به أمر إيجاب أو استحباب، وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ. فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها، هو التوسل إليه؛ باتباع ما جاء

(١) التوسل والوسيلة (ص١٢٥، ١٢٦).

به الرسول ﷺ، لا وسيلة لأحد إلىٰ ذلك إلا ذلك».

وقال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فانظر هذه الآية الكريمة، وما دلّت عليه، وما سيقت له، وانظر حقيقة دعوىٰ العراقي - داود بن جرجيس - وما يفعله الغلاة في الأولياء والصالحين؛ تعرف أنه استدل بالآية الكريمة التي هي نص علىٰ إبطال دعاء الصالحين ومسألتهم وتعظيمهم بشيء من العبادات كالذبح والنذر لهم، علىٰ إبطال دعواه أيضًا في التوسل الشركي بالصالحين، ودعائهم ومسألتهم، وبهذا تعرف أنه مشاق لله ورسوله ﷺ، ويستدل بالآية الكريمة علىٰ نقيض ما دلّت عليه، ويفهم منها عكس ما دعت إليه، وهكذا حال القلوب المنكوسة تتصور الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه».

والاستغاثة بمخلوق وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر، وتشبيه للمخلوق بالخالق، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فالشرك تشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية؛ فإن من خصائص الإلهية: التفرد بملك الضرّ والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعلق الدّعاء والخوف، والرّجاء

---

(١) منهاج التأسيس (ص ٣٥١).

(٢) منهاج التأسيس (ص ٢٨٥، ٢٨٦).

والتوكل، به وحده؛ فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالىٰ، وجعل من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا - فضلًا عن غيره - شبيهًا لمن الأمر كله له، فأزمة الأمور كلها بيده، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع؛ بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يُمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب».

وواجب الدعاة والعلماء والناصحين تبيين ما في الاستغاثة من الشرك، لا تزيينه للناس، فمن صدق النصيحة للمسلمين، أن تدلهم علىٰ ما يُعتق رقابهم من النار، قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا** ﴾ [النساء: ١١٦].

وأما أن تُزين للناس الاستغاثة بغير الله، وتقول لهم: إنه كالتوسل بالمخلوق، قد اختلف فيه العلماء. فهذا جهل وتعالم.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في مشركي قُريش**[١]: «إن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كلُّه لله، والنَّذر كلُّه لله والذَّبح كلُّه لله، والاستغاثة كلُّها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله.

وعرفت أنَّ إقرارهم بتوحيد الرُّبوبيَّة لم يُدخلهم في الإسلام، وأنَّ قصدَهم الملائكة، أو الأنبياء، أو الأولياء، يريدون شفاعتهم، والتقرُّبَ إلىٰ الله بذلك، هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم؛ عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرُّسل، وأبىٰ عن الإقرار به المشركون».

فبعض من لم يتحقق بالتوحيد يعتقد أن الشرك دعاء المخلوق فقط، أما اتخاذه وسيطًا في دعاء الله فلا يراه شركًا، وهل كان شرك السابقين الذين بُعث إليهم نبينا محمد ﷺ إلا هذا؟ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن المشركين يقرُّون بالربوبية، وأَّن كفرهم بتعلُّقهم علىٰ الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، مع قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، هذا أمر محكم لا يقدر أحدٌ أن يغيِّر معناه».

فدعاء غير الله شرك، سواء دُعوا مباشرة، أو كانوا وسطاء في دعاء الله،

---

(١) كشف الشبهات (ص ٦).

(٢) كشف الشبهات (ص ١٢، ١٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا كان النبي ﷺ نهىٰ عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصًا عند القبور، لئلا يفضي ذلك إلىٰ نوع من الشرك بربهم، فكيف إذا وُجد ما هو نوع الشرك من الرغبة إليهم، سواء طلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو طلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله تعالىٰ؟!».

واعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يقدّر استجابة دعاء القبوريين عند استغاثتهم بالمخلوق، فيكون هذا من توافق المقادير، ولا يدل قطعًا علىٰ أن إجابة دعائهم بسبب شركهم، وهذا نظير ما حصل يوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ، فوافق قضاء الله وقدره أن كُسفت الشمس في ذلك اليوم، فتحدّث الناس أن الشمس كُسفت لموت إبراهيم، فقال النبي ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**». متفق عليه.

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالىٰ، فيقعون في الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون، فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا بهم، لأننا نعلم أن هؤلاء

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥١٥)، ط: دار الفضيلة.

(٢) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (ص ٣٩٧).

الأولياء لا يستجيبون لهم، لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]».

واستجابة دعاء هؤلاء القبوريين ليس كرامة من الله، وقد وقع نظيره لعُبّاد الأصنام، وهو لا يدل علىٰ مشروعية الاستغاثة بغير الله، فهذا نظير ما يُنعم الله به علىٰ المشركين من المال والجاه ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «من غرور هؤلاء وأشباههم اعتقادهم أن استجابة مثل هذا الدعاء كرامة من الله تعالىٰ لعبده، وليس في الحقيقة كرامة، وإنما تُشبه الكرامة من جهة كونها دعوة نافذة وسلطان قاهر، وإنما الكرامة في الحقيقة ما نفعت في الآخرة، أو نفعت في الدنيا ولم تضر في الآخرة، وإنما هذا بمنزلة ما يُنعم به الله علىٰ بعض الكفار والفساق من الرياسات والأموال في الدنيا؛ فإنها إنما تصير نعمة حقيقية إذا لم تضر صاحبها في الآخرة».

فما يقضيه الله كونًا من إجابة الدعاء، لا يدل علىٰ مشروعيته إذا كان مما نهىٰ الله عنه، فالقضاء الكوني يكون فيما يُحبه الله وما لا يُحبه، أما القضاء الشرعي فلا يكون إلا فيما يُحبه الله.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٢٠، ٢٢١).

وتعيين القبوريين سبب إجابة دعائهم بالاستغاثة بالموتىٰ، هو كتعيين المشركين من قبل ما يصيبهم من المطر بالأنواء والكواكب، كلهم مشرك ومغالط في تعيين سبب قضاء الله الكوني.

فعن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: صلىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية علىٰ إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل علىٰ الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا. فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**». متفق عليه.

وأما الاستغاثة بمخلوق فيما يقدر عليه؛ فهذا جائز، قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الاستغاثة بالمخلوق علىٰ ما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالىٰ في قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله، إذا ثبت ذلك؛ فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن

---

(١) كشف الشبهات (٣٩، ٤٠).

يدعوا الله أن يحاسب الناس؛ حتىٰ يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة؛ أن تأتي عند رجل صالح؛ حيٌّ يجالسك ويسمع كلامك، وتقول له: ادعُ الله لي. كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته. وأمَّا بعد موته، فحاشا وكلا أنَّهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السَّلف الصالح علىٰ من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف دعاؤه بنفسه ﷺ؟!».

واحذر - أيها المسلم - مسالك المبتدعين، ومن يقتات من الشرك، الذي يُشنّع علىٰ دعاة التوحيد، الذين بيّنوا ما في الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من الشرك، فيقولون: هذا انتقاص للنبي ﷺ والأولياء!!

وهذا قلب للحقائق؛ فإن النبي ﷺ بُعث بالتوحيد، ونهىٰ عن الاستغاثة به؛ حيث قال: «**إنه لا يُستغاث بي**»، فمن وقّره هو من اتّبع هداه.

قال العلامة حمد بن ناصر المعمّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ونحن بحمد الله من أعظم الناس إيجابًا لرعاية جانب الرسول ﷺ؛ تصديقًا له فيما أخبر، وطاعة له فيما أمر، واعتناءً بمعرفة ما بُعث به، واتباع ذلك دون ما خالفه؛ عملًا بقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ومعنا - ولله الحمد - أصلان عظيمان، أحدهما: أنا

---

(١) الفواكه العذاب في الرد علىٰ من لم يُحكّم السُّنّة والكتاب (ص٤٠، ٤١).

لا نعبد إلا الله، فلا ندعو إلّا هو، ولا نذبح النسك إلا لوجهه، ولا نرجو إلّا هو، ولا نتوكل إلّا عليه، وحده لا شريك له.

والأصل الثاني: أنا لا نعبده إلا بما شرع؛ لا نعبده بعبادة مبتدعة.

وهذان الأصلان العظيمان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله محمدًا رسول الله، فإن «شهادة أن لا إله إلا الله» تتضمن إخلاص الإلهية لله، فلا يتأله القلب، ولا اللسان، ولا الجوارح؛ لغيره، لا بحب، ولا خشية، ولا إجلال، ولا رغبة، ولا رهبة. و«شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ» تتضمن تصديقه في جميع ما أخبر به، وطاعته واتباعه في كل ما أمر به».



الذبـح

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل... والذَّبح**».

وقال[(٢)]: «**ودليل الذبح قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ **[الأنعام: ١٦٣، ١٦٤]، ومن السنة: «لعن الله من ذبح لغير الله»**».

الشَّرح:

أفاد الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الذَّبح عبادة، والعبادة لا بد أن تكون خالصة لوجه الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وعليه فالذبح لغير الله شرك أكبر، وهو أنواع[(٣)]:

١- أن يذكر اسم غير الله عند الذبح.

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٣) فتح المجيد (ص ١٢٧- ١٢٩).

٢- أن يقصد غير الله بالذبح وإن لم يذكر اسمه.

٣- أن يَذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه، فهذا شرك.

أما إن كان الذبح لله إكرامًا للضيف، وقُصد به وجه الله مما أمر به من إكرام الضيف، وذُكر اسم الله عليه؛ فهذا مشروع[1].

ومن الذبح لغير الله الذبح عند القبور، فقد نهى النبي ﷺ عن العقر عند القبر، رواه أبو داود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لأنه يشبه ما يُذبح على النُصب».

وقال[3]: «وكان المشركون يذبحون للقبور ويقربون لها القرابين، وكانوا في الجاهلية إذا مات لهم عظيم ذبحوا عند قبره الخيل والإبل، وغير ذلك تعظيمًا للميّت، فنهى النبي ﷺ عن ذلك كله».

ونبّه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ تعاظم شرك من ذبح مستعينًا بغير الله، قاصدًا غيره، فهذا اجتمع فيه شرك في الاستعانة، وشرك في العبادة[4].

فالذبح لا بد أن يكون لله، وأن يُستعان به وحده لا شريك له، في مكان لا يُذبح فيه إلا لله، ويُذكر اسم الله عليه؛ فعن ثابت بن الضحاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٢٤).

(٢، ٣) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٣٠٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٢٢، ٤٢٣).

قال: نذر رجلٌ علىٰ عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلًا ببوانة - اسم موضع النحر - فأتىٰ النبي ﷺ فقال: إنِّي نذرت أن أنحر إبلًا ببُوانة. فقال النبي ﷺ: «**هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟**» قالوا: لا. قال: «**فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟**» قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «**أوفِ بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**». رواه أبو داود، وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: إسناده علىٰ شرطهما.

والنحر والذبح هو قربان أحد ابني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾، وهي رؤيا أراها الله نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أراه الله عَزَّ وَجَلَّ في منامه أنه يذبح ابنه إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي من الله - كما قال عبد الملك بن عمير رَحِمَهُ اللَّهُ -، ولمّا استجاب إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لأمر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ منَّ الله علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بفداء عظيم يذبحه طاعة الله؛ فصار في ذلك تشريع لكل الخلائق إلىٰ يوم القيامة: أن من عقد عزمه عقدًا جازمًا علىٰ فعل طاعة؛ ثم حيل بينه وبين فعلها؛ أنه يُكتب له ثوابها، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات: ٩٩- ١٠٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول علىٰ صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافًا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة؛ لأن الله تعالىٰ شرع لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه، وصرفه إلىٰ الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولًا إثابة الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ الصبر علىٰ ذبح ولده وعزمه علىٰ ذلك، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]؛ أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أُمر بذبح ولده، فسارع إلىٰ ذلك مستسلمًا لأمر الله تعالىٰ، منقادًا لطاعته؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]».

والنحر من أجلِّ الطاعات والعبادات؛ لذلك شُرع في جميع الملل، قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤] وقرنه الله مع الصلاة، قال تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]، والسر في ذلك تحقيق التوحيد الذي بُعثت به كل الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، وإقامة ذكر الله، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكًا؛ أي: فاستبقوا إلىٰ الخيرات، وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملًا. والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكًا:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥١٠).

لإقامة ذكره، والالتفات لشكره؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة علىٰ هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَلَهُۥ أَسْلِمُوا﴾؛ أي: انقادوا واستسلموا له، لا لغيره؛ فإن الإسلام له طريق إلىٰ الوصول إلىٰ دار السلام؛ ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده».

وذبح البهائم لا يجوز عبثًا؛ لذلك «نهىٰ النبي ﷺ عن صبر البهائم». رواه البخاري. فالبهائم مخلوقات تُسبِّح الله، أباحها الله لنا للاستعانة بها علىٰ طاعته ومحامده وشكره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الذبح إنّما أباحه الشارع لمقصود حِلّ اللحم».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن هذه البهائم مطيعة لله لا تعصيه، وهي مُسبِّحةٌ له قانتة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأنّها تسجد له، كما أخبر بذلك في سورة النحل وسورة الحجِّ، وربما كانت أكثر ذكرًا لله من بعض بني آدم.

وفي «المسند» مرفوعًا: «رُبَّ بهيمة خيرٌ من راكبها، وأكثر لله منه ذكرًا».

وقد أخبر الله تعالىٰ في كتابه أن كثيرًا من الجنِّ والإنس كالأنعام، بل هم أضلُّ.

---
(١) إقامة الدليل على بطلان التحليل (ص ٤٢٢). (٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ١٦٣، ١٦٤).

فأباح الله عَزَّوَجَلَّ ذبح هذه البهائم المطيعة الذاكرة له، لعباده المؤمنين؛ حتىٰ تتقوىٰ بها أبدانهم، وتكمُلَ لذَّاتُهم في أكلهم اللحوم، فإنَّها من أجل الأغذية وألذِّها، مع أن الأبدان تقوم بغير اللحم من النباتات وغيرها، لكن لا تكمل القوة والعقلُ واللذةُ إلا باللحم، فأباح للمؤمن قتل هذه البهائم والأكل من لحومها، ليكمّل بذلك قوَّة عباده وعقولهم، فيكون ذلك عونًا لهم علىٰ علوم نافعة وأعمال صالحة؛ يمتاز بها بنو آدم علىٰ البهائم، وعلىٰ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أكثر من ذكر البهائم، فلا يليق بالمؤمن مع هذا إلا مقابلة هذه النعم بالشكر عليها، والاستعانة بها علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وذكره؛ حيث فضَّلَ الله ابن آدم علىٰ كثير من المخلوقات، وسخَّر له هذه الحيوانات، قال تعالىٰ: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

فأمَّا من قتل هذه البهائم المطيعة الذَّاكرة لله عَزَّوَجَلَّ، ثم استعان بأكل لحومها علىٰ معاصي الله عَزَّوَجَلَّ، ونسي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فقد قلب الأمر وكفر النِّعمةَ، فلا كان من كانت البهائم خيرًا منه وأطوع».

وأعظم أنواع النحر أن ينحر العبد هواه، وهذا معنىٰ لحظه الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما تحدّث عمن حيل بينه وبين الحج، ولم يستطع نحر هدي نسك الحج، فقال[(١)]: «من فاته في هذا العام القيام بعرفة؛ فليقم لله بحقه الذي عرفه، من عجز عن المبيت بمزدلفة، فليبت عزمه علىٰ طاعة

(١) لطائف المعارف (ص ٤٠١، ٤٠٢).

الله وقد قرَّبه وأزلفه، من لم يمكنه القيام بأرجاء الخيف، فليقم لله بحق الرجاء والخوف، من لم يقدر علىٰ نحر هديه بمنىٰ فليذبح هواه هنا وقد بلغ المنىٰ، من لم يصل إلىٰ البيت لأنه منه بعيد، فليقصد رب البيت؛ فإنه أقرب إلىٰ من دعاه ورجاه من حبل الوريد».



النـــذر

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل...، النذر».

وقال متمّمًا[2]: «ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧] ».

الشَّرح:

ما زال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر أنواع العبادات بأدلتها من القرآن؛ ليجرِّد المسلمون أداءها وقصدها لله وحده لا شريك له، ويحذّرهم من صرف شيء من العبادات لغير الله؛ لأنه من الشرك الأكبر.

وهنا وإن استدل الإمام بالآية الدالة علىٰ الوفاء بالنذر لله، فهذا الدليل قد يُعترض عليه بأن الوفاء بالنذر حكمه يختلف عن ابتدائه؛ لأن ابتداء النذر مكروه، فقد نهىٰ عنه النبي ﷺ، ويجاب عنه بأن الوفاء بالنذر جاء الأمر به في

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٤).

نذر الطاعة، كما في صحيح مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أن النبي ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»، ناهيك أن الإمام زاد البيان في ذلك أكثر في «كتاب التوحيد» باب: [من الشرك النذر لغير الله][١]، حيث استدل له بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، ودلالة الآية علىٰ أن ابتداء النذر مشروع واضحة من جهة عطفه علىٰ الصدقة، والعطف يقتضي مشاركة المعطوف والمعطوف عليه في الحكم، وكذلك ذكر علم الله بهذه الطاعة لترتيب الثواب علىٰ فعلها.

والنذر التزام شديد لمن نُذر له، فمن نذر لله وكان نذره في طاعة؛ فهذا عبد الله وأخلص له، ومن نذر لغير الله؛ فقد وقع في الشرك الأكبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فلا يكون نذرًا إلا ما ابتغي به وجه الله تعالىٰ، كما في سنن أبي داود عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن النبي ﷺ قال: «**لا نذر إلا ما ابتغي به وجه الله**».

ولهذا لو نذر لكنيسة أو قبر أو وثن، لم يكن عليه الوفاء لذلك، بل لا يجوز الوفاء به؛ فإن هذا نذر معصية، وقد قال النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع**

---

(١) كتاب التوحيد (ص١١٩).

(٢) العقود (ص٢٦-٢٨).

الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، مثل من ينذر زيتًا أو شمعًا أو ستورًا لبعض القبور، أو ينذر لشيخ ميّت، فيقول: عليّ نذر للشيخ فلان. فإن هذا من جنس النذر لما يُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، كما لو نذر للمسيح أو العزير أو غير ذلك؛ وهذا شرك. وإذا لم يكن له أن يحلف بغير الله، فكيف يجوز له أن ينذر لغير الله؟! والنذر أبلغ من اليمين؛ فإن الناذر قصده التقرب إلىٰ المنذور له، رجاء نفعه، وخوف ضره، وذلك أبلغ في التعظيم من الحلف به.

ولهذا قد يحلف الناس بما يعظمونه في الدنيا، كملوكهم وآبائهم، ولا ينذر أحد لقبر الملوك والآباء، إلا أن يعتقد فيهم الصلاح؛ فالناذر لمن نذر له أشد تعظيمًا له في الدين من تعظيم المحلوف به؛ فيكون ذلك أبلغ في الشرك؛ ولهذا كان النذر لله يوجب فعل المنذور، وكان الحلف بالله لا يوجب فعل المحلوف عليه.

وفي سنن أبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن امرأة قالت: يا رسول الله! إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا. لمكان يَذبح فيه أهل الجاهلية، قال: **لصنم؟** قالت: لا. قال: **لوثن؟** قالت: لا. قال: **أوفِ بنذرك**». وفي سنن أبي داود وغيره عن ميمونة بنت كردم قالت: «رأيت رسول الله ﷺ بمكة علىٰ ناقة له - فذكرت قصة - وقالت: فقال له أبي: إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر: أن أنحر علىٰ رأس بُوانة في عقبة من الثنايا من الغنم. قال: فقال له رسول الله ﷺ: **هل بها من هذه الأوثان شيء؟** قال: لا.

قال: **فأوفِ لله ما نذرت له**»، ورواه أبو داود من حديث ثابت بن الضحاك، قال: «نذر رجل علىٰ عهد رسول الله ﷺ أن ينحر ببوانة، فقال رسول الله ﷺ: **فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟** قالوا: لا. قال: **فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟** قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: **أوف بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**».

وآخر الحديث قد رواه مسلم من حديث عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة ناقة النبي ﷺ.

وروىٰ البيهقي وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** «أتىٰ رجل النبي ﷺ، فقال: إني نذرت أن أذبح ببوانة. فقال: **في قلبك من الجاهلية شيء؟** قال: لا. قال: **أوفِ ما نذرت له**»؛ فأمره أن يوفي لله ما نذر لله بعد أن سأله: «هل كان هناك شيء مما تعظمه الجاهلية؟»، لئلا يكون النذر به.

وفي الحديث الآخر سأله: «**هل في قلبك شيء من الجاهلية؟**» لئلا يكون قصد تعظيم شيء مما لم يعظمه الله، فلما انتفىٰ قصده الباطن والسبب الظاهر؛ أمره أن يوفي ما كان لله خالصًا.

فمن يعظم كنيسة أو وثنًا أو شجرة أو جبلًا أو مغارة أو قبرًا مضافًا إلى نبي أو غير نبي، سواء كان صدقًا أو كذبًا إذا نذر لذلك المكان، أو لسكان ذلك المكان، أو للمضافين إلىٰ ذلك المكان - فهو من الشرك الذي لا يجوز

فعله، ولا الوفاء به؛ فإن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يُحذِّر ما فعلوا، وقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**». وقال: «**اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

وإذا نذر لشخص حيّ، فإن كان علىٰ سبيل الشرك به، مثل أن يعتقد أن نذره له يحصل به حاجته، إما لبركته، وإما لغير ذلك؛ فهذا شرك.

وإن نذر لله، وجعل مصرفه لله، ويُعطي الفقراء والمساكين من مال الله كما يُعان المجاهدون والعابدون من مال الله؛ فهذا نذر لله».

فالإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في أول رسالته «الأصول الثلاثة وأدلتها» وجوب معرفة حقيقة كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، وذكر حكمة خلق الله للخلق لتحقيق التوحيد وعبودية الله وحده؛ فساق قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال[1]: «ومعنىٰ: ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يوحدون، وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهىٰ عنه الشرك».

ثم ذكر بعد ذلك هنا أنواع العبادة[2]: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنها: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع،

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٧).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٠، ١١).

والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها.

والإمام محمد بن عبد الوهاب في رسائله الأخرىٰ قال مناظرًا لمن يغالط في معنىٰ العبادة وأنواعها[1]: «إن قال: أنا لا أعبد إلا الله، وهذا الالتجاء إليهم ودعاؤهم ليس بعبادة.

فقل له: أنت تقرُّ أن الله فرض عليك إخلاص العبادة لله، وهو حقُّه عليك؟

فإذا قال: نعم.

فقل له: بيِّن لي هذا الذي فرضه الله عليك، وهو إخلاص العبادة لله، وهو حقه عليك؟

فإن كان لا يعرف العبادة، ولا أنواعها؛ فبيِّنها له بقولك: قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، فإذا أعلمته بهذا فقل له: هل علمت هذا عبادة لله تعالىٰ؟ فلا بد أن يقول: نعم، والدعاء مخ العبادة.

فقل له: إذا أقررت أنَّها عبادة، ودعوت الله ليلًا ونهارًا، خوفًا وطمعًا، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيًّا، أو غيره؛ هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بد

(١) كشف الشبهات (ص٥١-٥٣).

أن يقول: نعم.

فقل له: إذا علمت بقول الله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، فإذا أطعت الله ونحرت له، هل هذا عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم. فقل له: إذا نحرت لمخلوق: نبيٍّ أو جنيٍّ أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟

فلا بد أن يقرَّ ويقول: نعم.

وقل له أيضًا: المشركون الذي نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللّات، وغير ذلك؟

فلا بد أن يقول: نعم.

فقل له: وهل كانت عبادتهم إيَّاهم إلا في الدُّعاء، والذَّبح، والالتجاء، ونحو ذلك؟ وإلا فهم مقرُّون أنهم عبيده، وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبِّر الأمر، ولكن دعَوهم والتجؤوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جدًّا».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر أنواع العبادة، قال[1]: «فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر».

وفي رسائله الأخرىٰ ردّ علىٰ من غالط في ذلك وزعم أن صرف العبادات لغير الله شرك أصغر، ونسب تقرير ذلك كذبًا إلىٰ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقال الإمام

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١١).

محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأنت - رحمك الله - تجد الكلام - كلام ابن القيم - من أوله إلىٰ آخره في الفصل الأول والثاني، صريحًا لا يحتمل التأويل من وجوه كثيرة، منها: أن دعاء الأموات والنذر لهم ليشفعوا له عند الله هو الشرك الأكبر، الذي بعث الله النبي ﷺ بالنهي عنه؛ فكفَّر من لم يتب منه وقاتله وعاداه، وآخر ما صرَّح به قوله آنفًا: «وما نجا من شَرَك هذا الشِرك الأكبر... إلىٰ آخره».

فهل بعد هذا البيان بيانٌ إلا العناد بل الإلحاد، ولكن تأمل قوله - أرشدك الله -: «وما نجا من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من عادىٰ المشركين... إلىٰ آخره»».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد أبوابًا خاصة لجملة من أنواع العبادات قرّر فيها الشرك الأكبر فيمن صرفها لغير الله: باب ما جاء في الذبح لغير الله[٢]، باب من الشرك النذر لغير الله[٣]، باب من الشرك الاستعاذة بغير الله[٤]، باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره[٥]، باب قول الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[٦]، باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[٧]، باب

(١) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد (ص١٤٨).

(٢) كتاب التوحيد (ص٤٧)، ط - دار السلام، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) كتاب التوحيد (ص٥٣).

(٤) كتاب التوحيد (ص٥٤).

(٥) كتاب التوحيد (ص٥٦).

(٦) كتاب التوحيد (ص١٢٠).

(٧) كتاب التوحيد (ص١٢٤)

قول الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾[(١)].

ومن صرف شيئًا من العبادات التي ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لغير الله؛ فقد وقع في شرك الربوبية والأسماء والصفات، فضلًا عن شرك العبودية؛ لأن خضوعه لغير الله وعبوديته لغير الله بصلاة أو دعاء أو نذر أو ذبح أو سجود هو في حقيقته تشبيه للخالق بالمخلوق، وصرف حقوق الله لمخلوق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه - نفيًا ونهيًا -: هو أصل شرك العالم، وعبادة الأصنام؛ ولهذا نهىٰ النبي ﷺ أن يسجد أحد لمخلوق مثله، أو يحلف بمخلوق، أو يُصَلِّي إلىٰ قبر، أو يتخذ عليه مسجدًا، أو يعلّق عليه قنديلًا، أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان. ونحو ذلك، حذرًا من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك.

أما إثبات صفات الكمال: فهو أصل التوحيد.

فتبيّن أن المشبهة هم الذين يُشَبّهُون المخلوق بالخالق في العبادة، والتعظيم، والخضوع، والحَلِف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند قبره، وحلق الرأس له، والاستغاثة به، والتشريك بينه وبين الله؛ في قولهم: ليس لي إلا الله وأنت، و: أنا متّكلٌ علىٰ الله وعليك، و: هذا من الله ومنك، و: أنا في حسب الله وحسبك، و: ما شاء الله وشئت، و: هذا لله ولك. وأمثال ذلك. فهؤلاء هم المشبِّهة حقًّا».

---

(١) كتاب التوحيد (ص١٢٦). (٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٧١، ٩٧٢).

وهذا بيانه واضح، فمن تحقق أن قيام كل شيء بالله، وأن أزمة الأمور كلها بيده وحده لا شريك له، واعتقد اعتقادًا جازمًا كمال نعوت الله وعظمته؛ لم يخضع إلا لله، ولم يسجد وينذر ويذبح لغيره.

وتنصيص الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أنواع العبادات كالدعاء، والذبح، والنذر، وغيرها؛ بيّن فيه أن صرفها لغير الله شرك[1]، والمقصود من أمر الله بها هو تحقيق العبودية له وحده لا شريك له في ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «العبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله؛ تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]؛

فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده، إلىٰ بيت الله وحده؛ فالمقصود من الحج: عبادة الله وحده، في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية، حتىٰ قال طائفة من السلف: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج: ٣١] أي: حجاجًا؛ فإن اليهود والنصارىٰ لا يحجون البيت».

وإفراد الله بالمحبة والخوف والرجاء، هو حقيقة التوحيد، والموجب للقيام لله بالعبودية بأنواع الطاعات كلها.

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٠، ١١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٦)، ط- دار الفضيلة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وروح هذه الكلمة - لا إله إلا الله - وسرُّها: إفراد الرب - جلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جَدُّهُ، ولا إله غيره - بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكُّلِ والإنابة والرغبة والرهبة؛ فلا يُحِبُّ سواه، وكلُّ ما يُحبُّ غيره فإنَّما يُحبُّ تبعًا لمحبَّته، وكونه وسيلة إلىٰ زيادة محبَّته ولا يخاف سواه؛ ولا يرجو سواه، ولا يتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا يرغبُ إلا إليه، ولا يرهبُ إلَّا منه، ولا يحلفُ إلَّا باسمه، ولا ينذرُ إلا له، ولا يُتابُ إلا إليه، ولا يُطاع إلَّا أمره، ولا يُحتسبُ إلَّا به، ولا يُستعان في الشدائد إلَّا به، ولا يُلتجأ إلَّا إليه، ولا يُسْجد إلَّا له، ولا يُذبح إلَّا له وباسمه ويجتمع ذلك كلُّه في حرف واحد: أن لا يُعبَدَ إلَّا إياه بجميع أنواع العبادة؛ فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله».

ومقصود الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر أنواع العبادات القلبية والبدنية مع ما بينهما من التلازم هو أن يتحقق المسلمون بتوحيد الله وعبادته، فيخلصوا التوحيد لله فيُخلِّصهم الله من النار، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من تحقَّق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيمًا وإجلالًا، ومهابةً، وخشيةً، ورجاءً، وتوكُّلًا، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلُّها، ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، كما سبق ذكره في تبديل السيئات حسنات، **فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم**، فلو وضع ذرَّة منها على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات».

---

(١) الجواب الكافي (ص ٢٣٥)، ط: دار السلام.

(٢) جامع العلوم والحكم (ص٤٧٣).

معرفة دين الإسلام

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والخلوص من الشِّرك، وهو ثلاث مراتب: [الإسلام]، و[الإيمان]، و[الإحسان]؛ وكل مرتبة لها أركان، فأركان الإسلام [خمسة]: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، و[إقام الصلاة]، و[إيتاء الزكاة]، و[صوم رمضان]، وحجُّ بيت الله الحرام**».

الشَّرْح:

شرع الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حقيقة التوحيد والعبودية والإيمان، وبيان مراتب الإسلام والإيمان والإحسان، وبيان أركان الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فالدين كله داخل في العبادة، وقد ثبت في «الصحيح» أن جبريل لما جاء إلىٰ النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام، قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا**

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٤، ١٥، ١٦).

(٢) العبودية (ص ٤٧، ٤٨).

رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا» قال: فما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». قال: فما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، ثم قال في آخر الحديث: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**»، فجعل هذا كلَّه من الدين. والدين يتضمن معنىٰ الخضوع والذل؛ يقال: دِنْتُهُ، فدان. أي: أذللته فذل. ويقال: يَدين اللهَ، ويدين لله: أي يعبد الله، ويطيعه ويخضع له، فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له».

وقال سماحة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معلوم بالأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنَّة أن الأعمال والأقوال إنما تصح وتُقْبَل إذا صدرت عن عقيدة صحيحة، فإن كانت العقيدة غير صحيحة بطل ما يتفرَّع عنها من أعمال وأقوال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، وقد دلَّ كتاب الله المبين، وسُنَّة رسوله الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، علىٰ أن العقيدة الصحيحة

---

(١) حراسة التوحيد (ص ٥ - ٧).

تتلخص في: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. فهذه الأمور الستة هي أصول العقيدة الصحيحة التي نزل بها كتاب الله العزيز، وبعث الله بها رسوله محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويتفرع عن هذه الأصول كل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب، وجميع ما أخبر الله به ورسوله ﷺ. وأدلة هذه الأصول السِّتَّة في الكتاب والسنة كثيرة جدًّا، فمن ذلك قول الله سبحانه: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

أما الأحاديث الصحيحة الدالَّة علىٰ هذه الأصول فكثيرة جدًّا، منها الحديث الصحيح المشهور الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال له: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» الحديث، وأخرجه الشيخان مع اختلاف

يسير من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذه الأصول الستة يتفرع عنها جميع ما يجب علىٰ المسلم اعتقاده في حق الله سبحانه، وفي أمر المعاد، وغير ذلك من أمور الغيب».

وذكر النّبي ﷺ أركان الإسلام الخمسة في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنها أظهر شعائر الإسلام، وسائر الطاعات من ثمراتها.

قال ابن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث جبريل[1]: «هذا بيان لأصل الإيمان، وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام، وهو الاستسلام والانقياد الظاهر، وحُكم الإسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الإسلام ومعظمها، وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يُشعر بحلِّ قيد انقياده أو انحلاله، ثم إن اسمَ الإيمان يتناول ما فُسِّر به الإسلام في هذا الحديث، وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، ومقوِّمات ومُتمِّمات وحافظات له؛ ولهذا فسَّر النبي ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين، والصلاة والزكاة والصوم، وإعطاء الخمس من المغنم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا علىٰ كلام ابن الصلاح[2]: «هذا الذي ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ فيه من الموافقة لما قد بيّن من أقوال الأئمة، وما دل

(١) الإيمان الكبير (ص ٦٥٩، ٦٦٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٦٦١).

عليه الكتاب والسنة».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلقًا**[١]: «ذكر الخمس أنها هي الإسلام؛ لأنها هي العبادات المحضة التي تجب لله تعالىٰ علىٰ كل عبد مطيق لها، وما سواها إما واجب علىٰ الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب، وإما من حقوق الناس بعضهم علىٰ بعض، وإن كان فيها قربة ونحو ذلك، كما قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، و«**أفضل الإسلام أن تُطعم الطعام وتقرىء السلام علىٰ من عرفت ومن لم تعرف**»، ونحو ذلك، فهذه الخمس هي الأركان والمباني كما في الإيمان».

وقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في بيان حقيقة الإسلام**: «هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشِّرك»[٢]، هو حقيقة الدين كله، فإنه إقامة الوجه لله، وإسلام الوجه إليه، فتخضع ناصية العبد إلىٰ باريها ومولاها بالسمع والطاعة والانقياد له، وتحقيق العبودية خالصة لوجهه الكريم، وقد دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وضد الانقياد التولي، فمن تولىٰ عن طاعة الله مطلقًا، ولم يأتِ بالعمل؛ فهذا

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٦٦٢).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٥).

كافر، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل: ١٥، ١٦]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أي كذب بالخبر، وتولىٰ عن طاعة الأمر، وإنما علىٰ الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا. وكذلك قال في فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾، وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١-٣٢] فالتكذيب للخبر، والتولي عن الأمر، وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، ومنه قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «فعُلم أن «التولِّي»، ليس هو التكذيب، بل هو التولي عن الطاعة، فإن الناس عليهم أن يُصدقوا الرسول ﷺ فيما أخبر، ويطيعوه فيما أمر. وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولي، فلهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧] فنفىٰ الإيمان عمن تولىٰ عن العمل، وإن كان قد أتىٰ بالقول، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ

(١) الإيمان الكبير (ص ٢٣٣).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٣٤٨).

﴿أَمۡرٍ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ [النور: ٦٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢]، ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان عمَّن لم يأتِ بالعمل مواضع كثيرة، كما نفىٰ فيها الإيمان عن المنافق».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العلم هادٍ والحال الصحيح مهتدٍ به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به تُوزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرِّق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدىٰ والضلال. به يُعرف الله ويُعبد، ويُذكر ويُوحَّد، ويُحمد ويُمجَّد، وبه اهتدىٰ إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تُعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه تُوصل الأرحام، وبه تُعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يُوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغني الذي لا فقر علىٰ من ظفر بكنزه، والكَنف الذي لا ضيعة علىٰ من آوىٰ إلىٰ حرزه. مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة،

---

(١) مدارج السالكين (ص ٦٢٥).

ومدارسته تُعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلىٰ الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: الناس إلىٰ العلم أحوج منهم إلىٰ الطعام والشراب؛ لأن الرجل يحتاج إلىٰ الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلىٰ العلم بعدد أنفاسه.

وروِّينا عن الشافعي - رضي الله تعالىٰ عنه - أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص علىٰ ذلك أبو حنيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقال ابن وهب رَحِمَهُٱللَّهُ: كنت بين يدَيْ مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فوضعت ألواحي وقمت أصلي، فقال: ما الذي قمت إليه[1] بأفضل مما قمت عنه. ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عَزَّوَجَلَّ بأهل العلم علىٰ أجلِّ مشهود به وهو «التوحيد»، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم؛ فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يستشهد بمجروح.

ومن هاهنا - والله أعلم يؤخذ الحديث المعروف: «**يحمل هذا العلم من كُلِّ خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين**».

---

(١) من النافلة.

وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلىٰ جنته، ومدنيهم من كرامته».

قال سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإيمان قول وعمل ونية وسنة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلقًا**[٢]: «لأن الإيمان إذا كان قولًا بلا عمل؛ فهو كفر، وإذا كان قولًا وعملًا بلا نية؛ فهو نفاق، وإذا كان قولًا وعملًا ونية بلا سنة؛ فهو بدعة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الإيمان ليس مجرد التصديق، بل لا بد من أعمال قلبية تستلزم أعمالًا ظاهرة - كما تقدم -، فحب الله ورسوله ﷺ من الإيمان، وحب ما أمر الله به، وبغض ما نهىٰ عنه؛ هذا من أخص الأمور بالإيمان، ولهذا ذكر النبي ﷺ في عدة أحاديث أن: «**من سرّته حسنته، وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»، فهذا يحب الحسنة ويفرح بها، ويبغض السيئة ويسوءه فعلها، وإن فعلها بشهوة غالبة، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان».

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم

(١) الإيمان الكبير (ص٣٨٢).

(٢) الإيمان الكبير (ص٣٨٢).

(٣) الإيمان الكبير (ص٥٧٤، ٥٧٥).

(٤) الإيمان الكبير (ص٥٥٧، ٥٥٨).

الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافِقة للسنة. وكان من مضىٰ من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل؛ العمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل.

فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه، وصدَّق بعمله، فتلك العروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها. ومن قال بلسانه، ولم يعرف بقلبه، ولم يصدّق بعمله كان في الآخرة من الخاسرين».

قال الشالنجي: سألت أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإيمان والإسلام، فقال: الإيمان قول وعمل، والإسلام: إقرار. قال: وبه قال أبو خيثمة[1].

والتابعون الذين أخذوا العلم والدين عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فسروا الإسلام بالإقرار، والإيمان بالعمل، قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كنّا نقول: الإسلام بالإقرار، والإيمان بالعمل، والإيمان: قول وعمل قرينان، لا ينفع أحدهما إلا بالآخر».

وهذه العقيدة عليها إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأهل السنة الذين لزموا عقيدتهم.

---

(١) الإيمان الكبير (ص٥٠٢، ٥٠٣).

(٢) الإيمان الكبير (ص٥٥٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السُّنَّة، وحكىٰ غير واحد الإجماع علىٰ ذلك، وقد ذكرنا عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره من الإجماع علىٰ ذلك قوله في «الأم»: [وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر]».

وأما ما يُنقل عن الزهري وأحمد أن الإسلام الكلمة فهذا أرادا به كلمة التوحيد بحقوقها، لم يرد أحد منهم الكلمة مجردة عن حقيقتها وحقوقها، فإن المنافقين يقولون هذه الكلمة ولا يؤدون حقوقها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وأما ما ذكره أحمد في الإسلام فاتَّبع فيه الزهري حيث قال: «فكانوا يرون الإسلام الكلمة، والإيمان العمل»، في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا علىٰ وجهين، **فإنه قد يُراد به الكلمة بتوابعها من الأعمال الظاهرة، وهذا هو الإسلام** الذي بيَّنه النبي ﷺ حيث قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، وقد يُراد به الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة، وليس هذا هو الذي جعله

(١) الإيمان الكبير (ص٥٧٧).

(٢) الإيمان الكبير (ص٥٠٩).

النبي ﷺ الإسلام».

فحيث لا يوجد العمل لا يوجد الإيمان، وحيث يوجد الإيمان يوجد العمل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فألزم الاسم العمل، والعمل الاسم».

وقال شيخ الإسلام أيضًا[2]: «إن قالوا: إنه لا يضره ترك العمل، فهذا كفر صريح».

وقال في شأن هؤلاء[3]: «الغالية الذين يقولون: لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد. لكن ما علمت مُعَيَّنًا أحكي عنه هذا القول، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعيّنون قائله، وقد يكون **قول من لا خلاق له**، فإن كثيرًا من الفساق والمنافقين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، أو مع التوحيد».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «إن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متىٰ نقصت الأعمال الظاهرة كان

---

(١) الإيمان الكبير (ص٣٩٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص٣٩٥).

(٣) الإيمان الكبير (ص٣٩٦).

(٤) الإيمان الكبير (ص٤١٦، ٤١٧).

لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم، وإن كان أصله ما في القلب، وحيث عُطفت عليه الأعمال، فإنه أُريد أنه لا يُكتفىٰ بإيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا القواعد الأربع التي تُبنىٰ عليها العبودية[1]: «التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه؛ علىٰ لسان رسوله ﷺ.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والالتجاء إليه، وإخلاص الدين له، والصبر علىٰ أوامره، وعن نواهيه، وعلىٰ أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها

---

(١) مدارج السالكين (ص٦٨).

أفرض من أعمال الجوارح ومستحبُّها أحب إلىٰ الله من مُستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلىٰ الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلىٰ الخلق، ونحو ذلك.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها و﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ **متضمن للتعريف بالأمرين علىٰ التفصيل**، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلىٰ الله بهما».



الشهادتان

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**دليل الشهادة قوله تعالى:** ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ١٨]، **ومعناها: لا معبود بحق إلا الله وحده، «لا إله» نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله، «إلا الله» مُثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في مُلكه.**

وتفسيرها الذي يُوضِّحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، **وقوله تعالى:** ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ **قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، **ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله** ﷺ:

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٧).

طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع».

الشَّرْح:

كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» لها ركنان: النفي والإثبات، فالنفي في «لا إله»، والإثبات في «إلا الله»؛ فتنفي الألوهية الباطلة لكل ما يُعبد من دون الله، وتُثبت الألوهية الحقة لله تعالىٰ، لأن مجرد الإثبات لا يمنع المشاركة، ومجرد النفي عدم محض، والعدم المحض لا كمال فيه، فإذا كان النفي والإثبات؛ تحقّق التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أما عن إعراب كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» فـ: لا: «نافية للجنس» تعمل عمل «إنّ» تنصب المبتدأ وترفع الخبر. إله: اسم «لا» منصوب بالفتحة، وخبرها محذوف تقديره «حق»، ولا يصح تقديره بـ «موجود»؛ فالآلهة الباطلة التي تُعبد من دون الله موجودة، والله هو الذي يستحق العبادة دون سواه، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «و«إلا» أداة استثناء، وما بعدها هو المستثنىٰ، وهو مرفوع، والعامل فيه هو العامل في الخبر؛ لأنه بدل منه عند البصريين، وعند الكوفيين: هو عطف نسق؛ قال ثعلب: كيف يكون بدلًا، وهو موجب، ومتبوعه منفي؟ يريد أن التابع والمتبوع لا بدّ أن يتوافقا نفيًا وإثباتًا، وأجيب عنه بأنه بدل منه في عمل العامل، وتخالفهما في النفي والإيجاب لا يمنع البدلية، وأجاب خالد الأزهري: بأن محل اشتراط ذلك، في غير بدل البعض».

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كثر الغلط في المتأخرين من هذه الأمة، في معنىٰ هذه الكلمة، وسببه تقليد المتكلمين الخائضين؛ فظن بعضهم أن معنىٰ: «لا إله إلا الله»، إثبات وجود الله تعالىٰ؛ ولهذا قدروا الخبر المحذوف في: لا إله إلا الله، وقالوا: لا إله موجود إلا الله؛ ووجوده تعالىٰ قد أقر به المشركون، الجاحدون لمعنىٰ هذه الكلمة، وطائفة ظنوا أن معناها: قدرته علىٰ الاختراع. وهذا معلوم بالفطرة، وما يُشاهد من عظيم مخلوقات الله تعالىٰ، كخلق السموات والأرض، وما فيهما من عجائب المخلوقات، وبه استدل الكليم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ فرعون،

(١) الدرر السنية (٢/ ٣٣٠).

(٢) الدرر السنية (٢/ ٢٣٣، ٢٣٤).

لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٦]، وفي سورة بني إسرائيل: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ ففرعون يعرف الله، ولكن جحده مكابرةً وعنادًا.

وأما غير فرعون من أعداء الرسل؛ من قومهم ومشركي العرب ونحوهم، فأقروا بوجود الله تعالىٰ وربوبيته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام لما جحدوا ما دلّت عليه: لا إله إلا الله، من إخلاص العبادة بجميع أفرادها لله وحده».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا قال قائل: قد علمنا في القواعد النحوية: أن «لا» النافية للجنس لا تعمل إلا في النكرات، فهل لفظ «إله» نكرة أم معرفة؟ قلنا: هو نكرة؛ أما لفظ الجلالة «الله»؛ فهو أعرف المعارف، فهل عملت فيه «لا»؟

بعضهم يقول: عملت فيه. ويجعل «الله» خبر «لا»، يسهل عملها في المعرفة هنا للفصل بينها وبين الخبر بـ«إلا»، وهذا الفصل يمنع التركيب.

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١١/ ٤٩، ٥٠).

وبعضهم يقول: إن الخبر محذوف، و«الله» بدل منه، وذلك لأن التام المنفي يجوز فيه البدل، والنصب علىٰ الاستثناء، فيجوز: «لا إله إلا اللهَ»، ويجوز «لا إله إلا اللهُ»، فـ«الله» هنا بدل، وهو الأرجح، والخبر محذوف تقديره: «حق»، وأما من قدَّره: لا إله موجود. فهذا خطأ وليس بصحيح؛ لأنه يُكذبه الواقع، إلا من يقول بوحدة الوجود، وأن الكون كله شيء واحد فهؤلاء يقدرون: موجود، يقول: لا إله موجود إلا الله، فالواجب أن يكون تقدير المحذوف «حق»، أي لا إله حق إلا الله.

وفي الحديث الصحيح: «من مات وهو يدعو لله ندًّا، دخل النار». وتقدم قول قوم هود: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٠]؛ دليل علىٰ أنهم أقروا بوجوده، وربوبيته، وأنهم يعبدونه، لكنهم أبوا أن يجردوا العبادة لله وحده، دون آلهتهم التي كانوا يعبدونها معه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله «لا إله» أي: لا مألوه، وليس بمعنىٰ لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيمًا، تحبه وتعظِّمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

وقوله: «إلا الله» أي: لا مألوه إلا الله. ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٥].

---

(١) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (ص٤٣).

أما قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، فهذا التألُّه باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفي شرعًا، وإذا انتفىٰ شرعًا؛ فهو كالمنتفي وقوعًا؛ فلا قرار له، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله تعالىٰ عن قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]؛ فهذه الآلهة مجرَّد أسماء لا معاني لها ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعًا، لا تستحق أن تُسمَّىٰ آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]».

وأما شروط كلمة التوحيد فقد قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «شروط لا إله إلا الله، فهي: العلم المنافي للجهل، واليقين المنافي للشك، والإخلاص المنافي للشرك، والصدق المنافي للكذب، والمحبة المنافية للبغض، والانقياد المنافي للترك، والقبول المنافي للرد، والكفر بما يُعبد من دون الله.

وقد جُمعت في البيتين الآتيين:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوىٰ الإله من الأشياء قد أُلها».

(١) مجموع الفتاوىٰ البازية (٣/ ٢٨٨).

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شروط لا إله إلا الله**[(١)]: «الانقياد المنافي للاستكبار[(٢)]، لأن من الناس من يقولها وهو يعرف معناها، لكنه لا ينقاد للإتيان بحقوقها ولوازمها من الولاء والبراء والعمل بشرائع الإسلام، ولا يلائمه إلا ما وافق هواه أو تحصيل دنياه، وهذه حال كثير من الناس».

وقوله الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع».

هنا أخذ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «وجِماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله، وأن لا نعبد إلا بما شرع؛ لا يعبد بالبدع، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، **وذلك تحقيق الشهادتين**: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدً رسول الله.

ففي الأولىٰ: أن لا نعبد إلا إيَّاه.

وفي الثانية: أن محمدًا ﷺ هو رسوله المُبلِّغُ عنه، فعلينا أن نُصدق خبره، ونطيع أمْرَه.

وقد بيَّن لنا ما نعبدُ اللهَ به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة،

---

(١) الدرر السنية (٢/ ٣٥٩، ٣٦٠).
(٢) في النسخة المطبوعة «للشرك»، ولعل الصواب ما أثبتّه.
(٣) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص١٧).
(٤) العبودية (ص ١٤٥، ١٤٦).

قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

كما أنا مأمورون أن لا نخاف إلَّا الله، ولا نتوكل إلا علىٰ الله، ولا نرغبَ إلا إلىٰ الله، ولا نستعين إلا بالله، وأن لا تكون عبادتنا إلَّا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه».

وقال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وهو ﷺ الذي جعل الرب طاعته طاعةً له في مثل قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]، وهو الذي لا سبيل لأحد إلىٰ النجاة إلا بطاعته، ولا يُسأل الناس يوم القيامة إلا عن الإيمان به واتباعه وطاعته، وبه يُمتحنون في القبور، قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وهو الذي أخذ الله له الميثاق علىٰ النبيين، وأمرهم أن يأخذوا علىٰ أممهم الميثاق؛ أنه إذا جاءهم أن يؤمنوا به، ويُصدقوه، وهو الذي فرّق الله به بين أهل الجنة وأهل النار، فمن آمن به وأطاعه كان من أهل الجنة، ومن كذّبه وعصاه كان من أهل النار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ

---

(١) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص ٤٤٥ - ٤٤٧).

يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

والوعد بسعادة الدنيا والآخرة والوعيد بشقاوة الدنيا والآخرة متعلّق بطاعته؛ فطاعته هي الصراط المستقيم، وهي حبل الله المتين، وهي العروة الوثقىٰ، وأصحابها هم أولياء الله المتقون، وحزبه المفلحون، وجنده الغالبون، والمخالفون لهم هم أعداء الله، وحزب إبليس اللعين، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ

مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وجميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أخبروا أن الله أمر بطاعتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، يأمرون بعبادة الله وحده، وتقواه وحده، وخشيته وحده ويأمرون بطاعتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال نوح: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]، وقال في الشعراء: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وكذلك قال هود، وصالح، ولوط، وشعيب.

والناس محتاجون إلىٰ الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته في كل زمان ومكان، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، سرًّا وعلانية، جماعة وفرادىٰ، وهم أحوج إلىٰ ذلك من الطعام والشراب، بل من النفس؛ فإنهم متىٰ فقدوا ذلك فالنار جزاء من كذب بالرسول ﷺ وتولىٰ عن طاعته، وكما قال تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [الليل: ١٤-١٦] أي كذّب الرسول ﷺ بما أخبر به، وتولىٰ عن طاعته، كما قال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، وقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا

يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١، ٤٢]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فمن كان مُحبًّا لله لزم أن يتَّبع الرسول ﷺ، فيُصدِّقه فيما أخبر، ويُطيعه فيما أمر، ويتأسَّىٰ به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يُحبُّه الله؛ فيُحبُّه الله».

ومحبة الرسول ﷺ لأن الله اصطفاه وكمّله، وأنزل إليه وحيه وشرعه، وجعله داعيًا إليه، يهدي إلىٰ الصراط المستقيم، الذي يكون سببًا في دخول الجنة لمن اتّبعه.

أما محبة الله فهي تختلف عن محبة المخلوق الذي أوجده الله من العدم، وجعل فيه أسباب المحبة لأجله، أما محبة الله فهي تأله له؛ لكماله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «محبَّة الرّبِّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تختصُّ عن محبة غيره في قدرها وصفتها، وإفراده سبحانه بها؛ فإنَّ الواجب له من ذلك كُلِّه أن يكون أحبَّ إلىٰ العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي هي بين جنبيه؛ فيكون إلهه الحقُّ ومعبوده أحبَّ إليه من ذلك كلِّه، والشيء قد يُحبُّ من وجه دون وجه، وقد يُحبُّ بغيره، وليس شيء يُحبُّ لذاته من كل وجه إلَّا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلَّا له، و﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

---

(١) العبودية (ص ٨٣، ٨٤).

(٢) الجواب الكافي (ص ٢٤٠).

لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والتألُّهُ هو المحبة والطاعة والخضوع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالرسل أُمروا بعبادته وحده، والرَّغبة إليه، والتوكل عليه، والطاعة له، فأضلَّ الشيطان النصارىٰ وأشباههم، فأشركوا بالله، وعصوا الرسول، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، والمسيح ابن مريم، فجعلوا يرغبون إليهم، ويتوكَّلُون عليهم، ويسألونهم، مع معصيتهم لأمرهم، ومخالفاتهم لسُنتَّهم، وهدىٰ الله المؤمنين المخلصين لله أهل الصراط المستقيم، الذين عَرَفوا الحقَّ واتَّبعوه، فلم يكونوا من المغضوب عليهم، ولا من الضالِّين، فأخلصوا دينهم لله، وأسلموا وجوههم لله، وأنابوا إلىٰ ربِّهم، وأحبوه، ورجوه، وخافوه، وسألوه، ورغبوا إليه، وفوَّضوا أُمورَهم إليه، وتوكَّلُوا عليه، وأطاعوا رسله، وعزَّروهم، ووقَّرُوهم، وأحبُّوهم، ووالوهم، واتَّبعوهم، واقتفوا آثارهم، واهتدوا بمنارهم.

وذلك هو دين الإسلام، الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وهو الدِّين الذي لا يقبل الله من أحد دينًا إلَّا إياه، وهو حقيقة العبادة لربِّ العالمين».

ومن مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ: أن تعلم أن كل خير أدركته الأمة فبسببه، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ

(١) العبودية (ص ١٤٧، ١٤٨).

أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فهدىٰ الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ، وبما جاء به من البينات والهدىٰ، هداية جلّت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتىٰ حصل لأمته المؤمنين به عمومًا ولأولي العلم منهم خصوصًا من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جُمعت حكمة سائر الأمم علمًا وعملًا، الخالصة من كل شوب، إلىٰ الحكمة التي بُعث بها؛ لتفاوتا تفاوتًا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضىٰ».

ومن حب النبي ﷺ حُبّ أصحابه - رضوان الله عليهم -، ومعرفة أقدارهم، وموالاتهم، ونصرتهم، والذبّ عنهم، والترضي عليهم، والإقرار بمنّتهم في وصول الدين إلينا من طريقهم ودعوتهم وجهادهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم، والعدل، والجهاد: وبها سبق الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وأدركوا من قبلهم، وفاتوا من بعدهم، واستولوا علىٰ الأمد البعيد، وحازوا قصبات العلىٰ، وكانوا السبب في وصول الإسلام إلينا، وفي كل خير وهدًىٰ وسبب تُنال به السعادة والنجاة، وهم أعدل الأمة فيما ولوه،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٣، ٥٤).

وأعظمها جهادًا في سبيل الله، **والأمة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلىٰ يوم القيامة، فلا ينال أحد منهم مسألة علم نافع إلَّا علىٰ أيديهم ومن طريقهم ينالها، ولا تسكن بقعة من الأرض آمنًا إلّا بسبب جهادهم وفتوحهم**، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدًىٰ إلّا كانوا هم السبب في وصوله إليه؛ فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف، والقلوب بالإيمان، وعمروا البلاد بالعدل، والقلوب بالعلم والهدىٰ، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلىٰ يوم القيامة مضافًا إلىٰ أجر أعمالهم التي اختصوا بها».

والطعن في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ طعن في القرآن الذي أثنىٰ عليهم بأخبار لا يدخلها النسخ، حيث أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنهم يوافونه بموجبات الرضا يوم القيامة، وهو طعن في النبي ﷺ؛ فإنهم أصحابه، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ: «إياك أن تتكلم في أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإن خصمك غدًا رسول الله ﷺ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إن القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول ﷺ قدح في الرسول ﷺ، كما قال مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ، إنما طعنوا في أصحابه ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين».

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٤/ ٤٤٦).

والطعن في الصحابة شأن الرافضة وبعض المتعالمين من الإخوان المسلمين، فطعونهم في عثمان بن عفان ومعاوية وعمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ زيغ وضلالة وكفر ونفاق وغرور.

قال الطحاوي في عقيدة المسلمين في الصحابة[1]: «حبهم إيمان، وبغضهم كفر ونفاق». والنبي ﷺ قال في أصحابه: «**لا يُحبّهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق**». رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فهؤلاء الذين نقلوا القرآن والإسلام وشرائع النبي ﷺ، فالقدح فيهم يوجب ألا يُوثق بما نقلوه من الدين».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متممًا**[3]: «والقرآن قد أثنىٰ علىٰ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ

---

(١) العقيدة الطحاوية بشرح ابن أبي العز الحنفي (٢/ ٦٨٩).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٣٨).

(٣) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٣٨، ١٣٩).

مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**». وفي الصحيحين عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه**». وقد ثبت عنه في «الصحيح» من غير وجه أنه قال: «**خير القرون القرن الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

وهذا الأحاديث مستفيضة - بل متواترة - في فضائل الصحابة، والثناء عليهم، وتفضيل قرنهم علىٰ من بعدهم من القرون؛ **فالقدح فيهم قدح في القرآن والسنة**، ولهذا تكلم الناس في تكفير الرافضة بما قد بسطناه في غير هذا الموضع».

ونحن إذ نتحدث عن حب النبي ﷺ وأسباب زيادته، فإننا نحذِّر من الغلو فيه، الذي حذّر منه النبي ﷺ، حيث قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله، فقولوا: عبد الله**».

وأعظم الغلو في النبي ﷺ أن يُصرف له شيء من حق الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «والله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره، وللرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم، وللمؤمنين بعضهم علىٰ بعض حقوق مشتركة.

ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** «كنت ردف النبي ﷺ فقال لي: **يا معاذ، أتدري ما حق الله علىٰ عباده؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **حقه عليهم: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، يا معاذ، أتدري ما حق العباد علىٰ الله إذا فعلوا ذلك؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **حقهم عليه أن لا يُعذِّب من لا يُشرك به شيئًا**».

فالله تعالىٰ مستحق أن نعبده لا نشرك به شيئًا، وهذا أصل التوحيد الذي بُعثت به الرسل، وأُنزلت به الكتب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ويدخل في ذلك: أن لا نخاف إلا إياه، ولا نتقي إلا إياه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٣، ٥٥٤).

﴿ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله والرسول ﷺ، وجعل الخشية والتقوىٰ لله وحده.

وكذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعل الإيتاء لله والرسول، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، فالحلال ما حلّله الرسول ﷺ، والحرام: ما حرّمه الرسول ﷺ، والدين ما شرعه الرسول ﷺ.

وجعل التحسب بالله وحده، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولم يقل: ورسوله كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: حسبك وحسب من اتبعك: الله؛ فهو وحده كافيكم، ومن ظن أن معناها: حسبك الله والمؤمنون، فقد غلط غلطًا عظيمًا».

والأنبياء - عليهم السلام - وسادات آل البيت لا يرضون بالغلو فيهم ومجاوزة الحد في حبّهم، ويتبرأون من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكان النبي ﷺ يزجر أمته عن الغلو فيه غلو النصارىٰ في ابن مريم؛ ففي الصحيحين عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن أناسًا قالوا: يا رسول الله! يا خيرنا وابن خيرنا، وسيِّدنا وابن سيِّدنا. فقال: «**يا أيها الناس! قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله** عَزَّ وَجَلَّ». رواه النسائي، وجوّد إسناده الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

ولما ظهرت الغالية التي ادّعت الألوهية في علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حرّقهم عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالنار، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لا يُحرّق بالنار إلا رب النار. رواه البخاري.

واستذكار فضائل النبي ﷺ خصوصًا ما يتعلق بنفع المسلمين ودفع الأذىٰ عنهم؛ فإنه من أسباب زيادة حبه وتوقيره الذي هو من مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ؛ فالنبي ﷺ ادّخر شفاعته لأصحاب الكبائر من أمته، والخلق جميعًا في الآخرة وأهوال المحشر كلهم يقول: نفسي نفسي،

---

(١) كتاب التوحيد، باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد، وسده كل طرق الشرك (ص ٢٢٨)، مجموعة التوحيد.

والنبي ﷺ يقول: «**أمتي، أمتي**».

والنبي ﷺ يقوم ذاك المقام العظيم في الدار الآخرة، عندما يصيب الناس الكرب؛ لدنو الشمس منهم مقدار ميل، فيشفع إلىٰ ربه أن يُقضىٰ بينهم، بعد أن يعتذر النبيون جميعًا - عليهم الصلاة والسلام -.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ويحصل له المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وأهل السموات والأرض، وتنال أمَّته من هذه الشفاعة الحظَّ الأوفر، والنصيب الأكمل».

وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ إنما أمر الله بها لإقامة شهادة أن لا إله إلا الله، فهو صلوات الله وسلامه عليه بما أوحي إليه من القرآن دلّ أمته علىٰ شريعة الله وشعب الإيمان، وكيفية إقامة الوجه لله وحده لا شريك له، فقال في الصلاة «**صلوا كما رأيتموني أصلي**». رواه البخاري، وقال في الحج: «**لتأخذوا عني مناسككم**». رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وفي حديث عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلّىٰ ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه**»، متفق عليه.

والنبي ﷺ كان في كل وقت يقرّر لقومه والبشرية كافة، أن رسالته هي دعوة للتوحيد لا لعبوديته ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٣]،

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٥٩).

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١-٢٣].

والنبي ﷺ بيّن لأمته أن شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ إنما هي لإقامة شهادة أن لا إله إلا الله؛ فلذلك لما سأله أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: **لا إله إلا الله. خالصًا من قلبه**»، متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقولون: من كان أكثر صلاةً على النبي ﷺ كان أحق بالشفاعة من غيره، وكذلك من كان أحسن ظنًّا بشخص، وأكثر تعظيمًا له، كان أحق بشفاعته. **وهذا غلط، بل هو قول المشركين** الذين قالوا: نتولّى الملائكة ليشفعوا لنا. يظنون أن من أحب أحدًا - من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولّاه - كان ذلك سببًا لشفاعته له، وليس الأمر كذلك، بل **الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها** له؛ فكل من كان أعظم إخلاصًا كان أحق بالشفاعة، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة؛ فإن الشفاعة من الله مبدؤها، وعلى الله تمامها، فلا يشفع أحد إلا بإذنه، وهو الذي يأذن للشافع، وهو الذي يقبل شفاعته».

فالنبي محمد ﷺ لكثرة خصال الخير فيه، وعظيم نفعه للخلق، محمود عند الله وملائكته ورسله، وعند كل عاقل منصف من أهل الأرض، وهو

---

(١) الفتاوى العراقية (٢/ ١٠٨٥).

أحمد - أي: أفضل وأكمل - الحامدين.

وروىٰ الشيخان من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس علىٰ قدمي، وأنا العاقب**».

قال العلامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «[محمد] معناه: المستغرق لجميع المحامد، وهو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرىٰ، ويُقال: حُمد، فهو محمَّدٌ؛ فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مُسَمَّاه، وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، وعند ملائكته، وعند إخوانه من المرسلين، وعند أهل الأرض كلِّهم، وإن كفر به بعضهم، فإنَّ ما فيه من صفات الكمال محمود عند كل عاقل، ومحمد هو المحمود حمدًا متكررًا كما تقدَّم، و(أحمد) هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، وهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة، وأهل السماء والأرض، فلكثرة خصائله المحمودة التي تفوت عدَّد العادِّين سُمِّي باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة، فدل أحد الاسمين - وهو محمد - علىٰ كونه محمودًا، ودلَّ الاسم الثاني - وهو أحمد - علىٰ كونه أحمد الحامدين لربِّه، وأن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، وقد أكرمه الله سبحانه بهذين

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢/ ٣٥، ٣٦).

الاسمين المشتقين من اسمه جَلَّوَعَلَا، وفيه يقول حسان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

ألم تــر أن الله أرســل عبــده ببرهانــه والله أعــلىٰ وأمجــد

وشــق لــه مــن اســمه ليُجلَّــه فذو العرش محمود وهـذا محمَّـدُ»

والآية الجامعة في بيان حقوق الرسول ﷺ هي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «لا يسمونه إذا خاطبوه باسمه كما يسمي بعضهم بعضًا، بل يدعونه برسول الله ونبي الله، وهذا من تمام تعزيره وتوقيره وتعظيمه، فهكذا ينبغي أن يُخصَّ باقتران اسمه بالصَّلاة عليه؛ ليكون ذلك فرقًا بينه وبين ذكر غيره، كما كان الأمر بدعائه بالرسول والنبي فرقًا بينه وبين خطاب غيره؛ فلو كان عند ذكره لا تجب الصلاة عليه، كان ذكره كذكر غيره في ذلك، هذا علىٰ أحد التفسيرين في الآية، وأما علىٰ التفسير الآخر، وهو أن المعنىٰ: لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضًا، فتؤخروا الإجابة بالاعتذار والعلل التي يؤخِّر بها بعضكم إجابة بعض، ولكن بادروا إليه إذا دعاكم بسرعة الإجابة ومعالجة الطاعة».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]،

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٣٤٥).

وقال سبحانه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإنما حقوق الأنبياء - عليهم السلام - في تعزيرهم، وتوقيرهم، ومحبتهم محبة مقدّمة علىٰ النفس والأهل والمال، وإيثار طاعتهم ومتابعة سنتهم».

والنبي ﷺ كان حريصًا علىٰ المؤمنين رحيمًا بهم، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وحريص علىٰ الكافرين؛ حريص علىٰ هدايتهم ودعوتهم إلىٰ أسباب إنقاذهم من النار التي يتقحمون فيها بكفرهم؛ ففي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفَرَاش يقعن فيها، وهو يذبُّهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدِي**»، فما كفر من كفر وخالف من عصىٰ الرسول ﷺ إلا لضعف عقله، قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «مقصود الحديث أنه ﷺ شبّه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم علىٰ الوقوع في ذلك، مع منعه إياهم وقبضه علىٰ مواضع المنع منهم، بتساقط

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٤٨).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص ١٤١٨).

الفراش في نار الدنيا؛ لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص علىٰ هلاك نفسه، ساعٍ في ذلك؛ لجهله».

فرعاية حق النبي ﷺ الحريص علىٰ إنقاذ البشرية كلها من النار ومن أسباب عطبها، الناصح لهم الدال علىٰ كل خير ومصلحة لهم؛ هو واجب عظيم يليق بمن كان هذا حاله مع البشرية كلها.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن الظلم العظيم: أن يُخَلَّ العبد بشيء من حقوق النبي ﷺ، الذي هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وأرحم وأرأف بهم من كلِّ أحد من الخلق، وهو الذي لم يصل إلىٰ أحدٍ خيرٌ إلا علىٰ يديه».

ومن حقوق الله ورسوله ﷺ: رد الطاعنين علىٰ الرسول ﷺ، وهذا من مقتضيات الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فهو مُبلِّغ عن الله، ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ [النجم: ٣]؛ مُبلِّغ عن الله الذي أرسله، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالطعن في الرسول ﷺ طعن في الله الذي أرسله.

ونصرة النبي ﷺ وردُّ الطاعنين فيه وفي الشريعة التي أُرسل بها هو من النصيحة لله ورسوله؛ فقد روىٰ مسلم في صحيحه من حديث تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدين النصيحة**، قلنا: لمن يا رسول الله؟!

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١١١).

قال: «**لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ومن بعض حقوق الله علىٰ عبده: رد الطاعنين علىٰ كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والنصيحة لرسوله ﷺ قريب من ذلك: الإيمان به، وبما جاء به، وتوقيره، وتبجيله، والتمسك بطاعته، وإحياء سنته، واستثارة علومها، ونشرها، ومعاداة من عاداه وعاداها، وموالاة من والاه ووالاها، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة آله وصحابته، ونحو ذلك».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ومحبة الرسول ﷺ علىٰ درجتين: إحداهما فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبولَ ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقِّيه بالمحبة والرِّضَا والتعظيم والتسليم وعدم طلب الهدىٰ من غيرطريقه بالكليّة، ثم حسنُ الاتباع له فيما بلَّغه عن ربِّه من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عمَّا نهىٰ عنه من

---

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص ١٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٥٤).

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٤٣٨).

المحرَّمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة؛ فهذا القدر لا بدَّ منه، ولا يتمُّ الإيمانُ بدونه.

والدرجة الثانية: فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاة عليه؛ لما سكن في القلب من محبَّته وتعظيمه وتوقيره، ومحبةِ استماع كلامه، وإيثاره علىٰ كلام غيره من المخلوقين.

ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدُّنيا، والاجتزاء باليسير منها، ورغبته في الآخرة».

وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ تقتضي تطبيق شرعه الذي بُعث به ﷺ، فإن تعطيلها تضييع لحقيقة الرسالة، التي من أجلها بُعِثَ إلىٰ الناس كافة إلىٰ يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ تتضمن: تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر؛ فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه، كما يجب علىٰ الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته من

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٩، ٥٦٠).

الأسماء والصفات، وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات، فيخلصوا من التعطيل والتمثيل، ويكونوا في إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل. وعليهم أن يفعلوا ما أمر به، وأن ينتهوا عما نهىٰ عنه، ويحللوا ما حلله، ويُحرموا ما حرّمه؛ فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله ﷺ، ولهذا ذمّ الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما، لكونهم حرّموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا دينًا لم يأذن به الله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلىٰ آخر السورة. وما ذكره في صدر سورة الأعراف، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]. وقد قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فأخبره أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه، فمن دعا إلىٰ غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع، والشرك بدعة، والمبتدع يؤول إلىٰ الشرك، ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. وكان من إشراكهم بهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم.

وقد قال تعالىٰ: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، أنهم لا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق».

ومن شمائل النبي ﷺ في الآية التي استدل بها الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الموجبة لموالاته والإيمان به وتحقيق شهادة أنه رسول الله ﷺ ومبادلته الحب قوله تعالىٰ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

واستدلال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، هو انتخاب من أدلة كثيرة من دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ لمناسبة مقام الاختصار لرسالة هي زبدة الاعتقاد والعمل «الأصول الثلاثة وأدلتها»، وهو انتخاب يشحذ علىٰ مبادلة النبي ﷺ الحب والموالاة والنصرة له وللشرعة التي بُعث بها - صلوات الله وسلامه عليه -، فتدبّر الآية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، لا إله إلا الله! ما أعظم ما في هذه الآية من بيان شمائل نبي الرحمة، مما يوجب الإيمان به وبرسالته التي بُعث بها، وتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، ومبادلته الحب الذي يستحقه لما اصطفاه الله عَزَّوَجَلَّ ووهبه، وهي:

١- عزيز عليه ما يوجب العنت لنا.

٢- حريص علىٰ المؤمنين.

٣- رؤوف رحيم بالمؤمنين.

عزيز عليه ما يُوجب العنت لنا؛ لذلك بُعث بالحنيفية السمحة، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، ورفع الله بالشرع الذي أنزله عليه الأغلال والآصار التي كانت في شريعة من قبلنا، فمن قبلنا أيمانهم لا كفارة لها، وتوبة من عبد العجل من بني إسرائيل أن يقتله من لم يعبده من قومه، والتوبة في شريعتنا بالعزم علىٰ ترك المعصية والندم والاستغفار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

ورُفع عن أمته الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الناسي والمخطئ إنما عُفي عنهما بمعنىٰ رفع الإثم عنهما، لأن الإثم مرتَّبٌ علىٰ المقاصد والنيات، والناسي والمخطئ لا قصد لهما؛ فلا إثم عليهما».

وانظر إلىٰ تخفيف الله عنا الإكراه، بينما كان عزيمةً علىٰ من قبلنا، ففي الصحيحين من حديث خبَّاب بن الأرتّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ «**إنه كان من قبلكم يؤتىٰ الرجل فيُنشر بالمنشار فما يصده عن دينه**».

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٦).

وجُعلت لنا الأرض مسجدًا وطهورًا؛ ففي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال النبي ﷺ: «**أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ حيث أدركته، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وبُعثت إلىٰ الناس عامة**». متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تلك الأحاديث إنما قصد بها بيان اختصاص نبينا ﷺ وأمته بالتوسعة عليهم في مواضع الصلاة دون من قبلنا من الأنبياء وأممهم، حيث حظرت عليهم الصلاة إلا في المساجد المبنية للصلاة».

وفي إباحة الغنائم لأمتنا دون سائر الأمم دليل علىٰ أن الشريعة التي بُعث بها رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، أتم الشرائع في مراعاة حظوظ المكلف المباحة، فكانت الغنائم محرمةً علىٰ من قبلنا، يُرسل الله عليها النار فتأكلها، وأباحها الله لنا؛ رحمةً منه وفضلًا، ولتكون من أسباب قوة الأمة في الإعداد للجهاد في سبيل الله.

وضوعف لأمته حسناتها دون سائر الأمم؛ فالنصارىٰ عملوا من طلوع الشمس إلىٰ زوالها بقيراط قيراط، واليهود من زوال الشمس إلىٰ العصر بقيراط قيراط، وأمة محمد ﷺ عملوا من العصر إلىٰ غروب الشمس بقيراطين،

(١) شرح العمدة كتاب الصلاة (ص ٤٤٠).

فقال اليهود والنصارىٰ: ما بالنا أكثرنا عملًا وأقلنا أجرًا؟ فقال الله: ذلك فضلي أوتيه من أشاء. رواه البخاري.

قال تعالىٰ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

والنبي ﷺ بعثته ودعوته رحمة، هدىٰ الله بدعوته وبنور الوحي الذي أُنزل إليه الناس من الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الظلمات إلىٰ النور، ومن الشرك إلىٰ التوحيد.

وما من خير إلا ودلّ النبي ﷺ البشرية عليه، وما من شر إلا وحذر الأمّة منه، وكان حريصًا علىٰ هداية الخلق جميعًا إلىٰ الإسلام؛ لتعتق رقابهم من النار، ويحققوا مقصود خلق الله لهم، وهو عبوديته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ حرصه علىٰ المؤمنين، ورغبته في دخولهم الجنة، وحذره علىٰ عصاتهم من عذاب النار؛ لذلك ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «شفاعة النبي ﷺ تُنال بكمال الإخلاص لله، وبكثرة الصلاة والسلام عليه، وبحسب اتباعه في أقواله

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة (ص ١٨٨).

وهديه، وبمحبته وتوقيره ﷺ، وتقديم طاعته علىٰ طاعة كل أحد من الخلق».

وأحق الناس بشفاعة النبي ﷺ أنصاره والقائمون بالذب عن سنته، وإحياء ما اندرس منها، وتعليمها الناس؛ فورثة الأنبياء أقرب الناس من النبي ﷺ يوم القيامة منزلًا، وأبعدهم من شفاعته من غيّر وحرّف وبدّل سنته ﷺ، فهؤلاء يُذادون عن الحوض أحوج ما يكونون إليه بعد أن يُبعثوا من قبورهم يوم القيامة.

وحرصه ﷺ غير خاص بالمؤمنين، بل هو عام لكل البشرية، وحرصه علىٰ المؤمنين له خصوصية اقتضته عقيدة الموالاة والمحبة للمؤمنين.

فالحاصل: أن معرفة الرسول ﷺ ودلائل نبوته وفقه دعوته وسيرته؛ هو أساس الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده؛ لأن الرسول ﷺ بُعث بالتوحيد، ولذلك كان الكفار يسألون الناس عن محتوىٰ بعثة النبي ﷺ؛ ليستدلوا بذلك علىٰ صحة نبوته؛ قال هرقل لأبي سفيان في سؤاله عن نبينا محمد ﷺ: «ماذا يأمركم؟»، قال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يقول: اعبدوا الله وحده ولا تُشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة»[1].

وبنحو استدلال هرقل والنصارىٰ علىٰ صحة نبوة رسول الله ﷺ استدل اليهود كذلك، فكان محتوىٰ دعوة رسول الله ﷺ أعظم برهان علىٰ أنه رسول

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (ص ٣ - رقم٧).

الله حقًّا وصدقًا، قال عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - وكان من أحبار اليهود -: «لَمَّا قدم النبي ﷺ المدينة انجفل النَّاس عليه، فكنت فيمن انْجَفل، فلما تبيَّنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب، فكان أول شيء سمعته يقول: **أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنَّة بسلام**»[1].

قال ابن شيخ الحزاميين رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «إنما ينشأ الإيمان من معرفة الرسول ﷺ بمعرفة سيرته وسنته وغزواته ومعجزاته وآياته وكراماته؛ فبذلك يُعلم شأن النبوة، وتلوح أدلتها وبراهينها في القلوب.

ومتىٰ عُلم شأن النبوة ورسخت معالمها ودلائلها في القلوب؛ كانت كرسيًّا لعلم التوحيد، وطريقًا إلىٰ معرفة الرب العظيم المُرسِل الباعث؛ لأن النبوة آيات الله عَزَّوَجَلَّ وبيِّناته ودلالاته، لمن اتَّسع فهمه وصفا من الكدر، وطلب استخراج ذلك منه».

قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ فهو أولىٰ بهم من أنفسهم، ليس فقط في الدنيا حال حياته حين كان يقضي ديونهم، ويقول: «**من ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني؛ فأنا أولىٰ به**»، رواه البخاري من حديث أبي

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي كتاب صفة القيامة، بابٌ (رقم ٤٨٥)، وقال: حديث صحيح.

(٢) مدخل أهل الفقه واللسان إلىٰ ميدان المحبّة والعرفان (ص ٤٩، ٥٠).

هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، بل هو أولىٰ بهم من أنفسهم في الآخرة أيضًا، وهذا مقام أهواله عظيمة، وهو القرار الأخير الأبدي السرمدي، إما جنة وإما نار؛ فإنه - صلوات الله وسلامه عليه - ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

ومن معاني قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ أن حكمه فيهم يجب أن يكون مقدمًا علىٰ اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وفي الصحيح: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين**»، وفي الصحيح أيضًا أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: يا رسول الله! والله لأنت أحبّ إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال ﷺ: «**لا يا عمر! حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**»(١).

فرعاية حقوق النبي ﷺ وطاعته ونصرته، والانتصار له وللدين الذي بُعث به؛ دليل وفور الإيمان والتحقق به، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «أي: ما ينبغي

---

(١) قرّره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٣٢).

لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾ في بقائها وراحتها، وسكونه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، فعلىٰ كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه، ويقدّمه عليها. فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به؛ أن لا يتخلفوا عنه».

ومعرفة أحوال النبي ﷺ وسيرته ضرورة للتأسي به، ولأخذ صفة أدائه لفرائض الله وعباداته، ولتلقي أحكام الشريعة عنه، وهو من أسباب زيادة الإيمان، والتخلق بمكارم الأخلاق، والسير علىٰ سنته بدون ابتداع، وبدون إفراط ولا تفريط.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه: معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الكاملة. فإن من عرفه حقَّ المعرفة لم يرتبْ في صدقه، وصدَّق ما جاء به من الكتاب والسُّنَّة، والدِّين الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

أي: فمعرفته ﷺ تُوجب للعبد المبادرة إلىٰ الإيمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالىٰ حاثًّا لهم علىٰ تدبُّر أحوال الرسول ﷺ؛ الدَّاعية للإيمان: ﴿ ۞ قُلْ

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص ٧٣ - ٧٥).

إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالىٰ بكمال هذا الرسول ﷺ، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: ١-٤].

فهو ﷺ أكبر داعٍ للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصَّادقة النافعة، وأفعاله الرَّشيدة؛ فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب، الذين هم خواص الخلق؛ أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾، وهو هذا الرسول الكريم.

﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ بقوله وخُلُقِه، وعمله، ودينه، وجميع أحواله ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾، أي: إيمانًا لا يدخله ريب.

ولمَّا كان هذا الإيمان من أعظم ما يُقرِّب العبد إلىٰ الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله؛ تَوَسَّلُوا بإيمانهم أن يُكَفِّر عنهم السيئات ويُنيلهم المطالب العاليات، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]».

ومن أعظم ما يكون من الإيمان بمحمد ﷺ رسولًا ونبيًّا؛ حبه وتوقيره ونصرته والذب عنه، وهداية الخلق إلىٰ الإسلام الذي بُعث به، فيكون العلماء ورثة الأنبياء، ويبلغون رسالة الله طاعة لله ورحمة للخلق.

قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النصح له يقتضي نصحين؛ نُصحًا في حياته، ونُصحًا بعد مماته؛ ففي حياته نُصح أصحابه له بالنصر والمُحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسَّمْع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: ٨].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته: فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة علىٰ تعلم سُنَّته، والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سُنَّته وانحرف عنها وبغضه والتحذير منه، والشفقة علىٰ أُمته، والبحث عن تعرُّف أخلاقه وسيره وآدابه، والصّبرُ علىٰ ذلك».

وقال القاضي عياض اليحصبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال سهل - التستري - في قوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]: قال: بمتابعة السنة. فأمرهم تعالىٰ بذلك، ووعدهم الاهتداء باتِّباعه؛ لأن الله تعالىٰ أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليُزكِّيهم ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم، ووعدهم محبَّته تعالىٰ في

(١) بواسطة الشفا (٢/ ٥٨٤، ٥٨٥). (٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ (٢/ ٥٤٧ - ٥٤٩).

الآية الأخرىٰ ومغفرته إذا اتَّبعوه، وآثروه علىٰ أهوائهم وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له، ورضاهم بحُكمه، وترك الاعتراض عليه.

ورُوي عن الحسن أن أقوامًا قالوا: يا رسول الله! إنا نُحب الله فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ [آل عمران: ٣١].

وروي أن الآية نزلت في كعب بن الأشرف وغيره، وأنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحبَّاؤُه، ونحن أشد حبًّا لله. فأنزل الله الآية.

وقال الزجاج: معناه: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أن تقصدوا طاعته، فافعلوا ما أمركم به؛ إذ محبَّةُ العبد لله والرسول طاعته لهما، ورضاه بما أمرا، ومحبَّةُ الله لهم: عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته[1].

ويقال: الحب من الله عصمة وتوفيق، ومن العباد طاعة. كما قال القائل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديع».

---

(١) **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها». [مدارج السالكين (٣/ ١٧)]. **وقال**: «الجهمية المعطلة أوَّلوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب». [باختصار، مدارج السالكين (٣/ ١٨)].

وقال العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محبة تليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل، لا يعلم كنهها ولا كيفيتها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه أعلم بنفسه، وقد أعلَّمَنَا أنه يُحِب ويُحَب، فنحن نؤمن بالله وبما جاء عن الله على مراد الله». [شرح العقيدة الواسطية (ص٥١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تُحد المحبّة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا تُوصف المحبة بوصف أظهر من المحبة». [مدارج السالكين (٣/ ١٠)].

ومن حب النبي ﷺ حُب قرابته المؤمنين، وأصحابه أجمعين، قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومنها محبّته لمن أحبَّ النبي ﷺ، ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم، وبُغض من أبغضهم وسبَّهم، فمن أحبَّ شيئًا أحبّ من يحبه.

وقد قال النبي ﷺ في الحسن والحسين: «**اللهم إني أُحبّهما فأحبّهما**». وفي رواية في الحسن: «**اللهم إني أُحبُّه فأحبَّ من يُحبّه**». وقال: «**من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله**». وقال: «**الله الله في أصحابي؛ لا تتخذوهم غرضًا بعدي؛ فمن أحبَّهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ الله، ومن آذىٰ الله يوشك أن يأخذه**». وقال في فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**إنها بضعة مني؛ يغضبني ما أغضبها**». وقال لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أحبيه؛ فإني أحبه**». وقال ﷺ: «**آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغضهم**».

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**من أحبَّ العرب فبحبِّي أحبَّهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم**». فبالحقيقة من أحبّ شيئًا أحب كل شيءٍ يحبُّه. وهذه سيرة السَّلف، حتىٰ في المباحات وشهوات النفس، وقد قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين رأىٰ النبي ﷺ يتتبَّع الدُّبّاء من حوالي القصعة: فما زلت أحبُّ الدُّباء من يومئذ».

وحيث لا يوجد الحب والتوقير للنبي ﷺ فإنه دال علىٰ كفر صاحبه؛ لأن

(١) الشفا (٢/ ٥٧٣ - ٥٧٥).

المنصف فضلًا عن المؤمن بالله ورسوله ﷺ يجد في قلبه ضرورة في حبه ﷺ؛ لما في دعوته من توحيد الله، والهداية إلىٰ كل خير، والتحذير من كل شر، والرحمة للخلق، والسعي في عتق رقابهم من النار، فالنبي ﷺ أحبه الحجر والشجر، فقال ﷺ «**أحد جبل يحبنا ونحبه**». واليهود أبغضوه وسبوه؛ فغضب الله عليهم، وأبغضهم الحجر والشجر.

وكان اليهود - عليهم لعائن الله - يخاطبون النبي ﷺ بالألفاظ المحتملة الحق والباطل، يقصدون بها المعاني السيئة، فأخبره الله بشأنهم، وحذّر المؤمنين من مخاطبته بنحو خطاب اليهود، وإن لم يقصدوا به إلا المعاني الصحيحة؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال القاضي عياض اليحصبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن توقيره وبرّه ﷺ توقير أصحابه وبرُّهم، ومعرفة حقِّهم، والاقتداء بهم، وحسنُ الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرُّواة وضُلَّال الشِّيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يُلتمس لهم فيما نُقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويُخرَّج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهلُ ذلك، ولا يُذكر أحدٌ منهم بسوء، ولا يُغمص عليه أمر، بل تُذكر حسناتهم

---

(١) الشفا (٢/ ٦١١ - ٦١٣).

وفضائلهم وحميد سيرتهم، ويُسكت عما وراء ذلك، كما قال ﷺ: «**إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا**». قال الله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من تمام الإيمان برسول الله ﷺ ومحبته، محبة أصحابه بحسب مراتبهم من الفضل والسَّبْقِ، والاعترافُ بفضائلهم التي فاقوا فيها جميع الأمّةِ، وأن تدين الله بحبهم ونشر فضائلهم، وتُمْسك عما شجر بينهم، ونعتقد أنهم أولىٰ الأمَّةِ بكل خصلة حميدة، وأسبقهم إلىٰ كل خير، وأبعدهم من كل شر، وأنهم جميعهم عدول مرضيون».

(١) سؤال وجواب في أهم المهمات (ص ١٨)، ط: دار العاصمة.

ولما ضعف إيماننا، وقصر عن درجة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما بلغنا مُدّهم ولا نصيفهم في حب النبي ﷺ وتوقيره؛ وهذا بيان لبعض سيرة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حب النبي ﷺ وتوقيره، فكانوا يجلسون إليه كأن علىٰ رءوسهم الطير؛ لسكونهم وخشوعهم وتوقيرهم وإصغائهم له.

وأعداؤه شهدوا ولاحظوا عظيم الحب والتوقير المتناهي من الصحابة للنبي ﷺ الذي لا يدانيه أحد لأي مخلوق؛ قال عروة بن مسعود حين أرسلته قريش في الحديبية ليفاوض النبي ﷺ في الصلح: «إذا أمرهم - الصحابة - بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر؛ تعظيمًا له.

فلما رجع إلىٰ قريش قال: يا معشر قريش! إني جئت كسرىٰ في مُلكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني - والله - ما رأيت مَلِكًا في قوم قط مثل محمد ﷺ في أصحابه»[(١)].

ومن حب النبي ﷺ توقيره في الخطاب؛ فيُذكر بأكمل نعوته، وهو النبوة والرسالة؛ لا يُذكر كما يُذكر سائر الناس؛ قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ومن حب النبي ﷺ عدم التقدم بين يديه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

(١) رواه البخاري، وانظر: الشفا (٢/ ٥٩٢، ٥٩٣).

تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات: ١] قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [الحجرات: ٢-٣].

فإذا كان رفع الصوت بالكلام الذي يتخاطب به الناس في حديثهم مع رسول الله ﷺ، مُحبطٌ للأعمال، فكيف برفع الصوت علىٰ النبي ﷺ بالمقالات والاعتقادات والأحكام المضادة لشرع الله، الذي أوحي إليه صلوات الله وسلامه عليه؟!!

والناس يتفاضلون في تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ تفاضلًا عظيمًا، فمنهم العلماء بسنته والشريعة التي بُعث بها، قائمون بها، محيون لما اندرس منها، عالمون بشمائله وأخلاقه، وما تعبدنا الله به من سنته، ومنهم دون ذلك؛ عندهم جهل ببعض سنته وخصائصه - صلوات الله وسلامه عليه -، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من كان بأسماء النبي ﷺ وصفاته أعلم، كان بالنبي ﷺ أعلم؛ فليس من علم أنه نبي كمن علم أنه رسول، ولا من علم أنه رسول كمن يعلم أنه خاتم الرسل، ولا من علم أنه خاتم الرسل كمن علم أنه سيد ولد آدم، ولا من علم ذلك كمن علم ما خصّه الله به من الشفاعة والحوض والمقام المحمود والملة وغير ذلك من فضائله ﷺ، وليس كل من جهل شيئًا من خصائصه يكون كافرًا، بل كثير

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٨١).

من المؤمنين لم يسمع بكثير من فضائله وخصائصه».

ومن أعظم ما يكون من موالاة النبي ﷺ لزوم الشرع الذي أوحي إليه، والتأسي به في أقواله وأفعاله، والرغبة عن سنته - والعياذ بالله - كما تكون في التفريط فإنها تكون بالإفراط أيضًا، فإن النبي ﷺ قال في الغلاة الذين يصومون ولا يفطرون، ويقومون ولا ينامون، ويرغبون عن الزواج: «**من رغب عن سنتي؛ فليس منّي**». متفق عليه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «صدق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فإن هذا هو مقتضىٰ الفطرة، **الذي يرغب عن سنتك لا شك أنه مفارق لك، وأنه لا صلة بينك وبينه، والذي يرغب في سنتك هذا هو الموالي لك.**

ولهذا فإن من أعظم الولاء أن يكون الإنسان موافقًا لمن تولاه في أفعاله وأقواله، وهو شيء مشاهد، حتىٰ إن الإنسان إذا أحب شخصًا صار يقتدي به، وينظر ماذا يفعل، فيفعل مثله، فكذلك الولاية؛ **من أراد أن يكون من أولياء الله ورسوله، فليسلك ما شرعه الله علىٰ لسان رسوله ﷺ**.

فقوله ﷺ: «ليس مني»؛ أي: ليس ممن ينتسب إليَّ، لأن الذي ينتسب إليه حقًّا هو الذي يأخذ بشريعته - صلوات الله وسلامه عليه -».

فشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ تقتضي نصرته، وهذا من حقائق الإيمان

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١١/ ٢٠).

بأن الله أرسله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من كان مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ بقلبه، هل يتصور إذا رأىٰ الرسول ﷺ وأعداؤه يقاتلونه، وهو قادر علىٰ أن ينظر إليهم، ويحض علىٰ نصر الرسول ﷺ بما لا يضره، هل يُمكن مثل هذا في العادة أن لا يكون منه حركة ما إلىٰ نصر الرسول ﷺ فمن المعلوم أن هذا ممتنع! فلهذا كان الجهاد المتعين بحسب الإمكان من الإيمان، وكان عدمه دليلًا علىٰ انتفاء حقيقة الإيمان، بل قد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يُحدّث نفسه بالغزو، مات علىٰ شعبة من نفاق**»، وفي الحديث دلالة علىٰ أنه يكون فيه بعض شعب النفاق مع ما معه من الإيمان، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وأيضًا فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» وفي رواية: «**وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل**»، فهذا يُبيّن أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كان عادمًا للإيمان، والبغض والحب من أعمال القلوب. ومن المعلوم أن إبليس ونحوه يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ حرّم هذه الأمور، ولا يبغضونها، بل يدعون إلىٰ ما

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٤٨، ٤٤٩).

حرم الله ورسوله ﷺ».

فالأمة الإسلامية كلها تعرف للنبي ﷺ فضله ومنّته عليها، وكيف صار لهذه الأمة شأن في سيادة الأمم وهدايتها إلىٰ معرفة الحق والعمل به، وتحقيق التوحيد الخالص لله، الذي به العصمة من الخلود في النار، وكان موجبًا لدخول الجنة، وذلك هو الفوز العظيم، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

كان العرب في جاهلية وشرك، وكان الفرس أغلظ شركًا مجوسًا عُبّاد النار، وكان النصارىٰ في شرك التثليث، واليهود في الشرك والسب لله فهدىٰ الله البشرية إلىٰ توحيد الله بدعوة رسول الله ﷺ ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وسار الصحابة إلىٰ أقطار الدنيا بميراث النبوة؛ ليعتقوا رقاب البشرية من النار، وليخرجوهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، وكثر الخير في الأرض، وظهرت الرحمة بالنور الإلهي الذي أوحاه الله إلىٰ رسوله ﷺ، بعد أن كانوا في مقت الله وسخطه، فقبل بعثة نبينا محمد ﷺ مقت الله أهل الأرض كلهم، إلا من كان متمسكًا بالشرائع غير المحرّفة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلىٰ الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أشرف خلق الله

(١) تفسير القرآن العظيم (ص ٢٥٣).

وأكرم الرسل علىٰ الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًّا قبله ولا رسولًا من الرسل؛ فالعمل علىٰ منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه».

فمن لا يعرف من النعم إلا الأكل والشرب والنوم فهو مغبون، فأعظم النعم وأكملها وأسبغها وأولاها شكرًا، نعمة الوحي الذي أنزله الله علىٰ رسوله ﷺ، فرحم الله الخلق بإرسال محمد ﷺ بعد أن مقت الله الخلق لكفرهم وشركهم وتغييرهم لشرائع الله.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «في هذه الآية الشريفة معانٍ عظيمة وحِكمٌ لطيفة، منها: أن الله تعالىٰ ذكَّر عباده نِعَمه وإحسانه، وعرَّفهم - ببعض الآيةِ - امتنانه، كما ذكر ذلك في آيات كثيرة من القرآن، ليشكُروه علىٰ ما أنعم، وليعبدوه كما أمر وعلَّم، وليبعثهم ذِكْرُ نِعَمه علىٰ محبته

(١) مجالس تفسير قوله تعالىٰ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، (ص ١٨٨، ١٨٩).

- والله أعلم -؛ لأن القلوب جُبلت علىٰ حب من أحسن إليها.

ومن الآيات المشار إليها قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الآية [غافر: ٦٤].

ومنها: هذه الآية الشريفة: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وهذه النعمة التي امتنَّ الله بها علىٰ المؤمنين، وأحسن إليهم أجمعين، أعظم نعمةٍ أنعم بها عليهم؛ لأن نعم الله الظاهرة دائرة بين أمرين:

أحدهما: يتعلَّق بأمور الدنيا.

والثاني: بأمور الدين.

ويرجعان إلىٰ المبدأ والمعاد، ولم يحصل العلمُ بذلك، وكيفية العمل بما شُرع أمرًا ونهيًا وغير ذلك، إلا من جهة نبينا محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام -؛ فلولاه ما عُرف الهدىٰ من الضلال، ولا الحرام من الحلال، ولا قواعد العقائد أصلًا وفرعًا، ولا شعائر الشرائع نقلًا وشرعًا، ولا أمرُ المعاد وما فيه من الأخطار: كالحشر والنشر، والجزاء والقصاص، والجنة والنار، وكيف طريق السلامة في الدنيا، والنجاة يوم القيامة، مما بيَّنه النبي ﷺ لهذه الأمة، فأيُّ نعمة أعظم من بعثة هذا النبي، نبيِّ الرحمة، الذي عُرف كل ذلك

من قِبَلِه واعتُمد عليه[١]، وحصلت سلامة المؤمنين ونجاتهم علىٰ يديه؟!

ولعظم هذه النعمة التي هي أجلُّ الإنعام، أخبر الله تعالىٰ عنها مؤكَّدة باللام، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ولم يذكر سبحانه اسمًا من أسمائه الحسنىٰ في هذه الآية سوىٰ هذا الاسم الشريف وهو [الله]، إشارةً - والله أعلم - إلىٰ أنه لما كان قدْر هذا الرسول عظيمًا ذكر مرسلُه سبحانه اسمَه الأعظمَ الدالَّ علىٰ العظمة، حين ذكر مَنَّهُ ببعثته في المؤمنين رسوله محمدًا ﷺ».

والقرآن إنما جاء لتقرير التوحيد وبيان صحة الرسالة، لأن الناس إذا تقرر عندهم التوحيد واضحًا جليًّا، احتاجوا إلىٰ أداء حق الله الخالص في عبادته، ومعرفة هذا بالتفصيل إنما يكون بمعرفة الرسالة التي بعث الله بها نبيه ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٣-٦].

(١) الاعتماد علىٰ الله، والرسول ﷺ مُبلِّغ عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: من أعجب العجائب وأدل الدليل علىٰ سفههم ونقص عقولهم، بل أدل علىٰ ظلمهم وجراءتهم علىٰ ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في كمال العجز؛ أنها لا تقدر علىٰ خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: ٣]؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا؛ لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]؛ **أي**: بعثًا بعد الموت. فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات - من غير مشاركة له في ذلك -، الذي بيديه النفع والضر، والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت، ويبعث من في القبور، ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين، دار الشقاء والخزي والنكال لمن اتخذ معه آلهة أخرىٰ، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتخذه وحده معبودًا.

ولما **قرّر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة،** وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٤٩).

أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٤-٦].

أي: وقال الكافرون بالله الذي أوجب لهم كفرهم؛ أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه علىٰ الله، وأعانه علىٰ ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام علىٰ الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه علىٰ ذلك؛ فقد جاءوا بهذا القول ظلمًا وزورًا».

وكان القرآن ينزل بذكر قبائح اعتقادات اليهود والنصارىٰ وأعمالهم، ولا ينكرون منه حرفًا، وشهد علماؤهم بصحة رسالة النبي محمد ﷺ؛ قال ورقة بن نوفل: «هذا الناموس الذي كان ينزل علىٰ موسىٰ». رواه البخاري، وقال هرقل بعد سماع أجوبة أبي سفيان لأسئلته: «ما كنت أظن أنه يخرج فيكم، لئن كان ما تقول حقًّا، فسيملك ما تحت قدمي هاتين»، رواه البخاري.

وعبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أحبار اليهود، عرف دلائل نبوة خاتم الرسل ﷺ أول ما رآه عند قدومه المدينة مهاجرًا من مكة، قال عبد الله ابن

سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «لما قدم النبي ﷺ انجفل النّاس عنه، فكنت فيمن انجفل، فلمّا تبيّنت وجهه عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذّاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «**أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام**».

واليهود أنفسهم كانوا يعرفون أن الوحي الذي أُنزل علىٰ رسول الله ﷺ هو من علوم النبوة، لا من كلام السحرة ولا الكهان؛ ففي «صحيح مسلم» من حديث ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يهوديًّا أتىٰ النبي ﷺ وقال له: أسألك عن ثلاث لا يعرفهن إلا نبي! فقال له النبي ﷺ: «**أوينفعك إن أخبرتك؟!**» قال اليهودي: أسمع. ثم قال اليهودي للنبي ﷺ: ما هو الطعام الذي حرّمه إسرائيل علىٰ نفسه؟ وما هو أول طعام الجنة؟ وبم يكون شبه الولد؟

فقال النبي ﷺ: «**الطعام الذي حرّمه إسرائيل علىٰ نفسه لحوم الإبل، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد الحوت، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة جاء المولود ذكرًا، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل جاء المولود أنثىٰ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة جاء المولود شبهًا لأبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل جاء المولود شبهًا لأمه**».

فدلائل نبوة نبينا محمد ﷺ عرفها المنصفون سواء من أسلم منهم أو من

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي (رقم ٢٤٨٥)، وقال: حديث صحيح.

كفر لحظ دنيوي كالرئاسة كما حصل من هرقل وسادات قريش كأبي لهب وأبي جهل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «النبوة الحق: هي إنباء الله لعبده، ونبي الله: من كان الله هو الذي ينبئه، ووحيه من الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبيء بما أنبأ الله به، فإن أُرسل مع ذلك إلىٰ من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يُرسل هو إلىٰ أحد يُبلّغه عن الله رسالة فهو نبي، وليس برسول، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فذكر إرسالًا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول؛ فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلىٰ من خالف الله كنوح».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «وانظر إلىٰ الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة، وأن الله قد أقام علىٰ صدق رسله من الآيات ما علىٰ

(١) النبوات (٢/ ٧٠٣).

(٢) النبوات (٢/ ٧١٤).

(٣) تيسير اللطيف المنّان (ص ٣٣٠).

مثله يؤمن البشر، وخصوصًا محمدًا ﷺ؛ فإن آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة: سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم، وحثَّه علىٰ كل خلق كريم وعمل صالح ونفع وإحسان وعدل، ونهيه عن ضد ذلك، وما جاء به من الوحي: الكتاب والسُّنَّة، كله جملة وتفصيلًا براهين علىٰ نبوته وصدقه، مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه علىٰ الأديان كلها، ومن إجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تُعدُّ أنواعها فضلا عن أفرادها، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة، وعن عجز المعارضين له في مقامات التحدي كلها، وعجزهم عن نصر باطلهم».

ومن أسلم من أهل الكتاب وكذلك من له معرفة بكتبهم، أخبر بصفة النبي ﷺ المذكورة في كتبهم، قال عطاء بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لقيت عبد الله ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزًا للأُمِّيِّين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتك المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملَّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله. ويُفْتَحُ بها أعين عُمْيٌ، وآذان صُمٌّ، وقلوب غلف[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السُّوق (ص ٣٤١ - رقم ٢١٢٥).

وعلوم الأنبياء ودعوتهم واحدة،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن النبي ﷺ هو وسائر النبيين لا يُخبرون إلا بحق، ولا يأمرون إلا بعدل؛ فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، لا يأمرون بالفواحش، ولا الظلم، ولا الشرك، ولا القول بغير علم؛ فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها؛ فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول، الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.

فكما أنهم هم لا يختلفون فلا يُناقض بعضهم بعضًا، بل دينهم وملتهم واحدة، وإن تنوعت الشرائع؛ فهم أيضًا موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية، لا يناقضونها قط، بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم».

فنحن نؤمن بالنبيين عليهم السلام جميعًا كما أمرنا الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون – عليهم الصلاة والسلام – فقال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ

(١) النبوات (٢/ ١٠٩٠، ١٠٩١).

(٢) النبوات (٢/ ٦٩٠).

أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

أما غلو النصارىٰ في عيسىٰ ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فإنهم ادّعوه إلهًا، وقالوا: إنه ثالث ثلاثة. تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وسبب شرك النصارىٰ راجع لتحريف كلام الله عن موضعه أو جهلهم بمعناه؛ كتوهمهم أنه حلّ في عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جزء من الذات الإلهية، وأنه كلمة الله وروح منه.

قال أمير المؤمنين في الحديث البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وأما تحريفهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ فلو كان كما قالوا، لكان ينبغي أن يكون بين الدَّفَّتين: [وكلمته **ألقاه** إلىٰ مريم]؛ لأن عيسىٰ مُذَكَّر، والكلمة مؤنثة، لا اختلاف بين العرب في ذلك، وإنما خلق الله عيسىٰ بالكلمة، لا أنه الكلمة، ألا تسمع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]؛ يعني جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا

(١) خلق أفعال العباد (٢/ ٦٢).

سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فخلق عيسىٰ وآدم بقوله: ﴿كُن﴾ وليس بين هاتين الآيتين خلاف».

فالإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوة علمه وحسن قصده وسلوكه المنهج القرآني في الردّ علىٰ النصارىٰ، بيَّن أن خلق عيسىٰ ليس بأعجب من خلق آدم، فلماذا خصوا عيسىٰ بالألوهية دون آدم؟!! إنه الغلو في عيسىٰ والجهل والقول علىٰ الله بغير علم والتناقض؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والذي يزيد الأمر وضوحًا أن ﴿رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه تمثَّل لمريم بشرًا، فخافته، فأخبرها أنه مرسل من الله، قال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٧- ١٩].

فإضافة جبريل إلىٰ الله في قوله تعالىٰ: ﴿رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] إضافة تشريف، واصطفاء؛ لأن جبريل ملك مخلوق لله؛ فهو عين قائمة بنفسها أضيفت إلىٰ الله تشريفًا كـ ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكذلك (بيت الله)، وليست الإضافة هنا إضافة صفة من صفات الله إليه، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وأمَّا قول الله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]،

(١) الرد على الزنادقة والجهمية (ص٢٥١، ٢٥٢).

يقول: من أمره كان الرُّوح فيه، كقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، يقول: من أمره.

وتفسير «روح الله» إنما معناها: أنها روح بكلمة الله، خلقها الله، كما يُقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرًا سويًّا، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًّا، وأنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] وهذا كله يدل علىٰ أنها عين قائمة بنفسها».

وقال متممًا(٢): «وإن كان الله قد بيّن أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها، بل من الأعيان القائمة بنفسها، عُلم أن المضاف مملوك لله مخلوق له، لكن إضافته إلىٰ الله تدل علىٰ تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة».

والغلو في الأنبياء – عليهم السلام – واقع في هذه الأمة من أهل القبلة، يستغيثون برسول الله ﷺ وهو بشر ميّت، يسألونه ما لا يقدر عليه إلا الله من كشف الشدائد والكربات، وسؤال الذرية والمال، والشفاء من الأسقام التي أقر النبيون – عليهم السلام – أنفسهم أنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله.

(١، ٢) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (١/ ٢٤٢).

قال سيد الحنفاء خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٢].

ومن الإيمان برسالة محمد ﷺ اعتقاد أن رسالته عامة للخلق جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأهل الكتاب أنفسهم يعرفون أن رسول الله ﷺ مبعوث إليهم؛ فنعته لم يذكر عبثًا في كتبهم وإنما ذُكر للإيمان به ونصرته واتّباعه ولزوم الشرع الذي بُعث به، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ولذلك كانوا يستفتحون به علىٰ مشركي العرب، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وحقيقته دعوته، ومحتواها دال علىٰ صحة رسالته؛ صدق في الأخبار وعدل في الأحكام، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فمن قال بعد هذا من أهل

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ١٢٧).

الكتاب - اليهود والنصارىٰ - أنه لم يُبعث إلينا. بمعنىٰ أنه لم يقل: إنه مبعوث إلينا. كان مكابرًا جاحدًا للضرورة، مفتريًا علىٰ الرسول ﷺ فريةً ظاهرة، تعرفها الخاصة والعامة.

وكان جحده لها كما لو جحد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام. وجحد محمد ﷺ وما تواتر عنه، أعظم من جحد أتباع الحواريين للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإرساله لهم إلىٰ الأمم ومجيئه بالإنجيل وجحد مجيء موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتوراة، وجحد أنه كان يسبت؛ فإن النقل عن محمد ﷺ مدته قريبة، والناقلون عنه أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به نقل دين موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ».

والنصارىٰ كانوا يعرفون أن الوحي الذي أنزله الله علىٰ رسوله محمد ﷺ من علوم النبوة ومشكاتها، فقد قال النجاشي لجعفر بن أبي طالب ومن معه من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ما دينكم؟ قالوا: ديننا الإسلام. قال النجاشي: وما الإسلام؟ قالوا: نعبد الله ولا نشرك به شيئًا. قال: وما جاءكم بهذا؟ قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا قد عرفنا وجهه ونسبه، أنزل الله عليه كتابه، فعرَّفنا كلام الله وصدَّقناه.

قال لهم النجاشي: فبم يأمركم؟ قالوا: يأمرنا أن نعبد الله ولا نُشرك به شيئًا، ويأمرنا أن نترك ما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والوفاء، وبأداء

الأمانة، وبالعفاف.

قال النجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فوالله إن خرج هذا إلا من المشكاة التي خرج منها أمر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ»[(١)].

وسأل النجاشي جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالوا: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، وابن العذراء البتول. فخفض النجاشي يده إلىٰ الأرض، وأخذ عودًا فقال: والله ما زاد ابن مريم علىٰ هذا وزن هذا العود[(٢)].

فصحة دلائل نبوة خاتم النبيين والمرسلين لا يخطئها منصف؛ قال تعالىٰ في شأن من آمن برسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

ودلائل نبوة نبينا محمد ﷺ ما زالت باقية أهمها القرآن، وبقاءه سببه وحكمته ظاهرة؛ لأنه الشرع الذي تعبّد الله به الخلائق إلىٰ يوم القيامة.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**ما من**

(١) الدرر في اختصار المغازي والسّير، لابن عبد البر (ص ١٣٢، ١٣٣).

(٢) السيرة النبوية، للحافظ الذهبي (ص ١٨٩)، ط: دار الكتاب العربي.

الأنبياء من نبيٍّ إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

فهذا القرآن الناس يشاهدون في لفظه ومعانيه براهين التنزيل الإلهي له، وأنه ليس في استطاعة أحد من البشر أن يأتي بمثله، ويلاحظون في ألفاظه من القوة والفخامة وجزالة المعنىٰ ما يبرهن علىٰ أنه كلام رب العالمين، ويقرءون آياته فيقطعون بأنه وحي من الله؛ صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام، وما أخبر فيه عن المغيبات كله حق وصدق، وتفاصيل ما أخبر به من صفة الجنة والنار وأهوال يوم القيامة لا يكون إلا ممن أوحاه الله إليه.

وما في هذا القرآن من العدل والخير في أوامره ونواهيه، ومن محتوىٰ الدعوة إلىٰ توحيد الله وطاعته من أعظم البراهين علىٰ أنه تنزيل من رب العالمين.

قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جعل الله القرآن دلالة علىٰ نبوته، أعجز الخلق عن الإتيان بمثله، أو مثل سورة من مثله، وأبقاه في أمته إلىٰ قيام الساعة؛ ليكون حُجة علىٰ من جاء بعده ممن لم يره إلىٰ يوم القيامة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القرآن آيته باقية علىٰ طول الزمان

(١) شرح السنة (١٣/ ٣٥٥).

(٢) النبوات (١/ ٥١٥ - ٥١٧).

من حين جاء به الرسول، تتلىٰ آيات التحدِّي به، ويُتلىٰ قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، و﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨] ويُتلىٰ قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ فنفس إخبار الرسول ﷺ بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق، دليلٌ علىٰ أنَّه كان خارقًا يعجز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف، والعرب والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتابًا يقرؤه الناس وقال: إنه مثله. وهذا يعرفه كل أحد.

وما من كلام تكلم به الناس، وإن كان في أعلىٰ طبقات الكلام لفظًا ومعنًىٰ، إلا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعرًا أو خطابةً أو كلامًا في العلوم والحِكَمِ والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك، وما وُجد من ذلك شيء إلَّا ووُجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن ممَّا يعلم الناس - عربهم وعجمهم - أنَّه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب علىٰ معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه علىٰ القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك

لا يوجد له نظير في العالم».

فالقرآن لفظه ومعناه دال بلا ريب علىٰ أنه كتاب الله تنزيل من رب العالمين، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «القرآن هو أعظم الكتب السماوية، وقد تضمن من العلوم والحكم والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب، وذكر أخبار من سبق، وأخبار ما يأتي، من البعث والنشور والجنة والنار؛ ما لم يشتمل عليه كتاب غيره، حتىٰ قال بعض العلماء: لو أن هذا الكتاب وجد مكتوبًا في مصحف في فلاة من الأرض، ولم يُعلم من وضعه هناك، لشهدت العقول السليمة أنه منزّل من عند الله، وأن البشر لا قدرة لهم علىٰ تأليف ذلك، فكيف إذا جاء علىٰ يدي أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم، وقال: إنه كلام الله. وتحدىٰ الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا فيه، فكيف يبقىٰ مع هذا شك فيه؟ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢]، وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ فلو لم يكن لمحمد ﷺ من المعجزات الدالة علىٰ صدقه غير هذا الكتاب لكفاه، فكيف وله من المعجزات الأرضية والسماوية ما لا يحصىٰ؟».

والمقصود من ذكر فضائل القرآن وإعجازه هو التديّن به والتعبُّد لله بلزومه، وإقامة أحكامه، ولزوم أمره ونهيه، وتلاوته، والإيمان به، واتخاذه معيارًا في

---

(١) لطائف المعارف (ص ١٢٤).

التمييز بين الحق والباطل؛ فهو فرقان، والاستضاءة بنوره يكون في كل شيء؛ في الاعتقاد، والاقتصاد، والأخلاق، والمعاملات، وهكذا في سائر الأمور، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: أعدل وأعلىٰ؛ من العقائد، والأعمال، والأخلاق، فمن اهتدىٰ بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره».

وما ضعف المسلمون إلا بضعف أخذهم بكتاب الله، فنبذوه وراء ظهورهم إلا من شاء الله، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبّره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به، وامتثال أوامره، واجتناب زواجره، من هجرانه، والعدولُ عنه إلىٰ غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ علىٰ ما يشاء، أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار، علىٰ الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن، عدل كثير منهم ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلىٰ الإسلام، إلىٰ أن نبذ كتاب الله وراء ظهره، واتّبع ما تتلوه الشياطين، فلا يُعظّم أمر القرآن ولا نهيه، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته».

ومن أسلم من أهل الكتاب أخبر بصفة النبي ﷺ المذكورة في كتبهم، قيل لعبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - وهو من أحبار اليهود الذين أسلموا -: أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزًا للأمّيّين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتك المتوكّل، لست بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّاب بالأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة، وتعفو وتغفر، ولن أقبضه حتىٰ أقيم به الملَّة العوجاء، فأفتح به أعينًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فالأنبياء يُصدِّقُ متأخِّرُهم مُتقدمهم، ويُبشِّر متقدمهم بمتأخرهم؛ كما بَشَّرَ المسيح ومن قبله بمحمد، وكما صدَّق محمد ﷺ جميع النبيين قبله، ولهذا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٥٣).

(٢) رواه البخاري.

(٣) النبوات (٢/ ١٠٨٨ - ١٠٩٠).

ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، والأنبياء وأتباعهم كلهم مؤمنون، مسلمون يعبدون الله وحده بما أمر، ويُصدقون بجميع ما جاءت به الأنبياء.

ومن خالفهم لا يكون إلا مشركًا ومكذبًا ببعض ما أنزل الله».

ودعوة النبيين واحدة، لأن الذي اصطفاهم لتبليغ رسالات الله هو الله عَزَّوَجَلَّ، والله أرسل رسله بتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤، ٢٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، أي: دليلكم علىٰ ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾؛ يعني: الكتب المتقدمة علىٰ خلاف ما تقولون وتزعمون؛ فكل كتاب أُنزل علىٰ كل نبي أُرسل، ناطق بأنه لا إله إلا

(١) تفسير القرآن العظيم (ص ٨٨٧).

الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾، كما قال: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضًا، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد».

والمنصفون من أهل الكتاب لما سمعوا دعوة النبي ﷺ أقروا بأن هذا دين الله حقًّا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وغير المنصفين من أهل الكتاب كفروا عنادًا وكبرًا، مع علمهم بصدق نبوة نبينا محمد ﷺ؛ فإنه مذكور في كتبهم صفته ومحتوىٰ دعوته، ودار هجرته، وصفة أصحابه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأنعام: ١١٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال تعالىٰ مخبرًا عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص ٤٧٠).

والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بَشَّروا بوجود محمد ﷺ ونعته، وصفته، وبلده، ومُهَاجَرِه، وصفة أمته».

وفي ذكر الله للنبيين - عليهم السلام - في القرآن، وذكر قصصهم، توكيد لصحة نبوة خاتمهم محمد ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يخبر تعالىٰ أنه أوحىٰ إلىٰ عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة، ما أوحىٰ إلىٰ هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير؛ فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد.

ومنها: أنه أوحىٰ إليه كما أوحىٰ إليهم، من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضًا، ويوافق بعضهم بعضًا.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين، ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٢١٣، ٢١٤).

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم، ومحبةً لهم، واقتداءً بهديهم، واستنانًا بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقًا لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣١﴾ [الصافات: ١٣٠-١٣١]، فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل - خصوصًا هؤلاء المسمين - في المرتبة العليا من الإحسان».

فالشهادتان: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ حقيقتهما أن لا يُعبد إلا الله وبإذن الله، كما شرع وأرسل به محمدًا رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا حرام إلا ما حرّمه الله ورسوله ﷺ، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله ﷺ، ولهذا ذم الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما؛ لكونهم حرّموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا دينًا لم يأذن به الله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]... إلىٰ آخر السورة، وما ذكره في صدر سورة الأعراف، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]، وقد قال تعالىٰ لنبيه ﷺ:

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٩، ٥٦٠).

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فأخبره أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه؛ فمن دعا إلىٰ غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع، **والشرك بدعة، والمبتدع يؤول إلىٰ الشرك، ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك**، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وكان من إشراكهم بهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم.

وقد قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، أنهم لا يُحرمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والدليل علىٰ موته ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]».

وطاعة الله والنبي ﷺ توجب محبة النبي ﷺ بوسطية، فلابد من الحذر من

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٩).

الغلو في النبي ﷺ وآل بيته من الاعتقادات الباطلة كغلو الرافضة في اعتقاد بعضهم الرجعة في علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال أبو محمد الحسن بن علي البربهاري رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «وبدعة ظهرت هي كفرٌ بالله العظيم، ومن قال بها فهو كافر بالله لا شك فيه؛ من يؤمن بالرجعة ويقول: علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيٌّ، وسيرجع قبل يوم القيامة. ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسىٰ بن جعفر، وتكلموا في الإمامة، وأنهم يعلمون الغيب؛ فاحذرهم؛ فإنهم كفارٌ بالله العظيم، ومن قال بهذا القول».

وسادات آل البيت المتقدمون كانوا ينكرون اعتقاد الرجعة في علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال عمرو بن الأصَم: قلت للحسن بن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إن هذه الشيعة يزعمون أن عليًّا مبعوث قبل يوم القيامة. فقال: كذبوا والله! ما هؤلاء بالشِّيعةِ، لو علمنا أنه مبعوثٌ ما زوَّجْنا نساءه، ولا قسمنا ماله[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[٣]: «إنه عند قتل النبي وموته، تحصل فتنة عظيمة للناس؛ المؤمنين به والكافرين به، وتحصل ردة ونفاق - لضعف قلوب أتباعه - بموته، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين: إن هذا قد

---

(١) شرح السنة (ص ١٢٣ - رقم ١٦٢).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٣٠).

(٣) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٦٢).

انقضىٰ أمره، وما بقي يقوم دينه، وإنه لو كان نبيًّا لما قُتل وغُلب. ونحو ذلك.

فأخبر الله تعالىٰ أنه كم من نبي قُتل؛ فإن بني إسرائيل قتلوا كثيرًا من الأنبياء، والنبي ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أتباع له، وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال؛ بل يُقتل وقد اتبعه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فما وهن المؤمنون ﴿لِمَآ أَصَابَهُمۡ﴾ بقتله، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب؛ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم، وسألوا الله أن يغفر لهم، وأن يُثبّت أقدامهم، فيثبتهم علىٰ الإيمان والجهاد، ولا ينكلوا عن الجهاد».

والناس في حب الأنبياء - عليهم السلام - والأولياء والصالحين ثلاثة أصناف: صنف غلوا في حبهم وأنزلوهم فوق منزلتهم؛ كغلو النصارىٰ في عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث جعلوه إلهًا، وقالوا: إنه ثالث ثلاثة. وكالرافضة الذين غلوا في علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقالوا: إنه إله ويحيي ويميت. وصنف غلوا فيهم بغضًا؛ كاليهود الذين قتلوا رسل الله، وصنف وسط؛ أحبوهم من غير جفاء ولا غلو.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام: أهل الجفاء الذين يهضمونه حقوقهم ولا يقومون بحقهم من

(١) القول السديد (ص ٦٨، ٦٩).

الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل، وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها، وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرؤون من الغلو فيهم وادِّعاء عصمتهم، والصالحون أيضًا يتبرءون من أن يدعوا لأنفسهم حقًّا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

حقٌّ خالص لله لا يشاركه فيه مشارك، وهو التأله له، وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة والإنابة إليه؛ حبًّا وخوفًا ورجاءً.

وحق خالص للرسل عليهم السلام: وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله، ومحبة رسله عليهم السلام: ولكن هذه لله أصلًا، وللرسل تبعًا لحقِّ الله؛ فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة، فيقومون بعبودية الله، وإخلاص الدِّين له، ويقومون بحقِّ رسله وأوليائه، علىٰ اختلاف منازلهم ومراتبهم».

ولمّا كان في طبيعة بعض النفوس الغلو في الأنبياء - عليهم السلام -، وبذلك ضلّ النصارىٰ، فإن الله قد هيّأ نفوس الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لوفاة نبينا ﷺ

قبل قبضه بسنواتٍ طويلة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ وقعة أحدٍ كانت مُقدِّمةً وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبَّتهم ووبَّخهم علىٰ انقلابهم علىٰ أعقابهم؛ أن مات رسول الله ﷺ أو قُتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا علىٰ دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يُقتلوا؛ فإنهم إنما يعبدون رب محمد ﷺ، وهو حيٌّ لا يموت؛ فلو مات محمد أو قُتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به؛ فكلُّ نفس ذائقة الموت، وما بُعث محمد ﷺ ليُخلَّد؛ لا هو ولا هم، بل ليموتوا علىٰ الإسلام والتوحيد؛ فإنَّ الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي».

وعند الحديث عن وفاة الرسول ﷺ لا بد من التنبيه إلىٰ ما وعظ به أحب الناس إليه أبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في وفاته، حيث قال: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت».

وهذا ما نبّه عليه الإمام محمد بن عبد الوهاب نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك؛ فإنه قبل الحديث عن وفاة النبي ﷺ في سياق حديثه عن سيرة النبي ﷺ ودعوته، قال[2]: «**تُوفِّي - صلاة الله وسلامه عليه -، ودينه باقٍ**».

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

---

(١) زاد المعاد (ص ٤٠٣).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٨).

ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾؛ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين من قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم، وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطًا في امتثال أوامر الله، بل الواجب علىٰ الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾؛ بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالىٰ غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبّخ تعالىٰ من انقلب علىٰ عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله ﷺ، وامتثل أمر ربه، فقال: ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالىٰ في كل حال.

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالىٰ لعباده، أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه، فقدُ رئيس، ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين، بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ١٣٣، ١٣٤).

إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس[(١)]، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل علىٰ فضيلة الصدّيق الأكبر أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم هم سادات الشاكرين».

والمسلمون يعتقدون وفاة نبي الله محمد ﷺ، كلهم مجمعون علىٰ ذلك، وهكذا سائر النبيين - عليهم السلام - كلهم توفاهم الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ يُستثنىٰ من ذلك المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإنه حيٌّ بروحه وجسده رفعه الله إليه وينزل إلىٰ الأرض في آخر الزمان.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولًا ﷺ، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار».

وقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن أطاعه دخل الجنة»، هذه بشارة بالجنة يوم

---

(١) بل لهم قصد في بقاء الرئيس الأقوم بشريعة الله، يحبون بقاءه؛ لما يُجري الله علىٰ يديه بسبب قيامه بالشريعة؛ من حفظ الدين، والقيام بمصالح الدنيا، علىٰ النحو الذي يحقق المقصود من الخلق والاستخلاف في الأرض.

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٤، ٥).

الثواب في الدار الآخرة، وأهلها يجدون حقيقتها في الدنيا، فيأوون إليها كل يوم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الدنيا جنَّة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حياة الروح بحياة هذه الكلمة – لا إله إلا الله – فيها، كما أن حياة البدن بوجود الرُّوح فيه، وكما أنَّ من مات علىٰ هذه الكلمة؛ فهو في الجنة يتقلَّب فيها؛ **فمن عاش علىٰ تحقيقها والقيام بها؛ فروحه تتقلَّبُ في جنة المأوىٰ، وعيشه أطيبُ عيشٍ**؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنّة المعرفة والمحبة والأنس بالله، والشوق إلىٰ لقائه، والفرح به، والرضا به عنه، مأوىٰ روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا؛ كانت جنةُ الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حُرم هذه الجنة؛ فهو لتلك الجنَّة أشدُّ حرمانًا.

والأبرار في النعيم وإن اشتدّ بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفُجَّار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، وطيب الحياة جنَّة الدنيا، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص ٢٣٦)، ط: دار السلام.

يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟!

وأيُّ عذاب أمرُّ من ضيق الصدر؟!

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]؛ فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنَّةٌ عاجلةٌ قبل الجنة الآجلة».

فالحاصل أن الدين كله في تحقيق الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، وهما الموجبتان لدخول الجنة، والنجاة من النار، وسعادة الدنيا والآخرة.

قال أبو حمزة البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من علم الطريق إلى الله سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «طاعته ﷺ هي مناط السعادة والنجاة».

---

(١) الكلام على مسألة السماع (ص٢٧٨).

(٢) الرد على الأخنائي (ص١١٧).

دليل أركان الإسلام

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] **ودليل الصيام قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣]، **ودليل الحج قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾» [آل عمران: ٩٧].

الشَّرح:

في اقتران الزكاة والصلاة مع التوحيد في نصوص القرآن، تنبيه إلىٰ حق الخالق بالتوحيد والانقياد بالطاعة، وأداء حق المخلوق في مصارف الزكاة، فإن الزكاة حق المال.

وفيه تنبيه إلىٰ قيام الأمة بالمال كقيامها بالتوحيد والصلاة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء: ٥]؛ فالأمة الضعيفة في دينها وعقيدتها واقتصادها يغزوها العدو ثقافيًّا وعقائديًّا واقتصاديًّا.

والأمة إذا كانت قويةً في عقيدتها؛ دفعت أفكار الملحدين وثقافات المضادين لعقيدة الإسلام، وكانت هي داعية للخلق، لا المغزوة ممن انحرف عن

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٧، ١٨).

عقيدة المسلمين، وإذا كانت الأمة قويةً في اقتصادها أقامت صناعاتها الحربية والمدنية، وشيّدت مؤسساتها التعليمية والصحية ومواصلاتها وإسكانها وزراعتها، ووفّرت الوظائف الكريمة لمواطنيها، وإذا كان اقتصادها ضعيفًا ضعفت عن بناء الدولة، وصارت في حاجة إلىٰ دول الكفر تُملي عليها شروطها في قروضها.

وبعض الشباب يُسيء فهم بعض النصوص، ويريد للأمة أن تكون فقيرة، كحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا ملعونة، معلون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالمًا أو مُتَعَلِّمًا**». رواه الترمذي وحسنه، والواجب علىٰ طالب العلم أن يضم النصوص بعضها إلىٰ بعض، فالله عَزَّوَجَلَّ خلق الأرض وبارك فيها، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «أي جعلها مباركة، قابلة للخير، والبذر، والغراس، وقدّر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرع وتُغرس».

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في معناه الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «الدُّنيا وكُلُّ ما فيها معلونة - أي: مُبعدة عن الله -؛ لأنها تُشغل عنه، إلا

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٧). (٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٩٩).

العلم النافع الدال علىٰ الله، وعلىٰ معرفته، وطلب قُرْبه ورضاه، وذكر الله وما ورد مما يُقرِّب من الله، فهذا هو المقصودُ من الدُّنيا».

والمقصود: أن المسلم إذا أخذ المال من حله، وأنفقه في الوجوه المستحبة والمباحة، ولم يُشغله عن أداء واجبات ذكر الله والصلاة والعبادات، فهذا لا تُحرِّمه الشريعة.

قال الحافظ السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فمن تكن الدُّنْيا في يديه، ويُؤَدِّ الحقوق منها، ويتطوَّع بالأمور المستحبة فيها، ولم تكن عائقةً له عن الوصول إلىٰ الله تعالىٰ، ولا لها في قلبه مزيَّةٌ، ولا يفخر بها - خصوصًا علىٰ من دونه - ولا يكن بما في يديه منها أوثق منه بما عند الله، بحيث يحبسها عمَّا شُرع له صرفها فيه؛ من التقتير علىٰ نفسه وعياله، وعدم إظهار نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينفقها في وجوه الباطل التي لم تُشرع، ولا يُبذِّرْ، يكن ذلك زيادةً له في الخير».

ومن أخص صفات الكفار والمشركين التي ذكرها الله عنهم الكفر ومنع الزكاة، قال تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وهذا تنبيه علىٰ صفات جامعة فيهم من الشرور، وهي: تضييع حق الله، وعدم أداء حق المخلوقين.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «دنّسوا أنفسهم، فلم يزكوها

---

(١) السر المكتوم في الفرق بين الحالين المحمود والمذموم (ص ٨٨، ٨٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٧١١).

بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا، ولا زّكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها».

وتنصيص العلماء في متون العقيدة وتوكيدهم علىٰ شأن «الصلاة والزكاة»؛ لأن النصوص دلّت علىٰ ذلك، وللعناية بهما أكثر، مع رعاية سائر الأركان والفرائض، ولأن فيهما تنبيهًا لكل أنواع الحقوق؛ فالصلاة حق الله، والزكاة من حق الله الذي أمر به للمخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بيَّن - أبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - أن الحجة فيه[2] أيضًا بقوله: «**إلا بحقِّها**»؛ أي: لا تحلُّ دماؤهم وأموالهم إلا بحقّها؛ أي: لا تُباح لي بالباطل، بل بحقِّها، والزكاة هي من الحق الذي أوجبه الله عليهم، فأنا أقاتلهم علىٰ هذا الحق. ثم بيَّن بأنهم لو تركوا من الحق شيئًا قليلًا لقاتلهم عنه، فقال: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلىٰ رسول الله ﷺ؛ لقاتلتهم علىٰ منعها.

وكلا الحديثين حقٌّ؛ فإن الكافر المحارب إذا نطق بالشهادتين حَرُمَ حينئذ قتاله، ثم بعد ذلك إن أقام الصلاة وآتىٰ الزكاة وإلا قُوتل عليها، كما بيَّنه في الحديث الآخر.

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص ٧٧، ٧٨).

(٢) القتال علىٰ منع الزكاة.

ثم بعد ذلك إن تركوا شيئًا من حقّها، مثل أن يستحلُّوا الربا، أو يمتنعوا من تركه، أو نحو ذلك، كانوا قد حاربوا الله ورسوله، وقوتلوا أيضًا علىٰ ذلك.

وإنما هي مراتب؛ فالكلمتان رأس الإسلام من الكلام، والصلاة والزكاة هما رأس العمل؛ فتارةً يُذكر الأصل الذي هو الاعتقاد والكلام، وتارةً يُقْرَن به الأصل الآخر من العمل والاقتصاد، ثم يُدرج سائر الدين الذي أمر الله تعالىٰ بالقتال عليه؛ في قوله «**إلا بحقّها**»».

وذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصلاة والزكاة مع التوحيد؛ لأن الله ورسوله ﷺ أمرا بهما جميعًا في نصوص كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾، فقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ هذا التوحيد، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، هذا فيه ركنا الصلاة والزكاة، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]، هذا دخل فيه كل أنواع الطاعات الظاهرة والباطنة، المفروضة والمستحبة.

وقال تعالىٰ في شأن النبيين جميعًا - عليهم السلام -، بعد أن ذكر قصة كل واحد منهم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ

وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة وهي الإحسان إلىٰ الخلق، وبينها وبين الصبر تارة، ولا بد من الثلاثة: الصلاة والزكاة والصبر، لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك، في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا السر في اقتران الأمر بالزكاة بالأمر بالصلاة[2]: «أمَّا الصَّلاة والزَّكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالىٰ في كتابه القتال عليهما؛ لأنَّهما عبادتان ظاهرتان؛ بخلاف الصَّوم؛ فإنَّه أمر باطن، وهو ممَّا ائتُمن النَّاس عليه؛ فهو من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ونحو ذلك، ممَّا يؤتمن عليه العبد؛ فإنَّ الإنسان يمكنه ألَّا ينوي الصَّوم، وأن يأكل سرًّا، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته.

وأمَّا الصَّلاة والزَّكاة فأمر ظاهر، لا يمكن الإنسان بين المؤمنين أن يمتنع من ذلك، وهو ﷺ يذكر في الإسلام الأعمال الظَّاهرة الَّتي يقاتل عليها

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٨٣).

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٥٤٩ - ٥٥١).

النَّاس، ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علَّق ذلك بالصَّلاة والزَّكاة دون الصِّيام، وإن كان الصَّوم واجبًا، كما في آيتي براءة؛ فإنَّ براءة نزلت بعد فرض الصِّيام باتِّفاق النَّاس.

وكذلك لَمَّا بعث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن قال له: [**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنِّي رسول الله فإن هم أجابوك لذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم واللَّيلة، فإن هم أطاعوك بذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ في فقرائهم، فإن هم أطاعوا بذلك لك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتَّق دعوة المظلوم؛ فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب**]. أخرجاه في الصَّحيحين.

ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرسله إلىٰ اليمن في آخر الأمر بعد فرض الصِّيام، بل بعد فتح مكَّة، بل بعد تبوك، وبعد فرض الحجِّ والجزية؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ مات ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باليمن، وإنَّما قدم المدينة بعد موته، ولم يذكر في الحديث الصِّيام؛ لأنَّه تبع، وهو باطن، ولا ذكر الحجَّ؛ لأنَّ وجوبه خاصٌّ وليس بعامٍّ، وهو لا يجب في العمر إلَّا مرَّةً».

والصدقة المفروضة والنافلة قال فيها النبي ﷺ: «**الصدقة برهان**». رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الحافظ ابن رجب

الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأمّا الصدقة فهي برهان، والبرهان هو: الشُّعاعُ الذي يلي وجهَ الشَّمس، ومنه حديثُ أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أنَّ روحَ المؤمن تخرُج مِنْ جسده لها برهان كبرهانِ الشَّمس**». ومنه سُمِّيَت الحُجَّةُ القاطعةُ برهانًا؛ لوضوح دلالتها علىٰ ما دلَّت عليه، فكذلك الصدقة برهان علىٰ صحة الإيمان، وطيب النفس بها علامة علىٰ وجود حلاوة الإيمان وطعمه، كما في حديث عبد الله بن معاوية الغاضِري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ: «**ثلاث من فعلهن فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان: مَنْ عَبَدَ الله وحدَه، وأنَّه لا إله إلا الله، وأدَّىٰ زكاةَ ماله طيِّبَةً بها نفسُه، رافِدةً عليه في كُلِّ عامٍ**». وذكر الحديثَ؛ خرَّجه أبو داود.

وقد ذكرنا قريبًا حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيمن أدىٰ زكاة ماله طيبةً بها نفسه، قال: وكان يقول: «**لا يفعلُ ذلك إلا مؤمن**».

وسبب هذا أنَّ المالَ تحبُّه النُّفوسُ، وتبخَلُ به، فإذا سمحت بإخراجه لله عَزَّوَجَلَّ دلَّ علىٰ صحَّة إيمانها بالله ووعده ووعيده، ولهذا منعت العربُ الزكاة بعدَ النَّبيِّ ﷺ، وقاتلهم الصدِّيقُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ منعها، والصلاةُ أيضًا برهانٌ علىٰ صحة الإسلام».

والله عَزَّوَجَلَّ له خزائن السموات والأرض، استخلف عبيده في هذا المال، وجعله سببًا في قضاء حوائجهم والاستعانة به علىٰ طاعة الله، وسد خلة

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤١٢، ٤١٣).

المحتاجين، وقضاء حوائج الفقراء والمساكين، ونصرة الدين؛ ببذله في سبيل الله؛ ببناء المساجد، وطباعة الكتب النافعة، والجهاد في سبيل الله، وغيرها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المال لمن استعان به علىٰ طاعة الله، وأنفقه في سبل الخيرات، والقربة إلىٰ الله تعالىٰ سبب مُوصل له إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ. وهي لمن أنفقه في معاصي الله واستعان به علىٰ نيل أغراضه المحرمة، أو اشتغل به عن طاعة الله، سبب قاطع له عن الله، كما قال أبو سليمان الداراني: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه؛ فسبحان من جعل شيئًا واحدًا سببًا للاتصال به والانقطاع عنه.

وقد مدح الله في كتابه القسم الأول، وذم القسم الثاني، فقال في مدح الأولين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا.

وقال في ذم الآخرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن

---

(١) لطائف المعارف (ص ٣٣٦، ٣٣٧).

ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]. وقد قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ليس أحد لا يؤتي زكاة ماله، إلا سأل الرجعة عند الموت. ثم تلا هذه الآية.

وأخبر الله عن أهل النار الذين يؤتىٰ أحدهم كتابه بشماله أنه يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]. والأحاديث في مدح من أنفق ماله في سبل الطاعات، وفي ذم من لم يؤدِّ حق الله منه كثيرة جدًّا، وقد قال النبي ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**». وقال: «**الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه، وعن شماله، ومن بين يديه، ومن خلفه، وقليل ما هم**». وقال ﷺ: «**إن هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع**».

فالمؤمن الذي يأخذ المال من حقه، ويضعه في حقه، فله أجر ذلك كله، وكلما أنفق منه يبتغي به وجه الله، فهو له صدقة يؤجر عليها، حتىٰ ما يُطعم نفسه فهو له صدقة، وما يُطعم ولده فهو له صدقة، وما يطعم أهله فهو له صدقة، وما يطعم خادمه فهو له صدقة، وكان عامة أهل الأموال من أصحاب النبي ﷺ من هذا القسم.

قال أبو سليمان: كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا خازنين من خزان الله في أرضه، ينفقان في طاعته، وكانت معاملتهم الله بقلوبهما، ورأس المنفقين أموالهم في سبيل الله من هذه الأمة أبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

فالنفقة وإن كانت تسد حاجة أو تدفع ضرورة، فإنه ينبغي أن يلاحظ العبد أن عائدتها إليه؛ فهي تُزكيه من الشحِّ، وتنمي ماله، وتحفظه من الآفات، وتطهّره مما قد يكون أصابه من غبار الربا أو المكاسب المحرّمة، وأعظم من هذا كله أنها وقاية له من النار، وهذا المعنىٰ نبّه عليه النبي ﷺ فقال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**». رواه البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال النبي ﷺ: «**يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار**». متفق عليه.

وهذا تجده صريحًا في قول النبي ﷺ: «**الصدقة تطفيء غضب الرب، كما تُطفيء الماء النار**». رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. وفي حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده، وجاره، يُكفّرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر**». متفق عليه.

والصدقة تظل صاحبها في عرصات يوم القيامة عندما تقترب الشمس من الخلائق مقدار ميل، والصدقة تقي مصارع السوء فإنها من أعظم صنائع المعروف،

والصدقة تزيد في العمر فإنها من أعظم أنواع البرّ، وأهم من هذا كله أن العبد يؤدي حق الله في المال، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فالسعيد من قدّم لنفسه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وأن يجعل من ماله سببًا لتجارة الآخرة، وهي تجارة رابحة بكل حال؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وفوق هذا كله معنًىٰ أحرىٰ باستحضاره، وهو التعبد لله بالصدقة، والمسارعة إلىٰ فعل الخيرات، وهذا ما لحظه فقراء المهاجرين؛ فإنهم قالوا للنبي ﷺ: ذهب أهل الدثور بالأجور؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدّق، ويُعتقون ولا نُعتق. رواه مسلم.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أشنع الأخلاق الرذيلة البخل، والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل، ويتصف صاحبها بالرحمة والإحسان، والشفقة علىٰ الخلق، وتُطهّر المال من الأوساخ والآفات، فإن للأموال آفات مثل آفات الأبدان، وأعظم آفاتها أن تخالطها الأموال المحرمة؛ فهي للأموال مثل الجرب تسحته، وتُحل به النكبات والنوائب المزعجة، فإخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والنماء، فيستعد بذلك للنماء والبركة، وتوجيهه للأمور النافعة، وأما قوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه، وتحل البركة في أعماله، ويزداد بالزكاة ترقيًا في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ وتنمي

(١) تيسير اللطيف المنّان (ص ٦٢، ٦٣).

المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره، وتحل فيه البركة من الله.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**ما نقصت صدقةٌ من مال**». بل تزيده، وتُنمي أيضًا المخرج إليه، فتسد حاجته، وتقوم المصلحة الدينية التي تُصرف فيها الزكاة، كالجهاد والعلم والإصلاح بين الناس والتأليف ونحوها، وأيضًا تدفع عادية الفقر والفقراء؛ فإن أرباب الأموال إذا احتكروها واحتجزوها، ولم يؤدوا منها شيئًا للفقراء، اضطر الفقراء، وهم جمهور الخلق، وثاروا بالشر والفساد علىٰ أرباب الأموال، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة علىٰ الخلق؛ فالقيام بالدين الإسلامي علىٰ وجهه بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه؛ هو السد المانع شرعًا وقدرًا لهذه الطائفة التي بها فساد الأديان والدنيا والآخرة».

فالمال لمن وفقه الله في بذله في مرضاته باب عظيم من أبواب الجهاد في سبيل الله وفي نفع الإسلام ونشر دين الله بالوسائل المهمّة من طباعة الكتب واستخدام الوسائل الحديثة الإعلامية بحيث تصل دعوة الإسلام لأقطار الدنيا، وفي سد حاجة المسلمين من علاج مريضهم وإطعام جائعهم ورعاية أراملهم وأيتامهم وتعليمهم وتحفيظهم القرآن، وغيره من أبواب الخير العظيمة، فمن أطلق الذم للمال فقد أخطأ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حبُّ المال - كذلك - تارةً يكون للفخر والخيلاء والتكبُّر على الضعفاء، والتجبُّر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارةً يكون للنفقة في القربات ، وصلة الأرحام، والقرابات، ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمودٌ عليه شرعًا».

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٩٤)، ط - مؤسسة الرسالة ناشرون.

وقد تكلّم الإمام محمد بن عبد الوهاب في آخر رسالة «الأصول الثلاثة» في فرض الصلاة: قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عُرج به إلى السماء، وفُرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة».

الشَّرح:

تحدّث الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا عن تشريع الصلاة ومتىٰ فُرضت، وبيّن أن فرضها علىٰ ما استقرت عليه من خمس صلوات في اليوم والليلة كان في ليلة المعراج، مع أنها كانت مشروعة قبل ذلك في مكة.

والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه في كتاب الصلاة، أول باب بدأ فيه هو باب [كيف فُرضت الصلوات في الإسراء]، وساق حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**ففرض الله علىٰ أُمَّتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتىٰ مررت علىٰ موسىٰ فقال: ما فرض الله لك علىٰ أُمَّتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلىٰ ربِّك؛ فإن أُمَّتك لا تطيق ذلك. فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إلىٰ موسىٰ، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلىٰ ربِّك؛ فإنَّ أُمَّتك لا تطيق ذلك. فراجعته، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبدَّلُ القول لدي**».

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٢٥).

ويُضم إلىٰ حديث الإسراء - لمعرفة التطور في تشريع الصلاة وما استقرت عليه - ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرَّت صلاة السَّفَرِ، وزيد في صلاة الحضر. وفي رواية معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فُرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي ﷺ ففُرضت أربعًا، وتُركت صلاة السفر علىٰ الأولىٰ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لم يزل - النبي ﷺ - يصلِّي - أيضًا - قبل أن تُفرض الصلاة، وأول ما نزل عليه سورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وفي آخرها ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾، إلىٰ قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ٩-١٩]. وقد نزلت هذه الآيات بسبب قول أبي جهل: لئن رأيت محمدًا ساجدًا عند البيت لأطأنَّ علىٰ عنقه.

وقد خرَّج هذا الحديث مسلم في صحيحه، وقد ذكرنا في أول كتاب الوضوء حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن جبريل نزل علىٰ النبي ﷺ في أول الأمر، فعلَّمه الوضوء والصَّلاة.

وذكر ابن إسحاق أن الصَّلاة فُرضت عليه حينئذ، وكان هو ﷺ وخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يُصلِّيان، والمراد جنس الصلاة لا الصلوات الخمس.

---

(١) فتح الباري (٢/ ٣٠٣، ٣٠٤).

والأحاديث الدالة علىٰ أن النبي ﷺ كان يُصلِّي بمكة قبل الإسراء كثيرة، لكن قد قيل: إنه كان قد فُرض عليه ركعتان في أول النهار، وركعتان في آخره، ثم افتُرضت عليه الصلوات الخمس ليلة الإسراء. قاله مقاتل، وغيره.

وقال قتادة: كان بدو الصَّلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشيِّ.

وإنما أراد هؤلاء أن ذلك كان فرضًا قبل افتراض الصلوات الخمس ليلة الإسراء».

وفي تخصيص الصلاة دون سائر أركان الإسلام وواجباته وشعائره بالفرض في السماء ليلة معراج النبي ﷺ؛ تفخيم إلهي وتعظيم لشأن الصلاة.

ومن أعظم الأدلة بيانًا لعظم شأن الصلاة أن الله يباهي بملائكته في سجودهم، الذي هو أفضل هيئات المصلي عبودية لله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ومن أوضح الأدلة دلالةً في تعظيم شأن الصلاة، أن الله افترضها علىٰ جميع النبيين عليهم السلام، فبعد أن ذكر الله مقامات أنبيائه عليهم السلام، قال سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ (٥٨)﴾ [مريم: ٥٨].

قال العلامة محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر عن جميع الأنبياء أن مفزعهم كان إلىٰ الصلاة يعبدون الله، ويتقربون إليه بها».

وفي حديث الإسراء أن النبي ﷺ بعد عروجه إلىٰ السماء ونزوله إلىٰ الأرض انتهىٰ إلىٰ بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له، فصلىٰ بهم.

ومن أعظم ما يكون من تعظيم قدر الصلاة أنها أخص ما ترفعه الملائكة إلىٰ ربها من أعمال العباد، وتنوّه بذكره أولًا قبل سائر الواجبات والطاعات؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرجُ الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم -: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون، وأتيناهم وهم يُصَلُّون**».

ومن أقوىٰ النصوص دلالةً علىٰ عظم قدر الصلاة اصطفاء الله خاصة ملائكته المقربين جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للصلاة بالنبي ﷺ، لبيان صفتها ومواقيتها؛ تعليمًا وبيانًا للأمة كافة.

ففي الصحيحين من حديث أبي مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نزل جبريل فأمَّني فصلَّيت معه، ثم صلَّيت معه، ثم صلَّيتُ معه،**

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١١٣).

ثم صلَّيتُ معه، ثمَّ صلَّيتُ معه».

ومن أعظم الأدلة بيانًا لعظم قدر الصلاة أن العبد يؤدي بها حق الله عن كل عضو من أعضاء بدنه، وليس ذلك إلا للصلاة؛ فالنبي ﷺ ذكر أن في ابن آدم ستين وثلاثمائة مفصل، وقال أيضًا: «**يُصبح علىٰ كل سلامىٰ من أحدكم صدقة... ويُجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحىٰ**»، رواه البخاري.

ومن أعظم الأدلة بيانًا لعظم قدر الصلاة أن الله يكون قبل وجه العبد إذا قام يصلي، فقد روىٰ البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم يُصلي، فإن الله قبل وجهه**».

ومن أوضح الأدلة في بيان عظم قدر الصلاة أن الله يناجي عبده إذا قام يصلي، «**فإذا قال: الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله: أثنىٰ عليّ عبدي. فإذا قال: مالك يوم الدين. قال الله: مجدني عبدي. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**».

فالصلاة شعار المؤمنين الموحدين، قال النبي ﷺ: «**من صلّىٰ صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم**»، رواه البخاري.

والصلاة قرة عين خاصة أولياء الله المتقين، قال النبي ﷺ: «**وجُعلت قرة عيني في الصلاة**»، رواه أحمد والنسائي.

والصلاة تُقوّي الإيمان وتُثبّته وتزيده؛ من أداها كما أمر الله أورثته الإقبال علىٰ الله في سائر الطاعات، ونهته عن المعاصي والمنكرات.

قال العلامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنها أعظم عبادة يحصل فيها الخضوع والذل لله، وامتلاء القلب من الإيمان به وتعظيمه، وذلك مادة سعادة القلب الأبدية ونعيمه، ولا يمكن تغذيته بمثل الصلاة. والصلاة أعظم غذاء وسقي لشجرة الإيمان؛ فالصلاة تُثبّت الإيمان وتُنمّيه، وتُنمّي ما يُثمره الإيمان من فعل الخير والرغبة فيه، وكذلك تنهىٰ عن الشر، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فأخبر أن فيها الغذاء بذكر الله، والشفاء بنهيها عن الفحشاء والمنكر، وأي شيء أعظم من هذا وأجمل وأكمل!

ومن فضائلها أنها أكبر عون للعبد علىٰ مصالح دينه ودنياه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، أي علىٰ كل الأمور.

أما عونها علىٰ المصالح الدينية: فإن العبد إذا داوم علىٰ الصلاة، وحافظ عليها؛ قويت رغبته في فعل الخيرات، وسهلت عليه الطاعات، وبذل الإحسان بطمأنينة نفس واحتساب ورجاء للثواب، وتذهب أو تضعف

---

(١) مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السعدي (٢٢/ ٧٣، ٧٤).

داعيته للمعاصي، وهذا أمر محسوس مشاهد؛ فإنك لا تجد محافظًا علىٰ الصلاة، فروضها ونوافلها، إلا وجدت تأثير ذلك في بقية أعماله؛ ولهذا كانت الصلاة عنوانًا علىٰ الفلاح، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، والمراد: عمارتها بالصلاة والقربات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذىٰ، مطردة للأدواء، مقوِّية للقلب، مبيِّضة للوجه، مُفرحةٌ للنفس، مُذهبة للكسل، مُنشِّطة للجوارح، مُمدّة للقوىٰ، شارحة للصدر، مُغذِّية للروح، مُنوِّرةٌ للقلب، حافظةٌ للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مُبعِدة من الشيطان، مُقرِّبة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتُلي رجلان بعاهةٍ أو داءٍ أو محنة أو بلية، إلَّا كان حظُّ المصلي منهما أقلَّ، وعاقبته أسلم.

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أُعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا، فما استُدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا استُجلبت مصالحهما بمثل الصلاة، وسِرُّ ذلك أن الصلاة صلة بالله عَزَّوَجَلَّ وعلىٰ قدر صلة العبد بربه عَزَّوَجَلَّ تَفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه

(١) زاد المعاد (ص٧١٤)، ط - مؤسسة الرسالة، ناشرون.

من الشرور أسبابَها، وتُفيض عليه مواد التوفيق من ربه عَزَّوَجَلَّ، والعافية والصحة، والغنيمة والغِنىٰ، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات، كلها محضرة لديه، ومسارِعة إليه».



وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**ودليل الصيام قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]».

الشَّرح:

الصيام لا ينحصر ثوابه في عدد معيّن من الحسنات، بل يضاعفه الله أضعافًا كثيرة، والسرُّ في ذلك: أن الصائم يدع ما فطره الله عليه مما يحبه؛ طاعة لله، من أجل هذا أضاف الله الصوم إليه، كما في الحديث القدسي: «**إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به**»، فهو تربية علىٰ تقديم طاعة الله علىٰ ما تهوىٰ الأنفس؛ لذلك قال الله في الحديث القدسي: «**يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**».

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الحديث كالتنبيه علىٰ حكمة هذا التَّخصيص، وأنَّ الصائم لما ترك محبوبات النَّفس التي طُبعتْ علىٰ محبَّتها، وتقديمها علىٰ غيرها، وأنَّها من الأمور الضروريَّة، فقدَّم الصَّائمُ عليها محبة ربَّه، فتركها لله في حالة لا يطَّلعُ عليها إلا الله، وصارت محبَّتُه لله مقدَّمةً وقاهرة لكلِّ محبة نفسيَّةٍ، وطلبُ رضاه وثوابه مقدَّمًا علىٰ تحصيل الأغراض

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٨).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٩٤).

النفسيَّة؛ فلهذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده.

فما ظنُّك بأجر وجزاء تكفَّل به الرحمن الرحيم الكريم المنَّانُ، الذي عمَّت مواهبه جميع الموجودات، وخصَّ أولياءه منها بالحظِّ الأوفر، والنصيب الأكمل، وقدَّر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده علىٰ أمور لا تخطر لهم بالبال، ولا تدور في الخيال؟

فما ظنُّك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين؟

وهنا يقف القلم، ويسيح قلبُ الصائم فرحًا وطربًا بعمل اختصَّه الله لنفسه، وجعل جزاءه من فضله المحض، وإحسانه الصِّرف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

والواجب علىٰ المسلم أن يأتي بحقيقة الصوم لا صورته، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور، وبطنه عن الطعام والشراب، وفرجه عن الرفث؛ فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه، وإن فعل لم يفعل ما يُفسد صومه، فيخرج كلامه كله نافعًا صالحًا؛ وكذلك أعماله، فهي بمنزلة الرائحة التي يشمّها من جالس حامل المسك، كذلك من جالس الصائم انتفع بمجالسته له، وأَمِن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم.

---

(١) الوابل الصيّب (ص ٥٧، ٥٨).

هذا هو الصوم المشروع، لا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب؛ ففي الحديث الصحيح: «**من لم يدع قول الزُّور والعمل به والجهل؛ فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»، وفي الحديث: «**رُبَّ صائم حظُّه من صيامه الجوع والعطش**».

فالصوم هو صوم الجوارح عن الآثام، وصوم البطن عن الشراب والطعام، فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده، فكذلك الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته، فتصيِّره بمنزلة من لم يَصُمْ».

وكان السلف إذا صاموا بذلوا كل سبب من أجل حفظ صيامهم؛ ليأتوا بحقيقته لا صورته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: ينبغي للصائم أن يتعاهد صومه من لسانه، ولا يماري، ويصون صومه، كانوا إذا صاموا قعدوا في المساجد، وقالوا. نحفظ صومنا، ولا نغتاب أحدًا. ولا يعمل عملًا يجرح به صومه.

قال الأصحاب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: يُسن له كثرة القراءة والذكر والصدقة، وكف لسانه عما يُكرَهُ، ويجب كفه عما يحرم من الكذب، والغيبة والنميمة، والشتم، والفحش، ونحو ذلك».

(١) حقيقة الصيام (ص ٢١٣)، بشرح شيخنا العلامة محمد العثيمين.

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١]: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذىٰ الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواءً».

والصيام من أجلِّ العبادات، يلم شعث القلب ويجمعه علىٰ ربه، فيُقبل إليه، ويجدِّد سيره إليه، وتنبعث جوارحه إلىٰ أنواع العبادات والطاعات، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «لما كان صلاحُ القلبِ واستقامتُه علىٰ طريق سيره إلىٰ الله تعالىٰ، متوقِّفًا علىٰ جمعيَّته علىٰ الله، وَلَمِّ شَعثه بإقباله بالكليَّة علىٰ الله تعالىٰ، فإن شَعَثَ القلب لا يَلُمُّه إلا الإقبالُ علىٰ الله تعالىٰ، وكان فُضولُ الطعام والشراب، وفُضولُ مخالطة الأنام، وفضولُ الكلام، وفضولُ المنام؛ مما يزيدُه شَعَثًا، ويُشَتِّتُهُ في كُلِّ وادٍ، ويقطعه عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، أو يُضعِفُه، أو يعوقه ويُوقِفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده: أن شرع لهم من الصوم ما يُذهِبُ فضولَ الطعام والشراب، ويستفرِغُ مِن القلب أخلاطَ الشهواتِ المعوِّقة له عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفعُ به العبد في دنياه وأُخراه، ولا يضرُّه ولا يقطعُه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصودُه وروحُه عكوفُ القلبِ علىٰ الله تعالىٰ، وجمعيَّتُه عليه، والخلوةُ به، والانقطاعُ عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به

---

(١) سنن الصالحين (١/ ٢٢١).

(٢) زاد المعاد (ص ٢٠٣)، ط: مؤسسة الرسالة، ناشرون.

وحده سبحانه، بحيث يصير ذِكره وحُبّه، والإقبالُ عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلَها، ويصير الهمُّ كُلُّه به، والخطراتُ كلُّها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يُقرِّب منه، فيصيرُ أُنسه بالله بدَلًا عن أُنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يومَ الوَحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرحُ به سواه؛ فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم».



وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**ودليل الحج قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]».

الشَّرح:

الحج: هو السير إلىٰ مكة بالقلوب والأبدان طاعة لله بأداء هذا الركن، استجابة لله في تحقيق العبودية له في بذل المال وكدّ الجوارح، يتخفف الحاج من ذنوبه طالبًا الولادة السعيدة، قال ﷺ: «**من حج فلم يرفث، ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه**»، رواه البخاري ومسلم.

فالحج عبادة يُحقق فيها المسلم توحيد الله في كل شعائره، فأول ما يبدأ به نسكه: الإهلال بالتوحيد «لبيك اللهم لبيك»، ويستصحب هذا العهد لربه الذي أعلنه في نسكه دهره كله، «لبيك اللهم لبيك»: استجابة لله بعد استجابة، هكذا اتخذه منهجًا في سيره إلىٰ الله؛ يؤدي الفرائض ويستبق الخيرات في النوافل، ولا يزال في سيره إلىٰ الله علىٰ هذا المنهج، فيزيده الله هدًىٰ وتثبيتًا ويُكمّله الله في عبوديته له، فينوِّر الله قلبه ووجهه وبصيرته، ويحفظ جوارحه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالتزام الطاعة والاستجابة لله حياة، قال تعالىٰ:

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٨).

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وتأمل فضل ذكر الله بكلمة التوحيد في يوم عرفة في العتق من النار، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإكثار من شهادة التوحيد بإخلاص وصدق؛ فإنها أصل دين الإسلام الذي أكمله الله في ذلك اليوم وأساسه، وفي المسند عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو علىٰ كل شيء قدير**»، وخرّجه الطبراني من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا أيضًا. وخرّج الإمام أحمد من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، ويقول: «**وأنا علىٰ ذلك من الشاهدين، يا رب**».

ويروىٰ من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** شهدت النبي ﷺ يوم عرفة فكان أكثر قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، ثم قال: «**أي رب، وأنا أشهد**».

---

(١) لطائف المعارف (ص ٣٩٥، ٣٩٦).

فتحقيق كلمة التوحيد يوجب العتق من النار؛ فإنها تعدل عتق الرقاب، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار، كما ثبت في الصحيح: «**أن من قالها مائة مرة؛ كان له عدل عشر رقاب**»، وثبت أيضًا: «**أن من قالها عشر مرات؛ كان كمن اعتق أربعة من ولد إسماعيل**»».

والحج شعائره عظيمة من الطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ومنىٰ ليالي التشريق، ورمي الجمار، ونحر الهدي، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «المراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدّم أن معنىٰ تعظيمها: إجلالها، والقيام بها، وتكميلها علىٰ أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكمّلة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوىٰ القلوب،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٦٦).

فالمعظِّم لها يبرهن علىٰ تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله».

وبيّن العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مقصود إقامة هذه الشعائر: تحقيق التوحيد وإخلاص الوجه لله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء؛ لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، ففي هذا حثٌ وترغيب علىٰ الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخرًا، ولا رياءً، ولا سمعةً، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات».

وعظّم الله بيته العتيق في قلوب المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وأمرهم أن يعظموا حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم كتعظيم بيت الله، وهذا ما وعظ به النبي ﷺ المسلمين في حجة الوداع فقال: «**إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم،**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٦٧).

حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا» متفق عليه.

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال العلماء: والحكمة في جعل الله تعالىٰ هذه الاشياء قيامًا للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق علىٰ سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر، والسلب والغارة والقتل والثأر، فلم يكن بدّ في الحكمة الإلهية، والمشيئة الأوليّة من كاف يدوم معه الحال، ووازع يُحمد معه المآل، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فأمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل أمورهم إلىٰ واحد يزعهم عن التنازع، ويحملهم علىٰ التآلف من التقاطع، ويردّ الظالم عن المظلوم، ويقرر كلّ يد علىٰ ما تستولي عليه.

روىٰ ابن القاسم قال: حدثنا مالك أن عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن. ذكره أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجَوْر السلطان عامًا واحدًا أقل إذاية من كون الناس فوضىٰ لحظة واحدة، فأنشأ الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة، لتجري علىٰ رأيه الأمور، ويكفّ الله به عادية الجمهور، فعظّم الله سبحانه في قلوبهم البيت الحرام،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٢٥).

وأوقع في نفوسهم هيبته، وعظّم بينهم حرمته، فكان من لجأ إليه معصومًا به، وكان من اضطُهد محميًّا بالكون فيه».



شعب الإيمان

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المرتبة الثانية: الإيمان، وهو: بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول: لا اله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. والدليل على هذه الأركان الستة: قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

الشَّرْح:

الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيّن هنا حقيقة الإيمان بأجمع وأوعب الأدلة الجامعة لشعبه كلها؛ آية «البرّ» وحديث «شعب الإيمان»، مضمومًا مع حديث جبريل.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آية البرّ[(٢)]: «اشتملت هذه الآية الكريمة على جُمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة».

وقال الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية، هذه الأنواع البر كلّها».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّقًا على كلام الثوري[(٤)]: «وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٩). (٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٠٢)، ط - مؤسسة الرسالة.

(٣، ٤) (١/ ٣٠٣).

فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلِّها، وأخذ بمجامع الخير كلِّه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «البِرّ إذا أطلق كان مسماه مسمىٰ التقوىٰ، والتقوىٰ إذا أُطلقت كان مسماها مسمىٰ البرّ». وقال[٢]: «لفظ «الإيمان» و«البر» و«التقوىٰ» أيها أُطلق تناول ما يتناوله الآخر».

وأبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقرأ: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧][٣].

وهذا دال علىٰ استيعاب هذه الآية لشعب الإيمان وحقائقه.

وشعب الإيمان لا تنحصر في بضع وستين شعبة، فكل شعبة من شعبه كالجنس تحته أنواع.

وشرائع الإسلام وشعب الإيمان ما فرضها الله عَزَّ وَجَلَّ إلا لإخلاص التوحيد له، وتحقيقه، وتحقيق الإيمان، قال العلامة أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]:

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٣٧٥). (٢) الإيمان الكبير (ص ٣٧٧).

(٣) صححه الحافظ ابن رجب الحنبلي في فتح الباري (١/ ١٧). (٤) الإيمان (ص ٧٦).

«الإيمان هو درجات ومنازل، وإن سُمي أهله اسمًا واحدًا، وإنما هو عمل من أعمال تعبَّدَ الله به عباده، وفرضه علىٰ جوارحهم، وجعل أصله في معرفة القلب، ثم جعل المنطق شاهدًا عليه، ثم الأعمال مصدقةً له».

وقال هشام بن عمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ **– وهو من شيوخ البخاري –**(١): «ومما يبيّن لأهل العقل أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص؛ ما جاء عن النبي ﷺ من الأحاديث: أن الحياء من الإيمان، وأن حسن العهد من الإيمان، وأن للإيمان عُرًىٰ، وأوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله، والبغض في الله.

قالوا: وإن للإيمان أركانًا ودعائم، وذروة، وحقيقة، ومحبة، وصدقًا، وبرًّا، وحلاوة، وزينة، ولباسًا، وطهرًا».

فآية «البر» وحديث جبريل من أجمع الأدلة في بيان حقائق الإيمان، قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ذلك تفصيل لجملة، هي كلها شيء واحد، وجماعها الدين؛ ولذلك قال ﷺ: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**»».

وقال الحافظ ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا علىٰ حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(٣): «هذا بيان لأصل الإيمان، وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام في الظاهر، يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الإسلام

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٥٣ – ١٥٥).

(٢) الإيمان، لشيخ الإسلام (ص ٣٤٨، ٣٤٩).

(٣) الإيمان، لشيخ الإسلام (ص ٣٤٨، ٣٤٩).

ومعظمها، وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يُشعر بحل قيد انقياده أو انحلاله».

وآية «البر» وحديث «جبريل» تضمنا جمل الاعتقاد الموجب للإقرار والانقياد والعمل.

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المعنىٰ الذي يستحق به اسم مؤمن بالإطلاق، هو الجامع لمعاني الإيمان، وذلك أداء جميع فرائض الله - تعالىٰ ذكره - من معرفة وإقرار وعمل.

وذلك أن العارف المعتقد صحَّة ما عرف من توحيد الله - تعالىٰ ذكره - وأسمائه وصفاته، فكذلك العارف بنبوة نبي الله ﷺ، المُعتقد صحة ذلك، وصحَّة ما جاء به من فرائض الله.

وذلك أن معارف القلوب عندنا اكتساب العباد وأفعالهم، وكذلك الإقرار باللسان بعد ثبوته، وكذلك العمل بفرائض الله التي فرضها علىٰ عباده، تصديقٌ من العامل بعمله ذلك لله - جل ثناؤه - ورسوله ﷺ.

كما أن إقراره بوجوب فرض ذلك عليه، تصديق منه لله ورسوله؛ بإقراره أن ذلك له لازم، فإذ كل هذه المعاني يستحق علىٰ كلِّ واحد منها علىٰ انفراده اسم الإيمان، وكان العبد مأمورًا بالقيام بجميعها كما هو مأمور ببعضها - وإن كانت العقوبة علىٰ تضييع بعضها أغلظ، وفي تضييع بعضها أخف -

(١) التبصير في معالم الدين (ص ١٩٠، ١٩١).

كان بيِّنًا أنه غير جائز تسمية أحد مؤمنًا، ووصفه به مطلقًا من غير وصل، إلا لمن استكمل معاني التَّصديق الذي هو جماع أداء جميع فرائض الله».

وحديث شعب الإيمان ذكر فيه النبي ﷺ أصل الإيمان، وهو كلمة التوحيد بحقوقها، وذكر الباعث علىٰ فعل الطاعة وترك المعصية وهو الحياء من الله، فكان في ذلك أوضح دليل علىٰ أنه لا يكون إيمان بدون عمل، وأن تحقيق التوحيد بالعمل وإخلاصه لله.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حيث أجاب النبي ﷺ بذكر الإيمان أو بذكر الصلاة، فإنما مقصوده التمثيل بأفضل مباني الإسلام، ومراده المباني بجملتها؛ فإن المباني الخمس كالشيء الواحد، وكل من دخل في الإسلام بالإقرار بالشهادتين، أو بالصلاة – علىٰ رأي من يرىٰ فعلها إسلامًا – فإنه يؤمر ببقية المباني، ويلزم بذلك، ويقاتل علىٰ تركه».

فإياك أن تفهم من آية «البر» أو حديث «شعب الإيمان» أن الشهادتين تتحققان بدون العمل بشعب الإيمان وإقامة أركان الإسلام؛ فالشهادتان مستلزمتان العمل والانقياد، لا التولي والكفران.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إذا كانت الشهادتان هي أصل

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢١٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤١).

الدين، وفرعه، وسائر دعائمه وشعبه داخلة فيهما، فالعبادة متعلقة بطاعة الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]».

فالإيمان لا يكون بقول كلمة التوحيد مجردةً عن حقائقها وحقوقها، لا بد من تحقيقها اعتقادًا وعملًا، لا يُقبل من أحد غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الأعراب وغيرهم كانوا إذا أسلموا علىٰ عهد النبي ﷺ أُلزموا بالأعمال الظاهرة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ولم يكن أحد يُترك بمجرد الكلمة».

فمجرد نطق اللسان بشهادة أن «لا إله إلا الله» لا يتحقق به التوحيد، ولا يُقام به الإيمان، قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن الله تعالىٰ أوجب علىٰ المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله ﷺ: العمل. وأنه تعالىٰ لم يثنِ علىٰ المؤمنين بأنه قد رضي عنهم وأنهم قد رضوا عنه، وأثابهم علىٰ ذلك الدخول إلىٰ الجنة، والنجاة من النار؛ إلا الإيمان والعمل الصالح، وقرن مع الإيمان العمل الصالح، الذي قد وفقهم له، فصار الإيمان لا يتم لأحد حتىٰ يكون مصدّقًا بقلبه، وناطقًا بلسانه، وعاملًا بجوارحه، لا يخفىٰ علىٰ من تدبّر القرآن

---

(١) الإيمان (ص ٢٤٥).

(٢) الشريعة (١/ ٢٧٧).

وتصفحه، وجده كما ذكرت».

فإقامة أركان الإسلام ولزوم شعب الإيمان هو من إقامة الإسلام، وتحقيق التوحيد والإيمان، وتضييع أركان الإسلام هو هدم للإسلام، فإن أركانه هي حقائقه ومبانيه، لا يقوم الإسلام إلا بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «**إن الإسلام الذي في القلب لا يتم إلا بعمل الجوارح، فهُنَّ مبانٍ له ينبني عليها، فالمباني الظاهرة تحمل الإسلام الذي في القلب، كما يحمل الجسد الروح، وكما تحمل العُمُدُ السقف، والقبة الأركان**».

والأحاديث الواردة في عصمة الدم بكلمة التوحيد لا يُراد بها مجرد النطق بها باللسان، مجردةً عن حقوقها وحقائقها، فالأدلة كلها توجب أداء حق كلمة التوحيد، والنصوص يُفسر بعضها بعضًا، ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق؛ أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل**».

فالمراد بذكر الشهادتين في عصمة الدم والمال: الشهادتان بحقوقهما ولوازمهما، وكذلك حيث ذُكر في بعض الأحاديث بعض الأركان الخمسة،

(١) المجموعة العليَّة من كتب ورسائل وفتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٧٦، ٧٧).

فإنما ذُكر بعضها لأنه أوكدهما، وهي مقتضية لبقيتها، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مراده ﷺ في كلا الجوابين سائر المباني، لكنه خصّ بالذكر أشرفها، فكأنه قال: الشهادتان وتوابعهما، والصلاة وتوابعها ولوازمها، وهي بقية المباني الخمس.

ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**».

فتوهم طائفة من الصحابة أن مراده أن مجرّد هذه الكلمة يعصم الدم حتىٰ توقفوا في قتال من منع الزكاة، حتىٰ بيّن لهم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورجع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ قوله

إن المراد: الكلمتان بحقوقهما ولوازمهما، وهو الإتيان ببقية مباني الإسلام.

وقد تبيّن صحة قولهم بروايات أخر تُصرح بإضافة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة إلىٰ الشهادتين في شرط عصمة الدم.

وكذلك قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله. لم تمسه النار - أو دخل الجنة -».

وإنما أراد الشهادتين بلوازمهما، وتوابعهما، وهي الإتيان ببقية أركان الإسلام ومبانيه».

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢١٥، ٢١٦).

وهنا تنبيه مهم لا بد من ذكره وبيانه، فالخطرات غير المستقرة الواردة علىٰ أذهان بعض الصحابة حيث ظنوا أن الدم يُعصم بقول كلمة التوحيد، لا يصح نسبته مذهبًا لهم، فهي خطرات وواردات لم تستقر، دفعوها بصحيح اعتقادهم الذي أجمعوا عليه بموافقة أبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونظير هذا قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحج: «ما لنا وللرمل»، خاطرة وواردة دفعها نفسه بالتأسي بالنبي ﷺ؛ حيث قال: «شيء فعلناه في عهد النبي ﷺ لا نتركه».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ولهذا جعل سبحانه إحكام آياته في مقابلة ما يلقي الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات؛ فالأحكام هاهنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك، ونسخ ما يلقي الشيطان هاهنا في مقابلة رد المتشابه إلىٰ المحكم هناك، والنسخ هاهنا رفع ما ألقاه الشيطان، لا رفع ما شرعه الرب سبحانه.

وللنسخ معنًىٰ آخر هو النسخ من إفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يرده، ولا دل اللفظ عليه، وإن أوهمه، كما أطلق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ النسخ علىٰ قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قالوا: نسخها قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]... الآية فهذا نسخ من الفهم لا نسخ للحكم

(١) شفاء العليل (٣/ ١٠٣٤، ١٠٣٥).

الثابت؛ فإن المحاسبة لا تستلزم العقاب في الآخرة ولا في الدنيا أيضًا».

ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث «شعب الإيمان» مضمومًا مع حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وآية «البرّ» ضرورة؛ لبيان أن الإيمان ذو شعب يزيد وينقص؛ ليدفع عقيدة الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن الإيمان قطعة واحدة، إما يبقىٰ كله أو يذهب كله.

ومن شبهات الخوارج والمعتزلة في تكفير أهل المعاصي من المسلمين، قولهم: إن الشيء المركّب إذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الجواب عمّا ذكروه هو سهل؛ فإنه يُسلم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت، لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء.

والشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين رحمهم الله؛ وسائر السلف، يقولون: إن الذنب يقدح في كمال الإيمان، ولهذا نفىٰ الشارع الإيمان عن هؤلاء، فذلك المجموع الذي هو الإيمان لم يبق مجموعًا مع الذنوب، لكن يقولون: بقي بعضه: إما أصل وإما أكثره، وإما غير ذلك؛ فيعود الكلام إلىٰ أنه يذهب بعضه ويبقىٰ بعضه».

وقال شيخ الإسلام أيضًا مبطلًا عقيدة الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية[2]: «وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال**

(١) الإيمان الكبير (ص ٧١٩).

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٣٩٤).

حبة من إيمان»، فأخبر أنه يتبعض ويبقىٰ بعضه، وأن ذاك من الإيمان، فعُلم أن بعض الإيمان يزول ويبقىٰ بعضه».

وجمع الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته المباركة «الأصول الثلاثة» بين حديث أركان الإسلام وآية البر وحديث شعب الإيمان، هو صنيع البخاري في صحيحه، فإنه في كتاب الإيمان في فصل ساق حديث أركان الإيمان[١]، ثم أتبعه بـ «فصل في أمور الإيمان»[٢]، وبوّب به بآية «البر»، ثم أتبعه بحديث شعب الإيمان مسندًا[٣].

واستفاد الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تبويب البخاري في كتاب الإيمان، والأحاديث التي ذكرها فيه؛ استيعابه لشعب الإيمان السبعين كلها، فقال[٤]: «وتبويب البخاري علىٰ خصال الإيمان والإسلام والدين من أوله إلىٰ آخره، وما خرّج فيه من الأحاديث، وما استشهد به من الآيات والآثار الموقوفة، إذا عُدَّت خصاله وأضيف إليه أضداد ما ذكره في أبواب خصال النفاق والكفر؛ بلغ ذلك فوق السبعين - أيضًا - والله أعلم».

وحديث «شعب الإيمان» دال علىٰ أن الإيمان ليس قطعة واحدة، كما

---

(١) كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (ص ٥/ رقم ٨).

(٢) كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (ص ٥).

(٣) كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (ص ٥/ رقم٩).

(٤) فتح الباري (١/ ٣٤).

يقول الخوارج والمعتزلة، فالإيمان ذو شعب، وشعبه منها ما هو من أركان الإيمان، ومنها ما هو من واجباته، ومنها ما هو من مستحباته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ من الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، ثم من المعلوم أنه إذا زال الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان.

وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان**»، فأخبر أنه يتبعض ويبقىٰ بعضه، وأن ذاك من الإيمان، فعُلم أن بعض الإيمان يزول ويبقىٰ بعضه، وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة، ويبيّن أن اسم الإيمان مثل اسم القرآن والصلاة والحج ونحو ذلك، أما الحج ونحوه ففيه أجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل؛ كرمي الجمار، والمبيت بمنىٰ، ونحو ذلك، وفيه أجزاء ينقص بزوالها عن كماله المستحب؛ كرفع الصوت بالإهلال، والرمل والاضطباع في الطواف الأول.

وكذلك الصلاة فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب، وفيها أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة في مذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك، وفيها ما له أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو،

---

(١) شرح حديث جبريل (٣٩٤، ٣٩٥).

وأمور ليست كذلك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، والجهمية، وغيرهم، أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعًا، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي ﷺ: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان**»، ثم قال الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان، فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان، فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان. وقالت «المرجئة والجهمية»: ليس الإيمان إلا شيئًا واحدًا لا يتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة.

قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءًا منه، فإذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان، وهو قول المعتزلة والخوارج، لكن قد يكون له لوازم ودلائل، فيُستدل بعدمها علىٰ عدمه.

وصار كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين».

وتأمل ترتيب الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأدلة أركان الإيمان وشعبه؛ فإنه بدأ بحديث «شعب الإيمان» ثم حديث «جبريل»، ثم آية «البر»،

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٣٨٣، ٣٨٤).

فقال[1]: «**الإيمان: وهو بضع وسبعون شعبةً، فأعلاها قول: لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**. وأركانه ستة: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره**». والدليل علىٰ هذه الأركان الستة: قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

والعادة الجارية أن يستدل بالقرآن ثم بالسنة، لأن السنة بيان للقرآن، هذا هو الغالب، لكن لمّا كان القرآن في هذا الموضع أتم تفصيلًا وأكثر بيانًا، جاء ذكره في استدلال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد حديث شعب الإيمان؛ ليزيل الإجمال الذي فيه ويبيّنه تفصيلًا.

فحديث شعب الإيمان ذكر فيه النبي ﷺ أساس الشعب وأعلاها وهو «التوحيد»، وذكر أدناها وهو «**إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، وذكر أيضًا الحياء الذي يبعث على أنواع العمل.

أما آية «البر» فقد بيّنت البرّ مفصلًا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والصدقة - وقد جاءت مفصّلة في أنواع المتصدّق عليه -، وعتق الرقاب، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٩).

ولنتدبر آية «البرّ» وما دلّت عليه من أركان الإيمان وحقائقه وأصوله، قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تضمنت الآية: أن أنواع البر ستة أنواع، من استكملها فقد استكمل البر:

أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة.

وثانيها: إيتاء المال المحبوب: لذوي القربىٰ، واليتامىٰ، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب.

وثالثها: إقام الصلاة.

ورابعها: إيتاء الزكاة.

وخامسها: الوفاء بالعهد.

وسادسها: الصبر علىٰ البأساء والضراء وحين البأس.

وكلها يحتاج الحاج إليها؛ فإنه لا يصح حجه بدون الإيمان، ولا يكمل

(١) لطائف المعارف (ص٣٢٦، ٣٢٧).

حجه ويكون مبرورًا بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فإن أركان الإسلام بعضها مرتبطة ببعض، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتىٰ يُؤتىٰ بها كلها، ولا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهد في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله إيتاءه له، ويحتاج مع ذلك إلىٰ الصبر علىٰ ما يصيبه من المشاق في السفر».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن البرَّ يُطلق باعتبار معنيان:

أحدُهما: باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خصَّ بالإحسانِ إلىٰ الوالدين، فيقال: برُّ الوالدين. ويطلق كثيرًا علىٰ الإحسان إلىٰ الخلق عمومًا، وقد صنّف ابنُ المبارك كتابًا سماه «كتاب البرِّ والصلة»، وكذلك في «صحيح البخاري» و«جامع الترمذي»: «كتاب البرِّ والصِّلة»، ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلىٰ الخلق عمومًا، ويقدَّم فيه برُّ الوالدين علىٰ غيرهما.

وفي حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أنَّه قال: يا رسول الله! مَنْ أبرُّ؟ قالَ: «**أمك**»، قالَ: ثُمَّ من؟ قال: «**ثم أباك**»، قال: ثم من؟ قالَ: «**ثُمَّ الأقرب فالأقرب**».

ومن هذا المعنىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: «**الحجُّ المبرور ليس لهُ جزاءٌ إلَّا الجنَّة**». وفي «المسند»: أنَّه ﷺ سُئِلَ عن برِّ الحجِّ، فقال: «**إطعامُ الطَّعام، وإفشاءُ**

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤٧٦ - ٤٧٨).

السَّلام»، وفي روايةٍ أخرىٰ: «**وطيبُ الكلام**».

وكان ابنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **يقول**: البرُّ شيءٌ هيِّنٌ: وجهٌ طليقٌ، وكلامٌ ليِّنٌ.

وإذا قُرن البرُّ بالتَّقوىٰ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فقد يكون المرادُ بـ«البرِّ»: معاملةَ الخلق بالإحسان، وبـ«التَّقوىٰ»: معاملة الحقِّ بفعل طاعته، واجتناب محرَّماته، وقد يكونُ أُريد بـ«البرِّ»: فعل الواجبات، وبالتقوىٰ: اجتناب المحرَّمات، وقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، قد يُراد بالإثم: المعاصي، وبالعدوان: ظُلْمُ الخلق، وقد يُراد بالإثم: ما هو محرَّم في نفسه؛ كالزِّنىٰ، والسَّرقة، وشُرب الخمر، وبالعُدوان: تجاوز ما أذن فيه إلىٰ ما نُهي عنه ممَّا جنسُه مأذونٌ فيه؛ كقتل مَن أُبيح قتلُه لِقِصاصٍ ومن لا يُباح، وأخذِ زيادة علىٰ الواجب من الناس في الزكاة ونحوها، ومجاوزة الحد في الذي أُمر به في الحدود، ونحو ذلك.

والمعنىٰ الثاني من معنىٰ «البرِّ»: أنْ يُراد به فعلُ جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقد رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل عن الإيمان، فتلا هذه الآية.

فالبرُّ بهذا المعنىٰ يدخل فيه جميعُ الطاعات الباطنة؛ كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والطاعات الظاهرة؛ كإنفاق الأموال فيما يحبُّه الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزّكاة، والوفاء بالعهد، والصَّبرِ علىٰ الأقدار؛ كالمرض والفقر، وعلىٰ الطَّاعات؛ كالصَّبر عِند لقاءِ العدوِّ».

وحديث «شعب الإيمان» بديع في بيانه؛ حيث ذكر النبي ﷺ أساس الشعب وأعلاها، وأدنىٰ الشعب، والشعبة الباعثة للإتيان ببقية الشعب، بحيث يكون هذا البيان غاية في التوضيح من غير تطويل قد يعيا البعض عن حفظه، أو تفصيل قد يشق ضبطه، أرأيت كيف جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال له: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به. رواه الترمذي وحسنه وصححه ابن حبان، وكيف حدّث النبي ﷺ حتىٰ صلىٰ الظهر ثم أكمل خطبته بعد الصلاة حتىٰ ظهرت العصر، وهكذا حتىٰ حضرت العشاء، قال الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فكان أفقهنا أحفظنا»، رواه مسلم.

فمقام التفصيل والإجمال يُقدِّر مصلحتها الناصح بحسب ما يقتضيه الحال، وأعلم الناس بذلك وأتمّهم بيانًا وأكملهم تعليمًا هو من أوتي جوامع الكلم - صلوات الله عليه وسلامه -، الذي جمع في هذا الحديث شعب الإيمان كلها في أوجز لفظ وأفصح عبارة وأحسن صياغة وأنفع بيان.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا الحديث من

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ٣٤٩، ٣٥٠).

جملة النصوص الدَّالة علىٰ أن الإيمان اسمٌ يشمل عقائد القلب، وأعماله، وأعمال الجوارح، وأقوال اللِّسان؛ فكلُّ ما يقرِّب إلىٰ الله، وما يحبُّه ويرضاه، من واجب ومستَحبٍّ؛ فإنه داخل في الإيمان.

وذكرَ هنا أعلاه وأدناه وما بين ذلك وهو الحياء.

ولعلَّ ذكر الحياء لأنه السَّببُ الأقوىٰ للقيام بجميع شُعب الإيمان.

فإنَّ من استحيا من الله؛ لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجلِّيه عليه بأسمائه الحسنىٰ، والعبد مع هذا كثير التقصير مع هذا الربِّ الجليل الكبير، يظلم نفسه ويجني عليها - أوجب له هذا الحياء التوقِّي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبَّات. فأعلىٰ هذه الشُّعب وأصلها وأساسها، قول: «لا إله إلا الله» صادقًا من قلبه، بحيث يعلمُ ويوقن أنه لا يستحق هذا الوصف العظيم - وهو الألوهية - إلا الله وحده؛ فإنه هو ربُّه الذي يربِّيه ويربِّي جميع العالمين بفضله وإحسانه. والكلُّ فقير وهو الغنيُّ، والكلُّ عاجزٌ وهو القوي، ثم يقوم في كل أحواله بعبوديته لربه، مخلصًا له الدِّين؛ فإنَّ جميع شعب الإيمان فروع وثمرات لهذا الأصل.

ودلَّ علىٰ أن شعب الإيمان بعضها يرجعُ إلىٰ الإخلاص للمعبودِ الحقِّ، وبعضها يرجعُ إلىٰ الإحسان إلىٰ الخلق.

ونبّه بإماطة الأذىٰ علىٰ جميع أنواع الإحسان القوليِّ والفعليِّ؛ الإحسان

الذي فيه وصول المنافع، والإحسان الذي فيه دفع المضارِّ عن الخلْق».

والمسلم يتطلب بيان وتفصيل شعب الإيمان المجملة في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيث لم يذكر فيها إلا أعلىٰ الشعب وأدناها، وشعبة الحياء، من بقية نصوص القرآن والسنة، فالنصوص يُفسر بعضها بعضًا، من ذلك آية «البرّ»، وضمّ إليها العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، حيث أتبعه الله ببيان صفات المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وضم إلىٰ ذلك نصًّا جامعًا لأنواع الطاعات: حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتَّق الله حيثما كُنتَ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**». رواه أحمد.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ مبيِّنًا دلالة هذه النصوص في بيان شعب الإيمان[1]: «وصف المتَّقين بالإيمان بأصوله وعقائده، وأعماله الظاهرة والباطنة، وبأداء العبادات البدنية، والعبادات المالية، والصبر في البأساء والضرَّاء وحين البأس، وبالعفو عن الناس، واحتمال أذاهم، والإحسان إليهم، وبمبادرتهم إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم بالاستغفار

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٠٤).

والتَّوبة، فأمر ﷺ ووصَّىٰ بملازمة التَّقوىٰ حيثما كان العبدُ في كل وقت، وكلِّ مكان، وكلِّ حالة من أحواله؛ لأنه مضطرٌّ إلىٰ التقوىٰ غاية الاضطرار، لا يستغني عنها في كلِّ حالة من أحواله.

ثم لَمَّا كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق التَّقوىٰ وواجباتها أمر ﷺ بما يدفع ذلك ويمحوه، وهو أن يُتبع الحسنة السيِّئة».

وحديث شعب الإيمان دال علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، فالنبي ﷺ قال في شعب الإيمان: «**أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله**». وقال: «**أدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»؛ فالإيمان يزيد وينقص، وهذا إجماع عند أهل السنة والجماعة.

والأدلة علىٰ زيادة الإيمان كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وغيره.

وإذا ثبتت الزيادة ثبت النقص، ومن الأدلة المصرّحة بنقص الإيمان حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله يوم القيامة: أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان**». رواه البخاري، فالإيمان ينقص، حتىٰ لا يبقىٰ فيه إلا مثقال ذرة.

ويدل لنقصان الإيمان أيضًا قوله ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك وصف النبي ﷺ النساء بقوله: «**ناقصات عقل ودين**». رواه البخاري، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «نقصان دينها بالنسبة إلىٰ من هي طاهرة تُصلِّي وتصوم».

واعتقاد زيادة الإيمان ونقصانه إجماع من الصحابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة، ولم يُعرف فيه مخالف من الصحابة».

فاعتقاد السابقين الأولين وإجماعهم علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، قال عمير بن حبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبَّحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيّعنا فذلك نقصانه».

وقال عمّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثلاث من كُنَّ فيه فقد استكمل الإيمان: الإنصاف من نفسه، والإنفاق من الإقتار، وبذل السلام للعالم». ذكره

(١) فتح الباري (١/ ١٧٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٤٥٥).

(٣) الإيمان الكبير (ص ٤٧٦).

البخاري تعليقًا مجزومًا به[١].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه، وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الإيمان أم ينقص؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنّىٰ تأتيه».

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «الإيمان يزداد وينقص».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «لو وُزن إيمان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإيمان أهل الأرض لرجح به».

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ **شارحًا عبارة الفاروق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «لم يُرد الأعمال، لأنَّ العقل يقطع باستحالته، وإنما أراد المعنىٰ القائم بقلبه من قُوَّة إيمانه وصفاء بصيرته، وتحقيقه في تصديقه».

والأدلة أنواع في الدلالة لزيادة الإيمان ونقصانه، ومن أعظم الأدلة على ذلك نزول القرآن متتابعًا حسب الحوادث، وما حصل بسبب ذلك للصحابة من زيادة العلم والعمل والإيمان.

---

(١) كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام.

(٢) السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد (١/ ٣١٦).

(٣) رواه إسحاق وصححه ابن حجر في تخريج الكشاف.

(٤) رموز الكنوز (١/ ٣١٤).

ومن الأدلة علىٰ تفاضل الإيمان تفاضل ثواب أهله في الجنة، بحسب طبقاتهم في الإيمان والعمل في الدنيا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وفي حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية؛ **فإنه من أعظم الأدلة علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه**؛ لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل علىٰ قوة إيمانهم، وتوكلهم علىٰ الله في أمورهم كلها».

وزيادة الإيمان يجده الإنسان من نفسه، ويشعر به بما يجده في قلبه وما تنبعث إليه جوارحه من العمل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هذا أمر يجده المؤمن إذا تُليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتىٰ كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان».

وحديث «شعب الإيمان» دال علىٰ أن للإيمان شعبًا، وأنه ليس بالتمني ولا بالتحلي.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «نصيب العبد من الإيمان

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٤٦٣).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٤٦٦).

(٣) بهجة قلوب الأبرار (ص ٣٥٠، ٣٥١).

بقدر نصيبه من هذه الخصال، قلةً وكثرةً، وقوّةً وضعفًا، وتكميلًا وضدّه. وهي ترجع إلىٰ تصديق خبر الله وخبر رسوله ﷺ، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

وقد وصف الله الإيمانَ بالشجرة الطيِّبة في أصلها وثمراتها، التي أصلها ثابت، وفروعها باسقةٌ في السَّماء، تُؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكّرون».

وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته المباركة «الأصول الثلاثة» أركان الإسلام، وشعب الإيمان، وأنواع العبادة، فأتىٰ بكل ما يتحقق به التوحيد والعبودية لله، ومفتاح الجنة وأسنان المفتاح، وجماع ذلك قول النبي ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ! قيل: ومن يأبىٰ؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: «**من أبىٰ**» دخول الجنة، وذلك إنما هو أن يأبىٰ الطاعة، فمن أبىٰ الطاعة يأبىٰ دخول الجنة، وذلك أن قول رسول الله ﷺ: «**أبىٰ**» يعني: أن دخول الجنة في الآخرة من طريق إليها، فالدنيا هي عند أهل العقل والنظر الصحيح جنة تنقل إلىٰ جنة؛ فإن الطريق إلىٰ الجنة في الآخرة إنما هي عبادة الله في الدنيا بأنواع العبادات التي

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣١٠، ٣١١).

هي كلها حقائق الأمن وعروش الطمأنينة».

وحديث «شعب الإيمان» دال علىٰ أن الإيمان اعتقاد، وقول، وعمل؛

وإذا تقرر أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، فنواقضه تكون بما عدّه الشارع ناقضًا من اعتقاد أو قول أو عمل.

فالاعتقاد في قوله ﷺ: «**أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله**»، فهذه الشهادة تضمنت الاعتقاد بالألوهية الحقة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونفي الألوهية الباطلة لغيره ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وتضمنت التأله لله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فدخل في ذلك اعتقاد القلب وعلمه وعمله وفعل اللسان والجوارح.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا علىٰ حديث شعب الإيمان[١]: «جاء في النصوص الأخرىٰ ما يدل علىٰ تسميته إسلامًا، فقد سمَّىٰ النبي ﷺ الشهادتين، والصلاة والزكاة والصيام وأداء الفروض؛ سمَّاه إيمانًا، وسمىٰ جميع الدين إيمانًا، قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»».

وقال أيضًا سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فالإيمان عند أهل السنة قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح».

---

(١) فوائد من التفسير (ص١٤٦).

(٢) فوائد من التفسير (ص٤٤).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإيمان عند أهل السنة هو ما دلّ عليه الكتاب والسنة؛ هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة».

وإذا كان الإيمان اعتقادًا بالجنان، ونطقًا باللسان، وعملًا بالأركان؛ فينبني علىٰ ذلك أن العبد قد يكفر بما يأتيه من نواقض الإسلام الاعتقادية، أو القولية، أو العملية.

قال الإمام المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «القوادح قسمان: قسم ينقض هذه العقيدة ويُبطلها؛ فيكون صاحبه كافرًا - نعوذ بالله -، وقسم ينقص هذه العقيدة ويضعفها؛ فالأول يُسمىٰ ناقضًا، وهو الذي يُبطلها ويفسدها، ويكون صاحبه كافرًا مرتدًّا عن الإسلام، وهذا النوع هو القوادح المكفرة، وهي نواقض الإسلام، وهي الموجبة للردة، هذه تسمىٰ: نواقض.

والناقض يكون: قولًا، ويكون عملًا، ويكون اعتقادًا، ويكون شكًّا.

فقد يرتد الإنسان بقول يقوله أو بعمل يعمله، أو باعتقاد يعتقده، أو بشك يطرأ عليه.

وحديث شعب الإيمان هو الدين كله، وهو في السنة كقوله تعالىٰ في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٨٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ البازية (٨/ ١٣، ١٤)، الطبعة الثالثة.

القرآن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ذلك أن قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة**» خبر بمعنىٰ الأمر، أي: من كان مؤمنًا فليأت بشعبه، وليحقِّق وصف الإيمان فيه، كما أمر الله ورسوله ﷺ، وقوله ﷺ: «**أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**» بيان أن الأعمال إنما تأتي من التوحيد وصحيح الاعتقاد، وأن شرائع الإسلام وأعمال الإيمان هي من تفاصيل كلمة التوحيد ومستلزماتها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا إله إلا الله: تقتضي الإخلاص والتوكل وإخلاص الشكر؛ فهي أفضل الكلام، وأعلىٰ شعب الإيمان، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإيمان بضع وستون** - أو: **سبعون** - **شعبة، أعلاها قول: [لا إله إلا الله]، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، فـ[لا إله إلا الله] هي قطب رحىٰ الإيمان، وإليها يرجع الأمر كله، والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهي معنىٰ [لا إله إلا الله] و[لا حول ولا قوة إلا بالله]، وهي من معنىٰ: [لا إله إلا الله]، و[الحمد لله] في معناها، و[سبحان الله والله أكبر] من معناها».



---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٩٠).

أركان الإيمان

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وأركانه - الإيمان - ستة: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره».

الشَّرح:

❁ **الإيمان بالله**: أن نؤمن بالله وحده لا شريك له، رب كل شيء ومليكه، وأنه المتصف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وأنه هو إله الحق، وأن ما يُعبد من دونه آلهة باطلة، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ونوحّد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والآية الجامعة الدالة على تحقيق التوحيد في أنواعه الثلاثة؛ هي قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]؛ فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أمر بتحقيق توحيد الربوبية، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أمر بتحقيق توحيد العبودية، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، أمر بتحقيق توحيد

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٩).

الأسماء والصفات إثباتًا لها بما تقتضيه من كمال دون تمثيل بمخلوق أو تعطيل لمعانيها الكاملة، فالله لا سمي له، وأسماؤه حسنى وصفاته عليا.

قال شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نؤمن بوحدانيته في ذلك، أي بأنه لا شريك له في ربوبيته ، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته؛ قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]».

والله عَزَّوَجَلَّ له الأسماء الحسنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ونثبتها لله مع ما تتضمنه من صفات إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] .

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله ﷺ وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله».

قال العلامة أبو زكريا السلماسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٥٠هـ)**[(٣)]: «اتفق أهل العلم أن أحدًا لم يجمع جمل الإيمان بالله وبرسوله كما جمعه الشافعي في قوله الموجز».

فالله إله الحق هو الذي ابتدأ خلق عبيده من العدم، خلقهم ليعبدوه؛ قال

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة (ص٨).

(٢) منازل الأئمة الأربعة (ص١٤٦).

(٣) منازل الأئمة الأربعة (ص١٤٦).

تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ثم إلىٰ الله مرجع الخلق جميعًا ليحاسبهم وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لأن في الدنيا أربابًا باطلة».

والله عَزَّوَجَلَّ أحاط بكل شيء علمًا، وقهر كل مخلوق عزةً وحكمًا، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠][٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا لذة، ولا سرور، ولا أمان، ولا طمأنينة، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها، وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها في ما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم يتبع ذلك أصلات عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصلة إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

---

(١) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص١٨٩).

(٢) لمعة الاعتقاد (ص٣، ٤).

(٣) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٠).

(٤) الصواعق المرسلة (١/ ١٥١).

الثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد، وقرة العين التي لا تنقطع».

والله عَزَّوَجَلَّ ربّىٰ خلقه بالنعم ليعبدوه، ويألهوه محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، فيؤدوا حق الله عليهم الذي لا يستحقه غيره، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: هذا أمر عام لجميع الناس بأمر عام وهو العبادة الجامعة لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتصديق خبره، فأمرهم تعالىٰ بما خلقهم له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أعتقد أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أُحرف الكلمَ عن مواضعه، ولا أُلحد في أسمائه وآياته، ولا أكيِّف، ولا أمثِّل صفاته تعالى بصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سميَّ له ولا كفؤ له، ولا ندَّ له، ولا يُقاس بخلقه؛ فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيره، وأصدقُ قيلًا وأحسن حديثًا، فنزَّه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتعطيل؛ فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢]».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٤).

(٢) مجموع مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب (٣/ ٥)، قسم الرسائل الشخصية، رسالته إلى أهل القصيم.

وأما الإيمان بالملائكة: فنؤمن أنهم عالم غيبي، مخلوق لله، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء[(١)].

والملائكة خلقهم الله من نور[(٢)]، وهم مصمتون؛ لا يأكلون ولا يشربون، فمن أجل هذا لم يأكلوا من الطعام الذي قدّمه لهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «المصمت الصمد: أكمل من الآكل الشارب؛ ولهذا كانت الملائكة صُمْدًا لا تأكل ولا تشرب».

والملائكة لا يطيق البشر رؤيتهم في صورتهم الحقيقية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية المَلَك في صورته إلا من أَيَّدَهُ الله، كما أَيَّدَ نبينا ﷺ[(٥)]، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨-٩]».

والملائكة ليسوا إناثًا كما زعم كفار قريش، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ

---

(١) نبذة في العقيدة الإسلامية، لشيخنا العثيمين (ص ١٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (رقم ٧٤٥٩) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) الرسالة التدمرية (ص ١٤٢).

(٤) منهاج السنة (٢/ ٣٣٣).

(٥) ومع هذا لم يره إلا مرتين، أقدره الله بما جعل فيه من القوة علىٰ رؤية جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الكفار يعتقدون أن لله بناتٍ إناثًا، وذلك أن خزاعة وكِنانة كانوا يقولون: الملائكة بنات الله».

والملائكة خلقهم الله لمحض العبادة، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وللملائكة كعبة يتعبدون فيها وهي البيت المعمور الذي أقسم الله به، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وُجد إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها».

والملائكة موكلون بأعمال ووظائف، كما نعتهم الله بقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، فهم يدبِّرون كثيرًا من أمور العالم العلوي والسُّفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرِّياح، والبحار، والأجنَّة، والحيوانات، والجنة، والنار[٣].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٥٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص ٩٠٨).

ونؤمن بأنَّ بعض الملائكة أفضل من بعض، وأفضلهم علىٰ الإطلاق جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو المختص بنزول الوحي[1]، وهو أول من يُفيقُ من الملائكة بعد الصعق إذا تكلّم رب العزَّة، وهو رفيق النبي ﷺ في إسرائه ومعراجه.

والملائكة المقرَّبون أفضل من غيرهم من الملائكة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومعلوم أن حملة العرش ومن حوله من أعظم المقرَّبين من الملائكة، بل قد ذكر من ذكر من المفسِّرين أن الملائكة المقرَّبين هم حملة العرش.

والكَرُوبيُّون من الملائكة مشتقون من كَرَبَ إذا قَرُبَ؛ فالمراد: وصفهم بالقُرب، لا بالكرب الذي هو الشدَّةُ».



(١) وميكائيل كان ينزل بالوحي أحيانًا، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله «لأنه - يعني ميكائيل - أيضًا ينزل علىٰ الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، هذا بالهدىٰ، وهذا بالرزق» تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٦).

(٢) السبعينية (ص ٢٣٠).

والإيمان بكتبه: نؤمن بأن الله أنزل كتبًا إلىٰ رسله، وهي من أسباب هداية الخلق، وإقامة الحجة عليهم، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ مبينًا امتناع أن يترك الله خلقه بلا كتاب هادٍ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

والكتب السماوية كلها نزلت جملة واحدة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، والقرآن كان ابتداء نزوله في شهر رمضان، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، والنزول المفرّق للقرآن علىٰ النبي ﷺ حصلت به حِكم عظيمة، كتثبيت فؤاد النبي ﷺ وتسليته، وإظهار منزلته عند الله، وحفاوة الله به بتعاهد نزول القرآن عليه، والتدرج في الأحكام والتشريع، وغيره.

ومع هذا فقد نزل القرآن جملةً واحدةً أولًا إلىٰ السماء الدُّنيا إلىٰ بيت العزة[١]، فحصل للقرآن ما لم يحصل لغيره من الكتب السماوية.

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والسرُّ في إنزال القرآن

---

(١) رواه النسائي - تفسير النسائي (٢/ ١٣١ - رقم ٣٩٢) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا عليه، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٤).

(٢) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤]، (ص ٢٦٢).

جُملة واحدة إلىٰ سماء الدنيا، ثم نزل علىٰ النبي ﷺ مفرَّقًا، أن الكتب المنزَّلة قبل نزول القرآن أُنزلت إلىٰ الأرض جملة واحدة، فحصل للنبي ﷺ ما حصل للأنبياء الذين أَنزل الله عليهم كتبه جملة واحدة، فأُنزل القرآن جُملة واحدة، ووُضع في بيت العزة من سماء الدنيا، ثم زاده الله علىٰ الأنبياء بنزول القرآن مُفرّقًا بعد نزوله جُملة، فكان نزول القرآن مرتين».

ولذلك تجد الله يُخبرُ عن القرآن بلفظ «نزَّل»؛ لأنه نزل مفرَّقًا، ويُخبر عن سائر الكتب السماوية بلفظ «أنزل»؛ لدلالة الوزن علىٰ الفعل مرَّةً، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال في القرآن «نزَّل»؛ لأنه نزل مفرَّقًا منجَّمًا علىٰ الوقائع، بحسب ما يحتاج العباد إليه في معادهم ومعاشهم، وأمَّا الكتب المتقدمة فكانت تتنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦]».

ومن الإيمان بالكتب: أن نُؤمن بأن القرآن مهيمن علىٰ ما سبقه من الكُتُب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، ومعنىٰ ذلك: أن القرآن قاضٍ وناسخٌ لما سبقه من

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٤).

الكتب حيث لم توافقه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المهيمن: الشاهد المؤتمن الحاكم، يشهد بما فيها من الحقِّ ويُبيّن ما حُرِّف فيها، ويحكم بإقرار ما أقرَّه الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمن في ذلك عليها».

والكتب السماوية السابقة أصابها التحريف والتبديل، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: ١٥]، ولم يكتب الله الحفظ إلا للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].



(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (١/ ٢٩٩).

الإيمان بالرسل: الرِّسالة اصطفاء كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجُّ: ٧٥]، وليست اختيارًا كما يقوله الملاحدة والزَّنادقة من غلاة الصُّوفيَّة ومن ضاهاهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله اختصَّهم بوحيه، وجعلهم أمناء علىٰ رسالته، وواسطته بينه وبين عباده، وخصَّهم بأنواع كراماته، فمنهم من اتَّخذه خليلًا، ومنهم من كلمه تكليمًا، ومنهم من رفعه مكانًا عليًا علىٰ سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده طريقًا للوصول إليه إلَّا من طريقهم، ولا دخولًا إلىٰ جنَّته إلَّا خلفهم، ولم يكرم أحدًا منهم بكرامة إلَّا علىٰ أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلةً، وأرفعهم عنده درجةً، وأحبُّهم إليه، وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدُّنيا والآخرة إنَّما ناله العباد علىٰ أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع، وبهم حصلت محابُّه تعالىٰ في الأرض... ».

وكما أنَّ الرِّسالة والنُّبوَّة اصطفاء، فإن هذا الاصطفاء خاص أيضًا، فهو اصطفاء خاص بالإنس، والجنُّ ليس فيهم رسل، إنَّما فيهم منذرون، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «واختلفوا: هل يكون في الجنِّ رسل؟

(١) بدائع التفسير (٣/ ٣٤٣).

(٢) النبوات (٢/ ١٠٠٤، ١٠٠٥).

والأكثرون علىٰ أنَّه لا رسل فيهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]».

وعن الحسن البصريِّ قال[1]: «لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية، ولا من الجنِّ، ولا من النِّساء».

ثمَّ هذا الاصطفاء في الإنس فيه اصطفاء أخصُّ منه، وهو اصطفاء في الرِّجال دون النِّساء، فلم يرسل الله إلَّا الرِّجال، ولم تنبَّأ امرأة قطُّ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: ٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أي جميع الرُّسل الَّذين تقدَّموا كانوا رجالًا من البشر».

وقال الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «يفهم من هذه الآيات أنَّ الله لم يرسل امرأةً قطُّ».

وقال العلامة عبد الرَّحمن السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «وفي هذه الآية دليل علىٰ أن النِّساء ليس منهنَّ نبيَّة، لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾».

---

(١) النبوات (٢/ ١٠٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٧٤).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٥٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٦٩).

وقد زلَّ بعض الأكابر في هذا الباب، وتوهَّموا نبوَّة مريم عليها السَّلام وغيرها.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والصَّحيح أن مريم نبيَّة؛ لأنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إليها بواسطة الملك كما أوحىٰ إلىٰ سائر النَّبيِّين».

وكأنَّ البخاريَّ جنح إلىٰ هذا، فقد ذكر في كتاب الأنبياء باب[٢]:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٤].

والصَّواب أنَّ هذا الاصطفاء لمريم هو الاختيار للطَّاعة، ولأن تلد من غير فحل، وليس المراد اصطفاء رسالة ونبوَّة. وأمَّا الوحي المذكور عنها فهو **إعلام خاص**، وليس هو وحي رسالة، وهذا الإعلام حاصل حتَّىٰ للنَّحل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النَّحل: ٦٨].

وتعلَّق البعض بحديث: «كمل من الرِّجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلَّا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة علىٰ النِّساء كفضل

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٨٣).

(٢) رقم (٤٥)، فتح الباري (٦/ ٤٧٠).

الثَّريد علىٰ سائر الطَّعام»(١). فهذا الكمال علىٰ جنسها من النِّساء فقط، كما هو صريح الحديث.

وكما أن الرِّسالة اصطفاء، وهذا الاصطفاء خاص بالرِّجال كما سبق، فهناك اصطفاء خاص لبعض الرُّسل علىٰ بعض.

فخاصَّة المصطفين أولو العزم من الرُّسل، وخاصَّة الخاصَّة سيِّد ولد آدم خاتم النَّبيِّين خليل الرَّحمن نبيُّنا محمَّد ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

فهذه الآيات صريحة في تفضيل الله لبعض الأنبياء علىٰ بعض، واختصَّ الله من بين الأنبياء أولي العزم من الرُّسل، وهم: نبيُّنا محمَّد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ. وقد ورد ذكرهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]، وهذه الآية تدلُّ علىٰ تفضيلهم علىٰ غيرهم؛ لأنَّ الله ذكر أخذ الميثاق علىٰ النَّبيِّين عامَّةً ثمَّ خصَّ بالذِّكر من بينهم أولي العزم من

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (٦/ ٤٤٦- رقم ٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (٤/ ١٨٨٦- رقم ٢٤٣١) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرُّسل، فعطف الخاصِّ علىٰ العامِّ دليل علىٰ مزيَّة لهم دون سائر أفراد العامِّ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

«**وذكر الخاصِّ مع العامِّ يكون لأسباب متنوِّعة**: تارةً لكونه له خاصِّيَّة ليست لسائر أفراد العامِّ، كما في نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ».

وقد بيّن العلامة عبد الرَّحمن السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العزم الَّذي اختصَّ الله به هؤلاء النَّبيِّين الخمسة، فقال[٢]: «العزم الَّذي مدح الله به خيار خلقه كقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] الآية - هو قوَّة الإرادة وجزمها علىٰ الاستمرار علىٰ أمر الله، والهمَّة الَّتي لا تني ولا تفتر في طلب رضوان الله، وحسن معاملته، وتوطين النَّفس علىٰ عدم التَّقصير في شيء من حقوق الله، ولذلك لام الله آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعدم استمراره علىٰ الأمر، وحصول الاغترار منه لعدوِّه بأكل الشَّجرة الَّتي عهد الله له بالامتناع من أكلها، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥].

فحصول الفتور وفلتات التَّقصير مناف كمال العزم، ولهذا لم يكن هذا الوصف إلَّا لمن بلغوا الدَّرجة العالية في الفضائل».

ومن الأدلَّة علىٰ تفضيلهم علىٰ غيرهم هو أمر الله لنبيِّنا محمَّد ﷺ بالاقتداء

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٧٥).

(٢) المواهب الربانية من الآيات، القرآنية ص(١٩، ٢٠).

بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وكذلك وصفهم بهذا الوصف: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ دون غيرهم يدلُّ علىٰ اختصاصهم به دون غيرهم.

وأفضل أولي العزم نبيُّنا محمَّد ﷺ، ثمَّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

«وأمَّا قصَّة نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وغيرهم صلوات الله عليهم - فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعلته الأنبياء من الدَّعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته، ودينه وإظهار آياته، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومجاهدة المكذِّبين لهم، والصَّبر علىٰ أذاهم - هو أعظم عند الله، **ولهذا كانوا أفضل من يوسف** صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الَّذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله، وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه - أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الَّذين خصَّهم الله بالذِّكر في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشُّورىٰ: ١٣]، وهم يوم القيامة الَّذين

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٢).

تطلب منهم الأمم الشَّفاعة، وبهم أمر خاتم الرُّسل أن يقتدي في الصَّبر، فقيل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأعلاهم منزلةً أولو العزم منهم، المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾.

وهؤلاء هم الطَّبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشَّفاعة حتَّىٰ يردُّوها إلىٰ خاتمهم وأفضلهم ﷺ».

وقد وردت نصوص تدلُّ علىٰ فضيلة مخصوصة لبعض النَّبيِّين دون بعض، وفضلهم لا شكَّ أنَّه دون فضل أولي العزم من الرُّسل.

فإدريس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **قال الله في شأنه:** ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ويحيىٰ كذلك قال الله في شأنه: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٧]، قال العلامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يحتمل أن المعنىٰ: لم نجعل له من قبل مثيلًا ومساميًا، فيكون ذلك بشارةً بكماله، واتِّصافه بالصِّفات الحميدة، وأنَّه فاق من قبله، ولكن علىٰ هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصًا بإبراهيم وموسىٰ ونوح عليهم السَّلام ونحوهم، ممَّن هو أفضل من يحيىٰ قطعًا».

---

(١) بدائع التفسير (٣/ ٣٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص(٤٩٠).

وكذلك سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنَّه كان ملكًا نبيًّا، قد أجاب الله دعاءه وآتاه ملكًا ما كان لأحد من بعده: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

قال العلامة عبد الرَّحمن السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ سليمان كان ملكًا نبيًّا، مباحًا له أن يفعل ما يريد، ولكنَّه لكماله لا يريد إلَّا الخير والعدل، وهذا بخلاف النَّبيِّ العبد، فإنَّه لا يكون له إرادة مستقلَّة، بل إرادته تابعة لمراد الله منه، فلا يفعل ولا يترك إلَّا تبعًا للأمر، كحال نبيِّنا محمَّد ﷺ».

وقد يختصُّ بعض الأنبياء بشيء دون نبيِّنا محمَّد ﷺ كما اختصَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنَّه أوَّل من يكسىٰ يوم القيامة من حلل الجنَّة، وهذا لا يدلُّ علىٰ أنَّه أفضل من نبيِّنا محمَّد ﷺ، **فإنَّ الفضيلة بنوع لا تستلزم الفضيلة مطلقًا،** والعبرة بمجموع الفضائل.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]:

«فالمفضول قد يختصُّ بأمر، ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل. ودليل ذلك أنَّ أزواجه - يعني: نبيَّنا محمَّد ﷺ - هم ممَّن يصلَّىٰ عليه، كما ثبت ذلك في الصَّحيحين، فقد ثبت باتِّفاق النَّاس كلِّهم أن الأنبياء أفضل منهنَّ».

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص(١٩٩).

(٢) منهاج السنة (٧/ ٧٨).

وهنا سؤال مشهور، وهو أنَّه إذا كان نبيُّنا محمَّد ﷺ أفضل الرُّسل، فلم قيل في تحيَّات الصَّلاة: كما صلَّيت علىٰ إبراهيم. والمشبَّه دون المشبَّه به؟

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«وقد أجيب عن ذلك بأجوبة، منها: أن يقال: إن آل إبراهيم فيهم الأنبياء، ومحمَّد فيهم، قال ابن عبَّاس: محمَّد من آل إبراهيم. فمجموع آل إبراهيم بمحمَّد أفضل من آل محمَّد، ومحمَّد قد دخل في الصَّلاة علىٰ آل إبراهيم، فيأخذ أهل بيته ما يليق بهم، ويبقىٰ سائر ذلك لمحمَّد ﷺ، فيكون قد طلب له من الصَّلاة ما جعل للأنبياء من آل إبراهيم، والَّذي يأخذه الفاضل من أهل بيته دونه لا يكون مثل ما يحصل للنَّبيِّ، فتعظم الصَّلاة عليه بهذا الاعتبار، ﷺ، وقيل: إن التَّشبيه في الأصل لا في القدر».

أمَّا قوله تعالىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أي: في الإيمان بهم جميعًا، فلا يصحُّ إيمان عبد بالإيمان ببعض الرُّسل دون بعض، وهذا شأن الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النِّساء: ١٥٠، ١٥١].

ولذلك جعل الله من كفر بنبيٍّ واحد أو رسول واحد كمن كفر بجميع

(١) منهاج السنة (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩).

المرسلين عليهم السَّلام، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٠٥]، مع أن نوحًا أوَّل رسول، لكنَّ التَّكذيب برسول واحد كالتَّكذيب بسائر الرُّسل.

وقد وردت نصوص في النَّهي عن التَّفضيل بين الأنبياء:

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضِّلوا بين أنبياء الله»[1].

(٢) وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تفضِّلوني علىٰ موسىٰ، فإن النَّاس يصعقون يوم القيامة، فأكون أوَّل من يفيق، فأجد موسىٰ باطشًا بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي أو كان ممَّن استثنىٰ الله»[2].

(٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال[3]: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا خير البريَّة! فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ».

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصَّافَّات: ١٣٩] (٦/ ٤٥٠ –رقم ٣٤١٤)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (٤/ ١٨٤٤– رقم ٢٣٧٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (٦/ ٤٥٠– رقم ٣٤١٤)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (٤/ ١٨٤٣– رقم ٢٣٧٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (٤/ ١٨٣٩ – رقم ٢٣٦٩).

وقد أجاب العلماء عن هذا النَّهي بأجوبة[١]:

(١) قطعًا للجدال والخصام في الأنبياء، فيكون مخصوصًا بمثل ذلك.

(٢) النَّهي عن التَّفضيل إنَّما هو بمجرَّد الأهواء والعصبيَّة.

(٣) ألا يفضل بينهم تفضيلًا يؤدِّي إلىٰ تنقص بعضهم أو الغضِّ منه.

(٤) أنَّه ﷺ نهىٰ عن ذلك علىٰ طريق التَّواضع ونفي التَّكبُّر والعجب.

وأفضل الأنبياء - عليهم السَّلام - نبيُّنا محمَّد ﷺ، فهو سيِّد ولد آدم، وهو إمام الأنبياء في الإسراء، وهو حامل لواء الحمد، وأوَّل من يشفع في الجنَّة، وهو الَّذي بعث إلىٰ النَّاس كافَّةً، وهو أكثر النَّاس تابعًا يوم القيامة، وهو خاتم الأنبياء، وهو خليل الرَّحمن، وهو صاحب الكوثر، والحوض المورود...

وإذا تقرَّر هذا من أنَّ رسل الله أفضل الخلق عليهم السَّلام، فاعلم أنَّ هناك طائفةً من غلاة الصُّوفيَّة تزعم أنَّ أولياءهم أفضل من أنبياء الله، وأنَّ ولايتهم أكمل من الرِّسالة، وينشدون:

مقام النُّبوَّة في برزخ فويق الرَّسول ودون الولي

وسبب تفضيل هؤلاء - حسب زعمهم - أن الوليَّ يتلقَّىٰ الوحي بلا واسطة، وأنَّه يتلقَّاه بما يفيضه عليه عقله، بخلاف الرُّسل، فإنَّهم يتلقَّون الوحي

---

(١) الشفا للقاضي عياض (١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، وفتح البيان لصديق حسن خان (١/ ٤١٧).

بالواسطة، وأنَّ النَّاس ما زالوا محتاجين مفتقرين ومنتفعين من الأولياء بخلاف الرُّسل الَّذين ماتوا وقبضوا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

«**وآخرون يدعون ما هو عندهم أعلىٰ من النُّبوَّة**: إمَّا ختم الولاية عند من يزعم أن الولاية أفضل من النُّبوَّة، كمذهب صاحب «الفصوص» ابن عربيٍّ وأمثاله، وإمَّا دعوىٰ الفلسفة والحكمة الَّتي هي في زعم كثير منهم أعلىٰ من النُّبوَّة.

وهؤلاء الملاحدة نوعان: نوع يزعم أنَّه نزل عليه، كما يدَّعي ذلك من يدَّعيه من ملاحدة أهل النُّسك والتَّصوُّف.

ثمَّ من هؤلاء من يقول: ألقي إليَّ، أوحي إليَّ، ولا يسمِّي الموحي.

وقوم يزعمون أنَّهم يقولون ذلك بعقلهم ورأيهم.

وقد جمع الله هؤلاء في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فذكر سبحانه من يفتري الكذب علىٰ الله، ومن يقول إنَّه يوحىٰ إليه، ومن يزعم أنَّه يقول كلامًا مثل الكلام الَّذي أنزل الله.

وهذا الأصل هو ممَّا يعلم بالضَّرورة من دين الرُّسل من حيث الجملة: يعلم أنَّ الله إذا أرسل رسولًا، فإنَّما يقول ما يناقض كلامه ويعارضه من هو

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٠٨، ٢٠٩).

كافر، فكيف بمن يقدِّم كلامه علىٰ كلام الرَّسول؟!

وأمَّا المؤمنون بما جاء به، فلا يتصوَّر أن يقدِّموا أقوالهم علىٰ قوله، بل قد أدَّبهم الله بقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]».

بل إنَّ الغزاليَّ قد صرَّح بأنَّ قتل من ادَّعىٰ أنَّ رتبة الولاية أعلىٰ من رتبة النُّبوَّة - أحبُّ إليه من قتل مائة كافر؛ لأنَّ ضرر هذا في الدِّين أعظم»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وكلُّ من جعل غير الرَّسول بمنزلة الرَّسول في خصائص الرِّسالة - فهو مضاه لمن جعل معه رسولًا آخر كمسيلمة ونحوه، وإن افترقا في بعض الوجوه، ثمَّ يكون هؤلاء شرًّا إذا فضلوا متبوعهم علىٰ الرَّسول، وقد يكون أتباع مسيلمة شرًّا إذا كان متبوع هؤلاء مؤمنًا بالله ورسوله، ولم يفضِّلوه علىٰ الرَّسول».

وخالفت الأشاعرة أهل السُّنَّة في النُّبوَّة، وقول الأشاعرة في النُّبوَّة متفرِّع عن أصلهم في أفعال الله، فلمَّا نفوا الحكم والأسباب في أفعال الله، وجعلوها متعلِّقةً بمحض المشيئة، وجوَّزوا فعل كلِّ ممكن، كما هو قول الجهم بن صفوان، والأشعريِّ ومن وافقه، فهؤلاء جوَّزوا بعثة كلِّ مكلَّف، والنُّبوَّة عندهم مجرَّد إعلام النَّبيِّ بما أوحاه الله إليه، والرِّسالة مجرَّد أمره بتبليغ ما

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٧٣).

(٢) السبعينية ص(٥٠٨).

أوحاه إليه، وليست النُّبوَّة عندهم صفةً ثبوتيَّةً، ولا مستلزمةً لصفة يختصُّ بها، بل هي من الصِّفات الإضافيَّة، كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشَّرعيَّة[(١)].

ولما كان العقل قائد الأشاعرة في العقيدة، فلذلك يصدر من أئمَّتهم من منكرات العقائد ما يكون كفرًا محضًا أحيانًا، وإن لم يكن ذلك المنكر قول جميعهم، لكن المقصود بيان أنَّ أئمَّتهم لا يأتمُّون بسلف، بل ينتحلون خلاصة عقولهم، وإن كانت كفرًا.

فهذا إمام الأشاعرة في زمانه أبو بكر بن فورك قال: «إنَّ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ ليس هو رسول اليوم، لكنَّه كان رسول الله»[(٢)].

ومن أجل ذلك سعىٰ السُّلطان محمود بن سبكتكين في قتله[(٣)].

ونبيُّنا محمَّد ﷺ ختمت به النُّبوَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا نبيَّ بعدي**»[(٤)]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]:

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٤١٤).

(٢) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح اختصار المزي (١/ ١٣٨).

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح اختصار المزي (١/ ١٣٧)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٦/ ٤٩٥- رقم ٣٤٥٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٣/ ١٤٧١ - رقم ١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) بدائع الفوائد (٣/ ١٥٦).

«ولهذا ختم الله به ديوان النُّبوَّة، فلم يجعل بعده رسولًا؛ لاستغناء الأمَّة به عمَّن سواه».

ونبيُّنا ﷺ بُعث علىٰ فترة من الرُّسل، بعد دروس آثار النُّبوَّة كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذه الفترة الَّتي كانت بين المسيح وبين محمَّد - صلوات الله عليهما وسلامه -، وهي فيما ذكره غير واحد من العلماء، كسلمان الفارسيِّ وغيره - كانت ستَّمائة سنة، وقد قيل: ستُّمائة سنة شمسيَّة. وهي ستُّمائة وعشرون أو ثماني عشرة هلاليَّة، وذلك أن كلَّ مائة سنة شمسيَّة تكون مائةً وثلاث سنين هلاليَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥].

وهذه التِّسع وبعض العاشرة، والتَّاريخ قد تحسب فيه التَّامَّة، وتحسب فيه النَّاقصة، فمن قال عشرين حسب النَّاقصة، ومن قال ثماني عشرة حسب التَّامَّة فقط».

ومعرفة مقدار هذه الفترة ينفع في التَّمييز بين الصَّالحين والنَّبيِّين فيمن يذكر منهم في هذه الفترة، كالحال بالنِّسبة لدانيال.

قال يونس بن بكير، عن محمَّد بن إسحاق، عن أبي خلدة خالد بن دينار:

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٢١١).

حدَّثنا أبو العالية قال: لَمَّا افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرًا، عليه رجل ميِّت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف، فحملناه إلىٰ عمر بن الخطَّاب، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربيَّة، فأنا أوَّل رجل من العرب قرأه، قرأته مثلما أقرأ القرآن هذا.

فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرَّجل؟

قال: حفرنا بالنَّهار ثلاثة عشر قبرًا متفرِّقةً، فلمَّا كان باللَّيل دفنَّاه، وسوَّينا القبور كلها؛ لنعمِّيه علىٰ النَّاس، فلا ينبشونه.

قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السَّماء إذا حبست عنهم، برزوا بسريره، فيمطرون.

قلت: من كنتم تظنُّون الرَّجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال. **قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلثمائة سنة**. قلت: ما تغيَّر منه شيء؟ قال: لا، إلَّا شعرات من قفاه، إنَّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السِّباع»[(١)].

قال الحافظ ابن كثير[(٢)]: «وهذا إسناد صحيح إلىٰ أبي العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة، فليس بنبيٍّ، بل هو رجل صالح؛

(١) البداية والنهاية (٢/ ٣٧٧).

(٢) البداية والنهاية (٢/ ٣٧٧).

لأنَّ عيسىٰ بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنصِّ الحديث الَّذي في البخاريِّ، والفترة الَّتي كانت بينهما أربعمائة، وقيل: ستُّمائة. وقيل: ستُّمائة وعشرون. وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة، وهو قريب من وقت دانيال، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر، فإنَّه قد يكون رجلًا آخر، إمَّا من الأنبياء أو الصَّالحين، ولكن قربت الظُّنون أنَّه دانيال؛ لأنَّ دانيال كان قد أخذه ملك الفرس، فأقام عنده مسجونًا».

والإيمان بالرُّسل يقتضي الإيمان بعصمتهم، والعصمة لهم خالصة من دون النَّاس، خلافًا للرَّافضة الَّذين ادَّعوا العصمة لأئمَّتهم، وغلوا فيهم غلوَّ النَّصارىٰ[1].

وعصمة الأنبياء إنَّما هو فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتِّفاق الأمَّة، وهم معصومون من **الإقرار** علىٰ الذُّنوب مطلقًا، وهذا لا ينافي التَّأسِّي بهم؛ لأنَّ التَّأسِّي بهم إنَّما هو مشروع فيما أقرُّوا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه. أمَّا ما احتجَّ به نفاة الذُّنوب عن الأنبياء مطلقًا، من أن الذُّنوب تنافي الكمال، أو أنَّها ممَّن عظمت عليه النِّعمة أقبح، أو أنَّها توجب التَّنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقليَّة، **فهذا إنَّما يكون مع البقاء علىٰ ذلك، وعدم الرُّجوع**، وإلَّا فالتَّوبة الَّتي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلىٰ أعظم ممَّا كان

---

(١) انظر منهاج السنة (٦/ ١٨٩-١٩١).

عليه، كما قال بعض السَّلف: كان داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد التَّوبة خيرًا منه قبل الخطيئة. **وقال آخر**: لو لم تكن التَّوبة أحبَّ الأشياء إليه لما ابتلي بالذَّنب أكرم الخلق عليه، والله تعالىٰ لم يذكر في القرآن شيئًا من ذلك عن نبيٍّ من الأنبياء إلَّا مقرونًا بالتَّوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، **والاعتبار بكمال النِّهاية لا بما جرىٰ** في البداية، والأعمال بخواتيمها[١].

فهذا هو التَّحقيق فيما يتعلَّق بعصمة الأنبياء، وإيَّاك أن تلمَّ بشيء من أقوال أهل البدع، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والقائلون بعصمة الأنبياء من التَّوبة من الذُّنوب ليس لهم حجَّة من كتاب الله وسنَّة رسوله، ولا لهم إمام من سلف الأمَّة وأئمَّتها، **وإنَّما مبدأ قولهم من أهل الأهواء، كالرَّوافض والمعتزلة، وحجَّتهم آراء ضعيفة** من جنس قول الَّذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم الَّذين قال الله فيهم: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحجُّ: ٥٣]».

وأمَّا ما يتعلَّق بأعمالهم قبل البعثة، فهل يمكن تصوُّر أو إمكان وقوع ما ينافي التَّوحيد قبل البعثة؟!

---

(١) تهذيب لكلام شيخ الإسلام في الفتاوى (١٠/ ٢٨٩ - ٢٩٩).

(٢) جامع الرسائل (١/ ٢٦٧) تحقيق: محمد رشاد سالم.

هناك آيات ضلَّت فيها أفهام وزلَّت فيها أقدام، توهَّم بعض العلماء شيئًا من ذلك.

من ذلك قوله تعالىٰ عن شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا**﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقوله تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦].

وفي دفع إشكالها، قال العلامة محمَّد الأمين الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أكثر العلماء يقولون: إنَّ الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - معادن وحي، ومحلُّ الخير، والله يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي القراءة الأخرىٰ: (حيث يجعل رسالاته) فلا يكفرون بالله؛ **لأنَّ فطرتهم الَّتي ولدوا عليها لا يبدِّلها الله بالكفر؛ لمكانتهم عنده**، فبعض العلماء يقول: لو فرضنا أنَّهم وقع منهم بعض الشِّرك وأنابوا إلىٰ الله، فإنَّهم يصيرون إلىٰ مثل حالهم قبله، وصار كأنَّه لم يكن.

وأكثر الأصوليِّين وعلماء التَّفسير أنَّ شعيبًا لم يكن كافرًا يومًا ما، ويجاب عن ظاهر الآية بجوابين:

أحدهما: أن العرب تطلق لفظة (عاد) إطلاقين:

أحدهما: عاد إلىٰ أمر كان فيه سابقًا.

والثَّاني: تقول العرب: «عاد كذا وكذا»، بمعنىٰ: «صار» إلىٰ كذا من جديد.

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٣/ ١٤١٧، ١٤١٨).

ومنه قولهم: عاد الطِّين خزفًا، وعاد الخمر خلًّا. ولا شكَّ أن هذا الاستعمال موجود في (عاد)؛ تقول العرب: عاد رجلًا فلان، أي: صار إلىٰ الرُّجولة، ولم يتقدَّمه وصف مماثل قبلها، ومنه بهذا المعنىٰ قول الشَّاعر:

وربَّيته حتَّىٰ إذا ما تركته أخا القوم واستغنىٰ عن المسح
وبالمحض حتَّىٰ عاد جعدًا عنطنطًا إذا قام ساوىٰ غارب الفحل

قالوا: معناه: صار جعدًا[1].

الوجه الثَّاني - وبه قال غير واحد -: أن نبيَّ الله شعيبًا كان معه جماعة من قومه آمنوا به، فالَّذين آمنوا به من قومه كانوا كفَّارًا علىٰ ملَّة قومهم، وهم عدد كثير، وهو رجل واحد، فعبَّر باسم العدد الكثير وغلبوه علىٰ ذلك، والتزم معهم شعيب في هذا الخطاب تغليبًا لقومه الأكثرين[2].

وظاهر كلام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف - يفيد ذهابه إلىٰ أن شعيبًا كان معهم - سابقًا - علىٰ ملَّتهم،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ذكروه لا يشهد لمعنى الآية، فإن لفظها: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] وقول شعيب: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: ٨٩]». تفسير آيات أشكلت (١/ ١٧٣).

(٢) ذكر وجه ثالث في معنى العود، ذكره ابن عطية، وهو العود إلىٰ ترك الأمر والنهي والدعوة إلىٰ الإيمان كما كانوا قبل أن يرسلوا. واعترض شيخ الإسلام على هذا بأن العود حينئذ يكون للرسل خاصة. تفسير آيات أشكلت (١/ ١٦٨).

وكذلك قال صريحًا عن إبراهيم في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، فنقل ابن جرير عن ابن عبَّاس: أن إبراهيم كان يظنُّ ربوبيَّة الكوكب في ذلك الزَّمن.

ونحن نقول: إن قوله في الخليل إبراهيم غلط محض، لا شكَّ فيه، **وإن نسبه إلىٰ ابن عبَّاس**؛ لأنَّ الآيات القرآنيَّة صرَّحت بأنَّ إبراهيم لم يكن من المشركين، **ونفت عنه الشِّرك في الكون الماضي، والكون الماضي يستغرق كلَّ الزَّمن**، كقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفي الشِّرك عن إبراهيم في الكون الماضي، والكون الماضي مستغرق، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠]، ونحو ذلك من الآيات، فنفي هذا عن إبراهيم صريح، ونفيه عن شعيب لم يقم دليل عليه في الصَّراحة كإبراهيم».

وأمَّا وقوع ما ينافي التَّوحيد منهم بعد البعثة فهذا ممتنع، وهو يضادُّ ما بعثوا به من تحقيق التَّوحيد!

وكذلك الحال بالنِّسبة لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإنَّ بعض العلماء يرىٰ أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] في آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل إنَّ العلامة سليمان بن عبد الله آل الشَّيخ يرىٰ أن نسبة ذلك إلىٰ غير آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أقوال وتفاسير المبتدعة، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص(٦٣٠).

«والعجب ممَّن يكذِّب بهذه القصَّة، وينسىٰ ما جرىٰ أوَّل مرَّة، ويكابر بالتَّفاسير المبتدعة، ويترك تفاسير السَّلف وأقوالهم. وليس المحذور في هذه القصَّة بأعظم من المحذور في المرَّة الأولىٰ»[1].

ولعلَّ ممَّا يساعد العلامة سليمان بن عبد الله آل الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ اعتبار تفسير القصَّة في غير آدم وحوَّاء من التَّفاسير المبتدعة - الإجماع الَّذي حكاه شيخ المفسِّرين ابن جرير الطَّبريُّ حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأولىٰ القولين بالصَّواب قول من قال: عنىٰ بقوله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾ في الاسم لا في العبادة، وأنَّ المعنيَّ بذلك آدم وحوَّاء؛ لإجماع الحجَّة من أهل التَّأويل علىٰ ذلك».

ولكن لا بدَّ هنا من ملاحظة اصطلاح الطَّبريِّ في «الإجماع» فإنَّه يريد به الأكثر وليس عدم وجود المخالف، بدليل حكايته للأقوال الأخرىٰ من مقالات كبار أئمَّة السَّلف، كالحسن البصريِّ، الَّذي اختاره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال[3]: «وأمَّا نحن فعلىٰ مذهب الحسن البصريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

---

(١) وتأول فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله عمل آدم على أنه تشريك وليس بشرك، وأن التشريك هو طاعة الشيطان ومعصية الله وأن هذا كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وهذا اختيار قتادة في تفسير الآية. انظر التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ص(٤٩٩).

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن (١٠/ ٦٢٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٨).

هذا، وأنَّه ليس المراد من هذا السِّياق آدم وحوَّاء، وإنَّما المراد من ذلك المشركون من ذرِّيَّته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠]».

ثمَّ قال[1]: «فذكر آدم وحوَّاء أوَّلًا كالتَّوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشَّخص إلىٰ الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، ومعلوم أنَّ المصابيح هي النُّجوم الَّتي زيِّنت بها السَّماء وليست هي الَّتي يرىٰ بها، وإنَّما هذا استطراد من شخص المصابيح إلىٰ جنسها، ولهذا نظائر في القرآن».

ووالدنا العلامة الجهبذ محمَّد الصَّالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقَّق الأمر، وفصل الخطاب في ذلك بما يدلُّ علىٰ رسوخه وإمامته حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وهذه القصَّة باطلة من وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّه ليس في ذلك خبر صحيح عن النَّبيِّ ﷺ، وهذا من الأخبار الَّتي لا تتلقَّىٰ إلَّا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصَّة: إنَّها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثَّاني: أنَّه لو كانت هذه القصَّة في آدم وحوَّاء، لكان حالهما إمَّا أن يتوبا من الشِّرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه. كان ذلك أعظم من قول

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٨).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٣/ ٦٧، ٦٨).

بعض الزَّنادقة[1]:

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا
علمنا بأنَّ الخلق من نسل فاجر وأنَّ جميع النَّاس من عنصر الزِّنا

فمن جوَّز موت أحد من الأنبياء علىٰ الشِّرك فقد أعظم الفرية، وإن كانا تابا من الشِّرك فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما، ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحوَّاء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالىٰ إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها.

الوجه الثَّالث: أن الأنبياء معصومون من الشِّرك باتِّفاق العلماء.

الوجه الرَّابع: أنَّه ثبت في حديث الشَّفاعة أنَّ النَّاس يأتون إلىٰ آدم يطلبون منه الشَّفاعة فيعتذر بأكله من الشَّجرة وهو معصية، ولو وقع منه الشِّرك لكان اعتذاره به أعظم وأولىٰ وأحرىٰ.

الوجه الخامس: أن في هذه القصَّة أنَّ الشَّيطان جاء إليهما، وقال: «أنا صاحبكما الَّذي أخرجتكما من الجنَّة». وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، بل هذا وسيلة إلىٰ ردِّ كلامه، فيأتي بشيء يقرب من قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكما الَّذي أخرجتكما من الجنَّة»، سيعلمان علم اليقين أنَّه عذر لهما فلا

---

(١) وهو أبو العلاء المعري.

يقبلان منه صرفًا ولا عدلًا.

الوجه السَّادس: أن في قوله في هذه القصَّة: «لأجعلنَّ له قرني إيَّل». إمَّا أن يصدِّقا أنَّ ذلك ممكن في حقِّه، وهذا شرك في الرُّبوبيَّة؛ لأنَّه لا خالق إلَّا الله، أو لا يصدِّقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقِّه.

الوجه السَّابع: قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] بضمير الجمع، ولو كان آدم وحوَّاء لقال: عمَّا يشركان.

فهذه الوجوه تدلُّ علىٰ أنَّ هذه القصَّة باطلة من أساسها، وأنَّه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحوَّاء أن يقع منهما شرك بأيِّ حال من الأحوال، والأنبياء منزَّهون عن الشِّرك مبرَّءون منه باتِّفاق أهل العلم، وعلىٰ هذا فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنَّها عائدة إلىٰ بني آدم الَّذين أشركوا شركًا حقيقيًا، فإن منهم مشركًا، ومنهم موحِّدًا».

والعلامة صالح الفوزان رجَّح أن الآية في آدم وحوَّاء، وقال حفظه الله: «هذا ليس بشرك أكبر، إنَّما هو شرك أصغر، وهو شرك في الطَّاعة والألفاظ، لا في المعاني والمقاصد والنِّيَّات، وقد يقع من الأنبياء بعض الذُّنوب الصِّغار الَّتي عاتبهم الله عليها، ثمَّ يتوبون منها ويتوب عليهم»[1].

(١) إعانة المستفيد (٢/ ٢٠٥- ٢٠٦).

وقال العلامة عبد الرَّحمن القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال ابن القيم: النَّفس الواحدة، وزوجها آدم وحوَّاء، واللَّذان ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾: المشركون من أولادهما. ولا يلتفت إلىٰ غير ذلك ممَّا قيل: «إن آدم وحوَّاء كانا لا يعيش لهما ولد، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث. ففعلا، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك».

وأوَّل المرسلين هو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأوَّل النَّبيِّين هو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد قامت الأدلَّة علىٰ التَّفريق بين النَّبيِّ والرَّسول، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحجُّ: ٥٢]. وفي حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا علَّمه النَّبيُّ ﷺ ما يدعو به إذا أتىٰ مضجعه، فإن البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا ردَّد علىٰ النَّبيِّ ﷺ الدُّعاء، وبلغ: «**اللَّهمَّ آمنت بكتابك الَّذي أنزلت**» قلت: «ورسولك». قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا، ونبيِّك الَّذي أرسلت**»[(٢)].

قال الخطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]:

«**فلو قال (وبرسولك) ثمَّ أتبعه بقول:** (الَّذي أرسلت) لصار البيان معادًا

---

(١) حاشية كتاب التوحيد، ص(٣٣٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء (١/ ٣٥٧ - رقم ٢٤٧).

(٣) أعلام الحديث (١/ ٢٩٨).

مكرَّرًا، فقال: «**ونبيِّك الَّذي أرسلت**»، إذ قد كان نبيًّا قبل أن يكون رسولًا؛ ليجمع له الثَّناء بالاسمين معًا، وليكون تعديدًا للنِّعمة في الحالين وتعظيمًا للمنَّة علىٰ الوجهين».

وقد خاض العلماء في ذكر الفرق بين النَّبيِّ والرَّسول، فقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

«والمقصود هنا الكلام علىٰ النُّبوَّة، فالنَّبيُّ هو الَّذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله[2] به، فإن أرسل مع ذلك إلىٰ من خالف أمر الله؛ ليبلِّغه رسالةً من الله إليه فهو رسول، وأمَّا إذا كان يعمل بالشَّريعة قبله، ولم يرسل هو إلىٰ أحد يبلِّغه عن الله رسالةً فهو نبي، وليس برسول، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحجُّ: ٥٢]، وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فذكر إرسالًا يعمُّ النَّوعين، وقد خصَّ أحدهما بأنَّه رسول، فإن هذا هو الرَّسول المطلق الَّذي أمره بتبليغ رسالته إلىٰ من خالف الله، كنوح».

---

(١) النبوات ص(٢٥٥).

(٢) توهم بعض طلبة العلم أن معنى تعريف شيخ الإسلام للنبي: أنه يأخذ بشريعة من قبله ولا يبلغها، ثم ردوا على شيخ الإسلام تعريفه بأن تبليغ العلم والشرع مأمور به العلماء فضلًا عن النبيين، وهذا سوء فهم لكلام شيخ الإسلام؛ فإنه أراد أنه ليس له شريعة جديدة يؤمر بتبليغها، وإنما هو مجدد لشريعة من قبله.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا**[١]:

«وليس من شرط الرَّسول أن يأتي بشريعة جديدة؛ فإن يوسف كان رسولًا، وكان علىٰ ملَّة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا علىٰ شريعة التَّوراة، قال تعالىٰ عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النِّساء: ١٦٣].

وقال شيخنا العلامة محمَّد الصَّالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحًا كلام شيخ الإسلام[٢]: «والَّذي يفهم من كلام شيخ الإسلام في «النُّبوَّات» أنَّه يرىٰ أن النَّبيَّ مرسل مكلَّف بتبليغ، لكن ليس له شرع جديد، إنَّما شرعه شرع من قبله. ولعلَّ قوله هذا يؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. أي: يتوارث.

وأنَّ الفرق بين النَّبيِّ والرَّسول: أن النَّبيَّ من أرسل بشرع من قبله، أي: أوحي إليه بهذا الشَّرع، وأن الرَّسول من أوحي إليه بشرع جديد، وأمر بتبليغه.

---

(١) النبوات ص(٢٥٧).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١/ ١١١).

فيكون الأنبياء في بني إسرائيل بمنزلة العلماء في هذه الأمَّة، فعلماء هذه الأمَّة علموا شرع النَّبيِّ ﷺ، وأولئك أوحي إليهم بشرع من قبلهم»[(١)].

وأمَّا وجه الجمع بين كون آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا، وأنَّ نوحًا أوَّل رسول في ضوء ما تقدَّم من التَّفريق بين النَّبيِّ والرَّسول، فقد قال العلامة محمَّد الأمين الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «والظَّاهر أنَّه لا طريق للجمع إلَّا من وجهين:

الأوَّل: أنَّ آدم أرسل لزوجه وذرِّيَّته في الجنَّة، ونوحًا أوَّل رسول أرسل في الأرض، ويدلُّ لهذا الجمع ما ثبت في الصَّحيحين وغيرهما، ويقول: «**ولكن ائتوا نوحًا؛ فإنَّه أوَّل رسول بعثه الله إلىٰ أهل الأرض**».

لو لم يرد به الاحتراز عن رسول بعث لغير أهل الأرض - لكان ذلك الكلام حشوًا، بل يفهم من مفهوم مخالفته ما ذكرنا.

الوجه الثَّاني: أن آدم أرسل إلىٰ ذرِّيَّته وهم علىٰ الفطرة، لم يصدر منهم كفر فأطاعوه، **ونوحًا هو أوَّل رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك** بالله تعالىٰ، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، ويدلُّ لهذا الوجه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [يونس: ١٩] الآية».

---

(١) لكن شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ استدرك وقال: «ولكنه ينتقض بآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن آدم نبي ولم يكن تابعًا لشريعة سابقة، والقول إذا انتقض صار ضعيفًا». تفسير سورة «ص» ص(٧٠).

(٢) أضواء البيان (١/ ١٩٥).

وأمَّا عدد الأنبياء فقد ورد أنَّهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبيٍّ[(١)]، وقد ورد ما يخالفه، وهو أنَّهم ثمانية آلاف، أربعة آلاف إلىٰ بني إسرائيل، وأربعة آلاف إلىٰ سائر النَّاس، ولا يصحُّ[(٢)].

والإيمان بالرُّسل يقتضي الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، قال والدنا العلامة محمَّد الصَّالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «ممَّا يتضمَّنه الإيمان بالرُّسل: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم». ثمَّ قال[(٤)]: «وأمَّا من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨]».

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والحاكم في كتاب التفسير، باب من سورة البقرة (٢/ ٢٦٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٣٩-رقم ٧٥٤٥)، وفي الأوسط (١/ ٢٥٦ -رقم ٤٠٥) من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.
قال الحاكم: هذا حديث على شرط مسلم. ورمز له الذهبي في التلخيص بذلك (م).
وورد من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، رواه الحاكم (٢/ ٥٩٧)، وقال ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧/ ٢٦٩٩): «هذا حديث منكر».
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١٠): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.
(٢) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٧/ ١٣١- رقم ٤٠٩٢)، (٧/ ١٥٩-رقم ١٣٧٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، تفرد به عنه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.
وأعله الحافظ الذهبي في تلخيص المستدرك (٢/ ٥٩٧) بإبراهيم بن مهاجر ويزيد.
وقد ورد عن ابن مسعود ما يدل على كثرة عدد أنبياء بني إسرائيل، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار. رواه أبو داود الطيالسي، إسناده صحيح موقوف على ابن مسعود، واستنكر متنه العلامة مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٠٢).
(٣، ٤) نبذة في العقيدة الإسلامية ص(٢٦).

وهؤلاء النَّبيُّون جميعًا دعوتهم واحدة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فلذلك وجب الإيمان بهم جميعًا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والتَّفريق في الإيمان بينهم كفر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النِّساء: ١٥٠، ١٥١]، وإذا كان الواحد من النَّبيِّين يؤمن بسائر إخوانه، فلا يتحقَّق الإيمان بنبوَّة الواحد منهم إلَّا بما آمن به ذلك النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة(١): «والله جعل من دين الرُّسل أن أوَّلهم يبشِّر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأوَّلهم ويؤمن به».

ولذلك كان المكذِّب برسول واحد مكذِّبًا بجميع المرسلين، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٠٥]، قال والدنا العلامة محمَّد الصَّالح العثيمين(٢): «فجعلهم مكذِّبين لجميع الرُّسل مع أنَّه لم يكن رسول غيره حين كذَّبوه».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «وقد اتَّفق المسلمون علىٰ ما هو

---

(١) الرسالة التدمرية ص(١٧٠).

(٢) نبذة في العقيدة الإسلامية ص(٢٦).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٣٤٣).

معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنَّه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزل الله من الكتب، فمن كفر بنبيٍّ واحد تعلم نبوَّته مثل: إبراهيم، ولوط، وموسىٰ، وداود، وسليمان، ويونس، وعيسىٰ - فهو كافر عند جميع المسلمين، حكمه حكم الكفَّار».

ومع هذا ينبغي التَّفريق بين من كذَّب جنس الرُّسل، ومن كذَّب رسولًا واحدًا بخصوصه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولهذا يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٤١]، ونحو ذلك، وكل من هؤلاء إنَّما جاءه رسول واحد، لكن كانوا مكذِّبين بجنس الرُّسل، لم يكن تكذيبهم بالواحد لخصوصه، **وهذا بخلاف تكذيب اليهود والنصارىٰ لمحمَّد** ﷺ، **فإنَّهم لم يكذبوا جنس الرُّسل، إنَّما كذبوا واحدًا بعينه**، بخلاف مشركي العرب الَّذين لم يعرفوا الرُّسل، فإن الله يحتجُّ عليهم في القرآن بإثبات جنس الرِّسالة».



(١) الرد على المنطقيين ص(٣٦٩).

الإيمان باليوم الآخر: اليوم الآخر هو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، وهو يوم الحساب والجزاء؛ فيُكرم الله المؤمنين أهل طاعته ويُدخلهم الجنة، ويرزقهم فوق ذلك أعظم النعيم، وهو النظر إلىٰ وجهه الكريم، ويعذب الله الكافرين ويدخلهم النار خالدين فيها أبدًا.

واليوم الآخر قيامته علمه عند ربي، لا يعرف متىٰ تقوم الساعة إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وسأل جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ النبي ﷺ: متىٰ الساعة؟ فقال النبي ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، رواه مسلم.

والساعة جعل الله لها علامات صغرىٰ وكبرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ [محمد: ١٨]، والشأن في معرفة الساعة العمل لها للفوز في الدار الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤]، وقال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة: ماذا أعددت لها؟

والساعة لا تقوم إلا يوم الجمعة كما قال النبي ﷺ، رواه مسلم.

ونؤمن بالنفخ في الصور ليقوم الناس لرب العالمين، فيجمع الله الخلق جميعًا في صعيد واحد، وتقترب الشمس من الخلائق مقدار ميل، ويصيب الناس كرب عظيم؛ فيشفع فيهم النبي ﷺ ليحاسبهم الله.

والناس إذا قاموا من قبورهم قاموا عطشىٰ، فيرد المؤمنون الذين لم يُغيّروا ولم يُبدّلوا شرع الله حوض نبينا ﷺ، فيشربون شربة لا يظمأون بعدها، وتُنصب الموازين بالقسط، وتوزن أعمال الخلائق وصحف أعمالهم، ويرد الناس الصراط وهو الجسر المنصوب علىٰ جهنم، وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، ويقتص الناس مظالمهم في قنطرة بعد الصراط.

والناس في اليوم الآخر مجزيون بأعمالهم، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، ومنازل أهل الجنة بحسب أعمالهم في الدنيا ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وفي يوم القيامة يظهر الغبن الحقيقي لمن أفنىٰ عمره في الدنيا بلا عمل صالح وأوبق نفسه بالكفر والعصيان، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وأول الأمم دخولًا الجنة أمة محمد ﷺ، قال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**» متفق عليه، وأمة محمد ﷺ أكثر أهل الجنة.

وأهوال يوم القيامة عظيمة يشيب لها الولدان، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ

حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ٢]، والمؤمنون في أمان يُنزل الله في قلوبهم السكينة، وتظلهم أعمالهم، ونورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

قال الموفق ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراةً غُرلًا بُهمًا، فيقفون في موقف القيامة حتىٰ يشفع فيهم نبينا محمد ﷺ، ويحاسبهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

ويظهر من فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر ما يليق برحمة الله، التي ادّخر منها تسعة وتسعين جزءًا لذلك اليوم العظيم؛ فيُدخل الله المؤمنين الجنة برحمته، ومن رضي عنهم؛ فإنه يتقبل منهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم، ويظهر فضل النبي ﷺ في ذلك اليوم العظيم؛ فيشفع إلىٰ ربه ويقول: «**أمتي، أمتي**». والناس كل مشغول بنفسه يريد السلامة والفكاك من النار، فيشفع النبي ﷺ في أهل الكبائر من أمته.

ويظهر من عدل الله في اليوم الآخر ما يليق بكمال عدل الله ﴿وَنَضَعُ

---

(١) لمعة الاعتقاد (ص٢٧).

ﭐلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

فالجنة دار المتقين الموحدين المؤمنين الطائعين لله يُكرمهم الله وهم في جواره وضيافته ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، والنار دار الكافرين العاصين، محجوبون عن الله، وفي النار خالدون، لا يفتر عنهم عذابها، ولا يقضىٰ عليهم فيموتوا، ولا يُخفف عنهم من عذابها ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦] .

علىٰ كل حال تفاصيل اليوم الآخر مذكورة في القرآن وصحيح السنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأصناف ما تتضمنه الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب، والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزَّلة من السماء، والأَثارةِ من العلم المأثورة عن الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي».



(١) الواسطية (ص٩٤).

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**ودليل القدر قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]».

الشَّرح:

الإيمان بالقدر ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر أركان الإيمان الستة بصفة مجملة، حيث قال[٢]: «وأركانه ستة: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره».

وعلاقة التوحيد بالقدر معلومة، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[٣]: «القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضًا للتوحيد، ومنْ وحّد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقىٰ لا انفصام لها».

فبالإيمان بالقدر يتحقق التوحيد، فإذا علم العبد أن الله هو الذي يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، وأنه الذي يثبّت العبد علىٰ لزومه إلىٰ أن يوافيه، وأنه في سيره إلىٰ الله في هذه الحياة الدنيا هو الذي يحفظه ويرزقه ويعافيه ويكفيه؛ أوجب له ذلك سؤال ربه، ودعاءه، وعبوديته، والتوكل عليه، ورجاءه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «من تدبّر طريقة القرآن تبيّن له أنّ الله سبحانه

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٩، ٢٠).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٩).

(٣) السنة، لعبد الله ابن الإمام أحمد (٢/ ٤٢٢).

(٤) طريق الهجرتين (ص ١٧٢).

يدعو عباده بهذا الوجه إلىٰ الوجه الأول؛ فهذا الوجه يقتضي التوكل علىٰ الله؛ والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه، ويقتضي – أيضًا – محبته وعبادته؛ لإحسانه إلىٰ عبده وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبده وأحبّه وتوكّل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأول. وهكذا كمن نزل به بلاء عظيم، وفاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله وتضرّع إليه حتىٰ فتح له من لذيذ مناجاته له باب الإيمان والإنابة إليه، وما هو أحبّ إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولًا، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولًا حتىٰ يطلبه ويشتاق إليه، فعرّفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه. والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلىٰ الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا؛ فهذا الوجه يُحقّق التوكل علىٰ الله، والشكر له، ومحبته علىٰ إحسانه».

وهذه الجمل في بيان تحقق العبد بالتوحيد بإيمانه بالقدر كان يُعلِّمها النبي ﷺ الصبيان والغلمان، يُربِّيهم بالعقيدة الصحيحة؛ ليستقبلوا سني عمرهم بالتوكل علىٰ الله والثقة به، مع بذل أسباب نصرة الله وحفظه.

قال النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يا غلام! إني مُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك لم يضروك**

إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف».

الإيمان بالقدر من قسم توحيد الربوبية، فلا يقع شيء إلا بمشيئة الله، والله خالق لفعل العبد ولكل ما يقدِّره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومتعلق بتوحيد العبودية من جهة كسب العبد وتألهه لله وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبد له ملاحظتان: ملاحظة للوجه الأول، وملاحظة للوجه الثاني، والكمال أن لا يغيب بإحدىٰ الملاحظتين عن الأخرىٰ، بل يشهد قضاء الرب تعالىٰ وقدره ومشيئته، ويشهد مع ذلك فعله وجنايته، وطاعته ومعصيته، فيشهد الربوبية والعبودية، فيجتمع في قلبه معنىٰ قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، مع قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]».

والإيمان بالقدر له متعلق بتوحيد الأسماء والصفات أيضًا، من جهة براءة العبد من حوله وقوته، واستعانته بربِّه في الإتيان بأموره الدينية والدنيوية[2].

وفي قول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «ودليل القدر قوله

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٣).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).

(٣) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٩، ٢٠).

تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]»، تنبيه علىٰ مراتب القدر، وهي أربعة مجموعة في قول الشاعر:

علم كتابة مولانا مشيئته … خلقه وهو إيجاد وتكوين

فالمرتبة الأولىٰ: العلم: وهو علم الله السابق بما سيكون من أعمال العباد وأفعالهم؛ فهو يعلم ما الخلق عاملين قبل أن يوجدهم، ويعلم ما كان، وما يكون، وما لو كان كيف يكون ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «القضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القدر قدرة الله.

واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفىٰ بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر».

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيّنًا ذلك**[٢]: «ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالىٰ بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرًا؛ كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال في حم فُصلت بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١٢]، وذكر

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٦٠).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٢٦١ - ٢٦٣).

نظير هذا في الأنعام فقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ [الأنعام: ٩٦].

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله علىٰ الغاية المحمودة المطلوبة للرب تعالىٰ.

وكذلك ارتباط أمره بعلمه وحكمته وعزّته؛ فهو عليم بخلقه وأمره، حكيم في خلقه، عزيز في خلقه وأمره، ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنىٰ، والحكمة من صفاته العلىٰ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها علىٰ الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة، والحكمة هي سنّة الرسول ﷺ، وهي تتضمّن العلم بالحق والعمل به، والخبر عنه، والأمر به؛ فكلّ هذا يُسمىٰ حكمة. فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده، وهو محمود علىٰ جميع ما في الكون من خير وشر حمدًا استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره؛ فمصدر ذلك كله عن الحكمة؛ فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ متحدثًا عن مراتب القدر[1]:

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٤٨، ١٤٩).

«تؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقدر علىٰ درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولىٰ: الإيمان بأن الله تعالىٰ علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق: «فأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطُويت الصحف، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذا التقدير - التابع لعلمه سبحانه - يكون في مواضع جملة وتفصيلًا؛ فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، ونحو ذلك، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا، ومنكره اليوم قليل.

وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره ولا رب سواه».

والعبد له إرادة ومشيئة يختار بها الفعل، لذلك يحاسبه الله علىٰ فعله، قال تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومع هذا عبودية العبد لله هو حق لله وهو لمصلحة العبد في دينه ودنياه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال النبي ﷺ: «**حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا**» متفق عليه، وعبودية المخلوق وطاعته لله هي لمصلحة العبد نفسه؛ فإنه يعتق رقبته من النار، ويصون نفسه عن الضار؛ فإن الله لا ينهىٰ عباده إلا عما هو متمحض في الضرر، أو ضرره أكثر من نفعه ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ويصون المجتمع عمّا يضره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ فالله خلق الأرض وفطر الخلق علىٰ الإسلام والتوحيد، وبعث الرسل بذلك، فلزوم التوحيد وطاعة

الرسل صلاح للأرض وأهلها، والخروج عن الشرع بالشرك والبدع والمعاصي إفساد لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات المخبرة بأن العباد فاعلون، لا تنافي آيات القدر المتضمنة أن الله خلق أفعال العباد، فإن كثيرًا من الناس تاهوا في الغايات المقصودة، كما تاه كثير من الناس في الأسباب الفاعلة، ولا بد من توحيد الربوبية بأن يكون الله خالق كل شيء وبأن يكون الله هو المعبود المقصود بذاته بالأفعال لا سواه.

ولا يدفع ذلك من إثبات فعل العبد وقدرته ومشيئته واعتقاده، كما أنه لا بد من إثبات انتفاع العبد بالفعل، وأنه يعمل مصلحته ومنفعته، وأنه وإن قصد غيره فمقصده هذا؛ لأن في كون ذلك مقصودًا معبودًا صلاحه وانتفاعه».

فإذا تبين أن للعبد إرادة ومشيئة يختار بها فعله، فلا بد أن تكون إرادته تابعةً لشرع الله وأمره؛ ليحقق عبوديته لله، ولتكون أعماله علىٰ الصواب والسداد، وتكون مصلحة له في سعادته في الدارين ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٥٥).

وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال النبي ﷺ «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

وبهذا نعرف أن الله خلقه وأمره كله لحكمة ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وأن مشيئة العبد كما أنها تابعة لمشيئة الله كونًا، فلا يقع في ملك الله إلا ما شاء ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، إلا أنه ينبغي للعبد أن يختار ويفعل ما أمر الله به؛ لأنه تحقيق للعبودية لله، ولأن أوامر الله كلها حكمة.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فكما أنه تعالىٰ أخبر أنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه فعالٌ لما يريد، وأنه إذا أراد أمرًا قال له: كن. فيكون، وأن كل شيء خلقه بقدر، وكل صغير وكبير مستطر؛ فكذلك قد أخبر أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض ومن فيهن بالحق، ولم يخلقهما باطلًا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [ص: ٢٧]، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالات علىٰ الأصلين، وهما: عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر.

هذا الذي يتعين علىٰ المكلفين الاعتراف به واعتقاده».

---

(١) الدُرَّة البهيّة شرح القصيدة التائية (ص٢٩).

والله خلق عباده على الفطرة، وكون المولود يولد علىٰ الفطرة كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غير كافٍ وحده للحكم بإسلام كل مولود؛ إذ لا بد له من الإيمان بالإسلام ولزوم شرائعه، وإلا كان كافرًا؛ لعدم انقياده وهو كفر التولي؛ قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ، قالوا: ومن يأبىٰ؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا معنىٰ حديث: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة**»(١): «الصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «ولا يلزم من كونهم مولودين علىٰ الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل؛ فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ولكن سلامة القلب وقبوله

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٤٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٤٧).

وإرادته للحق الذي هو الإسلام، بحيث لو تُرك من غير مُغيّر لما كان إلا مسلمًا. وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها».

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة؛ إقرارًا بربوبية الله وافتقارًا إلىٰ هدايته، لا احتجاجًا بالقدر علىٰ الذنوب والمعاصي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبد إذا اعترف وأقرَّ بأنَّ الله خالق أفعاله كلِّها، فهو علىٰ وجهين. إن اعترف به إقرارًا بخلق الله كلَّ شيء بقدرته، ونفوذ مشيئته، وإقرارًا بكلماته التَّامَّات الَّتي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر، واعترافًا بفقره وحاجته إلىٰ الله، وأنَّه إن لم يهده فهو ضالٌّ، وإن لم يتب عليه فهو مصرٌّ، وإن لم يغفر له فهو هالك؛ خضع لعزَّته وحكمته؛ فهذا حال المؤمنين الَّذين يرحمهُم الله، ويهديهم، ويوفِّقهم لطاعته.

وإن قال ذلك احتجاجًا علىٰ الرَّبِّ، ودفعًا للأمر والنَّهي عنه، وإقامةً لعذر نفسه؛ فهذا ذنب أعظم منَ الأوَّل، وهذا من أتباع الشَّيطان، ولا يزيده ذلك إلَّا شرًّا، وقد ذكرنا أنَّ الرَّبَّ سبحانه محمود لنفسه ولإحسانه إلىٰ خلقه، ولذلك هو يستحقُّ المحبَّة لنفسه ولإحسانه إلىٰ عباده، ويستحقُّ أن يرضىٰ العبد بقضائه؛ لأنَّ حكمه عدل لا يفعل إلَّا خيرًا وعدلًا، ولأنَّه لا يقضي

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣١٦، ٣١٧).

للمؤمن قضاءً إلَّا كان خيرًا له؛ «**إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له**».

فالمؤمن يرضىٰ بقضائه؛ لما يستحقُّه الرَّبُّ لنفسه - من الحمد والثَّناء -، ولأنَّه محسن إلىٰ المؤمن».

والبدعة في القدر ظهرت في آخر عهد الصحابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في آخر عصر الصَّحابة حدثت «القدريَّة»، وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله، والإيمان بأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وظنُّوا أنَّ ذلك ممتنع، وكانوا قد آمنوا بدين الله، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وظنُّوا أنَّه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أنَّ المأمور يعصيه ولا يطيعه، وظنُّوا أيضًا أنَّه إذا علم أنَّهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنَّه يفسد، فلمَّا بلغ قولهم بإنكار القدر السَّابق الصَّحابة، أنكروه إنكارًا عظيمًا، وتبرَّءوا منهم، حتَّىٰ قال عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أخبر أولئك أنِّي بريء منهم، وأنَّهم منِّي برآء. والَّذي يحلف به عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لو أنَّ لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا فأنفقه، ما قبله الله منه حتَّىٰ يؤمن بالقدر. وذكر عن أبيه حديث جبريل، وهذا أوَّل حديث في «صحيح

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٦).

مسلم»، وقد أخرجه البخاريُّ ومسلم من طريق أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مختصرًا».

ونقص علم المبتدعة في القدر، وعدم قدرتهم علىٰ فقه النصوص والجمع بين الشرع والأمر والنهي؛ جعلهم ينكرون مراتب القدر كلها: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، وصاروا بسبب ذلك مبطلين ومعطلين لتوحيد الألوهية، ومشركين في توحيد الربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «أصل ضلالهم ظنُّهم أنَّ القدر يناقض الشَّرع؛ فصاروا حزبين: حزبًا يعظِّمون الشَّرع، والأمر والنَّهي، والوعد والوعيد، واتِّباع ما يحبُّه الله ويرضاه، وهجر ما يبغضه وما يسخطه، وظنُّوا أنَّ هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر؛ فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، كما قطعتِ الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة، ففرقوا بين الكتاب والسنة، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين، وفرقوا بين المسلمين، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل».

وبيّن شيخ الإسلام ما وقع القدرية فيه بسبب جهلهم بالجمع بين الشرع والأمر والنهي، فقال[٢]: «أنكروا أن يكون الله علىٰ كلِّ شيء قدير، ومنهم

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢١٢).

من أنكر أن يكون الله بكلِّ شيء عليمًا، وأنكروا أن يكون خالقًا لكلِّ شيء، وأن يكون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنكروا أن يكون الله فعَّالًا لما يشاء».

وأزال شيخ الإسلام جهل من عجز عن الجمع بين الشرع والأمر والنهي، وبيّن ائتلاف النصوص، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إرادته – سبحانه – قسمان:

إرادة أمر وتشريع، وإرادة قضاء وتقدير.

فالقسم الأوَّل: إنَّما يتعلَّق بالطَّاعات دون المعاصي، سواء وقعت أو لم تقع، كما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأمَّا القسم الثَّاني: وهو إرادة التَّقدير، فهي شاملة لجميع الكائنات، محيطة بجميع الحادثات، وقد أراد من العالم ما هم فاعلوه بهذا المعنىٰ لا بالمعنىٰ الأوَّل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وفي قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ونظائره كثيرة.

وهذه الإرادة تتناول ما حدث منَ الطَّاعات والمعاصي، دون ما لم يحدث،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٩٧- ٢٠٠).

كما أنَّ الأولىٰ تتناول الطَّاعات؛ حدثت أو لم تحدث، والسَّعيد من أراد منه تقديرًا ما أراد به تشريعًا، والعبد الشَّقيُّ من أراد به تقديرًا ما لم يرد به تشريعًا.

والحكم يجري علىٰ وفق هاتين الإرادتين؛ فمن نظر إلىٰ الأعمال بهاتين **العينين كان بصيرًا، ومن نظر إلىٰ القدر دون الشَّرع، أو الشَّرع دون القدر، كان أعور**؛ مثل قريش الَّذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فإنَّ هؤلاء اعتقدوا أنَّ كلَّ ما شاء الله وجوده وكونه وهي - الإرادة القدريَّة - فقد أمر به ورضيه دون الإرادة الشَّرعيَّة، ثمَّ رأوا أنَّ شركهم بغير شرع ممَّا قد شاء الله وجوده؛ قالوا: فيكون قد رضيه وأمر به. قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ بالشَّرائع من الأمر والنَّهي ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾، بأنَّ الله شرع الشِّرك وتحريم ما حرَّمتموه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ في هذا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهو توهُّمكم أنَّ كلَّ ما قدَّره فقد شرعه ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ أي: تكذِّبون وتفترون بإبطال شريعته ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤٩] علىٰ خلقه حين أرسل الرُّسل إليهم، فدعوهم إلىٰ توحيده وشريعته، ومع هذا

فلو شاء هدىٰ الخلق أجمعين إلىٰ متابعة شريعته، لكنَّه يمنُّ علىٰ من يشاء فيهديه؛ فضلًا منه وإحسانًا، ويحرم من يشاء؛ **لأنَّ المتفضِّل له أن يتفضَّل، وله أن لا يتفضَّل؛ فترك تفضُّله علىٰ من حرمه عدل منه وقسط، وله في ذلك حكمة بالغة.**

وهو يعاقب الخلق علىٰ مخالفة أمره وإرادته الشَّرعيَّة، وإن كان ذلك بإرادته القدريَّة فإنَّ القدر كما جرىٰ بالمعصية جرىٰ أيضًا بعقابها، كما أنَّه سبحانه قد يقدِّر علىٰ العبد أمراضًا تعقبه آلامًا؛ فالمرض بقدره والألم بقدره، فإذا قال العبد: قد تقدَّمت الإرادة بالذَّنب فلا أعاقب. كان بمنزلة قول المريض: قد تقدَّمت الإرادة بالمرض فلا أتألَّم، وقد تقدَّمت الإرادة بأكل الحارِّ فلا يحمُّ مزاجي. أو: قد تقدَّمت بالضَّرب فلا يتألَّم المضروب. وهذا مع أنَّه جهل، فإنَّه لا ينفع صاحبه؛ بل اعتلاله بالقدر ذنب ثان يعاقب عليه أيضًا، وإنَّما اعتلَّ بالقدر إبليس؛ حيث قال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]، وأمَّا آدم فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول كما قال آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو نحوه، ومن أراد شقاوته اعتلَّ بعلَّة إبليس أو نحوها؛ فيكون كالمستجير من الرَّمضاء بالنَّار، ومثله مثل رجل طار إلىٰ داره شرارة نار، فقال له العقلاء: أطفئها؛ لئلَّا تحرق المنزل. فأخذ يقول: من أين كانت؟ هذه ريح ألقتها، وأنا لا ذنب لي في هذه النَّار. فما زال يتعلَّل بهذه العلل، حتَّىٰ استعرت وانتشرت وأحرقت

الدَّار وما فيها.

هذه حال من شرع يحيل الذُّنوب علىٰ المقادير، ولا يردُّها بالاستغفار والمعاذير، بل حاله أسوأ من ذلك بالذَّنب الَّذي فعله؛ بخلاف الشَّرارة؛ فإنَّه لا فعل له فيها، والله سبحانه يوفِّقنا وإيَّاكم وسائر إخواننا لما يحبُّه ويرضاه؛ فإنَّها لا تنال طاعته إلَّا بمعونته، ولا تترك معصيته إلَّا بعصمته، والله أعلم».

ومعرفة مرتبة المشيئة في القدر توجب علىٰ الموحِّد رد الأمور إلىٰ مشيئة الله، والاستعانة به في فعل الأمور، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالىٰ عن شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد علمت الرسل أنه من الممتنع علىٰ الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يُضل بها من يشاء ويهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فرد الأمر إلىٰ مشيئته وعلمه؛ فإن له سبحانه في خلقه (علمًا محيطًا)، ومشيئة نافذة وراء ما يعلمه الخلائق؛ فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر ومشيئة أخرىٰ وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه.

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

ومثله قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٠]. فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلىٰ مشيئة الرب وعلمه، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن لا يقول لشيء إنه فاعله حتىٰ يستثني بمشيئة الله؛ فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله».

فعلاقة القدر بتوحيد الأسماء والصفات ظاهرة جدًّا، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تأمل قول النبي ﷺ: «**ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضائك**»، كيف ذكر العدل في القضاء مع الحكم النافذ، وفي ذلك رد لقول الطائفتين القدرية والجبرية؛ فإن العدل الذي أثبتته القدرية منافٍ للتوحيد، معطل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته، والعدل الذي أثبتته الجبرية منافٍ للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل.

والعدل الذي هو اسمه وصفته ونعته سبحانه خارج عن هذا وهذا، ولم يعرفه إلا الرسل وأتباعهم، ولهذا قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]؛ فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم علىٰ صراط مستقيم».

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٠٢).

والإيمان بالقدر يوجب تحقيق توحيد العبودية، فإذا علم العبد أن أزمة الأمور كلها بيد الله، وأنه هو الذي يُقدّر المقادير؛ اجتهد في الطاعة التي توجب رضا الرب؛ فيتولاه الله ويكفيه ويرزقه ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، والكفاية علىٰ قدر العبودية، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ العبد إذا علم أنَّه لن يُصيبه إلا ما كتبَ الله له مِنْ خير وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم علىٰ خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة، علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافعُ، المعطي المانع؛ فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيدَ ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وإفرادَه بالطاعة، وحفظَ حدوده؛ فإنَّ المعبود إنَّما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُغني عابدَهُ شيئًا؛ فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يُعطي ولا يمنعُ غيرُ الله، أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء، والمحبة والسؤال، والتضرُّع والدعاء، وتقديم طاعته علىٰ طاعةِ الخلق جميعًا، وأنْ يتَّقي سخطه، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرَّخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عندَ الشدائد، ونسيانه في

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٣٦٤، ٣٦٥).

الرخاء، ودعاء من يرجون نفعه مِنْ دُونِه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]».

فعلاقة القدر بالتوحيد ظاهرة جدًّا، فالإيمان بالقدر من توحيد الله في ربوبيته؛ لأنه من توحيد الله بأفعاله، والفرقتان الجبرية والقدرية ضلت في توحيد الله في هذا الباب، فالجبرية نفوا فعل العبد الذي جعل الله له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فعله، وقالوا: هو مجبور. والقدرية نفوا تقدير الله لفعل العبد، وأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته وإرادته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهدىٰ الله أهل السنة لما اختلف فيه الجبرية والقدرية من الحق في أفعال العبد والقدر، فقالوا: العبد مختار لفعله، يفعل بقدرة وإرادة جازمة، والله خالق لفعله، ولا يقع شيء في ملك الله إلا بقدره ومشيئته.

قال المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والذين أشركوا به تعالىٰ في الربوبية منهم من أثبت معه خالقًا آخر، وإن لم يقولوا: إنه إله مكافيء له، وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية.

وربوبيته سبحانه للعالم الكاملة المطلقة تُبطل أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٥٩-٦١).

لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات».

وقال العلامة تقي الدين أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا العلاقة بين الإيمان بالقدر والتوحيد، وما وقع فيه القدرية من شرك[١]: «وشرك القدرية مختصر من هذا الباب، وباب يدخل منه إليه، ولهذا شبههم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالمجوس، كما ثبت عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وقد روىٰ أهل السنن منهم في ذلك مرفوعًا: «أنهم مجوس هذه الأمة»، وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد، وينفرد أحدهما عن الآخر.

والقرآن الكريم، بل الكتب المنزّلة من عند الله تعالىٰ كلها مصرّحة بالرد علىٰ أهل هذا الإشراك، كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شرك المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية؛ فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه؛ لا في الأفعال، ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات.

وحقيقة قول القدرية المجوسية أنه تعالىٰ ليس ربًّا لأفعال الحيوان، ولا تتناوله ربوبيته، إذ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليس في الوجود موجب ومقتض علىٰ

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٦٥، ٦٦).

(٢) شفاء العليل (١/ ٣٩٩).

الحقيقة إلا الله وحده؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، **هذا عمود التوحيد الذي لا يقوم إلا به**، والمسلمون من أولهم إلىٰ آخرهم مجمعون علىٰ أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**إن الواقع بمشيئته**، وإن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنىٰ كونه رب العالمين، وكونه القائم بتدبير عباده؛ فلا خلق ولا رزق، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط، ولا موت ولا حياة، ولا إضلال ولا هدًىٰ، ولا سعادة ولا شقاوة، إلا من بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مُدبّر سواه، ولا رب غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص: ٦٨] وقال: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، وقال: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ [الشورىٰ: ٤٩-٥٠] وقال: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥]».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المشيئة إرادة الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، فيُقال لرسول الله ﷺ: ما

---

(١) شفاء العليل (١/ ٤٠٧).

شاء الله ثم شئت. ولا يقال: ما شاء الله وشئت[١].

والله عَزَّوَجَلَّ لا يحاسب عباده بما يكون من أفعالهم بسابق علمه، وإنما يُحاسبهم بعد وقوع الفعل منهم؛ لكمال عدله، ولا تخرج أفعال العباد عن قضاء الله السابق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد أحوالهم، وما هم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلىٰ هذه الدار؛ ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم، والثواب والعقاب؛ بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك، وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه؛ إعذارًا إليهم وإقامة للحجة عليهم؛ لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا علىٰ علمك فينا، وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم، حصل العقاب علىٰ معلومه الذي أظهره للابتلاء والاختبار، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زيَّنه لهم من الدنيا، وبما ركَّب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

---

(١) شفاء العليل (١/ ٤١٣).

(٢) شفاء العليل (١/ ٣٥٦، ٣٥٧).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به الخلق.

وأخبر في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضًا، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدَّر عليهم الموت الذي ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب».

والعلاقة بين مرتبة العلم والكتابة معلومة ظاهرة؛ فالكتابة دالة علىٰ علم الله السابق بما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كتابته السابقة تدل علىٰ علمه بها قبل كونها، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال مجاهد: علم من إبليس المعصية، وخلقه لها، وعلم من آدم الطاعة، وخلقه لها».

---

(١) شفاء العليل (١/ ٣٢٥).

والتقدير خمسة أقسام:

التقدير الأول: التقدير السابق قبل خلق السموات والأرض، ودليله ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء**».

التقدير الثاني: عقيب خلق آدم، قدّر الله أعمال بني آدم وأرزاقهم، وآجالهم، وسعادتهم، وشقاوتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن الله أخذ علىٰ آدم ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصيباته، ثم أخرج من ظهره ولده كهيئة الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنه ربّهم، وكتب أجلهم ورزقهم ومصيباتهم. رواه الطبري.

التقدير الثالث: عند نفخ روح الجنين، ففي الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الله إليه الملَكَ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**».

التقدير الرابع: التقرير الحولي في ليلة القدر، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥﴾ [الدخان: ٣-٥]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا[(١)]: «يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة؛ من موت وحياة ورزق ومطر، حتىٰ الحجَّاج، يُقال: يحجُّ فلان، ويحجّ فلان».

التقدير الخامس: التقرير اليومي، في كل يوم، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال مجاهد[(٢)]: من شأنه: أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر ويعز ويذل، ويفك عانيًا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويتوب علىٰ قوم، ويكشف كربًا، ويغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا ويرفع آخرين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «كل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق».

والله عَزَّوَجَلَّ كما نعت نفسه ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فمن أقبل علىٰ الله؛ وفقه لكل خير وهداه، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧]، فإن قلت: ما هو الجواب عن قوله ﷺ: «**إن**

(١) شفاء العليل (١/ ٢٦٩).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٧٦).

(٣) شفاء العليل (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنَّة حتىٰ لم يبقَ بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار»؟!

فالجواب: أن عمل هذا الصنف مدخول؛ إما من جهة عدم الإخلاص، أو خبيئة كبر، أوجب له سوء الخاتمة، وإلا فإن سنة الله أن يزيد الذين اهتدوا هدًىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وأمَّا كون الرجل «**يعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب**» فإنَّ هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملًا صالحًا مقبولًا للجنةِ قد أحبَّه اللهُ ورَضِيَهُ لم يُبْطله عليه.

وقوله: «**لم يبقَ بينه وبينها إلَّا ذراع**» يُشْكِلُ علىٰ هذا التأويل، فيُقال: لمّا كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل علىٰ عمله حتىٰ يتمّ له، بل كان فيه آفة كامنةٌ ونكتةٌ خُذِلَ بها في آخر عُمُره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرَجَعَ إلىٰ موجبها، وعَمِلَتْ عملها، ولو لم يكن هناك غشٌّ وآفةٌ، لم يقلب الله إيمانه كفرًا ورِدَّةً مع صدقه فيه وإخلاصه، بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يَعْلَمُهُ بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس فإنَّ الله سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ فالربُّ تعالىٰ كان يعلمُ ما في قلبِ إبليس من الكُفر والكِبْرِ والحسد ما لا

---

(١) الفوائد (ص ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦).

يعلمه الملائكة، فلما أُمِروا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا إلىٰ الامتثال، وظهر ما في قلب عدوِّه من الكِبْرِ والغشِّ والحسد، فأبىٰ واستكبر وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره فحَقٌّ؛ فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلىٰ الشَّقاء؛ فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنَّما هو في حق الفُجَّار والكُفَّار، ومعنىٰ الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلةَ الله له علىٰ مكر السيِّئات بمكرهِ به إلا القومُ الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مكره:

أن يؤخِّر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوعُ اغترار، فيأنسوا بالذُّنوب، فيجيئهم العذابُ علىٰ غرَّةٍ وفترةٍ.

وأمرٌ آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذِكْرَهُ، فيتخلَّىٰ عنهم إذا تخلَّوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخلِّيه عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون وأمر آخر أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبرَ لهم عليه؛ فيفتنون به، وذلك مكرٌ».

وحديث جبريل في أركان الإيمان أن النبي ﷺ قال: «**أن تؤمن بالقدر**

خيره وشره»، فالشر في المقدور وليس في فعل الله، من ذلك ما يصيب العبد من مصائب فتكون سببًا في تكفير ذنوبه مع احتسابه، وسببًا في رفعة درجاته، وسببًا في انكساره لله وافتقاره إليه، قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمسلم**»، رواه مسلم

فالشر في المقضي، وليس في قضاء الله، وهذا الشر نسبي، تأمَّل هذا في آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أكله من الشجرة، كيف ترتَّبَ علىٰ ذلك من إهباطه للأرض وتكليفه وذريته وإرسال الرسل وإنزال الكتب وظهور من يعبد الله من عباده المؤمنين وما يقومون به من إصلاح الأرض بالدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: ««لا يقضي الله للمؤمن»»، والمؤمن هو الذي لا يصر علىٰ ذنب، بل يتوب منه؛ فيكون حسنة؛ كما قد جاء في عدة آيات، أن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله؛ لا يزال يتوب منه حتىٰ يدخل بتوبته منه الجنة. والذنب يوجب ذل العبد، وخضوعه، ودعاء الله، واستغفاره إياه، وشهوده بفقره، وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو؛ فيحصل للمؤمن - بسبب الذنب - من الحسنات ما لم يكن

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣٠).

يحصل بدون ذلك؛ فيكون هذا القضاء خيرًا له؛ فهو في ذنوبه بين أمرين: إما أن يتوب فيتوب الله عليه، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله، وإما أن يكفّر عنه بمصائب؛ تصيبه ضراء فيصبر عليها، فيكفّر عنه السيئات بتلك المصائب، وبالصبر عليها ترتفع درجاته».

ولا حجة لأحد في الاحتجاج بالقدر علىٰ كفره أو معصيته أو نقصه أو تضييعه لمصالح دينه ودنياه؛ فكل إنسان له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فعله، ومن ذلك سبيل الهداية أو الغواية، قال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

والله خلق كل مخلوق علىٰ الفطرة التي لو لزمها ولم ينحرف عنها؛ كان من أهل السعادة، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل مولود يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهّودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».

وليس لأحد أن يحتج بالقدر علىٰ ذنوبه ومعاصيه أو كفره، بدعوىٰ أن الشيطان هو الذي أغواه، فنقول: إنك أنت الذي اخترت أن يكون له سلطان عليك بطاعته ومعصية ربك، وإلا لو أطعت ربك وأخلصت له؛ لم يكن للشيطان عليك سبيل، قال تعالىٰ للشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وكل مخلوق قد وُكل به قرينه من الملائكة والشياطين، كما جاء في «صحيح مسلم»، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن للقلب لَمَّة من الملك، ولمة من الشيطان؛ فلمَّة الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالحق، ولمّة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إذا كانت حسنات الإنسان أقوىٰ، أُيِّدَ بالملائكة تأييدًا يقهر به الشيطان، وإن كانت سيئاته أقوىٰ كان جند الشيطان معه أقوىٰ، وقد يلتقي شيطان المؤمن بشيطان الكافر، فشيطان المؤمن مهزول ضعيف، وشيطان الكافر سمين قوي.

فكما أن الإنسان بفجوره يؤيد شيطانه علىٰ مَلَكه، وبصلاحه يؤيد ملكه علىٰ شيطانه، فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر؛ لأن الآخر لم يؤيد مَلَكَه؛ فلم يؤيده، أو ضعف عنه؛ لأنه ليس معه إيمان يعينه».

وقد أبطل الله مذهب المحتجين بالقدر علىٰ الكفر والمعاصي والذنوب؛ فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ

(١) النبوات (٢/ ١٠٦٢، ١٠٦٣).

وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ٤٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فهذه أربعة مواضع في القرآن بيّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل».

وفي قول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ودليل القدر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩]»، تنبيه إلىٰ أن أفعال العباد مخلوقة، حتىٰ لا يغتر الإنسان بحوله وقوته؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه وإن قلنا: إن العبد له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فعله. فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يقع في ملك الله إلا ما أراده، ولا مشيئة لمخلوق إلا بتمكين الله لعبده في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقد يقول قائل معترضًا علىٰ ما قاله أهل السنة والجماعة من أن الاحتجاج بالقدر لم يقع إلا من الكافرين والمشركين؛ بأنه وقع من آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٥٤).

فإن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **قال لآدم**: أنت أبونا خيّبتنا وأخرجتنا من الجنة**!**

فقال آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لم تلومني علىٰ ذنب كتبه الله علي؟

قال نبينا ﷺ: «**فحجّ آدم موسىٰ، فحجّ آدم موسىٰ، فحجّ آدم موسىٰ**». متفق عليه.

فهذا احتجاج بالقدر علىٰ المصائب، لا علىٰ المعايب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «احتج آدم بالقدر علىٰ المصيبة».

وقال[(٢)]: «والقدر يُحتج به في المصائب دون المعائب».

وأما علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فإن النبي ﷺ طرقه وفاطمة ليلًا، فقال لهم: «**ألا تصليان؟**».

فقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثها بعثها، فانصرف رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يحتج بالقدر علىٰ ترك واجب، ولا فعل محرم».

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).

(٣) شفاء العليل (١/ ٢٢٨).

وقال[١]: «واحتجاج غير المفرِّط بالقدر صحيح».

ونظير الاحتجاج بالقدر في حق غير المفرّط ما وقع للنبي ﷺ وأصحابه في رجوعهم من غزوة تبوك، فقد غلبهم النوم عن صلاة الفجر، فقال النبي ﷺ: «**إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردّها حيث شاء**». رواه البخاري.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا احتجاج صحيح، صاحبه يُعذر فيه؛ فإن النائم غير مفرّط».

ومع ما قرره أهل السنة والجماعة من أن أفعال العباد مخلوقة، كما دلّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله ﷺ: «**والله خلق كل صانع وصنعته**»[٣]. فإنه لا يُنسب لله شيء مما يقع من أفعال العباد من الشر أو الظلم، فهذه كسب للعبد وأعماله، والله عدل لا يظلم أحدًا، والشر ليس إليه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «وكونه خلق أفعال العباد وفيها الظلمُ، لا يقتضي وصفَه بالظُّلم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، كما أنَّه لا يُوصَفُ بسائر

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٩).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٢٩).

(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (رقم ١١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم ١٦٣٧)

(٤) جامع العلوم والحكم (ص ٤٢٣).

القبائح التي يفعلُها العبادُ، وهي خَلْقُه وتقديرُه؛ فإنَّه لا يُوصَفُ إلَّا بأفعاله، لا يُوصف بأفعال عبادِهِ؛ فإنَّ أفعالَ عباده مخلوقاتُه ومفعولاتُه، وهو لا يُوصَفُ بشيءٍ منها، إنَّما يوصَفُ بما قام به من صفاته وأفعاله».

ونكتة المسألة: أن القائل إذا قال: هذه التصرفات فعل الله، بمعنىٰ المَصْدَرِ؛ فهذا باطل باتِّفاق المسلمين وبصريح العقل، وإن قال: فِعْلُ الله. وأراد به أنَّها مفعولة مخلوقةٌ لله كسائر المخلوقات، فهذا حق(١).

فالشر ليس في قضاء الله وقدره وفعله، تعالىٰ الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وإنَّما الشر في مفعوله، لا في فعله تعالىٰ، فقضاء الله منزَّهٌ عن الشَّرِّ، يدل لذلك أمور كثيرة منها:

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فتصرفاته كُلُّها خير.

٢- ثناء النبي ﷺ علىٰ ربه بتنزيهه عن الشر في دعاء الاستفتاح في صلاته في قوله: «**لبَّيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك**»، رواه مسلم.

٣- تنزُّه الله عن الظلم، وتمدُّحُه نفسه بذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، والظلم: هو وضع الشيء في غير محلِّه، والله منزَّهٌ عن ذلك؛ لا يضع الأشياء إلا في مواضعها.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٢٢).

٤- معاني أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العُليا، وهي كثيرة مُتنوِّعة في الدَّلالة علىٰ أن الشرَّ ليس إلىٰ الله، فمنها (القدوس)، وهو المُنزَّه عن كل شر ونقص وعيب، و(السَّلام) وهو الذي سَلِمَ من العيوب والنقائص، فسلم سبحانه من إرادة الظُّلم والشَّرِّ، ومن فعله ونسبته إليه.

ومن أسمائه (الكبير) وهو الذي تكبَّرَ وتعظَّم عن كل سوء، و(العزيز) الَّذي عَزَّ عن كل سوء وشرٍّ، و(العَليُّ) الذي علا عن كُلِّ عيب وسوء ونقص، وهو (المحسن الجواد الحكيم العدل) في كل ما خلقه، وفي كُلِّ ما وضعه في محلِّه وهيَّأه له، وهو (السُّبُّوح) الذي تنزه عن كُلِّ سوء[1].

والشر الذي في المقضي ليس شرًّا محضًا، بل هو شر نسبي، وهذا مقتضىٰ حكمة الله تعالىٰ، وتأمَّل هذا في مثال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في أكله من الشجرة، وما حصل لذرِّيته من التكليف بعد ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لولا المعصية من أبي البشر بأكله من الشجرة، لَمَا ترتَّب علىٰ ذلك ما ترتَّب من وجود هذه المحبوبات العظام للربِّ تعالىٰ، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رُسُله، وإنزال كُتبه، وإظهار آياته وعجائبه، وتنويعها، وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور

(١) شفاء العليل (ص ٣٠١ - ٣٠٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٠٨، ٤٠٩).

عدله وفضله، وعزَّته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصفحه وحِلْمه، وظهور من يعبده ويُحبُّه، ويقوم بمراضيه، بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.

فلو قُدِّر أن آدم لم يأكل من الشَّجرة، ولم يَخْرُج من الجنة هو وأولاده؛ لم يكن شيء من تلك، ولا ظهر من القُوَّة إلىٰ الفعل ما كان كامنًا في قلب إبليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة، ولم يتميَّز خبيث الخلق من طيِّبهم، ولم تتم المملكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل ودار شقاوة وعدل».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة؛ فهو الذي يجعل الإيمان والهدىٰ في القلب، ويجعل التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها.

والعبد في كلّ لحظة مفتقر إلىٰ هداية يجعلها الله في قلبه، وحركات يُحرِّكه بها في طاعته، وهذا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو خلقه وقدره، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**». وعلّم حصين بن المنذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يقول: «**اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي**».

وعامة أدعيته ﷺ متضمِّنة لطلب توفيق ربه، وتزكيته له، واستعماله في محابه».

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٦١٤، ٦١٥).

وقوله: «**بالقدر خيره وشره**» هو منطوق ما جاء في حديث جبريل المشهور في أركان الإيمان، قال ﷺ: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**». رواه مسلم، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات**». فالخير والشر، والحلو والمُرُّ كُلُّه قدَّره الله سبحانه، وقد دلَّ علىٰ ذلك القرآن أيضًا والإجماع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩]، وهذا مما استدل به الإمام محمد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، والمعنىٰ: أنَّ ما أصابك من سيئة من الله، فبذنب نفسك؛ عقوبة لك، كما قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وهذا مما كان يعتقده العرب في جاهليتهم، فضلًا عن إسلامهم، قال أحمد بن يحيىٰ ثعلب: «لا أعلم عربيًّا قدريًّا». قيل له: يقع في قلوب العرب القول بالقدر؟ قال: معاذ الله! ما في العرب إلا مُثبتُ القدر خيره وشرِّه، أهل الجاهلية والإسلام؛ ذلك في أشعارهم وكلامهم كثير»[1].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٩٣، ٥٩٤ - رقم ٩٤١).

وقد حكىٰ الإجماع علىٰ هذا الاعتقاد أبو القاسم الطبري اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال(١): «وهو مذهب أهل السنة والجماعة، يتوارثونه خلفًا عن سلف، من لدن رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب».

ولما ظهر من يُنكر أن الشر بقدر أنكر عليهم الصحابة ذلك، فقد سمع ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا رجلًا يقول: الشر ليس بقدر. فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا(٢): «بيننا وبين أهل القدر ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] حتىٰ بلغ ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]، والعجز والكيس بقدر».

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «لو أراد الله تعالىٰ أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس، وهو رأس الخطيئة».

قال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «يُقال للقدري: يا من لعب به الشيطان، يا من يُنكر أن الله تعالىٰ خلق الشرَّ، أليس إبليس أصل كُلِّ شرٍّ؟ أليس الله خلقه؟! أليس الله تعالىٰ خلق الشياطين، وأرسلهم علىٰ من أراد ليضلوهم عن طريق الرشد؟! فأي حجة لك يا قدري؟ يا من قد حُرم التوفيق، أليس

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٩٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنّف (١١/ ١١٤- رقم٢٠٠٧٣) عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أن رجلًا قال لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فذكره.

(٣) رواه الآجري في الشريعة (١/ ٤٤٠- رقم ٥٦١).

(٤) الشريعة (١/ ٤٦٢).

الله تعالىٰ قال: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾...إلىٰ قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]».

وقال أبو بكر المروذي: قال رجل لأبي عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن عندنا قومًا يقولون: إن الله خلق الخير، ولم يخلق الشر، ويقولون: القرآن مخلوق. فقال: هذا كفر، هؤلاء قدريَّة جهمية، الخير والشر مُقدَّرٌ علىٰ العباد. قيل له: الله خلق الخير والشرَّ؟ قال: نعم، الله قدَّرَهُ[1].

وقال أبو الحارث: سمعت أبا عبد الله وقد سُئل عن القدر، فقال: الخيرُ والشرُّ بقدَرٍ، والزِّنا والسَّرقة وشُرْب الخمر كله بقَدَرٍ[2].

وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله: إنَّ قومًا يحتجون بهذه الآية ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]!

قال أبو عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، والله قضاها[3].

---

(١) السنة، للخلال (١/ ٥٤٣- رقم ٩٠٠).

(٢) السنة، للخلال (١/ ٥٤٣- رقم ٩٠٢).

(٣) السنة، للخلال (١/ ٥٤٥- رقم ٩٠٩).

والله يُضل من يشاء ويهدي إليه من ينيب، فالله لكمال عدله ركّب وخلق في عباده كلهم أسباب فعل الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠]، فهدىٰ الله من أناب إليه، وزكىٰ نفسه بطاعة الله، ويسر الله لمن أقبل عليه طريق الجنة وفعل الطاعات، قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

وأضل الله بعدله من أعرض عنه ولم يقبل وحيه وهديه، قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فهذه الآيات وغيرها كثير دال علىٰ أن ضلال العبد بسببه، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن إركاسهم بسبب كسبهم وأعمالهم».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه الإيمان إلىٰ قلوبهم،

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٦٢).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٤٣).

فلم يُسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعًا تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض؛ فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان؛ فأفهام سيئة، وقصود رديئة، وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء، كما أن نسخة الهدىٰ وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأما الإضلال السابق الذي ضل به عن قبوله أولًا والاهتداء به، فهو إضلال ناشيء عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدىٰ ولا يليق به، وأن محله غير قابل له؛ فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته؛ فهو أعلم حيث يجعلها أصلًا وميراثًا، وكما أنه ليس كل محل أهلًا لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلىٰ الخلق، فليس كل محل أهلًا لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]».

فتأمل ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]،

---

(١) شفاء العليل (١/ ٣٣٧، ٣٣٨).

فعلم الله السابق مطابق للواقع في عدم شكر الكافرين لرب العالمين، وهو الموجب لإضلالهم؛ فسبحان الله لكمال علمه وعدله، لا إله إلا هو.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولتكن قصة إبليس منك علىٰ ذكر تنتفع بها أتم انتفاع؛ فإنه لما عصىٰ ربه تعالىٰ ولم ينقد لأمره وأصر علىٰ ذلك؛ عاقبه بأن جعله داعيًا إلىٰ كل معصية، فعاقبه علىٰ معصيته الأولىٰ بأصول المعاصي وفروعها؛ صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق. فمن عقاب السيئةِ السيئةُ بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها».

والقدر سر الله، لا يعلمه العباد إلا بعد وقوعه، ونحن مأمورون بفعل ما أمرنا الله به، وموجب الإيمان بالقدر خيره وشره ترك الاعتراض علىٰ ما يقضيه الله كونًا ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والله لا يفعل إلا لحكمة ولا يقضي إلا بعدل فهذا ما يُسلم به الموحدون إذا حارت عقولهم لنقصها عن فهم حكمة الله وعدله في قضائه وقدره، والخوض في تعليل ما تحار فيه العقول يقع من المرتابين وربما يوقعهم في الكفر والإلحاد، لمثل هؤلاء واجب عليهم الأخذ بنصيحة النبي ﷺ حيث قال: «**وإذا ذُكر القدر فأمسكوا**».

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٤٤).

فالمُوحّدون عقولهم شاهدة بصحة الشرع وحكمة الرب، وهم في أحوالهم كلها مصدّقون للشرع سواء أدركوا الحكمة في أفعال الله أو خفيت عليهم لنقص عقولهم فهذا مقتضى أيمانهم بحكمة الله في أمره وقدره وشرعه.

قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الوقوف مع النقل مقام الصديقين».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «والنهي عن الخوض في القدر يكون علىٰ وجوه: منها ضرب كتاب الله بعضه ببعض؛ فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرىٰ، ويقع التجادل في ذلك. وهذا قد روي أنه وقع في عهد النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ غضب من ذلك ونهىٰ عنه، وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نُهي عن ذلك.

ومنها: الخوض في القدر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية، كقول القدرية: لو قدر وقضىٰ ثمَّ عذب كان ظالمًا. وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد علىٰ أفعالهم. ونحو ذلك.

ومنها: الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره من السلف؛ فإن العباد لا يطلعون علىٰ حقيقة ذلك».

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٩).

(٢) فضل علم السلف علىٰ علم الخلف (ص ٥١ - ٥٤).

الإحسان

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**المرتبة الثالثة: الإحسان، وهو ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، **وقوله تعالى:** ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١].

الدليل من السنة حديث جبرائيل المشهور: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أن جبريل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **قال للنبي** ﷺ: **فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**».

الشَّرح:

الإحسان: أن يكون عملك حسنًا، وبهذا فمنه ما يكون واجبًا، ومنه ما

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٠- ٢٢)، باختصار لفظ حديث جبريل.

يكون مستحبًّا، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، ولْيحدَّ أحدُكم شفرتَه، وليُرِح ذبيحته**». رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العمل الصالح: هو الإحسان، وهو فعل الحسنات. والحسنات: هي ما أحبه الله ورسوله ﷺ، وهو ما أمر به أمر إيجاب، أو استحباب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «حديث جبريل جعل الدين وأهله «ثلاث طبقات»: أولها: الإسلام، وأوسطها: الإيمان، وأعلاها: الإحسان، ومن وصل إلىٰ العليا فقد وصل إلىٰ التي تليها؛ فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنًا.

وهكذا جاء القرآن، فجعل الأمة علىٰ هذه الأصناف الثلاثة، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان، هو الظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدّىٰ الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن

---

(١) العبودية (ص ٥٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٦٥٥).

الذي عبد الله كأنه يراه، وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس في المعاد إلىٰ هذه الثلاثة في سورة «الواقعة» و«المطففين» و«هل أتىٰ»».

والإحسان نوعان: إحسان في حق الناس، وإحسان في حق عبادة الله، والإحسان إلىٰ الناس منه الواجب، ومنه المستحب، ومنه الإحسان بالعلم والتعليم، ومنه إحسان بالمال والجاه والبدن وغيره.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإحسان: ضد الإساءة، وهو أن يبذل الإنسان المعروف ويكف الأذىٰ، فيبذل المعروف لعباد الله في ماله، وجاهه، وعلمه، وبدنه.

فأما المال: فأن يُنفق، ويتصدق، ويزكي، وأفضل أنواع الإحسان بالمال: الزكاة؛ لأن الزكاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولا يتم إسلام المرء إلا بها، وهي أحب النفقات إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويلي ذلك ما يجب علىٰ الإنسان من نفقة لزوجته، وأمه، وأبيه، وذريته، وإخوانه، وبني إخوته، وأخواته، وأعمامه، وعمّاته، وخالاته، إلىٰ آخر هذا، ثم الصدقة علىٰ المساكين وغيرهم، ممن هم أهل للصدقة كطلاب العلم مثلًا.

وأما بذل المعروف في الجاه: فهو أن الناس مراتب، منهم من له جاه عند ذوي السلطان، فيبذل الإنسان جاهه؛ يأتيه رجل فيطلب منه الشفاعة إلىٰ ذي

(١) شرح الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١١٨، ١١٩).

سلطان يشفع له عنده، إما بدفع ضرر عنه، أو بجلب خير له.

وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله، تعليمًا في الحلقات والمجالس العامة والخاصة».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبينًا وجوه الإحسان إلىٰ الخلق**(١): «وأما الإحسان إلىٰ الناس بالبدن: فقد قال النبي ﷺ: «**وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»، فهذا رجل تعينه تحمل متاعه معه، أو تدله علىٰ طريق أو ما أشبه ذلك».

وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الخالق فقد قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانه(٢): «وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الله: فأن تعبد الله كأنك تراه - كما قال النبي ﷺ -، وهذه العبادة - أي عبادة الإنسان ربه كأنه يراه - عبادة طلب وشوق، وعبادة الطلب والشوق يجد الإنسان من نفسه حاثًّا عليها؛ لأنه يطلب هذا الذي يُحبه؛ فهو يعبده كأنه يراه، فيقصده وينيب إليه ويتقرَّب إليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، وهذه عبادة الهرب والخوف، ولهذا كانت هذه المرتبة ثانية في الإحسان، إذا لم تكن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ كأنك تراه وتطلبه، وتحث النفس للوصول إليه، فاعبده كأنه

(١) شرح الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١١٩).
(٢) شرح الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١١٩، ١٢٠).

هو الذي يراك؛ فتعبده عبادة خائف منه، هارب من عذابه وعقابه، وهذه الدرجة عند أرباب السلوك أدنىٰ من الدرجة الأولىٰ».

والإحسان إلىٰ المخلوق في الحقيقة هو إحسان الله الذي وهبك ما تقضي به حوائج المحتاجين، وتسد خلّتهم، فلله الحمد والمنّة والشكر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المؤمن يرىٰ أن عمله لله؛ لأنه إياه يعبد، وأنه بالله؛ لأنه إياه يستعين؛ فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاءً ولا شكورًا؛ لأنه عمل ما عمل لله، كما قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، ولا يمنّ عليه بذلك ولا يؤذيه؛ فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه؛ إذ استعمله في الإحسان، وأن المنّة لله عليه وعلىٰ ذلك الشخص، فعليه هو أن يشكر الله؛ إذ يسّره لليسرىٰ، وعلىٰ ذلك أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر أو غير ذلك.

ومن الناس من يُحسن إلىٰ غيره، ليمنّ عليه، أو يجزيه بطاعته له، وتعظيمه، أو نفع آخر، وقد يمنّ عليه فيقول: أنا فعلت بك كذا. فهذا لم يعبد الله، ولم يستعنه، ولا عمل لله، ولا عمل بالله، فهو كالمرائي، وقد أبطل الله صدقة المنان، وصدقة المرائي، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]».

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣٧).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الناس في الإيمان درجات متفاوتة، فأكملهم من وصل في علوم الإيمان إلىٰ علم اليقين وحق اليقين، وفي أعماله من وفّىٰ مرتبة الإحسان، وعبدَ الله علىٰ وجه الحضور والمراقبة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: منزلة «الإحسان»، وهي لُبُّ الإيمان ورُوحه وكماله، **وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل**؛ فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلىٰ هاهنا فهو من الإحسان.

قال صاحب المنازل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد استُشهد علىٰ هذه المنزلة بقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق، وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

فأما الآية، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والمفسرون: هل جزاء من قال: «لا إله إلا الله»، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟!

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟**».

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٨٧، ٨٨).

(٢) مدارج السالكين (ص٦١٩).

وأما الحديث: فإشارة إلىٰ كمال الحضور مع الله عَزَّوَجَلَّ ومراقبته الجامعة؛ لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان».

وقال العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه المرتبة هي الثالثة من مراتب الدين المفصلة في حديث جبريل المتقدم، وهي أعلىٰ مراتب الدين، وأعظمها خطرًا، وأهلها هم المستكملون لها، السابقون بالخيرات، المقربون في علو الدرجات.

وقد قدمنا أن الإسلام هو الأركان الظاهرة عند التفصيل واقترانه بالإيمان، والإيمان إذ ذاك هو الأركان الباطنة، والاحسان هو تحسين الظاهر والباطن، وأما عند الإطلاق فكل منها يشمل دين الله كله.

وقد جاء الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة، تارة مقترنًا بالإيمان، وتارة بالتقوىٰ، وتارة بهما معًا، وتارة بالجهاد، وتارة بالإسلام، وتارة بالعمل الصالح مطلقًا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

---

(١) معارج القبول (٢/ ٣٢٣).

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ ﴾ [لقمان: ٢٢].

وتارة بالإنفاق في سبيل الله، وهو من الجهاد، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]».

وقال العلامة حافظ بن أحمد الحكمي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد فسره النبي ﷺ تفسيرًا لا يستطيعه من المخلوقين أحد غيره ﷺ؛ لما أعطاه الله تعالىٰ من جوامع الكلم، فقال ﷺ: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» أخبر ﷺ أن مرتبة الإحسان علىٰ درجتين، وأن للمحسنين في الإحسان مقامين متفاوتين:

المقام الأول - وهو أعلاهما: أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا مقام المشاهدة؛ وهو أن يعمل العبد علىٰ مقتضىٰ مشاهدته لله عَزَّوَجَلَّ بقلبه، وهو أن يتنوَّرَ القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان، حتىٰ يصير الغيب كالعيان، فمن عبد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ استحضار قربه منه، وإقباله عليه، وأنَّه بين يديه كأنه يراه، أوجب له ذلك الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، وفي حديث

---

(١) معارج القبول (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥).

حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المرسل أن النبي ﷺ قال له: «**يا حارثة كيف أصبحت؟**» قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا. قال: «**انظر ما تقول؛ فإن لكل قول حقيقة**». قال: يا رسول الله**!** عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار في النار كيف يتعاوون فيها. قال: «**أبصرت فالزم، عبدٌ نوَّر الله تعالىٰ بصيرته**».

المقام الثاني: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد علىٰ استحضار مشاهدة الله إياه، واطلاعه عليه، وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالىٰ؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلىٰ غير الله وإرادته بالعمل، وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلىٰ المقام الأول، ولهذا أتىٰ به النبي ﷺ تعليلًا للأول، فقال: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». وفي بعض ألفاظ الحديث: «**فإنك إلا تكن تراه فإنَّه يراك**». فإذا تحقق في عبادته بأنَّ الله تعالىٰ يراه ويطلع علىٰ سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره، فحينئذ يسهل عليه الانتقال إلىٰ المقام الثاني، وهو دوام التحقيق بالبصيرة، إلىٰ قرب الله تعالىٰ من عبده ومعيته، حتىٰ كأنه يراه، وقد ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذا المعنىٰ في غير ما موضع من القرآن، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا

فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦١-٦٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] وغير ذلك من الآيات».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اعلم أن الإحسان المأمور به نوعان:

أحدهما: واجب، وهو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخَلْقِ، بحسب ما توجَّه عليك من الحقوق.

والثاني: إحسان مستحب. وهو ما زاد علىٰ ذلك من بذل نفع بدنيٍّ، أو ماليٍّ، أو علميٍّ، أو توجيه لخير دينيٍّ، أو مصلحة دنيوية؛ فكلُّ معروف صدقة، وكلُّ ما أدخل السرور علىٰ الخلق صدقة وإحسان، وكلُّ ما أزال عنهم ما يكرهون، ودفع عنهم ما لا يرتضون من قليل أو كثير، فهو صدقة وإحسان».

ومن أعظم ما يكون من الإحسان إلىٰ الخلق: الاستغفار لهم، وأولىٰ

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٨٦).

وأحرىٰ الخلق بذلك من أمرنا الله بالاستغفار لهم؛ وهم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]؛ فالاستغفار متأكد في حق الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وعام لمن آمن بعدهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «المعنىٰ المقتضي لذلك يَعمُّ الصحابة وسائر طبقات الأمة؛ إذ كُلُّ طبقة متأخِّرة ينبغي أن تستعمل مع الطبقة المتقدمة معنىٰ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ومعلوم أن كلام العلماء بعضهم في بعض - بالاجتهاد تارةً، وبنوع من غيره أخرىٰ - يُشبه ما وقع بين بعض الصحابة وبعضٍ من القال والفعال.

فالمؤمن يجمع بين القيام بحق الله، بمعرفة دينه والعمل به، وحقوق المؤمنين متقدميهم ومتأخِّريهم؛ بالاستغفار وسلامة القلوب؛ فإنه من كان له في الأمة لسانُ صدق - بل ومن هو دونه - إذا صدر منه ما يكون منكرًا في الشرع، فإما أن يكون مجتهدًا فيه، يغفر الله له خطأه، وإما أن يكون مغمورًا بحسناته، وإما أن يكون قد تاب منه، بل من هو دونه دون هؤلاء إذا فعل

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص ١٦١، ١٦٢).

سيئةً عظيمةً فالله يغفرها له، إما بتوبةٍ، وإما باستغفاره، وإما بحسناته الماحية، وإما بالدُّعاء له، والشفاعة فيه، والعمل الصالح المُهدىٰ إليه، وإما أن يُكفِّر عنه بمصائب الدنيا، أو البرزخ، أو عَرَصات القيامة، أو برحمة الله تعالىٰ؛ فلهذا ينبغي للمؤمن أن يتوقَّىٰ القول السيء في أعيان المؤمنين المتقين، ويُؤَدِّي الواجب في دين الله، والقولَ الصدق، واتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهىٰ الله عنه.

وكما أن هذا الواجب في المسائل العملية، فكذلك في هذه المسائل الخبرية، لا سيما فيما يَغمُض معناه، ويشتبه علىٰ عموم الناس الحقُّ فيه بالباطل، فهذا المسلك يجب اتِّباعه؛ إذْ قلَّ عظيم في الأمة إلا وله زلَّةٌ، وقد جاء في الحديث التحذير من زلَّة العلماء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأما الإحسان في أعمال الجوارح بعد إحكام قاعدة العلم فعلىٰ أنواع: منه فرض عين، ومنه فرض كفاية، ومنه سنة مؤكدة، ومنه فضيلة لا يسع من له عقل ومروءة أن يفوت نفسه حظها من ذلك، وذلك يختلف باختلاف الأحوال».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه علىٰ مرتبة الإحسان – المرتبة الثالثة – استدل لها بآيات قرآنية، وحديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والآيات

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٨٩).

القرآنية التي استدل بها ثلاث متنوعة الدلالة، تناسب حجم هذه الرسالة «الأصول الثلاثة وأدلتها»؛ فلم يوعب في سياق الآيات القرآنية؛ مراعاة لجانب الاختصار اللائق بهذه الرسالة المختصرة في مجمل الاعتقاد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في أدلة الإحسان**(١): «الدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]».

فالآية الأولىٰ فيها ذكر المعية، وهي المعية الخاصة، وهي مناسبة لباب الإحسان غاية المناسبة، وخاتمتها تزيد ذلك توكيدًا ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ «محسنون»، فدلالة الآية دلالة مطابقة للحكم الذي سيقت له، وهو «الإحسان».

وأفادت الآية بشارة للمحسنين، وهو أن الله يتولاهم بمعيته الخاصة؛ يتولاهم بالحفظ والنصرة والتأييد.

أما الدليل القرآني الثاني الذي استدل به الإمام لمرتبة الإحسان، فقد ذكر علم الله بعبده حال طاعته، وقيامه بين يدي الله، يُصلي له، ويعفر وجهه في الأرض ساجدًا لله.

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٠، ٢١).

فقال الإمام[1]: «وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]».

وهذا تدرج في الاستدلال في مرتبة الإحسان؛ فالدليل الأول عام لكل أحوال وأعمال الإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ فالتقوىٰ عامة هنا تشمل فعل كل طاعة، وترك كل معصية، وكذلك ﴿الذين هم محسنون﴾ تشمل الإحسان المفروض؛ من أداء الطاعات بإحسان وإتقان عمل، وتشمل إحسان الخشية والمراقبة لله، وتشمل الإحسان المندوب بفعل النوافل.

وبعد هذا الاستدلال لعموم أعمال الإحسان، انتقل في الاستدلال إلىٰ أعظم الإحسان، وهو من تحقيق التوحيد، وهو المفتاح لفعل أنواع الطاعات وترك المحرمات، وهو الاستدلال بعلم الله بحال عبده في الصلاة، وقيامه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ذلك أن الصلاة ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي السبب في صلاح سائر العمل وقبوله، كما جاء في الحديث: «**أول ما يُنظر في عمل المرء صلاته، فإن صلحت أفلح وأنجح**».

وعاد الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدليل القرآني الثالث، إلىٰ التعميم والتخصيص في الآية الواحدة، بعد أن ذكر العموم من آية مستقلة، والخصوص من آية أخرىٰ، فجاء في الدليل الثالث فذكر آية واحدة عامة في علم الله بكل عمل، معطوف عليه علمه بعمل خاص؛ وهو تلاوة القرآن،

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٠).

ومعلوم ما في عطف الخاص علىٰ العام من فائدة التنبيه إلىٰ أهمية المخصوص، فاستدل الإمام على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

وتلاوة القرآن هي اعتقاد ما فيه من حقائق الإيمان وحقيقة الدين كله؛ فالشرع هو القرآن وما أوحي إلىٰ النبي ﷺ من السنة بيان له.

وتلاوة القرآن هي إقامة ما فيه من الأحكام، وتصديق ما فيه من الأخبار، قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معنى تلاوته: اتباعه؛ امتثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب عُلم أن إقامة الدين كله داخلة في تلاوة الكتاب».

وقد جاء الأمر بالإحسان في مثل قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠]، فانتظم به كل إحسان واجب ومستحب، وكل إحسان في أنواع العبادات والمعاملات، وكل إحسان في حق الخالق والمخلوق، وجاء الأمر بالإحسان في أنواع مخصوصة؛ لأهميتها، فيتأكد الاهتمام بها فوق الأمر العام، كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٦٩).

مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جمع الله تعالىٰ في هذه الآية بين ذكرِ حقِّه علىٰ العبد وحقوقِ العباد علىٰ العبد أيضًا، وجعل العبادَ الذين أمرَ بالإحسان إليهم خمسة أنواع:

أحدها: من بينَه وبينَ الإنسان قرابةٌ، وخصَّ منهمُ الوالدين بالذِّكر؛ لامتيازهما عن سائر الأقارب بما لا يَشْرَكونهما فيه؛ فإنَّهما كانا السببَ في وجود الولد، ولهما حقُّ التربية والتأديب وغير ذلك.

الثاني: مَنْ هو ضعيفٌ محتاجٌ إلىٰ الإحسان، وهو نوعان: من هو محتاج لضعف بدنه، وهو اليتيم، ومن هو محتاج لِقِلَّةِ ماله، وهو المسكين.

والثالث: مَنْ له حقُّ القُرب والمخالطة، وجعلهم ثلاثة أنواع: جارٌ ذو قربىٰ، وجار جُنبٌ، وصاحبٌ بالجنب.

الرابع: من هو واردٌ علىٰ الإنسان، غيرُ مقيم عندَه، وهو ابن السبيل؛ يعني: المسافر إذا ورد إلىٰ بلدٍ آخر. وفسَّره بعضُهم بالضَّيف؛ يعني به: ابنَ السبيل إذا نزل ضيفًا علىٰ أحد.

والخامس: ملكُ اليمين، وقد وصَّىٰ النَّبيُّ بهم كثيرًا، وأمر بالإحسانِ إليهم».

وفي الحقيقة إن الإحسان في أصل معناه هو «الإخلاص»، وهو الموجب لأن تستوي سريرة الإنسان وعلانيته؛ دلّ علىٰ هذا قوله ﷺ في جوابه لجبريل

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ١٦٦، ١٦٧)، باختصار.

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما سأله عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». فمن تحقق بالإخلاص كان محسنًا، ومن أخلص في عموم أحواله وأساء في الغفلات، فهذا خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومن أساء في عموم أحواله، فهذا شر الأقسام، والعياذ بالله.

والإحسان يتضمن عبادة المؤمن الله، وطاعته علىٰ وجه الحضور في أحواله عمومًا، وفي الصلاة خصوصًا، وهذا يورث المحسن مقامات الخير كلها؛ من الحب لله والمراقبة والخشية والتأله له، وملاحظة معيّته له في أموره كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التحقيق: أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره، والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، فذكر إحسان الدين أولًا، ثم ذكر الإحسان ثانيًا؛ فإحسان الدين هو - والله أعلم - الإحسان المسؤول عنه في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإنه سأله عن الإسلام والإيمان؛ ففي إحسان هذا الإسلام والدين الذي يكون صاحبه محسنًا، وتابعًا لما فيه رضوان الله في الأقوال والأفعال، هو

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٧٨ - ٥٨١).

المقام الذي أشار إليه النبي ﷺ حين قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، ومراقبة الله هي السر المطلوب في جميع أحوال العبد».

والإحسان كما أنه يتضمن في أصل معناه الإخلاص لله، فإنه يتضمن أيضًا الاستحياء من الله، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «المسلم إذا كمل إسلامهُ، وبلغ إلىٰ درجة الإحسان، وهو أنْ يَعْبُدَ الله تعالىٰ كأنَّه يراه، فإنْ لم يكن يراه؛ فإنَّ الله يراه، فمن عبد الله علىٰ استحضار قربه ومشاهدته بقلبه، أو علىٰ استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه؛ فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أنْ يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشتغل بما يعنيه فيه؛ فإنَّه يتولَّدُ من هذين المقامين الاستحياءُ من الله وترك كلِّ ما يُستحيىٰ منه، كما وصَّىٰ ﷺ رجلًا أنْ يستحيي من الله، كما يستحيي من رجل من صالحي عشيرته لا يُفارقه.

وفي «المسند» والترمذي عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**الاستحياء من الله تعالىٰ أنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وما حَوَىٰ، وتَحفَظَ البَطنَ وما وَعَىٰ، ولْتَذْكُرِ الموتَ والبِلىٰ، فمن فَعَل ذلك، فقد استحيَىٰ من الله حقَّ الحياء**».

قال بعضهم: استحي من الله علىٰ قدر قربه منك، وخَفِ الله علىٰ قدر قدرته عليك.

وقال بعضُ العارفين: إذا تكلمتَ فاذْكُر سَمعَ اللهِ لك، وإذا سكتَّ

(١) جامع العلوم والحكم (ص ١٣٨).

فاذكر نظره إليك.

وقد وقعتِ الإشارةُ في القرآن العظيم إلىٰ هذا المعنىٰ في مواضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٦-١٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]».

وإحسان العمل دلّ عليه حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة**». رواه مسلم، ودلّ عليه كذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالذي أسلم وجهه لله هو الذي يخلص نيته لله، ويبتغي بعمله وجه الله، والمحسن هو الذي يُحسن عمله، فيعمل الحسنات، والحسنات هي العمل الصالح، والعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله ﷺ من واجب ومستحبٍّ، فما ليس من هذا ولا هذا، ليس من الحسنات والعمل الصالح، فلا يكون فاعله محسنًا».

---

(١) النبوات (١/ ٤١٦).

أما أنواع الإحسان الواجب والمستحب، فقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا الحديث - «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء**» - نصٌّ في وجوب الإحسان، وقد أمر الله تعالىٰ به، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وهذا الأمرُ بالإحسان تارةً يكونُ للوجوب، كالإحسان إلىٰ الوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البرُّ والصِّلَةُ، والإحسان إلىٰ الضيف بقدر ما يحصل به قِراه علىٰ ما سبق ذكره.

وتارةً يكونُ للندب، كصدقةِ التطوعِ ونحوها.

وهذا الحديثُ يدلُّ علىٰ وجوب الإحسانِ في كل شيء من الأعمال، لكن إحسانُ كُلِّ شيء بحسبه؛ فالإحسانُ في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنةِ: الإتيانُ بها علىٰ وجه كمال واجباتها، فهذا القدرُ من الإحسان فيها واجب، وأمَّا الإحسانُ فيها بإكمالِ مستحباتها فليس بواجب.

والإحسان في ترك المحرَّمات: الانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب.

وأما الإحسان في الصبر علىٰ المقدورات؛ فأن يأتي بالصبر عليها علىٰ

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ١٨٣).

وجهه من غير تسخُّطٍ ولا جزع.

والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم: القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كلِّه، والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم: القيام بواجبات الولاية كُلِّها، والقدر الزائد علىٰ الواجب في ذلك كله إحسان ليس بواجب».

وفي حديث شداد بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله كتبَ الإحسانَ علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، وليُحدَّ أحدُكم شفرته، وليرح ذبيحته**». رواه مسلم. زجر عن التهاون في حقوق البهائم؛ فإن البعض قد يُعظّم حرمة الآدميين، ويتهاون في حرمة وحقوق البهائم، لمجرد أنها بهائم، أو لأنها غير مُكلّفة، أو غير ذلك.

فهذا الحديث فيه أمر بالإحسان إلىٰ البهائم، ومن آخر ما أوصىٰ به النبي ﷺ قبل مفارقة الدنيا الصلاة وما ملكت أيماننا، حيث قال ﷺ: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»، وذكر بعض العلماء في عموم معنىٰ ملك اليمين ما نملكه من الدواب والبهائم[١].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهىٰ عن صبر البهائم، وهو: أنْ تُحبس البهيمة، ثُمَّ تُضرب بالنبل ونحوه حتَّىٰ تموتَ؛

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ١٦٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٨٧).

ففي «الصحيحين» عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهىٰ أنْ تُصبر البهائم».

وفيهما أيضًا عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّه مرَّ بقوم نصبوا دجاجةً يرمونها، فقال ابنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من فعل هذا؟ إنَّ رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا».

وخرَّج مسلم من حديث ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ ﷺ: «أنَّه نهىٰ أنْ يُتخذ شيء فيه الروح غرضًا»، والغرض: هو الذي يرمىٰ فيه بالسهام.

وفي «**مسند الإمام أحمد**» **عن أبي هُريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ «نهىٰ عن الرَّمِيَّةِ»: أنْ ترمىٰ الدابة ثم تُؤكَلُ، ولكن تُذبح، ثم ليرموا إنْ شاؤوا». وفي هذا المعنىٰ أحاديث كثيرة.

فلهذا أمر النَّبيُّ ﷺ بإحسانِ القتلِ والذبح، وأمر أنْ تُحَدَّ الشفرةُ، وأنْ تُراح الذبيحة؛ يشير إلىٰ أنَّ الذبح بالآلة الحادة يُرِيحُ الذبيحة بتعجيل زهوق نفسها».

وكفىٰ في الزجر عن التهاون في حرمة وحقوق البهائم قول النبي ﷺ: «**دخلت امرأةٌ النار في هرّة حبستها، لا هي التي أطعمتها، ولا هي التي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»، رواه البخاري.

ومن الإحسان الواجب - وهو أوله وأوكده وأوجبه - أخذ الدين وتلقيه وفهمه بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، قال

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسانًا، ولم يرضَ عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان».

وقال الحافظ أبو عبد الله ابن مندة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[٢]: «أول ما أهمهم جمع القرآن؛ مخافة ذهاب حملته، واختلاف من بعدهم فيه، وشرح الله صدر الجماعة لذلك؛ لأنهم هم الذين شهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، وعلموا الترتيب، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «رحم الله أبا بكر! هو أول من جمع القرآن بين اللوحين». فرحمة الله عليهم وصلواته ورضوانه أجمعين.

ثم **أخذ التابعون بإحسان عنهم**، فقاموا بتلاوته، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقالوا: كلٌّ من عند الله. فلم يختلفوا في آية منه، بل يُكفّرون من كفر بآية منه، ويرون من قرأ خلاف ما أجمعوا عليه خارجًا من الأمة والإجماع، **جعلنا الله ممن تبعهم بإحسان؛ فهم الذين بلّغوا عن الصحابة ما جاءوا به عن الله ورسوله ﷺ من الكتاب والسنة، ونقلوا فرائضه، وحدوده، وأوامره، ونواهيه، وناسخه، ومنسوخه، وهم الذين وصفهم الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه، فقال - تبارك اسمه -:** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

(١) الجامع لكلام ابن تيمية في التفسير (٣/ ٤٤١).

(٢) شروط الأئمة (ص ٢٦- ٢٨).

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال - جل وعز -: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ فهم الذين وصفهم النبي ﷺ، وقال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»؛ **فهم التابعون لهم بإحسان**، فرحمة الله عليهم ورضوانه؛ فلقد حفظوا وبلغوا ونصحوا كما أُمروا، جعلهم الله أئمة يهدون بأمره بصبرهم علىٰ اكتساب ما ندبهم إليه، واجتهادهم في تعليم حكمته طلب القربة إليه، وأرشدهم إلىٰ السبل الدالة علىٰ العلم بما به أمر، والانتهاء عما عنه زجر».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، يدل بمفرده علىٰ وجوب أخذ الدين وتلقيه وفهمه عن الصحابة، ويزداد ظهور دلالة وجوبه مضمومًا مع قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥]، قال البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والأساس الذي تُبنىٰ عليه الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم؛ فقد

---

(١) شرح السنة (ص ٦٧).

ضل وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار».

وقال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا غنىٰ للناظر عن معرفة الآثار، كما لابد له من العلم بالأخبار؛ ليعلم كيف كان تلقي السلف للأحاديث، وعلىٰ أي وجه كان قبولهم لها، ويطلع من أي باب تولجوا إليها، فلا منهج إلا منهاجهم».

وإذا لم يأخذ المسلم دينه عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين حضروا التنزيل، وهم أنصح وأفصح الخلق، واستبدّ بفهمه؛ ضل وزل ووقع في سوء الفهم لنصوص القرآن والسنة، وابتدع، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كثير من قاصري العلم، يحتجون بعموم نص علىٰ حكم، ويغفلون عن عمل صاحب الشريعة، وعمل أصحابه الذي يبيّن مراده، ومن تدبّر هذا علم به مراد النصوص، وفهم معانيها».

وقال ابن القصار عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[٣]: «هم الذين أُمرنا بالاقتداء بهم؛ لأنهم المبلغون للسنن، والمفسرون لها، فوجب اتباع سبيلهم واختيار ما اختاروه، والرغبة عما رغبوا عنه».

ومنهج أهل الحق علماء المسلمين وعوامهم في أخذ الدين وتقرير عقائده وأحكامه ومسائله، هو التلقي من القرآن والسنة بفهم السلف؛ الصحابة والتابعين الآخذين عنهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

---

(١) القبس في شرح الموطأ (١/ ٢١٧). (٢) تهذيب سنن أبي داود (٣/ ٢٨٨).

(٣) شرح ابن بطال علىٰ صحيح البخاري (٤/ ٣٦٩).

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من تكلّم بكلام في الدِّين أو في شيء من هذه الأهواء ليس له فيه إمام متقدّم من النبي ﷺ وأصحابه؛ فقد أحدث في الإسلام حدثًا، وقال رسول الله ﷺ: «**من أحدث حدثًا، أو آوىٰ مُحدثًا في الإسلام؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا**»».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها سلف».

وقال الإمام أحمد أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن تأويل من تأويل القرآن بلا سنة تدل على معناها أو معنى ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أو أثر عن أصحاب الرسول ﷺ فهذا تأويل أهل البدع».

وقال متممًا[(٣)]: «ورسول الله ﷺ المعبِّر عن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما أراد وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أعلم بذلك منّا لمشاهدتهم الأمر وما أريد بذلك».

وقال شريك بن عبد الله القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «نحن أخذنا ديننا عن التابعين عن الصحابة، فالمبتدعة عمن أخذوا؟!».

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقررًا منهج أهل السنة في تقرير العقيدة[(٥)]: «ولم يُذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان خلاف ما

---

(١) سير السلف الصالحين (٣/ ١١٧). (٢، ٣) السنة للخلال (٢/ ٢٣).

(٤) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١/ ٢٧٣)، والصفات للدارقطني (ص١٢٠).

(٥) خلق أفعال العباد (٢/ ١١٣).

وصفنا، وهم الذين أدَّوْا الكتاب والسنة بعد النبي ﷺ قرنًا بعد قرن، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**».

وفي الحقيقة الإحسان هو الدين كله، قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إسلام وجهه كما قاله أئمة التفسير: هو إخلاص دينه وعمله لله. وقيل: تفويض أمره إلىٰ الله. وهو يَعُمُّ القسمين، كما سنبينه إن شاء الله؛ فإن إسلام وجهه يقتضي أنه أسلم نيّته وعمله ودينه لله؛ أي جعله لله خالصًا سالمًا، والإحسان هو فعل الحسنات، فاجتمع له أن عمله خالص، وأنه صالح، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتىٰ يكون خالصًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنة».

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص ٢٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا معنىٰ الإحسان الواجب ودليله[1]: «وإذا كان الله قد شرط في من له أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أن يكون محسنًا مع إسلام وجهه لله؛ دلَّ بذلك علىٰ أن الإحسان شرط في استحقاق هذا الجزاء، وهذا الجزاء لا يقف إلا فعل الواجب، فإنّ كل من أدىٰ الواجب فقد استحق الثواب، ودرأ العقاب، وذلك يدل علىٰ أن الإحسان واجب، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والأمر يقتضي الوجوب.

وقال تعالىٰ: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: ٩١]، ومن فعل الواجبَ فما عليه من سبيل، إنما السبيل علىٰ من أساء بترك ما أُمرَ به، أو فعل ما نُهي عنه.

وقال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل: ٨٩]، ونظائره كثيرة.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحةَ**»، ففي هذا الحديث أن الإحسان واجب علىٰ كل حال، حتىٰ في حال إزهاق النفوس، ناطقها وبهيمتها، فعلَّمَهُ أن يُحْسِن القتلةَ للآدميين، والذبحة للبهائم.

والإحسان الواجب هو فعل الحسنات؛ وهو أن يكون عمله حسنًا، ليس المراد بذلك فعل الإحسان التطوع، وهذا الإحسان في حق الله، وفي حقوق

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٩).

عباده؛ فأما في حق الله ففعل ما أمره به من غير أن يتعلق المأمور به، وأما في حق عباده ففعل ما أوجب لهم من الإحسان، وترك ما لا يجوز من الإساءة».

وفضائل الإحسان وثمراته عظيمة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(1): «الإحسان الذي به يستحق القرب والرضوان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣]، وقد مدح الله الإحسان، ورغب في استصحابه لجميع الأعمال القلبية والبدنية والمالية، في غير موضع في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]».

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمَّن «الأصول الثلاثة» بيان معنىٰ التوحيد بيانًا واضحًا مضمومًا إليه حديث «شعب الإيمان»، وحديث «جبريل» في الإيمان والإسلام والإحسان، وذلك من خلوص النصيحة ببيان الدين جامعًا لحقائق الاعتقاد والقول والعمل الصالح، فلا يكون إيمان بلا عمل، والاعتقاد والإيمان يستلزم العمل.

فمن تحقق بالتوحيد الخالص، وأسلم الوجه لله، وانقاد لأمره وحكمه، وأتىٰ بالعمل؛ فقد أتىٰ بمفتاح الجنة وأسنانها.

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٨٣، ٥٨٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا تدخل الجنة نفس مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد؛ فإن التوحيد هو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يُفتح له بابها، وكذلك إن أتىٰ بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به، وأسنان هذا المفتاح هي: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين؛ فأي عبد اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد، وركّب فيه أسنانًا من الأوامر؛ جاء يوم القيامة إلىٰ باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يُفتح إلا به، فلم يعقه عن الفتح عائق، اللهم إلا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار؛ فإنه يُحبس عن الجنة حتىٰ يتطهر منها، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده، فلا بد من دخول النار ليخرج خبثه فيها، ويتطهر من درنه ووسخه، ثم يخرج منها، فيدخل الجنة؛ فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيّب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فعقّب دخولها علىٰ الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول؛ أي: بسبب طيبكم قيل لكم: ادخلوها».

---

(١) الوابل الصيّب (ص ٣٠، ٣١).

وخلاصة القول في المعنىٰ الجامع للإحسان هو ما ذكره شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال[١]: «محسنين: أي: قائمين بطاعة الله علىٰ الوجه الذي يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

هذا الإحسان في العبادة، أما الإحسان في معاملة الخلق فإنَّ أجمع ما يقال فيه ما قاله النبي ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت الناس ما يحب أن يؤتىٰ إليه**»».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا المعنى الجامع للإحسان[٢]: «أشار النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك**».

فأشار إلى مقامين:

أحدهما: أن يعبد الله العبدُ مستحضرًا لرؤية الله إياه، ويستحضر قرب الله منه، واطلاعه عليه؛ فيخلص له العمل، ويجتهد في إتقانه وتحسينه.

والثاني: أن يعبده على مشاهدته إياه بقلبه، فيعامله معاملة حاضر، لا معاملة غائب، وقد وصَّى ﷺ رجلًا أن يصلي صلاة مودع، يعني: يستشعر أنه يصلي صلاة لا يصلي بعدها صلاة أخرى؛ فيحمله ذلك على إتقانها، وتكميلها، وإحسانها».

---

(١) تفسير سورة الذاريات (ص١٢٤، ١٢٥).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٣٥١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «مشهد الإحسان: وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتىٰ كأنه يرىٰ الله سبحانه فوق سمواته مستويًا علىٰ عرشه، يتكلم بأمره ونهيه، ويُدَبِّرُ أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتُعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه.

فيشهد ذلك كله بقلبه، ويشهدُ أسماءه وصفاته، ويشهد قيومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا آمرًا ناهيًا، يُحب ويبغض، ويرضىٰ ويغضب، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها؛ فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له، ويقطع الوساوس وحديث النفس، ويجمع القلب والهمّ علىٰ الله.

فحظ العبد من القُرب من الله علىٰ قدر حظِّه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتىٰ يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد».



(١) رسالة إلىٰ أحد إخوانه (ص٤٤، ٤٥).

معرفة نبيكم ﷺ

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًّا رسولاً. نُبئ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وأُرسل بـ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ وبلده مكة، بعثه الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد والدليل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر: ١-٧]، ومعنى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ عظّمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ أي طهر أعمالك من الشرك، ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ الرجز: الأصنام، وهجرها تركها وأهلها والبراءة منها وأهلها».

الشَّرح:

بيّن الإمام في هذه الرسالة المختصرة في مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٣، ٢٤، ٢٥).

ضرورة معرفة نبينا محمد ﷺ، فمن لم يعرف نبيّ الله ﷺ ولا شرعته التي بُعث بها كيف يتديّن بها؟! وكيف يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ؟! وكيف يتأسىٰ بالنبي ﷺ؟! قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلىٰ معرفة الرسول ﷺ، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلىٰ السعادة والفلاح - لا في الدنيا ولا في الآخرة - إلَّا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلَّا علىٰ أيديهم؛ فالطَّيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلَّا هديهم وما جاءوا به؛ فهم الميزان الراجح الذي علىٰ أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدىٰ من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه، والعين إلىٰ نورها، والروح إلىٰ حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت، فضرورة العبد وحاجته إلىٰ الرسل فوقها بكثير».

ولاحظ كيف جعل الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته «الأصول الثلاثة وأدلتها» الأصل الثالث في معرفة نبينا محمد ﷺ[٢]، وذكر

---

(١) زاد المعاد (ص ٢٢)، ط: مؤسسة الرسالة ناشرون.

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٣ - ٣٣).

في هذا الفصل نسبه، وسيرته، وحقيقة دعوته، وما يجب من اتباعه وطاعته، وما ختم الله به من الرسالات، وبيّن قبل ذلك في الأصل الثاني في معرفة دين الإسلام معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ[١]، أفبعد هذا يقال: الوهابية لا يحبون رسول الله ﷺ! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾ [الكهف: ٥].

والمؤمنون يطيعون الرسول ﷺ؛ لأنَّه مبلغٌ عن الله رسالته وشرعه ولأن الله اصطفاه لذلك وعصمه، وزكاه، أما طاعتهم لله فهي طاعة تأله وحب وخضوع وخشية وعبودية، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «إن الله لم ينعم علىٰ أهل الأرض نعمة أعظم من إرسال محمد ﷺ إليهم، وأنه هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وأنه لا يؤمن العبد حتىٰ يكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين، بل حتىٰ يكون أحب إليه من نفسه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «هو محمود ﷺ بما ملأ به الأرض من الهدىٰ، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٥، ١٦).

(٢) الرد علىٰ الأخنائي (ص ٤٩).

(٣) جلاء الأفهام (ص ١٧١، ١٧٢).

الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشيطان، ومن الشرك بالله، والكفر به، والجهل به، حتىٰ نال به أتباعه شرف الدنيا والآخرة؛ فإنَّ رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها؛ فإنَّهم كانوا بين عباد أوثان، وعُبَّاد صُلبان، وعُبَّاد نيران، وعُبَّاد الكواكب، ومغضوب عليهم قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربًّا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضًا، من استحسن شيئًا دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرقٌ بنور الرسالة، وقد نظر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حينئذ إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا علىٰ آثار من دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظُّلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدىٰ به من الضَّلالة، وعلَّم به من الجهالة، وكثَّر بعد القلَّة، وأعز به بعد الذِّلَّة، وأغنىٰ به بعد العَيْلة، وفتح به أعينا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا، فعرف الناس ربَّهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة».

والرسول ﷺ بشر مخلوق، اصطفاه الله وبعثه إلىٰ البشر؛ ليبيّن لهم الصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكوه في سيرهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فيُحب الحب الشرعي بشرًا رسولًا، يُحب في الله، ويُحب لله، لا مع الله، فلا يُرغب إليه، ولا يُصرف شيء من حقوق الله له من العبادة والدعاء والاستغاثة، فهذا شرك أكبر.

قال أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره؛ فأصل العبادة محبة الله تعالىٰ، وإفراده بالمحبة، فلا يحب معه سواه، وإنما يُحب ما يُحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادًا يُحبهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرّها؛ فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر والنهي تتبيَّن حقيقة العبودية والمحبة؛ ولهذا جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اتّباع رسوله ﷺ علمًا عليها وشاهدًا لها، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبته لله تعالىٰ، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع؛ فَعُلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول ﷺ. ولا يكفي ذلك حتىٰ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومتىٰ كان عنده شيء أحب إليه منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ١١٧، ١١٨).

ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]».

والنبي ﷺ نبي الرحمة، ورحمته تعم الكافر والمسلم، فإن قلت: إدراكها للمؤمن واضحة، فكيف تكون دعوته للكافر رحمة؟! قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأما نبيُّ الرحمة، فهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فرحم به أهل الأرض كلَّهم مؤمنَهم وكافرَهم، أمّا المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأمّا الكفار فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظلِّه؛ وتحت حبله وعهده، وأما من قتله منهم هو وأمته، فإنَّهم عجلوا به إلىٰ النَّار، وأراحوه من الحياة الطويلة التي لا يزداد بها إلَّا شدَّة العذاب في الآخرة».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حصول الرحمة ببعثة النبي ﷺ للكافر والمؤمن والمنافق[٢]: «وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقْنُ دمائهم، وأموالهم، وأهلهم، واحترامها، وجريانُ أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره، وأما الأمم النائية عنه فإنَّ الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كلَّ العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكلِّ أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرىٰ، والكفار ردُّوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون

---

(١) زاد المعاد (ص ٣١).

(٢) جلاء الأفهام (ص ١٧٤).

رحمةً لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواءً لذلك المرض».

والبشرية أدركتها الرحمة والهداية ببعثة النبي ﷺ وما أُنزل عليه من الوحي، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ مذكرًا لنبيه ﷺ نعمته العظيمة عليه وعلىٰ العباد؛ إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ [القصص: ٨٦]؛ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي: معينًا ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧] أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك، وصدهم الناس عن طريقك، لا تلوي علىٰ ذلك ولا تباله؛ فإن الله مُعْلٍ كلمتك، ومؤيدٌ دينك، ومظهر ما أرسلك به علىٰ سائر الأديان؛ ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلىٰ عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٣).

والنبي ﷺ وإن كان قُبض فأسباب رحمة الله للخلق والبلاد والعباد موجودة، وهي الشريعة التي أُرسل بها التي تكفّل الله بحفظها إلىٰ يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومن حقوقه ﷺ علىٰ أمته: الصلاة والسلام عليه، وهو من الإحسان الواجب من الأمة إليه، قال النبي ﷺ: «**رغم أنف امرئٍ ذُكرت عنده فلم يصلِّ علي**». صححه ابن حبان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الأمر بالإحسان إليه في مقابلة إحسانه إلىٰ الأمَّة، وتعليمهم، وإرشادهم، وهدايتهم، وما حصل لهم ببركته من سعادة الدُّنيا والآخرة، ومعلوم أنَّ مقابلة مثل هذا النفع العظيم لا يحصل بالصَّلاة عليه مرَّةً واحدةً في العمر، بل لو صلَّىٰ العبدُ عليه بعدد أنفاسه لم يكن مُوفيًا لحقِّه، ولا مؤدِّيًا لنعمته، فجعل ضابطَ شكرِ هذه النِّعمة بالصَّلاة عليه عند ذكر اسمه ﷺ.

قالوا: ولهذا أشار النبي ﷺ إلىٰ ذلك بتسميته من لم يُصلِّ عليه عند ذكر اسمه بخيلًا؛ لأن من أحسن إلىٰ العبد الإحسان العظيم، وحصل له به الخير الجسيم، ثم يُذكر عنده ولا يُثني عليه، ولا يُبالغ في مدحه وحمده وتمجيده،

(١) جلاء الأفهام (ص ٣٤٤، ٣٤٥).

ويبدي ذلك ويُعيده، ويعتذر من التقصير في القيام بشكره وحقِّه؛ عدَّه الناس بخيلًا لئيمًا كفورًا، فكيف بمن أدنىٰ إحسانه إلىٰ العبد يزيد علىٰ أعظم إحسان المخلوقين بعضهم لبعض، الذي بإحسانه حصل للعبد خير الدنيا والآخرة، ونجا من شرِّ الدنيا والآخرة، الذي لا تتصور القلوب حقيقة نعمته وإحسانه، فضلًا عن أن يقوم بشكره، أليس هذا المنعمُ المحسنُ أحقَّ بأن يُعظَّم ويُثنىٰ عليه، ويُستفرغ الوسع في حمده ومدحه إذا ذكر بين الملأ؟! فلا أقلَّ من أن يُصلَّىٰ عليه مرةً إذا ذُكر اسمه ﷺ.

قالوا: ولهذا دعا عليه النبي ﷺ برغم أنفه، وهو أن يُلصق أنفه بالرَّغام، وهو التُّراب؛ لأنَّه لما ذُكر عنده، فلم يُصلِّ عليه؛ استحق أن يُذلَّه الله تعالىٰ، ويُلصق أنفه بالتُّراب».

وحبُّ النبي ﷺ والإيمان به وموالاته ونصرته والذب عنه وعن سنته والصلاة والسلام عليه، كما أنه سبب لدخول الجنة، فهو أيضًا من أسباب إحسان النبي ﷺ لمن قام بذلك، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: «**أقربكم مني منزلة أكثركم صلاة عليّ**»، رواه الترمذي وقال: حسن. وصححه ابن حبان.

وروىٰ أحمد، وقال الترمذي: حسن صحيح: أن أُبيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله! إني أُكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من

صلاتي؟ قال: «**ما شئت**». قلت: الرُّبُع؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير**». قلت: النصف؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير لك**». قال: أجعل لك صلاتي كلَّها؟ قال: «**إذًا تُكفىٰ همَّك، ويُغفر لك ذنبك**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان لأبيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دعاءٌ يدعو به لنفسه، فسأل النبي ﷺ: هل يجعل له منه رُبعه صلاة عليه؟ فقال: إن زدت؛ فهو خير لك. فقال له: النصف؟ فقال: إن زدت فهو خير لك. إلىٰ أن قال: أجعل لك صلاتي كلَّها؟ أي: أجعل دعائي كلَّه صلاةً عليك. قال: «**إذًا تُكفىٰ همَّك، ويُغفر لك ذنبك**». لأن من صلَّىٰ علىٰ النبي ﷺ صلاةً صلىٰ الله عليه بها عشرًا، ومن صلَّىٰ الله عليه كفاه همَّه، وغفرَ له ذنبه».

ومحبة النبي ﷺ مستلزمة لاتباعه، واتباعه ﷺ من أسباب تحقيق التوحيد.

قال الحافظ يوسف بن حسن بن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كل من لم يؤمن بالنبي ﷺ وبما بُعث به، فليس بمؤمن، ولا ينفعه قول: لا إله إلا الله. فإن بعض اليهود والنصارىٰ يقول: لا إله إلا الله. فدلّ ذلك علىٰ أن التوحيد أن يوحّد الله بالعبودية، ومن وحّده بالعبودية أطاع أمره واجتنب نهيه، واتّبع

(١) نقله عنه تلميذه ابن القيم في جلاء الأفهام (ص ٩٥).

(٢) مسألة في التوحيد (ص ٥٩).

ما جاء منه، واتّبع رسوله ﷺ؛ فإن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله».

وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ توجب متابعته، ومتابعته لا تأتي إلا بطلب شريعة الإسلام التي بُعث بها، وتحقيق عقائدها، والقيام بأداء عباداتها التي توجب علينا معرفة الصفة التي أداها عليها - صلوات الله وسلامه عليه -، قال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**». رواه البخاري من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال النبي ﷺ: «**من توضأ نحو وُضوئي هذا ثم صلّىٰ ركعتين لا يُحدّث فيهما نفسه؛ غُفر له ما تقدم من ذنبه**». متفق عليه من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ﷺ: «**لتأخذوا عنّي مناسككم**»، رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «كلما كان الإنسان أقوىٰ إيمانًا كان أقوىٰ اتباعًا لرسول الله ﷺ، حتىٰ كأنه يشاهد الرسول ﷺ أمامه فيتبع أثره، وإذا اتّبع الإنسان هذه الطريقة حصلت له الراحة والطمأنينة وقوة الإيمان، كلما فعل شيئًا كأن الرسول ﷺ أمامه يُرشده بقوله أو بفعله.

وهذه المسألة يجب علينا أن نتنبه لها، حتىٰ لا تضيع علينا أعمالنا سدًىٰ؛ لأن أكثرنا عنده الاتباع المطلق - والحمد لله -، لكن الاتباع الخاص في كل فعل يفعله أو يقوله؛ فهذا يُفقد منّا كثيرًا، فلا بد من التنبّه له».

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٣١).

وقال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «السنة تتبّع طريق الرسول ﷺ، واقتفاء آثاره، والوقوف عند مراسمه وحدوده من غير تقصير ولا غلو، وأن لا يتقدم بين يديه، ولا تختار لنفسك قولًا لم يتبيّن لك أنه جاء به؛ فالسنة مقابلة أوامره بالامتثال، ونواهيه بالانكفاف، وأخباره بالتصديق، ومجانبة الشبه والآراء، وكل ما خالف النقل، وإن كانت له حلاوة في السمع وقبول في القلب، ليست القلوب والعقول والآراء معيارًا علىٰ الشرع، ليس لله طائفة أجلّ من قوم حدّثوا عنه وعن رسوله ﷺ، وما أحدثوا، وعولوا علىٰ ما رووا، لا علىٰ ما رأوا، الوقوف مع النقل مقام الصديقين، وورثة النبيين والمرسلين، هذه نصيحتي لنفسي ولإخواني من المؤمنين».

ومعلوم أن العمل الصالح شرطاه: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة لرسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**». وفي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**».

قال العلامة أبو عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ومن

---

(١) بواسطة الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٩).

(٢) الإبانة عن أصول الديانة (ص ٣٢٣، رقم ٣٣٣).

السنة اتباع رسول الله ﷺ، والاقتفاء لأمره، والاقتداء بهديه، والأخذ بأفعاله، والانتهاء إلىٰ أمره، وإكثار الرواية عنه في كل ما سنّه واستحسنه، وندب إليه، وحرّض أمته عليه؛ ليتأدبوا به، فتحسن بذلك في الدنيا آدابهم، ويعظم عند الله قدرهم».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا تغترَّ بقولك: المرء مع من أحبَّ؛ إنه من أحب قومًا اتَّبَع آثارهم، ولن تلحق الأبرار حتىٰ تتَّبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتُمسي وأنت علىٰ مناهجهم، حريصًا أن تكون منهم، وتسلك سبيلهم، وتأخذ طريقهم، وإن كنت مُقصِّرًا في العمل، فإن مِلاك الأمر أن تكون علىٰ استقامة، أما رأيت اليهود والنصارىٰ وأهل الأهواء المرْدية يُحبُّون أنبياءهم وليسوا معهم؛ لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم، فصار مأواهم النار؟ نعوذ بالله من النار».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن حقيقة المحبّة أن يحبّ المحبوب وما أحبه، ويكره ما يكرهه، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل علىٰ نقص المحبة قول الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٣١]».

---

(١) جامع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٥٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٩٣).



الطهــارة

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرسالة المختصرة في مجمل الاعتقاد، ذكر دليل التوحيد مضمومًا مع الصلاة والزكاة، ثم ذكر الصيام ودليله، ثم أتبعه بذكر الحج ودليله، وما اكتفىٰ بهذا القدر رغم اختصار هذه الرسالة «الأصول الثلاثة وأدلتها»، بل أمر بالطهارة بنوعيها: الطهارة من الشرك، والطهارة من الحدث، فقال[1]: «﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ٤]؛ أي: طهِّر أعمالك من الشرك. ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ٥]؛ الرُّجز: الأصنام، وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها».

وأمر بسائر شرائع الإسلام وأهمها؛ فقال[2]: «فلما استقرَّ في المدينة أمر ببقية شرائع الإسلام، مثل الزكاة، والصَّوم، والحج، والأذان، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام».

فالطهارة من الشرك ضرورية للتخلية؛ لتأسيس التوحيد وبنائه بناءً صحيحًا. والطهور شطر الإيمان، وهو شرط الصلاة، والموجبة لصحتها إذا

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٤).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٧، ٢٨).

أُقيمت سائر الشروط والأركان، وهي المنجية من عذاب القبر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوام الدين؛ فبه تُحفظ الشرائع من التغيير والتبديل.

والأذان عنوان الإسلام، وآكد شرائعه الظاهرة، ذكره الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليبيّن بعضًا من العلامات التي يحكم بها لإسلام الديار، مع ما ذكره من سائر أركان الإسلام وشعائره الظاهرة.

ودار الإسلام هي التي ظهرت فيها شعائر الإسلام، وأهلها كلهم أو أغلبهم مسلمون، وتجري فيهم أحكام الإسلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا تكلم في أوصاف ما يُحكم به لديار الإسلام قال[1]: «التي تجري عليها أحكام الإسلام».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وما لم تجرِ عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام».

وقال العلامة ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار الإسلام، وإن غلب عليها أحكام الكُفّار فدار الكفر، ولا دار لغيرهما».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٢٤٠).

(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ٣٦٦).

(٣) الآداب الشرعية (١/ ١٩٠).

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «دار الإسلام هي التي غلب عليها الإسلام ظهورًا وشيوعًا، بحيث يُؤذَّنُ فيها للصلاة، وتقام فيها الجماعات، ويُصام فيها رمضان ويُعلن، وتظهر فيها الشعائر، حتىٰ وإن كان فيها كُفَّار؛ فلو قُدِّر أن الكفار فيها خمسون في المائة أو أكثر فهي دار إسلام، ما دام حكم الإسلام غالبًا عليها، أما إذا لم يكن حكم الإسلام عليها غالبًا، فهي دار كفر، ولو كثر فيها المسلمون، والاعتبار بالمُظْهَرِ والظَّاهر، ويدل لهذا أن النبي ﷺ كان إذا غزا قومًا أمسك حتىٰ يطلع الفجر، فإذا أَذَّنُوا امتنع من قتالهم، وإن لم يؤذِّنوا قاتلهم.

فمثلًا بلاد أوروبا الآن بلاد كفر؛ لأن الحكم الشائع والظاهر فيها هو الكفر، وإن كان يوجد فيها جماعات إسلامية، وربما يوجد في بعض البلاد هناك مناطق تُقام فيها الجماعة والجمعة، لكنها بلاد كفر؛ لأن الغالب والمهيمن عليها هو حكم الكفار».

وقد ردّ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ المفتري عثمان بن منصور، في دعواه أن الإمام محمد بن عبد الوهاب يكفر المسلمين باللازم، فقال[2]: «وأما قوله: «وجعل بلاد المسلمين كفارًا

---

(١) الشرح الممتع (١٠/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) مصباح الظلام (ص ٢٢، ٢٣).

أصليين»، فهذا كذب وبُهت، ما صدر ولا قيل، ولا أعرفه عن أحد من المسلمين، فضلًا عن أهل العلم والدين، بل كلهم مجمعون علىٰ أن بلاد المسلمين لها حكم الإسلام في كل زمان ومكان.

وإنما تكلم الناس في بلاد المشركين الذين يعبدون الأنبياء والملائكة والصالحين، ويجعلونهم أندادًا لله رب العالمين، أو يُسندون إليهم التصرف والتدبير، كغلاة القبوريين؛ فهؤلاء تكلم الناس في كفرهم وشركهم وضلالهم، والمعروف المتفق عليه عند أهل العلم، أن من فعل ذلك ممن يأتي بالشهادتين يُحكم عليه بعد بلوغ الحجة بالكفر والردة، ولم يجعلوه كافرًا أصليًّا».

وقال العلامة عبد اللطيف أيضًا[1]: «وما رأيت شيخ الإسلام أطلق علىٰ بلد من بلاد المنتسبين إلىٰ الإسلام أنها بلد كفر، ولكنه قرّر أن دعاء الصالحين وعبادتهم بالاستعانة والاستغاثة والذبح والنذر والتوكل، علىٰ أنهم وسائط بين العباد وبين الله في الحاجات والمهمات، وهو دين المشركين، وفعل الجاهليين الضالين من الأميين والكتابيين، **فظن هذا أن لازم قوله أنه يحكم علىٰ هذه البلاد أنها بلاد كفر، وليس هذا بلازم**، ولو لزم فلازم المذهب ليس بمذهب، ونحن نطالب الناقل بتصحيح نقله؛ نعم، ذكر الحنابلة وغيرهم أن البلدة التي تجري عليها أحكام الكفر، ولا تظهر فيها أحكام الإسلام بلدة

---

(١) مصباح الظلام (ص ٢٢، ٢٣).

كفر، وما ظهر فيها هذا وهذا، فقد أفتىٰ فيها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه يراعىٰ فيها الجانبان؛ فلا تُعطىٰ حكم الإسلام من كل وجه، ولا حكم الكفر من كل وجه، كما نقله عنه ابن مفلح وغيره».

والوضوء شعار المسلمين يوم القيامة؛ فالطهارة شأنها عظيم؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**». رواه مسلم، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال يحيىٰ بن آدم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوضوء نصف الإيمان؛ يعني نصف الصلاة؛ لأن الله سمّىٰ الصلاة إيمانًا، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ يعني: صلاتكم[1].

واستدلال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٤، ٥]، عام للطهارة من الشرك، والطهارة من النجاسات، طهارة القلب من رجس الشرك، وطهارة الأبدان والثياب من النجاسات، وهذا منزلته عظيمة؛ فإن عامة عذاب القبر من النجاسات.

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «**إنَّهما ليُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**». رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وقد ذكر بعضهم السر في

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٣٥).

(٢) أهوال القبور (ص ٥٣).

تخصيص البول والنميمة بعذاب القبر، وهو أن القبر أول منازل الآخرة، وفيه أنموذج ما يقع في يوم القيامة من العقاب والثواب، والمعاصي التي يعاقب عليها يوم القيامة نوعان: حق لله، وحق لعباده، وأول ما يُقضىٰ فيه يوم القيامة من حقوق الله: الصلاة، ومن حقوق العباد: الدماء.

أما البرزخ فقضي فيه في مقدمات هذين الحقين ووسائلهما؛ فمقدمة الصلاة: الطهارة من الحدث والخبث، ومقدمة الدماء: النميمة والوقيعة في الأعراض».

فالطهارة شطر الإيمان؛ فهي شرط الصلاة الذي لا تصح بدونه، قال النبي ﷺ: «**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضأ**». رواه البخاري ومسلم. والصلاة هي الحد الفاصل بين الكفر والإيمان؛ قال النبي ﷺ: «**بين الكفر والشرك ترك الصلاة**». رواه مسلم.

والصلاة هي التي إذا صلحت صلح سائر عمل المسلم وأفلح وأنجح، والطهارة سبب تكفير ذنوب جوارح العباد، وهي سبب ورود حوض النبي ﷺ، وحفظ الطهارة عنوان الإيمان؛ «**لا يحافظ علىٰ الوضوء إلا مؤمن**» رواه أحمد، وبالطهارة تُدرك محبة الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وتضييع الطهارة أو عدم البراءة من النجاسة من أسباب عذاب القبر؛ فلا يستهزيء بهذه العبادة العظيمة وعِلْمها إلا جاهل أو عدوّ للسنة؛ يعيب هؤلاء الجهلة المبتدعة علماء أهل السنة علماءنا، ويعيبونهم بما يُمتدح به صاحبه، فيقولون عنهم: «علماء حيض ونفاس».

والطعن في الشريعة وفقهها وطلب علومها دليل فساد الإيمان؛ فإن شأن المؤمن تعظيم الشريعة وعلومها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فمن طلب علوم الشريعة فقد أراد الله به خيرًا؛ ففي الصحيحين من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال رسول الله ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**». ومن استخفّ بعلوم الشريعة وحملتها، فهذا ساعٍ في إفساد الإسلام، وهذا شأن المبتدعة، قال أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر». وهذا هو منهج المعتزلة الأشرار؛ قال عمرو بن عبيد: ألا تسمعون؟ ما كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعونه إلا خرقة حيضة مُلقاة[1].

فالطعن في أهم علوم الشريعة، وفي العلماء الذين أفنوا أعمارهم في تعلمه وتعليمه، وأسقطوا عن الأمة الإثم في فرض الكفاية، جهل وتعالم وابتداع؛ فمذاكرة العلم تسبيح، والبحث عنه جهاد، كما قال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الله سبحانه شرَّف أهل العلم، ورفع أقدارهم، وعظَّم مقدارهم، ودلَّ علىٰ ذلك الكتاب والسنَّة والإجماع.

بل قد اتفق العقلاء علىٰ فضيلة العلم وأهله، وأنَّهم المستحقُّون لأشرف المنازل، وهو مما لا ينازع فيه عاقل.

(١) الاعتصام، للشاطبي (ص ١٥٥)، ط: دار ابن حزم.
(٢) الاعتصام (ص ٤٥٤).

واتفق أهل الشرائع علىٰ أن علوم الشريعة أشرف العلوم وأعظمها أجرًا عند الله يوم القيامة».

والطهارة أنواع، أزكاها طهارة التوحيد، قال النبي ﷺ لأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**المؤمن لا ينجس**»، رواه البخاري، وضده أرجس النجاسات الشرك بالله، قال تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

والطهارة أصلها في القلب؛ فتزكو بها الجوارح بأعمالها الصالحة، وهي سبب لطهارة الأبدان والثياب، قال تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال أحد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للنبي ﷺ: «إن أحدنا يُحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا». فقال النبي ﷺ: «**إن الله جميل يُحب الجمال**».

وطهارة الباطن هي شجرة التوحيد التي يزكو بها المؤمن، وتؤتي ثمرها في أقوال وأفعال صاحبها بحسب قوة إيمانه؛ فالمؤمن القوي أحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير؛ قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وجمال الباطن وحسنه وبهاؤه وصحة اعتقاده يظهر علىٰ وجه صاحبه ورائحة بدنه، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والكفّار وأصحاب البدع المكفّرة وجوههم ممسوخة سوداء ترهقهم قترة ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ

وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦﴾ [عمران: ١٠٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا أمر معلوم يشترك فيه وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم، حتىٰ إن الرجل الطيّب البر لتُشم منه رائحة طيّبة، وإن لم يمسَّ طيبا؛ فيظهر طيب رائحة روحه علىٰ بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس، والمزكوم الذي أصابه ملأ مسام قلبه؛ لا يشم لا هذا ولا هذا، بل زكامه يحمله علىٰ الإنكار».

وقال ابن القيم أيضًا في الطهارة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «كم في الطهارة من حكمة ومنفعة للقلب والبدن، وتفريح للقلب، وتنشيط للجوارح، وتخفيف من أحمال ما أوجبته الطبيعة، وألقاه عن النفس من درن المخالفات؛ فهي منظفة للقلب والروح والبدن، وفي غسل الجنابة من زيادة التقوية، والإخلاف علىٰ البدن، نظير ما تحلل منه بالجنابة، ما هو من أنفع الأمور.

وتأمل كون الوضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل، فجعل في الوجه الذي فيه السمع والبصر والكلام والشم والذوق، وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي والذنوب كلها؛ فمنها يدخل إليها، ثم جعل في اليدين، وهما طرفاه وجناحاه اللذان بهما يبطش ويأخذ ويعطي، ثم في الرجلين اللتين بهما يمشي ويسعىٰ، ولما كان غسل الرأس مما فيه أعظم حرج ومشقة جعل

---

(١) الوابل الصيّب (ص ٤٦، ٤٧)، ط: دار المؤيد.

(٢) شفاء العليل (٣/ ١١٦٤، ١١٦٥).

مكانه المسح، وجعل ذلك مخرجًا للخطايا من هذه المواضع، حتىٰ يخرج مع قطر الماء من شعره وبشره، كما ثبت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه، خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتىٰ يخرج نقيًّا من الذنوب**». رواه مسلم.

وفي «صحيح مسلم» أيضًا عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه حتىٰ تخرج من تحت أظفاره**»، فهذا من أجل حكم الوضوء وفوائده».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا الحكمة من الوضوء قبل الصلاة، وأهم منافع الطهارة والوضوء[1]: «ولو لم تكن في مصلحته وحكمته إلا أنه سيماء هذه الأمة، وعلامتهم في وجوههم وأطرافهم يوم القيامة بين الأمم، ليست لأحد غيرهم، ولو لم يكن فيه من المصلحة والحكمة، إلا أن المتوضيء يُطهّر بدنه بالماء، وقلبه بالتوبة؛ ليستعد بذلك للدخول علىٰ ربه ومناجاته والوقوف بين يديه طاهر البدن والثوب والقلب، فأي حكمة ورحمة ومصلحة فوق هذا؟!».

---

(١) شفاء العليل (٣/ ١١٦٥).

الإسراء والمعراج

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عُرج به إلى السماء وفُرضت عليه الصلوات الخمس».

الشَّرح:

هذه القطعة من العقيدة في الإسراء والمعراج، وهو من أعظم آيات الله التي أوتيها النبي ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وتأمل أيها المسلم دلالات ألفاظ آيات القرآن في حادثة الإسراء والمعراج علىٰ عظم ما فيها من المعجزات؛ قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فقوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تعظيم لله الذي آتىٰ عبده محمدًا ﷺ معجزةً ليست

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٢٥).

لغيره من الأنبياء ولا الإنس ولا الجن، وتنزيه لله عن النقائص.

قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾، كلمة ممتنعة لا يجوز أن يوصف بها غير الله؛ لأن المبالغة في التعظيم لا تليق لغير الله، ولا تنصرف حسب ما ينصرف كثير من المصادر؛ لأنه لما لم يستقم الوصف به لغير الله، ولم تنصرف جهاته، لزم أيضًا منهاجًا واحدًا في الصرف».

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أراد بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير: تقليل مدة الإسراء، وأنه أُسري به في بعض الليل من مكة إلىٰ الشام مسيرة أربعين ليلة؛ وذلك أن التنكير فيه قد دل علىٰ معنىٰ البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة [من الليل]، أي: بعض الليل. كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]؛ يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل».

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «يعني: بيت المقدس. وسُمي أقصىٰ لأنه أبعد المساجد التي تُزار، وقيل: لبعده من المسجد الحرام. ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، بالأنهار والأشجار والثمار. وقال مجاهد:

---

(١) تفسير القرآن (٣/ ٢١٢).

(٢) رموز الكنوز (٤/ ١١٣).

(٣) معالم التنزيل (٣/ ٩٢).

سماه مباركًا؛ لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي، وفيه الصخرة، ومنه يُحشر الناس يوم القيامة».

والإسراء والمعراج كان بجسد النبي ﷺ وروحه والذي يدل علىٰ أنه أُسري بروح النبي ﷺ وجسده أدلة كثيرة، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ظاهر القرآن يدل علىٰ أنه بروحه وجسده ﷺ يقظةً، لا منامًا؛ لأنه قال: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، ولأنه قال: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ والتَّسبيح إنما يكون عند الأمور العظام؛ فلو كان منامًا لم يكن له كبير شأن حتىٰ يُتعجب منه، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]؛ لأن البصر من آلات الذات لا الروح، وقوله هنا: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ [الإسراء: ١].

ومن أوضح الأدلة القرآنية علىٰ ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ فإنها رؤيا عين يقظة، لا رؤيا منام، كما صحَّ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا وغيره.

ومن الأدلة الواضحة علىٰ ذلك: أنها لو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة، ولا سببًا لتكذيب قريش، لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار؛ لأن المنام قد يُرىٰ فيه ما لا يصح؛ فالذي جعله الله فتنة هو ما رآه بعينه من الغرائب والعجائب.

فزعم المشركون أن من ادعىٰ رؤية ذلك بعينه فهو كاذب لا محالة، فصار

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٥٦ - ٣٥٨).

فتنة لهم، وكون الشجرة المكونة التي هي شجرة الزقوم علىٰ التحقيق فتنة لهم، أن الله لما أنزل قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]، قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت بالأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟! كما تقدم في البقرة.

ويؤيد ما ذكرنا من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالىٰ هنا: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ الآية [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٧، ١٨].

وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تُطلق بهذا اللفظ لغة إلا علىٰ رؤيا المنام مردود، بل التحقيق أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب علىٰ رؤية العين يقظة أيضًا، ومنه قول الراعي وهو عربي قح:

فكبر للرُّؤيا وهش فؤاده وبشَّر نفسًا كان قبل يلومها

فإنه يعني رؤية صائد بعينه. ومنه أيضًا قول أبي الطيب:

ورؤياك أحلىٰ في العيون من الغمض

قال صاحب اللسان: وزعم بعض أهل العلم أن المراد بالرؤيا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٦٠]، رؤيا منام، وأنها هي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٧]، والحق الأول.

وركوبه ﷺ علىٰ البراق يدل علىٰ أن الإسراء بجسمه؛ لأن الروح ليس من شأنها الركوب علىٰ الدواب كما هو معروف.

وعلىٰ كل حال فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه، أنه أسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، وأنه عُرج به من المسجد الأقصىٰ حتىٰ جاوز السموات السبع.

وقد دلت الأحاديث المذكورة علىٰ أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه، يقظة لا منامًا، كما دلت علىٰ ذلك أيضًا الآيات التي ذكرنا».

والإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بلا ريب، وتنازع العلماء في تعيينه متىٰ كان، قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اختلف العلماء في ذلك أيضًا، واختُلف في ذلك علىٰ ابن شهاب؛ فروىٰ عنه موسىٰ بن عقبة أنه أُسري به إلىٰ بيت المقدس قبل خروجه إلىٰ المدينة بسنة.

وروىٰ عنه يونس عن عروة عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: تُوفّيت خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قبل أن تُفرض الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبي ﷺ بسبعة أعوام.

وروىٰ عنه الوقاصي قال: أُسري به بعد مبعثه بخمس سنين.

قال ابن شهاب: وفُرض الصيام بالمدينة قبل بدر، وفُرضت الزكاة والحج

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢١٠).

بالمدينة، وحُرمت الخمر بعد أُحد.

وقال ابن إسحاق: أُسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل.

وروىٰ عنه يونس بن بكير قال: صلت خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا مع النبي ﷺ. وسيأتي. قال أبو عمر: وهذا يدلك علىٰ أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأن خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قد تُوفيت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث، وقيل: بأربع. وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب، علىٰ أن ابن شهاب قد اختُلف عنه كما تقدّم. وقال الحربي: أُسري به ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة».

وهذا الاختلاف في تعيين يوم وشهر الإسراء والمعراج، دليل علىٰ أنه لم يكن من عمل الصحابة الاحتفال به؛ إذ لو كان ذلك من عملهم لم يخطئوا يومه وشهره، ولم يختلفوا فيه.

والإسراء والمعراج نزل به القرآن، وتواترت به الأحاديث، وهو من أعظم معجزات النبي ﷺ وآياته، لم تحصل لغيره من الأنبياء، أراد الله أن يظهر فضله علىٰ جميع النبيين - عليهم الصلاة والسلام - فكان إمامهم في صلاته بهم في بيت المقدس، وهو بيان واضح صريح إلىٰ أتباعهم بالائتمام به واتباع شرعه الذي أوحي إليه، فإذا كان النبيون جميعًا يأتمون به، فأتباعهم أولىٰ وأحرىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان قطع المسافة البعيدة في الزمان اليسير، لأجل ما أراه من الآيات التي تختص برؤيتها الأنبياء، وبهذا تميّز عمن يقطع المسافة كرامة لولي، أو بتسخير الجن، كما في قصة بلقيس، حيث ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠]؛ فإن قطع الجسم للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك، كما كانت الريح ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٦-٣٨] وهذا تسخير ملكي.

وقطع محمد ﷺ كان لما أراه الله من الآيات التي ميّزه بها علىٰ سائر النبيين، وكان ذلك فتنة؛ أي محنة وابتلاءً للناس؛ ليتبيّن من يؤمن به ممن يكذبه، وأحاديث المعراج، وصعوده إلىٰ ما فوق السموات، وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ، ورؤيته لما رآه من الآيات، والجنة، والنار، والملائكة، والأنبياء؛ في السموات والبيت المعمور وسدرة المنتهىٰ وغير ذلك معروف متواتر في الأحاديث وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله يظهر به تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣]».

---

(١) الجامع لكلام ابن تيمية في التفسير (٤/ ١٩٨).

والأنبياء - عليهم السلام - أموات في قبورهم، قبض الله أرواحهم، إلا عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رفعه الله إليه حيًّا بروحه وجسده، فكيف رآهم النبي محمد ﷺ في السماء؟ وكيف رأىٰ موسىٰ قائمًا يُصلي في قبره، كما رواه مسلم، ورآه أيضًا في السماء السادسة؟

فأما بالنسبة لعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فالأمر واضح؛ فهو حي بروحه وبدنه، رفعه الله إليه، وأما بالنسبة لسائر النبيين الذين رآهم في السماء، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأىٰ أرواحهم في صور أجسادهم».

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّهم قد مُثِّلُوا له، فرآهم غير مرّة، فرأىٰ موسىٰ في مسيره قائمًا يصلّي في قبره، ثم رآه في بيت المقدس، ثم رآه في السماء السادسة هو وغيره».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وروح رسول الله ﷺ صعدت إلىٰ هناك في حال الحياة ثم عادت، وبعد وفاته استقرَّت في الرفيق الأعلىٰ مع أرواح الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومع هذا فلها إشراف علىٰ البدن وإشراق وتعلق به، بحيث يَرُدُّ السلام علىٰ من سلم عليه، وبهذا التعلق رأىٰ موسىٰ قائمًا يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة، ومعلوم أنه لم يُعرج

---

(١) تاريخ الإسلام، السيرة النبوية (ص٢٦٩).

(٢) زاد المعاد (ص٣٤٤).

بموسىٰ من قبره، ثم رُدَّ إليه، وإنما ذلك مقام رُوحه واستقرارها، وقبره مقام بدنه واستقراره إلىٰ يوم معاد الأرواح إلىٰ أجسادها؛ كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلىٰ مستقر هناك، وبدنه في ضريحه غير مفقود، وإذا سلَّم عليه المسلِّم ردَّ الله عليه روحه حتىٰ يرد عليه السلام، ولم يفارق الملأ الأعلىٰ».

وتكلم العلماء في معنىٰ ومناسبة شق صدر رسول الله ﷺ وغسل قلبه في حادثة الإسراء، مع أنه قد حصل له ذلك وهو صغير، قال قوَّام السنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٥٣٥هـ)[(١)]: «قولهم: شق الصدر وغسل القلب إنما كان في حال صغره. قيل: شق صدره مرتين؛ مرة: في حال الصغر؛ ليصير قلبه مثل قلوب الأنبياء في الانشراح، ومرة عند الإسراء به؛ ليصير حاله مثل حال الملائكة؛ لأنه يُراد به العروج إلىٰ مقام المناجاة».

وفي حادثة الإسراء والعروج بالنبي ﷺ إلىٰ السماء، وبلوغه إلىٰ مكان يسمع فيه صريف الأقلام، بيان حفاوة الله بنبيه ﷺ؛ حيث فُتحت له السماء بصحبة جبريل، تحييه الملائكة والنبيون - عليهم السلام - ويريه الله من عظيم آياته ما تعجز عن وصفه الألسنة وتحار فيه العقول، ويُكرمه الله بتشريع تقر به الأعين في أعظم مقام في السماء؛ وهو الصلاة.

وفي حادثة المعراج بيان عظيم أدب النبي ﷺ في قصر طرفه وبصره إلىٰ

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٥٠٢).

حيث أُذن له برؤيته، قال تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ما ذهب يمينًا ولا شمالًا، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ ما جاوز ما أُمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة؛ فإنه ما فعل إلا ما أُمر به، ولا سأل فوق ما أُعطي.

وما أحسن ما قال الناظم:

رأىٰ جنة المأوىٰ وما فوقها ولو رأىٰ غيره ما قد رآه لتاها».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الرسول ﷺ رأىٰ في هذا المعراج من آيات الله الكبرىٰ ما لم يكن يراه من قبل، وما لا يستطيع الصبر عليه أحد من البشر، ونحن لو رأينا سرادقًا عظيمًا لملك من الملوك لانبهرنا وتعجبنا، وجعلنا نلتفت يمينًا وشمالًا، لكن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يتغيّر عقله ولا اتزانه، بل كان علىٰ أكمل ما يكون من الاتزان».

وفي حادثة المعراج بيان اغتباط النبيين عليهم السلام بعضهم بعضًا في كثرة أتباعهم؛ ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن مالك بن صعصعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي ﷺ صُعد به حتىٰ أتىٰ السماء السادسة، فخلص إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فسلّم عليه، فقال موسىٰ: مرحبًا بالأخ الصالح والنبيّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص١٣١٢).

(٢) تفسير سورة النجم (ص٢١٣، ٢١٤).

الصالح. فلما تجاوز النبي ﷺ بكىٰ موسىٰ، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يجوز أن يتأول بكاؤه علىٰ الحسد له؛ لأن ذلك لا يليق بصفات الأنبياء والأولياء، وإنما بكىٰ من ناحية الشفقة علىٰ أمته، إذ قصر عددهم عن مبلغ عدد أمة محمد ﷺ».

ولا شك أن كثرة أتباع النبي من جملة فضائله، قال تعالىٰ عن يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم».

ومن الدروس المستفادة من الإسراء والمعراج: بيان عظم فضل الله علىٰ رسله، في اصطفائهم للنبوة والرسالة، والنبي ﷺ في عروجه إلىٰ السماء رأىٰ آدم في السماء الدنيا، ويحيىٰ وعيسىٰ في السماء الثانية، ويوسف في السماء الثالثة، وإدريس في السماء الرابعة، وهارون في السماء الخامسة، وموسىٰ في السماء السادسة، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السماء السابعة مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور الذي يدخله كلَّ يوم سبعون ألفًا من الملائكة، يتعبَّدون فيه صلاةً وطوافًا، ثم لا يعودون إليه إلىٰ يوم القيامة.

---

(١) شرح السنة (١٣/ ٣٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٩).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأفضلهم محمد ﷺ، كما قال النبي ﷺ: «**أنا سَيِّدُ ولد آدم**». ولما التقىٰ بهم في الإسراء أَمَّهم في الصلاة؛ فإبراهيم إمام الحنفاء صلىٰ وراء محمد ﷺ، ومعلوم أنه لا يُقدّم في الإمامة إلا الأفضل؛ فالنبي ﷺ هو أفضل أولي العزم.

وإبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يلي مرتبة النبي ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]».

والمفاضلة بين النبيين - عليهم السلام - باعتبار علو مقاماتهم في السماء في حادثة الإسراء، دلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧]،

إلا أنه ينبغي ملاحظة مجموع أدلة فضيلة كل نبيّ مقارنة بغيره، فالفضيلة بنوع لا تستلزم الفضيلة مطلقًا، وكذلك لا بد من ملاحظة المعنىٰ المقصود من جعل هذا النبي في خصوص تلك السماء.

قال قوّام السنة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٣٥هـ)**[٢]: «قولهم: رأىٰ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السماء الدنيا، وإدريس في السماء الرابعة. يقتضي أن يكون إدريس أفضل من آدم.

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص٦٥).

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ٥٠٦).

قيل: مكان آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السماء الدنيا لعلة أوجبت ذلك، وهي أن أرواح ذريته تُعرض عليه؛ فلهذا المعنىٰ جُعل مكانه في السماء الدنيا».

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صفة رؤية النبي ﷺ النبيين عليهم السلام في المعراج، وفي المفاضلة بين النبيين - عليهم السلام - باعتبار مقاماتهم في كل سماء، فقال[1]: «وأما رؤيته ورؤية غيره من الأنبياء ليلة المعراج في السماء، لما رأىٰ آدم في السماء الدنيا، ورأىٰ يحيىٰ وعيسىٰ في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسىٰ في السادسة، وإبراهيم في السابعة - أو بالعكس - **فهذا رأىٰ أرواحهم مصورة في صور أبدانهم**.

وقد قال بعض الناس: لعله رأىٰ نفس الأجساد المدفونة في القبور. وهذا ليس بشيء.

لكن «عيسىٰ» صعد إلىٰ السماء بروحه وجسده، وكذلك قد قيل في «إدريس».

وأما «إبراهيم» و«موسىٰ» وغيرهما، فهم مدفونون في الأرض.

والمسيح - صلىٰ الله عليه وسلم وعلىٰ سائر النبيين - لابد أن ينزل إلىٰ الأرض علىٰ المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة؛ ولهذا كان في السماء

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣٢٨، ٣٢٩).

الثانية مع أنه أفضل من يوسف، وإدريس، وهارون؛ لأنه يريد النزول إلىٰ الأرض قبل يوم القيامة، بخلاف غيره.

وآدم كان في سماء الدنيا؛ لأن نَسَم بنيه تُعرض عليه؛ أرواح السعداء - والأشقياء، لا تُفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة، حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط - فلا بد إذا عُرضوا عليه أن يكون قريبًا منهم.

وأما كونه رأىٰ موسىٰ قائمًا يُصلي في قبره، ورآه في السماء أيضًا، فهذا لا منافاة بينهما؛ فإن أمر الأرواح من جنس أمر الملائكة، في اللحظة الواحدة تصعد وتهبط كالملك، ليست في ذلك كالبدن».

ومن الدروس المستفادة من حادثة الإسراء والمعراج: بيان تعاضد الشرع والفطرة؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول الله ﷺ أُتي ليلة أُسري به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما، ثم أخذ اللبن، فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك الفطرة، ولو أخذت الخمر غوت أمتك».

ويدل لذلك أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «قال ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البيّنة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٩٥).

﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البيّنة. والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

ومن فوائد حادثة المعراج هو تحية الضيف والزائر بما يناسب المقام؛ فإن النبي ﷺ في عروجه إلىٰ السماء سلّم علىٰ الملائكة والنبيين، فردوا السلام جميعًا، وقالوا له: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قول الملائكة للنبي ﷺ ليلة الإسراء: «مرحبًا به» أصل في استعمال هذه الألفاظ وما ناسبها عند اللقاء، نحو: أهلًا وسهلًا، ومرحبًا وكرامة، وخير مقدم وأيمن مورد، ونحوها.

ووقع الاقتصار منها علىٰ لفظ «مرحبًا» وحدها؛ لاقتضاء الحال لها؛ فإن الرَّحْبَ هو السعة، وكان قد أفضىٰ إلىٰ أوسع الأماكن، ولم يطلق فيها «سهلًا»؛ لأن معناه: وطِئْتَ مكانًا سهلًا، والنبي ﷺ كان محمولًا إلىٰ السماء».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس وهي غير محظورة شرعًا، فإنه مأمور بردِّها أو أحسن منها».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٦٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٣٢).

ومن فوائد المعراج: إثبات العلو لله تعالىٰ، قال العلامة أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر أدلة العلو[١]: «وما ذكر رسول الله ﷺ من قصته حين أُسري به، فعُرج به إلىٰ سماء بعد سماء، حتىٰ انتهي به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، التي ينتهي إليها علم الخلائق فوق سبع سموات، ولو كان في كل مكان كما يزعم هؤلاء، ما كان للإسراء والبراق والمعراج إذًا من معنًىٰ، وإلىٰ من يعرج به إلىٰ السماء، وهو - بزعمكم الكاذب - معه في بيته في الأرض ليس بينه وبينه ستر؟! تبارك اسمه وتعالىٰ عما تصفون».

والنبي ﷺ في الإسراء رأىٰ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في صورته الحقيقية ولم يرَ ربه في المعراج؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم: ١٣-١٥]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذه هي المرة الثانية التي رأىٰ رسول الله ﷺ فيها جبريل علىٰ صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء».

ثم قال ابن كثير[٣]: «وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسىٰ، حدثنا حماد ابن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٣، ١٤]،

---

(١) الرد علىٰ الجهمية (ص٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (ص١٣١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (ص١٣١١).

قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت، ما الله به عليمٌ**». إسناده حسن.

وروىٰ مسلم عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله! رأيت ربَّك؟ **فقال: نورٌ أنَّىٰ أراه؟!**».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «وإلىٰ هذا مال جماعة من الأئمة قديمًا وحديثًا؛ اعتمادًا علىٰ هذا الحديث، واتِّباعًا لقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قالوا: هذا مشهور عنها، ولم يُعرف لها مخالف من الصحابة، إلا ما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه رآه بفؤاده، ونحن نقول به.

وما روي في ذلك من إثبات الرؤية بالبصر، فلا يصح شيء من ذلك، لا مرفوعًا، بل ولا موقوفًا».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «ومن روىٰ عنه بالبصر فقد أغرب؛ فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ».

ومن أقوىٰ الأدلة علىٰ أن النبي ﷺ لم يرَ ربه في المعراج، هو أنه ذكر لأصحابه الآيات العظيمة التي رآها، ولم يذكر رؤيته لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مما يدل علىٰ عدم

---

(١) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ (ص٢٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (ص١٣١٠).

وقوعه، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، وقال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، ولو كان رأىٰ ربه لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل علىٰ ذلك، بل النصوص الصحيحة علىٰ نفيه أدل، كما في «صحيح مسلم» عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور، أنىٰ أراه؟!**».

وقد قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، ولو كان قد أراه نفسه بعينه، لكان ذكر ذلك أولىٰ.

وكذلك قوله: ﴿**أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴿١٢﴾﴾ [النجم: ١٢]، ﴿**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ** ﴿١٨﴾﴾ ولو كان رآه بعينه، لكان ذكر ذلك أولىٰ.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **في قوله:** ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص١٣١٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٠٩، ٥١٠).

أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال: هي رؤيا عين، أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به، وهذه «رؤيا الآيات»؛ لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم؛ حيث صدّقه قوم وكذّبه قوم، ولم يُخبرهم بأنه رأىٰ ربه بعينه، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه».

وينبغي علىٰ طالب العلم ملاحظة انفكاك الجهة في قولي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نفت الرؤية البصرية، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أثبت الرؤية القلبية، وبذلك تأتلف أقوال الصحابة، وتتفق، ولا تختلف.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وقد حكىٰ «عثمان بن سعيد الدارمي» في [كتاب الرد له] إجماع الصحابة، علىٰ أنه ﷺ لم يرَ ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة؛ فإن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم يقل: رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في إحدىٰ الروايتين؛ حيث قال: إنه رآه. ولم يقل: بعيني رأسه.

ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٥٠٧، ٥٠٨).

ويدل علىٰ صحة ما قال شيخنا في معنىٰ حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**حجابه النور**». فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**رأيت نورًا**».

وفي استفتاح النبي ﷺ لكل سماء، وسؤال كل نبيّ فيها جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عمن معه، وإجابته بأنه محمد ﷺ، وقول كل نبيّ لجبريل: وقد أُرسل إليه؟ دليل علىٰ توكيد الميثاق الذي أخذه الله علىٰ النبيين - عليهم السلام - الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث وأُوحي إليه.

قال العلامة ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد قول آدم لنبينا محمد: «**الابن الصالح والنبي الصالح**»[1]: «يدل أنه علىٰ العهد في ذلك كله، وأنه قد كان عند آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علمه».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به، ولينصرنه[2].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٢/ ١٥٧).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٩٨).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضًا؛ لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان به؛ فهم كالشيء الواحد».

وبهذا يتبين أن أهل الكتاب الذي كفروا بمحمد ﷺ مكذبون لأنبيائهم، لم يتبعوهم فيما بشروا به من نبوة خاتم النبيين، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمن أعظم دروس حادثة الإسراء والمعراج تقرير عقيدة الإيمان بالنبيين جميعًا؛ عليهم السلام، فالنبي ﷺ التقىٰ بالأنبياء قبله في عروجه إلىٰ السماء، ثم صلىٰ بهم جميعًا لما نزل إلىٰ بيت المقدس بعد عروجه في السماء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن الله صان قبور الأنبياء عن أن تكون مساجد صيانة لم يحصل مثلها في الأمم المتقدمة، لأن محمدًا ﷺ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٣٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٢٧٣، ٢٧٤).

وأمته أظهروا التوحيد إظهارًا لم يظهره غيرهم، فقهروا عبّاد الأوثان، وعُبّاد الصلبان، وعُبّاد النيران.

وكما أخفىٰ الله بهم الشرك فأظهر الله بمحمد ﷺ وأمته من الإيمان بالأنبياء وتعظيمهم وتعظيم ما جاءوا به[1] وإعلان ذكرهم بأحسن الوجوه ما لم يظهر مثله في أمة من الأمم، وفي القرآن يأمر بذكرهم كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ [مريم: ٥١] الآيات، وقوله: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: ١٧]، وذكر بعده سليمان إلىٰ قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص: ٤١]، إلىٰ قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: ٤٥] إلىٰ قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ [ص: ٤٨]، فأمر بذكر هؤلاء، وأما موسىٰ وقبله نوح وهود وصالح فقد تقدم ذكرهم في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ [غافر: ٥] . وقد أُمر بذكر موسىٰ وغيره أيضًا في سورة أخرىٰ كما تقدم.

فالذي أظهره الله بمحمد ﷺ وأمته من ذكر الأنبياء بأفضل الذكر،

(١) مما ثبت عنهم بالطرق الصحيحة مما أخبرنا الله عنهم في القرآن ونبينا ﷺ في السنة وبقي – محكمًا موافقًا لشريعة الإسلام لم تنسخه.

وأخبارهم، ومدحهم، والثناء عليهم، ووجوب الإيمان بما جاءوا به، والحكم بالكفر علىٰ من كفر بواحد منهم، وقتله، وقتل من سبّ أحدًا منهم، ونحو ذلك من تعظيم أقدارهم ما لم يوجد مثله في ملة من الملل».

وحديث المعراج يدل علىٰ أن إدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أنبياء بني إسرائيل، وليس بجد لنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لأنه قال في سلامه للنبي ﷺ: «**مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح**». ولم يقل: والولد الصالح. كما قال آدم وإبراهيم - عليهما السلام -.

وقال شيخنا العلامة المجدّد المحقق محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «رسل الله: هم الذين أوحىٰ الله إليهم بالشرائع، وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح، وآخرهم محمد ﷺ.

الدليل علىٰ أن أولهم نوح قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]؛ يعني: وحيًا؛ كإيحائنا إلىٰ نوح والنبيين من بعده، وهو وحي الرسالة، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]؛ ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ أي: ذرية نوح وإبراهيم، والذي قبل نوح لا يكون من ذريته، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]، قد نقول: إن قوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يدل

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٤٣، ٤٤).

علىٰ ما سبق.

إذًا من القرآن ثلاثة أدلة تدل علىٰ أن نوحًا أول الرسل، ومن السنة ما ثبت في حديث الشفاعة: «أن أهل الموقف يقولون لنوح: أنت أول رسول أرسله الله إلىٰ أهل الأرض»، وهذا صريح.

أما آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو نبي وليس برسول، وأما إدريس فذهب كثير من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضًا، إلىٰ أنه قبل نوح، وأنه من أجداده، لكن هذا قول ضعيف جدًّا، والقرآن والسنة ترده، والصواب ما ذكرنا».

وفي حادثة المعراج بيان شفقة الأب آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ بنيه وذريته، فإنه إذا نظر إلىٰ الأسودة عن يمينه من نسم بنيه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكىٰ، قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما ضحكه لأجل أن ما قبل يمينه من أهل الجنة، فيسر بدخول أجزاء منه إلىٰ الجنة؛ فإن ذريته أبعاضه، وهذا يشهد لما ذكرنا من أنه يسره علو درجات ذريته فوقه.

فأما بكاؤه إذا نظر قبل شماله من أجل أنهم من أهل النار، فإنه من أجل أنهم من صلبه ومن ذريته، وكيف كان من ذريته من يدخل النار».

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٢/ ١٥٦، ١٥٧).

ومن فوائد حادثة الإسراء والمعراج: ظهور صدق النبي ﷺ ومن صدّق به، خصوصًا أبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذب المكذبين للنبي ﷺ من المشركين، خصوصًا أبا جهل.

ففي الصحيحين من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن قريشًا لَّما كذبت النبي ﷺ جلّىٰ الله لرسوله ﷺ بيت المقدس، فأخذ يخبرهم عنه، وهو ينظر إليه.

وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صديقيّته فوق كل أحد، وأسبق من كل أحد في كل المقامات منذ بُعث نبينا محمد ﷺ، بمنطوق كلام النبي ﷺ؛ ففي الصحيحين عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت! وقال أبو بكر** - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: **صدقت**».

ولمّا قال المشركون لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلىٰ بيت المقدس! فقال الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لئن كان قال ذلك لقد صدق، نعم، أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء. رواه البيهقي.

ومن فوائد حادثة الإسراء والمعراج أن الملائكة والنبيين - عليهم السلام - لا يعلمون الغيب؛ ففي الصحيحين من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: «**فلما جئنا السماء الدنيا، قال جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لخازن السماء الدنيا: افتح! قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد** ﷺ. **قال: فأُرسل إليه؟ قال: نعم**».

وخازن كل سماء من الملائكة يقول لجبريل عليه السلام: «**وقد أُرسل إليه؟**».

وسواء كان معنىٰ «أُرسل إليه» رسالة البعثة والوحي، أو أرسل الله إليه يستدعيه إلىٰ السماء[1].

فالملائكة والنبيون - عليهم السلام - مخلوقون ليس لهم من الربوبية شيء، فما اختص الله بعلمه لا سبيل إلىٰ معرفته إلا بما يوحي الله إلىٰ خلقه، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

فخازن كل سماء من الملائكة والنبيين - عليهم السلام - لم يكونوا يعلمون أنه قد بُعث محمد ﷺ حتىٰ سألوا جبريل، فأعلمهم.

والإسراء والمعراج ألفاظه اتفق علىٰ روايتها الثقات، واتحد مخرجها في أصل الحادثة وتفاصيلها، وبعض من قصر حفظه عن رتبة الثقات خالف في بعض ألفاظه، فلا تُقبل مخالفته للثقات، كما أنه لا يكون ذلك سببًا في رد الحديث جملة وتفصيلًا.

وقد سلك البعض مسلكًا خاطئًا في تنزيل أخطاء بعض الرواة منزلة

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٢/ ٣١٣).

تعارض الروايات الصحيحة، وجعل مخرج ذلك في الجمع بين الروايات الخاطئة والصحيحة القول بتعدد حادثة الإسراء والمعراج، وهذا خطأ شنيع.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وكان الإسراءُ مرَّةً واحدة، وقيل: مَرَّتين؛ مرة يقظةً، ومرةً منامًا. وأربابُ هذا القول كأنَّهُم أرادوا أن يجمعوا بين حديثِ شريك، وقوله: «**ثم استيقظتُ**»، وبين سائرِ الروايات.

ومنهم مَنْ قال: بل كان هذا مرتين؛ مرة قبل الوحي لقوله في حديث شريك: «وذلك قبل أن يُوحَىٰ إليه»، ومرة بعد الوحي، كما دلَّت عليه سائر الأحاديث، ومنهم مَن قال: بل ثلاث مرات: مرة قبل الوحي، ومرَّتين بعده، وكل هذا خبط.

وهذه طريقةُ ضعفاء الظاهرية مِنْ أرباب النَّقْلِ الذين إذا رأوا في القصة لفظةً تُخالِفُ سياقَ بعضِ الروايات؛ جعلُوه مرةً أخرىٰ، فكلما اختلفت عليهم الرواياتُ عدَّدوا الوقائع.

والصوابُ الذي عليه أئمةُ النقل: أن الإسراء كان مرةً واحِدةً بمكَّة بعد البعثة.

ويا عجبًا لهؤلاء الذين زعموا أنه مرارًا، كيف ساغ لهم أن يظنُّوا أنه في كل مرة تُفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردَّد بين ربه وبين موسىٰ حتىٰ تصيرَ خمسًا، ثم يقول: «**أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي**» ثم يعيدها

---

(١) زاد المعاد (ص٣٤٤)، ط ـ مؤسسة الرسالة ناشرون.

في المرة الثانية إلىٰ خمسين، ثم يحطها عشرًا عشرًا؟!

وقد غلَّط الحُفَّاظُ شريكًا في ألفاظ مِن حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه، ثم قال: فقدَّم وأخَّر، وزاد ونقص، ولم يسرد الحديث، فأجاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

وذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن في بعض روايات حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الإسراء اختصارًا لم يذكر فيه «بيت المقدس»، ووجهه كما وجّه اختلاف بعض ألفاظ روايات الحديث، فقال[1]: «لم يقع في هذا السياق ذكر بيت المقدس، وكأن بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارةً فيسوقه كلَّه، وتارة يُحدِّث مخاطبه بما هو الأنفع له.

ومن جعل كلَّ رواية إسراءً علىٰ حِدَةٍ - كما تقدَّم عن بعضهم - فقد أبْعَدَ جدًّا، وذلك أنَّ كلَّ السِّياقات فيها السلام علىٰ الأنبياء، وفي كلٍّ منها تعريفه بهم، وفي كلِّها يُفرض عليه الصلوات، فكيف يُمكن أن يُدَّعَىٰ تعدُّدُ ذلك! هذا في غاية البعد والاستحالة».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إذا حصل الوقوف علىٰ مجموع هذه الأحاديث؛ صحيحها وحسنها وضعيفها؛ يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرىٰ رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (ص٧٨٨).

اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز علىٰ من عدا الأنبياء - عليهم السلام -، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرىٰ مرة علىٰ حدة، فأثبت إسراءات متعددة؛ فقد أبعد وأغرب، وهرب إلىٰ غير مهرب، ولم تحصل علىٰ مطلب.

وقد صرَّح بعضهم من المتأخرين بأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُسري به مرة من مكة إلىٰ بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلىٰ السماء فقط، ومرة إلىٰ بيت المقدس ومنه إلىٰ السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًّا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس علىٰ التعدد والتكرر».

فالواجب علىٰ طالب العلم سلوك منهج علماء الحديث المحققين الذين يميّزون الصحيح والصواب من الخطأ في اختلاف الرواة، فيقبلون ما اتحد مخرجه مما رواه الثقات، ويردون ما خالف ذلك من أوهام الرواة.

وهنا أذكر نموذجًا من تقريرات العلماء المحدِّثين في ذلك:

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وشقُّ صدره ﷺ ليلة المعراج، وغسلُه من طست من ذهب من ماء زمزم، وملؤه إيمانًا وحكمةً؛ مما تطابقت عليه أحاديث المعراج».

فهذه طريقة أهل السنة في الترجيح بين الروايات المختلفة، واحذر طريقة

(١) فتح الباري (٢/ ٣١٢).

أهل الضلال الذين يتخذون من خطأ بعض الرواة سببًا لرد أحاديث الثقات.

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن أهل الزيغ والبدع لا يزالون يطعنون في الأخبار لاختلاف ألفاظها».

وفي شرحنا لرسالة «الأصول الثلاثة» لا يمكننا أن نأتي علىٰ كل روايات حادثة الإسراء والمعراج بالنقد والتصحيح والشرح والبيان والتعليق، فهذا يحتاج إلىٰ مصنّف خاص، وفق الله أحد طلبة العلم بإفراده في رسالة جامعة تحقق مروياته وتتكلم في معانيه وفقهه(٢)، فهذا مهم أيضًا كأهمية دراسة الأسانيد، فهناك بعض الألفاظ تحتاج إلىٰ توجيه، من ذلك قول موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إن غلامًا بُعث بعدي»، ومعلوم أن النبي ﷺ أوحي إليه بعد بلوغ الأربعين، قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «قد تسمي العرب المستجمع للسِّنِّ غلامًا ما دامت فيه بقية من قوة».

واستفاد بعض العلماء من حادثة الإسراء أحكامًا فقهية: من أهمها أن مضاعفة ثواب الصلاة بمائة ألف عام لجميع الحرم، قال شيخنا العلامة المحقق محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «في هذا خلاف بين العلماء، فمنهم من قال: إنه يعم جميع الحرم، وأن الذي يُصلي في منًىٰ مثلًا كالذي يصلي إلىٰ جنب

---

(١) التوحيد (٢/ ٥٦٩).

(٢) طُبع للعلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة في «الإسراء والمعراج»، الطبعة الأولىٰ – ١٤٢١هـ المكتبة الإسلامية – الأردن، فيها دراسة لمرويات الإسراء والمعراج لكنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ اخترمته المنيّة قبل أن يتمّه.

(٣) شرح السنة (١٣/ ٣٤٢).

(٤) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٧/ ٥٨٠-٥٨٤).

الكعبة، كلاهما صلاته بمائة ألف صلاة، قالوا: لأن هذا يُسمىٰ المسجد الحرام، لقول الله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقد أُسري به من بيت أم هانئ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وهو خارج المسجد، ولقوله تعالىٰ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]، ولقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، والمشرك لا يدخل الأميال أي حدود الحرم، ولأن النبي ﷺ كان مقيمًا في الحديبية، والحديبية بعضها من الحل وبعضها من الحرم، وكان مقيمًا في الحل لكنه يدخل فيصلي في الحرم، يعني داخل الأميال، وكونه يتكلف الدخول بأصحابه وهم ألف وأربعمائة نفر ليصلي داخل الأميال يدل علىٰ أن هذا التضعيف عامٌّ، يعم جميع الحرم، وقد ذهب إلىٰ هذا كثير من أهل العلم.

ولكنَّ ظاهر كلام علماء الحنابلة خلاف ذلك، وأن التضعيف خاص بالمسجد نفسه الذي فيه الكعبة، واستدلوا لذلك بأن الحرم لا يُسمىٰ مسجدًا، بل يُسمىٰ مكة، ويُسمىٰ حرمًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، فقال: ببطن مكّة، ولم يقل: ببطن المسجد، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، ولو أن مكة تُسمىٰ المسجد لكان المعنىٰ: إن أول بيت وُضع للناس للذي في المسجد، ولأن النبي ﷺ قال: «**لا تُشد الرحال إلا إلىٰ**

ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ...»، ومعلوم أن الإنسان لو شد الرحل إلىٰ مسجد الشِّعْب - مثلًا - بمكة، أو مسجد آخر غير الذي فيه الكعبة لقلنا: لا يجوز، لأنه لو جاز شد الرحل إلىٰ مساجد مكة غير المسجد الحرام الذي فيه الكعبة لكان شد الرحل إلىٰ مائة مسجد، أي: إلىٰ كل مساجد مكة.

ولقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [التوبة: ٢٨]، وهذه الآية استدل بها من قال بالعموم، لأن الله قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾، ولم يقل: «فلا يدخلوا المسجد الحرام»، والمشركون يجوز أن نمكنهم من أن يقفوا علىٰ حد الحرم تمامًا، يعني: يجوز أن نُمكنهم أن يقفوا قبل الأميال بشعرة، ولو كان المراد بالمسجد الحرام كل الحرم ما جاز أن نمكنهم من قربان حدوده، لأن الله يقول: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ﴾، فإذا منعناهم من دخول الأميال فحينئذ منعناهم من قربان المسجد الذي في جوف مكة الذي فيه الكعبة، ولو كان التعبير القرآني [فلا يدخلوا المسجد الحرام] قلنا: نعم، لكن قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ﴾، ومعلوم بالاتفاق بين أهل العلم أن لهم التمكن من الوصول إلىٰ أدنىٰ نقطة من حدود الحرم.

ولقوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] من المسجد الحرام، وهذه الآية استدل بها من قال بالعموم، ولكن نقول: لا، فالذي ثبت في صحيح البخاري أنه أُسري به من الحطيم، من الحجر، والحجر من الكعبة، فيكون ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

أي: من المسجد الذي فيه الكعبة، بل هو من الحجر، وفي بعض الروايات: «**بينا أنا نائم عند الكعبة**»، فيحمل علىٰ أن المراد بالكعبة هنا البناية القائمة، لأن الذي في الحجر هو عند الكعبة، لما رواه مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة**»، فنص علىٰ مسجد الكعبة، وهذا كلام النبي ﷺ وهو أعلم بمراده في قوله: «**صلاة في المسجد الحرام خير من مائة ألف صلاة**».

قال ابن حجر: والجمع بينه وبين كونه أُسري به من بيت أم هانيء إن كان هذا اللفظ محفوظًا: أنه كان في أول الليل في بيت أم هانيء فنام ثم أُوقظ وخرج إلىٰ المسجد، ونام في الحجر، فأُسري به من هناك.

وأما أدلة القول الأول فالجواب عنه كالتالي:

أما قوله تعالىٰ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]، فقد نستدل به علىٰ أن المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه الذي فيه الكعبة، وذلك لأن أهم مقصود في العمرة الطواف، ومن منع الناس أن يدخلوا مكة منعهم أن يدخلوا المسجد الحرام بالأولىٰ، ولهذا قال: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]، ولم يقل: «أن يبلغ المسجد»، فدلّ ذلك علىٰ أن محل الهدي غير المسجد.

وأما حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي كان الرسول ﷺ نازلًا في الحديبية

ويصلي الصلوات في الحرم داخل الأميال، فنحن نقول: نحن لا نمنع أن يكون الحرم أفضل من الحل، بل لا نشك أن الحرم أفضل من الحل، ولهذا من دخله كان آمنًا، حتىٰ الأشجار التي ليست بملك للآدمي تأمن من أن يقطعها أحد، أو يقطع شيئًا من أغصانها من حدود الأميال، فلو كان عندنا شجرتان: إحداهما داخل الأميال، والثانية خارج الأميال، وبينهما متر، فالتي خارج الأميال لنا أن نجتثها بعروقها، أما التي داخل الأميال فلا يجوز قطعها، فنحن لا نشك أن الصلاة في داخل الأميال في الحرم أفضل من الصلاة في الحل ، لكنَّ الكلام علىٰ التفصيل الخاص وهو التضعيف».





الهجـرة

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التَّوحيد، وبعد العشر عُرج به إلى السَّماء، وفُرضت عليه الصَّلواتُ الخمس، وصلَّى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة.

والهجرة: الانتقال من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضةٌ على هذه الأمة، من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ **[النساء: ٩٧-٩٩].**

وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ **[العنكبوت: ٥٦].**

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان.

والدليل على الهجرة من السنة: قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»».

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٥ - ٢٧).

الشَّرْح:

تكلم الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القطعة من العقيدة في ثبوت الهجرة بالسنة الفعلية من النبي ﷺ في هجرته من مكة إلىٰ المدينة، ثم تكلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حكم الهجرة من بلاد الشرك إلىٰ بلد الإسلام، وبيّن أنها «فريضة».

وكذلك تكلّم في حكم المسلمين المستضعفين الذين لم يتيسر لهم الهجرة إلىٰ المدينة، واستدل لإسلامهم بمناداة الله لهم باسم «الإيمان».

والإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصنّفاته الأخرىٰ زاد توضيحًا في تقرير إسلام من لم يهاجر من مستضعفي المسلمين بمكة، وقرّر ذلك أيضًا فيمن أُكره علىٰ الخروج مع المشركين إلىٰ غزوة بدر.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قصة الهجرة، وفيها من الفوائد والعبر ما لا يعرفه أكثر من قرأها، ولكن مرادنا الآن مسألة من مسائلها، وهي أن من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يهاجر - من غير شك في الدين وتزيين دين المشركين - ولكن محبةً للأهل والمال والوطن، فلما خرجوا إلىٰ بدر، خرجوا مع المشركين كارهين، وقُتل بعضهم بالرمي، والرامي لا يعرفه، فلما سمع الصحابة أن من القتلىٰ فلانًا وفلانًا شق عليهم، وقالوا: «قتلنا إخواننا»، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ

(١) شرح ستة مواضع من السيرة (ص ٢٩٤، ٢٩٥)، من الجامع الفريد.

أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٨].

فمن تأمل قصتهم، وتأمل قول الصحابة: «قتلنا إخواننا»، علم أنه لو بلغهم عنهم كلام في الدين، أو كلام في تزيين دين المشركين، لم يقولوا: «قتلنا إخواننا»؛ فإن الله تعالىٰ قد بيّن لهم - وهم في مكة، قبل الهجرة - أن ذلك كفر بعد الإيمان بقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وأبلغ من هذا ما تقدم من كلام الله تعالىٰ فيهم؛ فإن الملائكة تقول: ﴿فِيمَ كُنتُمْۖ﴾ [النساء: ٩٧] ولم يقولوا: كيف تصديقكم: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، لم يقولوا: (كذبتم) مثل ما يقول الله للمجاهد الذي يقول: جاهدت في سبيلك حتىٰ قُتلت فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل قاتلت ليقال: جريء. وكذلك يقولون للعالم والمتصدق: كذبت، بل تعلمت ليقال: عالم، وتصدقت ليُقال: جواد. وأما هؤلاء فلم يكذبوهم، بل أجابوهم بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء: ٩٧].

ويزيد ذلك إيضاحًا للعارف والجاهل، الآية التي بعدها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٨]؛ فهذا أوضح جدًّا أن هؤلاء خرجوا من الوعيد، فلم

تبقَ شبهة، لكن لمن طلب العلم، بخلاف من لم يطلبه».

والهجرة دروسها عظيمة، لا يجوز سرد حوادثها دون أخذ العظة والعبرة والدروس منها، فمنها ما يتعلق بالدعوة؛ وهو أن الإنسان إذا كانت ثمرة دعوته في مكان ومع أقوام محدودة، فإنه يدعو إلىٰ الله في مكان آخر، بعد أن أبرأ الذمة في دعوة أولئك المعرضين، وهذا الذي فعله النبي ﷺ؛ فإنه بذل الجهد غايته في نصح ودعوة قومه، مع ما ناله من أذاهم، فأنذر عشيرته الأقربين، ثم لما أذن له الله في الهجرة هاجر، بعد أن بلغ النصح غايته في هداية قومه، وهكذا أرشدنا الله في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ أي: فلا تطمعوا في إيمانهم، وحالتهم لا تقتضي الطمع فيهم؛ فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه».

ومن فوائد الهجرة فيما يتعلق بالدعوة إلىٰ الله، هو أن الداعية يحتاج إلىٰ حماية لدعوته حتىٰ تظهر الدعوة ويعم نفعها وتظهر بركتها، وكان النبي ﷺ يغشىٰ قبائل العرب في موسم الحج، ويقول: هل من رجل يحملني إلىٰ قومه؟

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٣).

فإن قريشًا منعوني أن أُبلّغ كلام ربي.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن رسول الله ﷺ لقي عند العقبة في الموسم ستة نفر من الأنصار، كلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد ابن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك ابن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر ابن عبد الله بن رئاب. ومن أهل العلم بالسير من يجعل فيهم عبادة بن الصامت، ويُسقط جابر بن عبد الله بن رئاب.

فدعاهم رسول الله ﷺ إلىٰ الإسلام، فكان من صنع الله لهم أنهم كانوا من جيران اليهود، فكانوا يسمعونهم يذكرون أن الله تعالىٰ بعث نبيًّا قد أطلَّ زمانه، فقال بعضهم لبعض: هذا والله الذي تهددكم به يهود، فلا يسبقونا إليه.

فأسلموا به وبايعوا، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، بيننا وبينهم حروب، فننصرف وندعوهم إلىٰ ما دعوتنا إليه، فعسىٰ الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك، فلا أحد أعزّ منك. وانصرفوا إلىٰ المدينة، فدعوا إلىٰ الإسلام، حتىٰ فشا فيهم، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ».

والنبي ﷺ هاجر إلىٰ المدينة بعد وفاة عمه أبي طالب، الذي كان يدفع

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٦٧، ٦٨).

أذىٰ قريش عنه، وبعد خروجه إلىٰ الطائف وحده لدعوة ثقيف إلىٰ الإسلام، فآذوه وسلطوا عليه صبيانهم يرمونه بالحجارة، وفي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال لها: إن ما وجده من أهل الطائف كان أشدَّ عليه من يوم أحد.

وأهل المدينة من الأوس والخزرج[١] الذين وافوا النبي ﷺ في موسم الحج في العقبة في أوسط أيام التشريق فأسلموا، وبايعوه علىٰ أنه إذا هاجر إليهم يمنعونه كما يمنعون نساءهم وأبناءهم[٢].

ومن دروس الهجرة المتعلقة بالتوحيد: بذل الأسباب في حصول المقصود، مع التوكل علىٰ الله وحده لا شريك له؛ فإن النبي ﷺ في هجرته لم يسلك الطريق المعهود المختصر إلىٰ المدينة؛ تمويهًا علىٰ العدو؛ حتىٰ لا يدركوه ويمنعوه من مراده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا هاجر هو وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ذهبا إلىٰ الغار الَّذي بجبل ثور، ولم يكن علىٰ طريقهما بالمدينة؛ فإنَّه من ناحية اليمن، والمدينة من ناحية الشَّام، ولكن اختبآ فيه

---

(١) العرب يُسمون الأنصار: الخزرج - خزرجها وأوسها -. عيون الأثر (١/ ٢٧٢).

(٢) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (١/ ٢٧٣).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٤٧١، ٤٧٢).

ثلاثًا؛ لينقطع خبرهما عن المشركين، فلا يعرفون أين ذهبا؛ فإنَّ المشركين كانوا طالبين لهما، وقد بذلوا في كلِّ واحد منهما ديته لمن يأتي به، وكانوا يقصدون منع النَّبيِّ ﷺ أن يصل إلىٰ أصحابه بالمدينة، وأن لا يخرج من مكَّة، بل لَّما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكَّة؛ فلو سلك الطَّريق ابتداءً لأدركوه، فأقام بالغار ثلاثًا لأجل ذلك».

وجاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله ﷺ ليلة الهجرة، وقال له: لا تبت هذه الليلة علىٰ فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمع المشركون علىٰ بابه يرصدونه، حتىٰ ينام فيثبون عليه، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**نم علىٰ فراشي، وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم عليه؛ فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم**». وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام[1].

ومن فوائد ودروس الهجرة: أن الله إذا أراد أمرًا وقضاه أمضاه، ولو حاول الكفار منعه؛ فالهجرة أرادها الله ليحصل بها ظهور الإسلام، وكفار قريش لما جعلوا الدية في قتل رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان سراقة بن مالك بن جعشم جالسًا في مجلس من مجالس قومه بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم فقال: يا سراقة! إني قد رأيت آنفًا أسودة –

---

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير (١/ ٢٩٣).

أشخاصًا - بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم. فركب فرسه، وأخذ رمحه، فتبع النبي ﷺ وصاحبه، فعثرت فرسه، ثم ركب فرسه ونهض مرة أخرىٰ، فساخت يدا فرسه في الأرض حتىٰ بلغت الركبتين. قال سراقة: فوقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أنه سيظهر أمر رسول الله ﷺ(١).

ومن دروس الهجرة بيان منزلة حب الأوطان في النفوس، فعن عبد الله بن عدي بن الحمراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف علىٰ راحلته بمكة يقول: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلىٰ الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت**». رواه النسائي، والترمذي، وقال: حسن صحيح.

والنبي ﷺ لما أوحي إليه أخبر ورقة بن نوفل بشأنه، فقال له ورقة: يا ليتني أكون حيًّا حين يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أومخرجي هم؟**» قال: نعم. متفق عليه.

قال السهيلي رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «في هذا دليل علىٰ حب الوطن، وشدة مفارقته علىٰ النفس».

وقد دعا النبي ﷺ علىٰ من أخرجه من أرضه ووطنه؛ ففي الصحيحين

(١) عيون الأثر (١/ ٣٠١).

(٢) شرح الحديث المقتفىٰ (ص١٦٣).

من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا**».

والدفاع عن أوطاننا وجهاد من قصدها بالعدوان والاحتلال من أعظم أنواع الجهاد؛ لأنها بلاد الإسلام؛ فحفظ ديار الإسلام وسيادتها هو من الجهاد في سبيل الله، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «من قاتل حماية لوطنه الإسلامي من أجل أنه وطن إسلامي، فقد قاتل لحماية الدين، فيكون من هذا الوجه في سبيل الله».

وقال العلامة القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ **(ت: ١٣٣٢هـ)**[2]: «ومما يجب في حب الوطن أن يدافع العدوَّ الذي يحاول اغتصابه واحتلاله، وأن يجاهد دونه بالأموال والأنفس؛ احتفاظًا بها لأهله في وطنهم من إقامة شعائر دينهم، وتقلبهم في أملاكهم، وصون حريمهم، وتصرفهم في معايشهم، والقيام علىٰ تربية أولادهم وذريتهم، الذي يحاول العدو أن يحول بين هذه الأمور وبين أربابها، فيقضي علىٰ شرف دينهم، وينهب أموالهم ومقتنياتهم، ويهتك حُرُمهم، ويمحو تاريخ مجدهم، ويفني لغتهم وعلومهم في رطانته وعوائده، كل هذا مما ينويه العدو الغاصب للوطن تلقاء أهله، ولذا وجب الجهاد دونه

(١) الشرح الممتع (٥/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب (ص١٣٢).

لوجه الله وفي سبيله».

ومن الدروس المستفادة من هجرة النبي ﷺ: ضرورة تربية الناشئة علىٰ حب النبي ﷺ وأصحابه، فإن الأنصار الذين أسلموا في العقبة بمكة لما رجعوا إلىٰ قومهم دعوا إلىٰ الإسلام وإقامة الشهادتين وحب النبي ﷺ، فلما هاجر إليهم النبي ﷺ خرجوا لاستقباله فرحين.

وروىٰ البخاري في صحيحه[1] عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أوَّلُ من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أمِّ مكتوم، وكانوا يُقرئون الناس، فقدم بلال وسعد وعمّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم قدم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ثم قدم النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتىٰ جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ. فما قدم حتىٰ قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١] في سور من المفصَّل.

وفي الهجرة أوضح الأدلة وأقواها علىٰ خصوصية أبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفضيلته علىٰ سائر الصحابة أجمعين؛ فاصطفاء الله له وحده دون سائر الصحابة للهجرة مع النبي ﷺ دليل خصوصية مناقب الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كان النبي ﷺ يُحدّث أصحابه بذلك، ويقرّر أمته بفضل الصدّيق في ذلك؛ ليعرفوا له فضله وسابقته وخصوصيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد روىٰ البخاري في

---

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة (ص٦٦٢ – رقم ٣٩٢٥).

صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن من أمنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر**» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج مهاجرًا بماله كله، وهو - فيما قيل - خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم[1].

وقد غاظ الرافضة مناقب وخصائص الصدّيق عمومًا، وخصوصيته في الهجرة خصوصًا، فجهدوا أنفسهم بالطعن فيه بما هو منقبة له، وما ذاك إلا لجهلهم ونفاقهم، وقد زجر آل البيت المتقدمون هؤلاء الجهلة عن فهم نصوص القرآن والسنة بأهوائهم وضغائنهم.

من ذلك أن رافضيًّا أخذ ينال من أبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زاعمًا خوفه في حادثة الهجرة، مستدلًّا بقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فردّ عليه جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله[2]: «إن الحزن غير الجزع والفزع، كان حزن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُقتل النبي ﷺ، ولا يُدان بدين الله، فكان حزنه علىٰ دين الله، وعلىٰ نبي الله ﷺ، ولم يكن حزنه علىٰ نفسه».

ولما كانت الهجرة هي الأساس في عز الإسلام وقوته ومنعة أصحابه وقيام دولة الإسلام، جعلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والصحابة

---

(١) عيون الأثر (١/ ٣٠٣).

(٢) مناظرة للإمام جعفر بن محمد الصادق (ص٩٩، ١٠٠).

تاريخًا للمسلمين.

قال سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما عَدُّوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدُّوا إلّا من مقدمه المدينة. رواه البخاري.

قال أبو القاسم السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة؛ لأنه الوقت الذي عز فيه الإسلام، والذي أُمِّر فيه النبي ﷺ وأسس المساجد، وعُبد الله آمنًا كما يجب».

ومن دروس الهجرة مما يتعلق بفقه الدعوة، ضرورة إشعار الداعي المدعوين بالأمان وبيان محتوىٰ دعوته، فإن هذا من أسباب قبولها وعدم مضادتها، ومن أسباب هداية الناس إلىٰ الحق، قال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبيَّنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب، فكان أول شيء سمعته يقول: **«أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٦).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي (رقم ٤٨٥) وقال: حديث صحيح.

أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٦]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾؛ أي: طلب منك أن تجيره، وتمنعه من الضرر؛ لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ثم إن أسلم، فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه؛ أي: المحل الذي يأمن فيه.

والسبب في ذلك: أن الكفار قوم لا يعلمون؛ فربما كان استمرارهم علىٰ كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام؛ أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله».

ودخول أهل المدينة في الإسلام بالدعوة بدون قتال، من أوضح الأدلة علىٰ أن الإسلام قام بالوحي، وليس بالسيف كما يفتري عليه أعداؤه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مدينة النبي ﷺ التي كان يخطب فيها إنما فُتحت بالقرآن، ولم تُفتح بالسيف».

وفتح مكة الذي كان سببًا في دخول الناس في دين الله أفواجًا، وتحول مكة وجزيرة العرب من دار كفر إلىٰ دار إسلام، لم يُقتل فيها إلا (١٢) نفسًا فقط لا غير، وأزهقت النفوس في الحرب العالمية الأولىٰ من أجل استعباد الدول ونهب ثرواتهم حتىٰ بلغت (١٦) مليون قتيل.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٤٠).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٩٠).

وأندونيسيا - أكبر دول الإسلام تعدادًا - دخلت الإسلام بالدعوة وليس بالسيف، وأوروبا وأمريكا في العصر الحديث من أسلم من أهلها إنما أسلم بالدعوة وليس بالسيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعًا واختيارًا بغير سيف، لما بان لهم من الآيات البينات، والبراهين، والمعجزات».

فأين من يقاتل حين لا يجد مندوحة عن القتال لمصلحة المقتول لعتق رقبته من النار، ولمصلحته، ولتكون كلمة الله هي العليا؛ حتىٰ يُعبد الله وحده - ممن يقاتل عدوانًا وسرفًا؛ يقتل الملايين من أجل استعبادهم ونهب ثرواتهم؟ قال الله تعالىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٧٦]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إذا قيل: محمد وأمته يسفكون

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (ص٩٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٠٧).

الدماء، ويفسدون في الأرض، كان هذا ذمًّا لهم، وكان باطلًا، وإذا قيل: يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا، ويقتلون من منعهم من ذلك، كان هذا مدحًا لهم، وكان حقًّا».

وقال الإمام المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا كان الكفرة يقاتلون الناس لمصالحهم العاجلة، ويستعبدونهم ليأخذوا ثروات بلادهم ويظلموهم، فكيف يستنكرون علىٰ الإسلام، وكيف يعيبون الإسلام بالبدء بالقتال لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور لنفعهم ولمصلحتهم، لا لمصلحة المسلمين، ولا لأجل الطمع في الدنيا؟!».

ومن فوائد الهجرة: بيان منزلة المسجد في الإسلام؛ فإن النبي ﷺ أول ما حلّ بالمدينة بنىٰ مسجد قباء، ثم بنىٰ مسجده؛ فإقامة الصلاة هي من أعظم أسباب الهجرة؛ حيث كان يؤذىٰ النبي ﷺ وأصحابه في إقامتها، وهي آكد الأركان بعد الشهادتين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨] عام لمسجد قباء ومسجد النبي ﷺ؛ فكلٌّ منهما بُني وأُسس علىٰ التقوىٰ، وكل منهما بناه النبي ﷺ، ومسجد قباء أقام فيه النبي ﷺ أيامًا قلائل، وللمسجد

(١) فوائد من التفسير (ص٥٤).

النبوي مزية طول إقامة النبي ﷺ الصلاة فيه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الحق أن كلًّا منهما أسس علىٰ التقوىٰ، وقوله تعالىٰ في بقية الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ﴾ [التوبة: ١٠٨] يؤيد كون المراد مسجد قباء، وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ﴾ في أهل قباء، وعلىٰ هذا فالسر في جوابه ﷺ بأن المسجد الذي أُسس علىٰ التقوىٰ مسجده، رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء، والله أعلم».

ومن أعظم دروس الهجرة بيان أهمية الأخوة في الله؛ فإن النبي ﷺ آخىٰ أولًا بين المهاجرين أنفسهم، قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قد كان رسول الله ﷺ آخىٰ بين المهاجرين بعضهم وبعض قبل الهجرة علىٰ الحق والمواساة أيضًا، فآخىٰ بين أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وبين حمزة وزيد ابن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وبين عبيدة بن الحارث وبلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وبين أبي عبيدة وسالم مولىٰ أبي حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا».

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٨٩).

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٩٢).

وكذلك آخىٰ النبي ﷺ بين الصحابة الذين هاجروا إلىٰ أرض الحبشة، وإنما كانت المؤاخاة بالمدينة أشهر؛ لأنهم يومئذ أكثر قوة وعددًا ومنعة، ولظهور أمرهم بعد هذه الأخوة، وغلبتهم للكفار.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قدم عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فآخىٰ النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يُناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلَّني علىٰ السوق[1].

قال السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «آخىٰ بين أصحابه ليُذهب عنهم وحشة الغربة، ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض».

ومن أعظم مقاصد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والمؤاخاة بين المسلمين عمومًا، حتىٰ أبناء القبيلة الواحدة والبلد الواحد، فضلًا عن المؤاخاة بين المسلمين من أقطار الدنيا؛ هو بناء الأخوة علىٰ الآصرة الحقة الصحيحة، وهي أخوة الدين لا أخوة النسب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [التوبة: ٢٣]؛ فهذه الأخوة الحقيقية التي تأتلف عليها القلوب، وتكون سببًا في قوة الإسلام؛

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخىٰ النبي ﷺ بين أصحابه (رقم ٣٩٣٧).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣١٧).

بالتعاضد علىٰ نصرته، وإعزاز أهله، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ألّف بين قلوبهم حتىٰ اتفقوا علىٰ كلمة الإسلام، ومعاداة من يخالفه من أهل الكتاب وعبدة الأصنام».

فائتلاف قلوب المؤمنين وتآخيهم في الله قوة للإسلام، وهي تنفي الغل والتشاحن، وتجعل آصرة الأخوة لله، لا لطمع دنيوي، قال النبي ﷺ: «**أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله، والبغض في الله**». وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا**». متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإفساد ذات بين المؤمنين هي حالقة الدين - كما قال النبي ﷺ -، وهي أعظم ما يسعىٰ إليه الشيطان، وهو ما حذّر منه النبي ﷺ أمته، بعد أن أعز الله الإسلام وأظهره وفُتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجًا، قال ﷺ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»، رواه مسلم.

وكان النبي ﷺ يزجر أصحابه إذا رأىٰ منهم اختلافًا باعثه حمية الجاهلية، ويقول: «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!**». متفق عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]،

---

(١) رموز الكنوز (٢/ ٤٦٤).

وقال النبي ﷺ: «**الجماعة رحمة، والفرقة عذاب**». رواه أحمد، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أهل رحمة الله أهل جماعة، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم».

والمقصود أن يعرف المسلمون لإخوانهم في أقطار الدنيا حقوق أخوتهم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وأن يقيموا أسباب قوة دينهم التي من أعظمها الأخوة في الله، وأن يحفظوا الود والنصح بينهم، والرعاية والحفظ لهذه الأخوة.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «استوصوا بأهل السُّنَّة خيرًا، فإنهم غرباء».

ومن أعظم دروس الهجرة التنبيه علىٰ الإخلاص؛ فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**الأعمال بالنيّة، فمن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه، ومن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله ﷺ**». متفق عليه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ هذه الهجرةَ

(١) جامع البيان (١٢/ ٨٥)، روضة العقلاء (ص١٠٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٣).

تختلفُ باختلافِ النيات والمقاصدِ بها؛ فمن هاجَرَ إلىٰ دار الإسلام حُبًّا لله ورسولِهِ، ورغبةً في تعلُّم دينِ الإسلام، وإظهارِ دينِه حيث كان يعجزُ عنه في دارِ الشِّركِ، فهذا هو المهاجرُ إلىٰ الله ورسوله حقًّا، وكفاه شرفًا وفخرًا أنَّه حصل له ما نواه من هجرتِهِ إلىٰ الله ورسوله.

ولهذا المعنىٰ اقتصرَ في جوابِ هذا الشرط علىٰ إعادتِهِ بلفظه؛ لأنَّ حُصولَ ما نواه بهجرته نهايةُ المطلوب في الدُّنيا والآخرة.

ومن كانت هجرتُهُ من دارِ الشِّرك إلىٰ دارِ الإسلام لطَلَبِ دُنيا يُصيبها، أو امرأةٍ ينكِحُها في دارِ الإسلام، فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليه مِنْ ذلكَ، فالأوَّل تاجرٌ، والثَّاني خاطب، وليسَ واحدٌ منهما بمهاجرٍ.

وفي قوله: «**إلىٰ ما هاجرَ إليه**» تحقيرٌ لِمَا طلبه من أمر الدُّنيا، واستهانةٌ به؛ حيث لم يذكره بلفظه».

ومن فوائد الهجرة ودروسها الواضحة أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه؛ فالنبي ﷺ وأصحابه ﴿أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]، فأورثهم الله دورًا خيرًا من دورهم، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها، وانقلب حال الكفار الظالمين لهم إلىٰ الخوف والهلاك.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كما أنه انعكس علىٰ الكافرين حالهم؛

(١) تفسير القرآن العظيم (ص٧٧٢).

فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد؛ فبدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المسلمون في أول الإسلام وإن ابتلوا بأذىٰ الكفار والخروج من الديار فالذي حصل للكفار من الهلاك كان أعظم بكثير، والذي كان يحصل للكفار من عز أو مال كان يحصل للمسلمين أكثر منه».

وقال[2]: «وأتباعه الذين هاجروا إلىٰ الحبشة أكرمهم ملك الحبشة وأعزهم غاية الإكرام والعز والذين هاجروا إلىٰ المدينة فكانوا أكرم وأعز والذي كان يحصل لهم من أذىٰ الدنيا كانوا يعوضون عنه عاجلًا من الإيمان وحلاوته ما يحتملون به ذلك الأذىٰ، وكان أعداؤهم يحصل لهم من الأذىٰ والشر أضعاف ذلك من غير عوض لا آجلًا ولا عاجلًا، إذ كانوا معاقبين بذنوبهم.

وكان المؤمنون ممتحنين ليخلص إيمانهم وتكفّر سيئاتهم، وذلك أن المؤمن يعمل لله، فإن أوذي احتسب أذاه علىٰ الله، وإن بذل سعيًا أو مالًا بذله لله فاحتسب أجره علىٰ الله».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٩٣).

(٢)مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٩٤).

والهجرة كسائر الواجبات تجب بالقدرة والاستطاعة؛ لذلك عذر الله المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لم يستطيعوا حيلةً ولم يهتدوا سبيلًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه؛ فلو اقتُصر علىٰ ذكر المستضعفين من الرجال لظن أن الولدان غير داخلين؛ لأنهم ليسوا من أهله، وهم ضعفاء، فذكرهم بالاسم الخاص؛ ليبين عذرهم في ترك الهجرة، ووجوب الجهاد».

والهجرة في اصطلاحها الأعم هي الهجرة إلىٰ الله، ويدخل في ذلك الهجرة من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام؛ فهجرة الأبدان تبعٌ لهجرة القلب؛ فسكنىٰ ديار الإسلام من أسباب حفظ الدين وإقامة شعائر الإسلام والبراءة من الكافرين، والقلب لا ينفك عن الهجرة إلىٰ الله، وقصده في كل لحظة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الهجرة إلىٰ الله ورسوله ﷺ؛ فإنها فرض عين علىٰ كل أحد في كل وقت، وأنه لا انفكاك لأحد من وجوبها، وهي مطلوبُ الله ومراده من العباد؛ إذ الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلىٰ بلد، وهذه أحكامها معلومة، وليس المرادُ الكلامَ فيها.

---

(١) كتاب الإيمان (ص ٤٠٤).

(٢) الرسالة التبوكية (ص ١٥، ١٦)، ضمن مجموع الرسائل (٤ - ٧).

والهجرة الثانية: هجرةٌ بالقلب إلىٰ الله ورسوله ﷺ، وهذه هي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعةٌ لها، وهي هجرة «من» و«إلىٰ»؛ فيهاجرُ بقلبه من محبة غيرِ الله إلىٰ محبته، ومن عبوديةِ غيره إلىٰ عبوديته، ومن خوفِ غيره ورجائه والتوكل عليه، إلىٰ خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذّل له والاستكانة له، إلىٰ دعاء ربه وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له.

وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]؛ فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه».

وقال أيضًا[1]: «فار من الله إليه؛ وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ، ولهذا قال النبي ﷺ: «**المهاجر من هجَر ما نهىٰ الله عنه**».

ولهذا يقرنُ سبحانه بين الإيمان والهجرة في القرآن في غير موضع؛ لتلازمهما، واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود: أن الهجرة إلىٰ الله تتضمن هُجرانَ ما يكرهه، وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحبُّ والبغضُ؛ فإن المهاجر من شيء إلىٰ شيء لا بد أن يكون ما يهاجر إليه أحبَّ إليه مما يهاجر منه؛ فيؤثر أحبَّ الأمرين إليه علىٰ الآخر، وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوه إلىٰ خلاف ما يحبه الله

(١) الرسالة التبوكية (ص ١٨ - ٢٠).

ويرضاه، وقد بُلِيَ بهؤلاء الثلاث؛ فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة ربه، فعليه في كل وقت أن يُهاجر إلىٰ الله، ولا ينفكَّ في هجرةٍ حتىٰ الممات».

وأوعب القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر أنواع الهجرة، فقال[1]: «الهجرة، وهي تنقسم إلىٰ ستة أقسام:

الأول: الخروج من دار الحرب إلىٰ دار الإسلام، وكانت فرضًا في أيام النبي ﷺ مع غيرها من أنواعها بيَّناها في شرح الحديث، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلىٰ يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح، هي القصد إلىٰ النبي ﷺ حيث كان؛ فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلىٰ دار الإسلام، فإن بقي فقد عصىٰ، ويُختلف في حاله كما تقدّم بيانه.

الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سبّ فيها السلف.

وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يقدر علىٰ تغييره نُزل عنه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد كنت قلت لشيخنا الإمام الزاهد أبي بكر الفهري: ارحل عن أرض

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٤٨٤ - ٤٨٦).

مصر إلىٰ بلادك. فيقول: لا أحب أن أدخل بلدًا غلب عليها كثرة الجهل، وقلة العقل. فأقول له: فارتحل إلىٰ مكة، أقم في جوار الله وجوار رسوله ﷺ؛ فقد علمت أن الخروج عن هذه الأرض فرضٌ؛ لما فيها من البدعة والحرام. فيقول: وعلىٰ يدي فيها هدًىٰ كثير، وإرشاد للخلق، وتوحيد، وصدٌّ عن العقائد السيئة، ودعاء إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وتعالىٰ الكلام بيني وبينه فيها إلىٰ حد شرحناه في «ترتيب لباب الرحلة»، واستوفيناه.

الثالث: الخروج عن أرض غلب عليها الحرام؛ فإنَّ طلب الحلال فرضٌ علىٰ كل مسلم.

الرابع: الفرار من الإذاية في البدن، وذلك فضل من الله عَزَّوَجَلَّ أرخص فيه، فإذا خشي المرء علىٰ نفسه في موضع، فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه، والفرار بنفسه؛ ليخلصها من ذلك المحذور.

وأول من حفظناه فيه الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمّا خاف من قومه، قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]. وموسىٰ قال الله سبحانه فيه: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وذلك يكثر تعداده.

ويُلحق به - وهو: الخامس -: خوف المرض في البلاد الوخمة، والخروج منها إلىٰ الأرض النزهة.

وقد أذن النبي ﷺ للرِّعاء حين استوخموا المدينة أن يتنزهوا إلىٰ السرح، فيكونوا فيه حتىٰ يصحّوا، وقد استثنىٰ من ذلك الخروج من الطاعون، فمنع الله سبحانه منه بالحديث الصحيح عن النبي ﷺ، بَيْدَ أني رأيت علماءنا قالوا: هو مكروه. وقد استوفيناه في شرح الصحيح عن النبي ﷺ.

السادس: الفرار خوف الإذاية في المال؛ فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو آكد؛ فهذه أمهات قسم الهرب».



تشريع أركان الإسلام وشعائره العظام

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فلما استقرَّ في المدينة، أُمر ببقية شرائع الإسلام؛ مثل: الزكاة، والصوم، والحج، والأذان، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام».

الشَّرح:

في هذه القطعة من العقيدة ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ متىٰ فُرضت أركان الإسلام وشعائره العظام أما فرض الزكاة فقد كان ابتداء ذلك في مكة قبل الهجرة، وتفصيل أنصبتها وقع بعد الهجرة، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: ١-٤]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الأكثرون علىٰ أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فُرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة.

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (ص٩٢٩).

والظاهر أن التي فُرضت بالمدينة إنما هي ذات النُّصُب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالىٰ في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يُحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، علىٰ أحد القولين في تفسيرهما.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادًا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطىٰ هذا وهذا، والله أعلم».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فيكون ابتداء فرضها في مكة من باب تهيئة النفوس واستعدادها لتقبل هذا الأمر».

والمال إذا بلغ نصابًا وحال عليه الحول ففيه حق ثابت وهو الزكاة، وفي المال أيضًا حق عارض بحسب ما يدفع حاجة المسلمين وجوبًا واستحبابًا، قد دلّ علىٰ ذلك القرآن وصحيح السنة، وهي يغني عن الاستدلال له بحديث فاطمة بنت قيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «إن في المال حقًّا سوىٰ الزكاة»؛ فإن هذا الحديث

---

(١) الشرح الممتع (٦/ ١٦).

انقلب علىٰ راويه، وفيه ضعف، وأن لفظه: «ليس في المال حق سوىٰ الزكاة».

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، وفي سنة المجاعة نهىٰ النبي ﷺ عن ادخار اللحوم فوق ثلاث كما في الصحيحين.

قال أبو أحمد حميد بن زنجويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الفريضة التي فرضها الله علىٰ الأغنياء في أموالهم، إنما هي الزكاة المفروضة، غير أن علىٰ صاحب المال في ماله حقوقًا لازمة، مثل: صلة الرحم، وصدقة الفطر، وإطعام المساكين، وإعطاء السائل، وإقراء الضيف، ومعرفة حق الجار، والإعطاء في النائبة، وإطراق الفحل، وإعارة ما يتعاور الناس بينهم، وما أشبه ذلك من الحقوق اللازمة، التي لا بد للمسلم من إقامتها والمحافظة عليها».

والزكاة تزكي مؤديها من الشح، وتحفظ ماله من الآفات وتنميه، وتدفع ضرورات وحاجات المسلمين، ويؤدي المسلم حق الله عليه فيه، وهو من أسباب تكافل وتراحم الأمة الواحدة.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائد الزكاة**[٢]: «إنها تجعل المجتمع الإسلامي كأنه أسرة واحدة، يضفي فيه القادر علىٰ العاجز، والغني

---

(١) الأموال (٢/ ٧٩٩).

(٢) الشرح الممتع (٦/ ١١).

علىٰ المعسر؛ فيصبح الإنسان يشعر بأن له إخوانًا يجب عليه أن يُحسن إليهم كما أحسن الله إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ فتصبح الأمة الإسلامية وكأنها عائلة واحدة، وهذا ما يُعرف عند المتأخرين بالتكافل الاجتماعي».

وأما فرض الصوم فقد كان في المدينة بعد الهجرة؛ أُمروا بصيام عاشوراء، ثم نُسخ وجوب صيامه إلىٰ صيام رمضان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥].

والأمر بصيام عاشوراء والنداء بذلك كان في السنة الأولىٰ أوائل العام الثاني من الهجرة، وإن كان النبي ﷺ يصومه قبل الهجرة لكنه لم يأمر بصيامه؛ ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كان يوم عاشوراء يومًا يصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فُرض رمضان قال: من شاء صامه ومن شاء تركه.

وأما قول معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **عام حج علىٰ المنبر**: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «**هذا يوم عاشوراء، ولم يكتب الله صيامه، وأنا صائم، فمن شاء فليصم، ومن شاء فليفطر**». رواه مسلم، فهذا مراده: لم يكتب الله وجوب صيامه علىٰ الدوام كرمضان، بدليل صيام معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ له، وقوله فيه: «**من شاء فليصم، ومن شاء فليفطر**».

وفرض صيام رمضان تُدرج فيه، فالصحيح المقيم الذي يطيق الصيام كان مُخيّرًا بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكينًا، ثم نُسخ التخيير للمطيق المقيم بوجوب الصوم.

فقد روىٰ البخاري في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه لما نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، كان من أراد أن يُفطر يفتدي، حتىٰ نزلت الآية التي بعدها فنسختها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فرض الصيام**(١): «ولما كان فَطْمُ النفوسِ عن مألوفاتِها وشهواتِها مِن أشق الأمور وأصعبها، تأخَّر فرضُه إلىٰ وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطَّنَتِ النفوسُ علىٰ التوحيد والصلاة، وأَلِفَت أوامِرَ القرآنِ، فَنُقِلَت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفِّي رسول الله ﷺ وقد صامَ تِسع رمضانات، وفُرِضَ أولًا علىٰ وجه التخيير بينه وبين أن يُطعِم عن كُلِّ يوم

(١) زاد المعاد (ص٢٠٧، ٢٠٨).

مسكينًا، ثم نُقِلَ مِن ذلك التخيير إلىٰ تحتُّم الصومِ، وجُعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يُطيقا الصيامَ؛ فإنهما يُفطِران ويُطعمان عن كُلِّ يوم مسكينًا».

وفرض الحج كان متأخرًا، فإنه لم يُذكر وجوبه في أكثر الأحاديث، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أكثر الأحاديث لا يوجد فيها ذكر الحج».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأمَّا «الحجُّ» فقد تنازع النَّاس في وجوبه؛ فقالت طائفة فُرض سنة ستٍّ من الهجرة، وعمدتهم في ذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، نزلت سنة ست عام الحديبية باتِّفاق النَّاس، قالوا: وهذه الآية تدلُّ علىٰ وجوب الحجِّ، ووجوب العمرة أيضًا؛ لأنَّ الأمر بالإتمام يتضمَّن الأمر بابتداء الفعل وإتمامه. وقال الأكثرون: إنَّما وجب الحجُّ متأخِّرًا؛ قيل: سنة تسع. وقيل: سنة عشر. وهذا هو الصَّحيح؛ فإنَّ آية الإيجاب إنَّما هي قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وكان ذلك بعد إنزال سورة براءة».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «وأما فرض الحج فالصواب: أنه في السنة التاسعة، ولم يفرضه الله تعالىٰ قبل ذلك؛ لأن فرضه قبل ذلك ينافي الحكمة، وذلك أن قريشًا منعت الرسول ﷺ من العمرة، فمن الممكن

(١) شرح حديث جبريل (ص٥٢٠).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٥٤٦ - ٥٤٨)، باختصار.

(٣) الشرح الممتع (٧/ ١٧).

والمتوقع أن تمنعه من الحج، ومكة قبل الفتح بلاد كفر».

ولم يُفرض الحج قبل فتح مكة؛ لأن الأنصاب والأصنام كانت منصوبة حول الكعبة، وكان المشركون يحجون عراة، فبعث النبي ﷺ أبا بكر وعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالحج السنة التاسعة، وأمرهما أن يناديا في الناس: «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والنبي ﷺ أخّر الحج للسنة العاشرة لحكمة عظيمة؛ حتىٰ يوافق شهر ذي الحجة في تقدير الله؛ فإن قريشًا كانت تتلاعب بالشهور تقديمًا وتأخيرًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ [التوبة: ٣٧]، ووافق في السنة العاشرة أن كانت أشهر الحج في مواقيتها الصحيحة وفق قدر الله، لذلك قال النبي ﷺ «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**». رواه مسلم.

لهذه المعاني أخّر النبي ﷺ الحج، ولا يجوز لأحد أن يؤخره من غير عذر، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: «**من أراد الحج فليتعجل؛ فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له**». رواه أبو داود.

وتحدّث شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابتداء فرض أركان الإسلام وواجباته وتتميمها فقال[١]: «وقد روي أنَّ الصَّلاة أوَّل ما فرضت، كانت

(١) شرح حديث جبريل (ص٥٤٣ - ٥٤٦).

ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشيِّ، ثمَّ فُرضت الخمس ليلة المعراج، وكانت ركعتين ركعتين؛ فلمَّا هاجر أقرَّت صلاة السَّفر؛ وزيد في صلاة الحضر.

وكانت الصَّلاة تُكمّل شيئًا بعد شيء؛ فكانوا أوَّلًا يتكلَّمون في الصَّلاة، ولم يكن فيها تشهُّد، ثمَّ أُمروا بالتَّشهُّد، وحُرِّم عليهم الكلام.

وكذلك لم يكن بمكَّة لهم أذان؛ وإنَّما شُرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة، وكذلك صلاة الجمعة، والعيد، والكسوف، والاستسقاء، وقيام رمضان، وغير ذلك، إنَّما شُرع بالمدينة بعد الهجرة، وأُمروا بالزَّكاة والإحسان في مكَّة أيضًا، ولكنَّ فرائض الزَّكاة ونُصبها إنَّما شُرعت بالمدينة، وأمَّا صوم رمضان فهو إنَّما فُرض في السَّنة الثَّانية من الهجرة وأدرك النَّبيُّ ﷺ تسع رمضانات».

وأما الجهاد في مكة فلم يكن مأمورًا به؛ لعدم القدرة، فحصلت القدرة بالمدينة بعد الهجرة، ففرضه الله، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولَمَّا استقر رسول الله ﷺ بالمدينة بين أظهر الأنصار، وتكفلوا بنصره، ومنعه من الأسود والأحمر، رمتهم العرب قاطبة عن قوس واحدة، وتعرضوا لهم من كلِّ جانب، وكان الله سبحانه قد أذن للمسلمين في الجهاد في سورة الحج، وهي مكية في قوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ثُمَّ لَمَّا صاروا في المدينة، وصارت لهم شوكة، وعضد،

---

(١) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ (ص٧٩، ٨٠).

كتب الله عليهم الجهاد، كما قال الله تعالىٰ في سورة البقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن فرض الجهاد**[١]: «أول ما أُنزل من القرآن فيه نزل بالإباحة لقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩]، وهذا من العلم العام بين أهل المعرفة بسيرة رسول الله ﷺ لا يخفىٰ علىٰ أحد منهم أنه ﷺ كان قبل الهجرة وبُعيدها ممنوعًا عن الابتداء بالقتل والقتال، ولهذا قال للأنصار الذين بايعوه ليلة العقبة، لما استأذنوه في أن يميلوا علىٰ أهل منىٰ: «**إنه لم يؤذن لي في القتال**»».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أقام ﷺ بضع عشرة سنة بعد نبوته يُنذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويُؤمر بالكف والصبر والصَّفح.

ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يُقاتله، ثم أمره بقتال المشركين؛ حتىٰ يكون الدين كله لله».

على كل حال الجهاد لم يكن مأمورًا به في مكة لكن الله أخبر عنه تهيأة

(١) الصارم المسلول (ص١٠٣).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٥٩).

للنفوس لفرضه، قال تعالى ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: هذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شُرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية»

والمقصود من معرفة فرض الجهاد العمل بفقهه بحسب الأحوال من القوة والقدرة والضعف، قال الإمام المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إذا ضعف المسلمون ولم يقووا علىٰ قتال الجميع، فلا بأس أن يقاتلوا بحسب قدرتهم، ويكفوا عمّن كف عنهم، إذا لم يستطيعوا ذلك، فيكون الأمر إلىٰ ولي الأمر إن شاء قاتل، وإن شاء كَفَّ، وإن شاء قاتل قومًا دون قوم؛ علىٰ حسب القوة والقدرة والمصلحة للمسلمين، لا علىٰ حسب هواه وشهوته».

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فلما استقرَّ في المدينة أُمر ببقية شرائع الإسلام مثل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب خيرية هذه الأمة، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ البازية (٣/ ١٩٣).

(٣) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٧، ٢٨).

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتضييعه من أسباب حلول سخط الله ولعنته بالأمم، قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب حفظ البلاد من الهلاك والعذاب العام، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٦].

وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أسباب تعاضد الكفار والمبتدعين والمبطلين والعصاة الأشرار علىٰ أهل الإسلام وأهل السنة والجماعة وأهل الطاعة الأخيار الأبرار، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر، فبعضهم أولياء لبعض؛ فلا يواليهم إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ [الأنفال: ٧٣]؛ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين؛ بأن واليتموهم كلهم، أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين، وعاديتم المؤمنين.

﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣]؛ فإنه يحصل بذلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٠٤، ٣٠٥).

من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار؛ كالجهاد، والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين، التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض».

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب عصمة الأمة من العذاب والهلاك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾. [هود: ١١٧]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب رحمة الأمة، وارتفاع سخط الله عنها، ونجاتها من اللعنة التي تحل بالأمم التي ضيّعته، قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أوصاف المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، والأصل فيه أنه فرض كفاية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ويتعيّن في حالات:

١- إذا كان في موضع لا يعلم به إلَّا هو.

٢- إذا كان لا يتمكن من إزالته إلا هو.

٣- إذا ولّاه السلطان الحسبة[١].

ومراتب إنكار المنكر ثلاثة، والعمدة في ذلك قوله ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». رواه مسلم.

والمرتبة الأولىٰ: الإنكار باليد، والمأذون فيه من هذا هو ما كان من غير إقامة الحدود والتعزيرات؛ للإجماع علىٰ أن الذي يقيمها ولي الأمر، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٩٠هـ)[٢]: «إن المخاطبين في ملتنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ مراتب، فمنهم من يقدر علىٰ ذلك باليد، وهم الملوك والحُكَّام ومن أشبههم، ومنهم من يقدر باللِّسان، كالعلماء ومن قام مقامهم، ومنهم من لا يقدر إلا بالقلب».

وينكر المسلم باليد فيما أذن له الشرع في حدود ولايته لنفسه وأهل بيته، وشركته الخاصة ومزرعته ونحوه، وبما لا يُعد افتياتًا علىٰ السلطان؛ كأن يرىٰ خمرًا في الشارع وليس في منزل خاص مستتر به أصحابه، فيريقه، لئلا يستعمله أهل المعاصي والشرِّ، كما نصَّ علىٰ ذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية ابنه صالح[٣].

(١) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٢٣).

(٢) الاعتصام (٣/ ٢٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩).

المرتبة الثانية: الإنكار باللِّسان، وهذه المرتبة يُصار إليها إذا عجز المُسلم عن الإنكار باليد؛ لأن التكاليف كلها منوطة بالاستطاعة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وبعض الناس يُحمِّل نفسه ما لا يطيق، ولرُبَّما أورث نفسه الذُّلَّ في إنكاره للمُنكر الذي يعلم يقينًا أنه غير مُعانٍ عليه، وروىٰ أحمد من حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصححه الألباني أن النبي ﷺ قال: «**لا ينبغي للمسلم أن يُذلّ نفسه**». قالوا: وكيف يُذل نفسه؟ قال: «**يُحملها ما لا تطيق**».

وقال هارون معتذرًا عن عدم قدرته إنكار المنكر علىٰ بني إسرائيل: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد الآية[1]: «دليل علىٰ أن من خاف علىٰ نفسه وسعه وجاز له السكوت».

المرتبة الثالثة: وهي الإنكار بالقلب، وكراهية المعصية، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «اعلم أنَّ القدر الواجب من كراهة الكفر والفسوق والعصيان هو أن ينفر من ذلك ويتباعد منه جهده، ويعزم علىٰ أن لا يلابس شيئًا منه جهده؛ لعلمه بسخط الله له، وغضبه علىٰ أهله، فأمَّا ميلُ الطبع إلىٰ ما يميل من ذلك - خصوصًا لمن اعتاده ثم تاب منه - فلا يُؤاخذ به إذا لم يقدر علىٰ

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ٤٤٤).

(٢) فتح الباري (١/ ٥٨).

إزالته، ولهذا مدح الله من نهىٰ النَّفس عن الهوىٰ، وذلك يدل علىٰ أن الهوىٰ يميل إلىٰ ما هو ممنوع منه، وأنَّ من عصىٰ هواه كان محمودًا عند الله عَزَّوَجَلَّ».

وإنكار المنكر لا يجوز أن يكون بحيث يخلفه منكر أشد منه؛ فإن هذا يضاد وينافي حكمة إنكار المنكر الذي يُقصد منه إزالته أو تخفيفه، لا أن يخلفه منكر أشد منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ويُصار إلىٰ هذه المرتبة - الإنكار بالقلب - إذا خشي المسلم أن يقع منكر أعظم من المنكر الذي يُريد إنكاره، لأن الشرَّ درجات، فلا يجوز أن يُرفع شرٌّ بشرٍّ أعظم منه».

وقال شيخ الإسلام أيضًا[٢]: «إذا لم يزل المنكر إلا بما هو أنكر منه، صار إزالته علىٰ هذا الوجه منكرًا، وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف، كان تحصيل ذلك المعروف علىٰ هذا الوجه منكرًا».

ومرتكب المعاصي ينهىٰ عن المنكر ويأمر بالمعروف؛ لامتناع وجود متمحض في الطاعة من البشر كالملائكة، ولو اشترطنا في بني آدم أن يكون ملكًا، لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف، ولا ينهىٰ

(١، ٢) منهاج السنة (٤/ ٥٣٦).

(٣) لطائف المعارف.

عن المنكر، حتىٰ لا يكون فيه شيء، ما أمر أحدٌ بمعروف، ولا نهىٰ عن منكر».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر علىٰ أصحِّ قولي العلماء من السَّلَفِ والخلف».

وتكلم العلماء في الفرق بين النهي عن المنكر وتغييره، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المعروف لا يُشترط له أن يكون له طائفة معيّنة من قبل الولاة؛ كلٌّ يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، لكن بالحكمة، وأنا أقول دائمًا: إن الأمر بالمعروف غير تغيير المنكر.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس هو تغيير المنكر؛ تغيير المنكر يحتاج إلىٰ سلطة، لكن الأمر لا يحتاج إلىٰ سلطة، كل يأمر وينهىٰ.

وقد ذكرنا أن هناك ثلاثة أشياء تشتبه علىٰ بعض الناس، وهي مختلفة:

١- الدعوة.

٢- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- والتغيير».

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا شك في مشروعيته، وهو من أسباب خيرية الأمة وحفظ دينها، لكن الشأن في صفة الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٨٥).

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ٥٨٢).

المنكر، فإن أول ما وقع من الشر في هذه الأمة كان سببه الانحراف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذو الخويصرة قال للنبي ﷺ منكرًا عليه قسم الغنائم: «اعدل يا محمد!». فقال له النبي ﷺ: «**ويحك! من يعدل إذا لم أعدل؟!**»، ثم قال ﷺ: «**يخرج من ضئضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته إلىٰ صلاتهم، وقيامه إلىٰ قيامهم، وصيامه إلىٰ صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**». متفق عليه.

والخوارج خرجوا علىٰ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما حكّم الصحابة لحقن دماء المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان، **فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، وينكر عليهم آخرون إنكارًا منهيًّا عنه، فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرق والاختلاف والشر**، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديمًا وحديثًا؛ إذ الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع؛ فيكون ظلم الأول وجهله من نوع، وظلم كلٍّ من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر.

ومن تدبّر الفتن الواقعة رأىٰ سببها ذلك، ورأىٰ أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها، ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها، ومن تبعهم من

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٧٤).

العامة في الفتن؛ هذا أصلها».

والمنكر الذي يجب إنكاره هو كل ما نهىٰ الله عنه ورسوله ﷺ، وأعظم المنكر الذي يجب إنكاره هو الشرك، ثم البدع، ثم أنواع الكبائر، ثم سائر المحرّمات الصغائر وغيرها.

وقد كان النبي ﷺ يُنكر كل منكر حتىٰ الأكل بالشمال، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما «المنكر» الذي نهىٰ الله عنه ورسوله ﷺ فأعظمه الشرك بالله، وهو أن يدعو مع الله إلهًا آخر؛ كالشمس والقمر والكواكب، أو كَمَلَكٍ من الملائكة، أو نبي من الأنبياء، أو رجل من الصالحين، أو أحد من الجن، أو تماثيل هؤلاء، أو قبورهم، أو غير ذلك مما يُدْعىٰ من دون الله تعالىٰ، أو يُستغاث به، أو يُسجد له؛ فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرّمه الله علىٰ لسان جميع رسله.

ومن المنكر كل ما حرّمه الله، كقتل النفس بغير الحق، وأكل أموال الناس بالباطل؛ بالغصب أو الربا أو الميسر، والبيوع والمعاملات التي نهىٰ عنها رسول الله ﷺ، وكذلك قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وتطفيف المكيال والميزان، والإثم والبغي، وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ، وغير ذلك.

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٥٧).

والرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر».

والمعروف كل عمل صالح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يأمرونهم بما أمر الله به ورسوله ﷺ؛ مثل شرائع الإسلام، وهي الصلوات الخمس في مواقيتها، وكذلك الصَّدقات المشروعة، والصوم المشروع، وحج البيت الحرام، ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، ومثل الإحسان؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ومثل ما أمر الله به ورسوله ﷺ من الأمور الباطنة والظاهرة، ومثل إخلاص الدين لله، والتوكل علىٰ الله، وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، والرجاء لرحمة الله، والخشية من عذابه، والصبر لحكم الله، والتسليم لأمر الله، ومثل صدق الحديث، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانات إلىٰ أهلها، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ والإحسان إلىٰ الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك، والعدل في المقال والفعال، ثم الندب إلىٰ مكارم الأخلاق؛ مثل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك.

ومن الأمر بالمعروف كذلك الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة، وغير ذلك».

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يكون بالحق لا بالحظ، وقد أنكر النبي ﷺ علىٰ سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا تعصب لقومه ضد سعد ابن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي انتصر للنبي ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تعصب لكلٍّ منهم قبيلته حتىٰ كادت تكون فتنة. وأصل هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه للمنكر؛ وإرادته لهذا أو كراهته لهذا، موافقًا لحب الله وبغضه وإرادته وكراهته الشرعيين، وأن يكون فعله للمحبوب ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته؛ فإن الله لا يُكلِّف نفسًا إلا وسعها، وقد قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهيته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة؛ لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتىٰ كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة، وفعل العبد معها بحسب قدرته، فإنه يُعطىٰ ثواب الفاعل الكامل، كما قد بينّاه في غير هذا الموضع.

فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وارادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله ﷺ، وبغض الله ورسوله ﷺ، وهذا من نوع الهوىٰ، فإن اتبعه الإنسان فقد اتّبع هواه ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠]».

ولا يجوز لأحد تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مستدلًّا بقوله تعالىٰ:

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]؛ فهذا سوء فهم للقرآن؛ فإن هذا يكون بعد أن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**الاهتداء إنَّما يتمُّ بأداء الواجب،** فإذا قام المسلم بما يجب عليه؛ من الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات، لم يضرَّه ضلال الضُّلَّال؛ وذلك يكون تارةً بالقلب، وتارةً باللِّسان، وتارةً باليد؛ فأمَّا القلب فيجب بكلِّ حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**وذلك أدنىٰ - أو أضعف - الإيمان**». وقال: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل**».

وقيل لابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من ميِّت الأحياء؟ فقال: الَّذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مجخيًّا في حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهنا يغلط فريقان من النَّاس: فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنَّهي تأويلًا لهذه الآية؛ كما قال أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في خطبته: «يا أيها الناس إنَّكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنَّكم تضعونها علىٰ غير موضعها، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ النَّاس إذا رأوا المنكر فلم يغيِّروه، أوشك أن يعمَّهم**

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٥٨ - ٢٦٠).

الله بعقاب منه».

والفريق الثَّاني: من يريد أن يأمر وينهىٰ إمَّا بلسانه وإمَّا بيده مطلقًا؛ من غير فقه ولا حلم ولا صبر ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سألت عنها - أي الآية - رسول الله ﷺ قال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتَّىٰ إذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوًىٰ متَّبعًا ودنيا مؤثرةً وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه ورأيت أمرًا لا يدان لك به، فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العوامِّ؛ فإنَّ من ورائك أيَّام الصبر، الصَّبر فيهنَّ علىٰ مثل قبض علىٰ الجمر، للعامل فيهنَّ كأجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**».

فيأتي بالأمر والنَّهي معتقدًا أنَّه مطيع في ذلك لله ورسوله ﷺ، وهو معتد في حدوده، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي، كالخوارج والمعتزلة والرَّافضة وغيرهم، ممَّن غلط فيما آتاه الله من الأمر والنَّهي والجهاد وغير ذلك، وكان فساده أعظم من صلاحه، ولهذا أمر النَّبيُّ ﷺ بالصَّبر علىٰ جور الأئمَّة، ونهىٰ عن قتالهم ما أقاموا الصَّلاة وقال: «**أدُّوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم**». وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع.

ولهذا كان من أصول أهل السُّنَّة والجماعة لزوم الجماعة، وترك قتال الأئمَّة، وترك القتال في الفتنة، وأمَّا أهل الأهواء - كالمعتزلة - فيرون القتال

للأئمَّة من أصول دينهم، ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسةً: التَّوحيد الَّذي هو سلب الصِّفات، والعدل الَّذي هو التَّكذيب بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، الَّذي فيه قتال الأئمَّة».



الجهاد

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: **«فلما استقرَّ في المدينة، أُمر ببقية شرائع الإسلام، مثل... الجهاد»**.

الشَّرح:

أفادنا الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذلك التدرج في تشريع الجهاد؛ فإنه لم يُفرض في مكة الجهاد بالسيف، وكان الصحابة مأمورين بضبط النفس، والصبر علىٰ أذىٰ الكفار، وكان بعضهم يسأل النبي ﷺ ويطلب منه الإذن في قتال الكفار لدفع أذىٰ الكفار، فيقول ﷺ: «**لم يؤذن لي بعد**». وأحيانًا أخرىٰ يقول: «**ولكنكم قوم تستعجلون**»، رواه البخاري.

وهذا يُستفاد منه مراعاة أحوال المسلمين من القدرة والقوة والضعف، فالجهاد تابع للمصلحة، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمع ضعف القدرة لا نُمكّن العدو من ديارنا ورقابنا، فيظهر علينا وتكون كلمة الكفر هي العليا، فينتهزون الفرصة لقتل المسلمين والنيل من دمائهم وأموالهم وأعراضهم واحتلال ديارهم.

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٧، ٢٨).

وهذا الحكم ليس من خصائص العهد المكي، بل هو محكم في العهدين المكي والمدني، فإن النبي ﷺ في غزوة الأحزاب بالمدينة أراد أن يُصالح غطفان علىٰ ثلث ثمار المدينة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة وفي أوائل الهجرة من الابتداء بالقتال، وكان قتل الكفار حينئذ محرمًا، وهو من قتل النفس بغير حق، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [النساء: ٧٧] ولهذا أول ما أُنزل من القرآن فيه نزل بالإباحة لقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] وهذا من العلم العام بين أهل المعرفة بسيرة رسول الله ﷺ، لا يخفىٰ علىٰ أحد منهم أنه ﷺ كان قبل الهجرة وبُعيدها ممنوعًا عن الابتداء بالقتل والقتال؛ ولهذا قال للأنصار الذين بايعوه ليلة العقبة لما استأذنوه في أن يميلوا علىٰ أهل منىٰ: «**إنه لم يؤذن لي في القتال**»، وذلك حينئذ بمنزلة الأنبياء الذين لم يؤمروا بالقتال؛ كنوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وعيسىٰ، بل كأكثر الأنبياء غير أنبياء بني إسرائيل».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبينًا التدرج في تشريع فرض الجهاد**[٢]: «أقام ﷺ بضع عشرة سنة بعد نبوته يُنذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويُؤمر بالكف

---

(١) الصارم المسلول (ص ١٠٣).

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٥٩).

والصبر والصَّفح.

ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال، ثم أمره أن يُقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يُقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتىٰ يكون الدين كله لله».

والمقصود من بيان تدرج فرض الجهاد هو أن يعمل المسلمون في كل وقت ما يناسب قدرتهم وحالهم، قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا ضعف المسلمون ولم يقووا علىٰ قتال الجميع، فلا بأس أن يقاتلوا بحسب قدرتهم، ويكُفُّوا عمّن كفَّ عنهم، إذا لم يستطيعوا ذلك، فيكون الأمر إلىٰ ولي الأمر؛ إن شاء قاتل، وإن شاء كَفَّ، وإن شاء قاتل قومًا دون قوم، علىٰ حسب القوة والقدرة والمصلحة للمسلمين، لا علىٰ حسب هواه وشهوته، ولكن ينظر للمسلمين، وينظر لحالهم وقوتهم، فإن ضعف المسلمون استعمل الآيات المكية؛ لما في الآيات المكية من الدعوة والبيان، والكفِّ عن القتال عند الضعف، وإذا قوي المسلمون قاتلوا حسب القدرة، فيقاتلون من بدأهم بالقتال وقصدهم في بلادهم، ويكفون عمّن كفَّ عنهم، فينظرون في المصلحة التي تقتضيها قواعد الإسلام، وتقتضيها الرحمة للمسلمين والنظر في العواقب، كما فعل النبي ﷺ في مكة، وفي المدينة أول ما هاجر.

وإذا صار عندهم من القوة والسلطان والقدرة والسلاح ما يستطيعون به

---

(١) مجموع الفتاوىٰ البازية (٣/ ١٩٣).

قتال جميع الكفار أعلنوها حربًا شعواء للجميع، وأعلنوا الجهاد للجميع، كما أعلن الصحابة ذلك في زمن الصدِّيق وعمر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وكما أعلن ذلك الرسول ﷺ في حياته بعد نزول آية السيف، وتوجه إلىٰ تبوك لقتال الروم، وأرسل قبل ذلك جيش مؤتة لقتال الروم عام (٨) من الهجرة، وجهّز جيش أسامة في آخر حياته ﷺ».

والجهاد في مفهومه الحقيقي العام لا ينحصر في الجهاد بالسيف، فحقيقته إقامة شرائع الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وبيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ قول النبي ﷺ: «**من مات ولم يغزُ، ولم يُحدّث نفسه بالغزو؛ مات علىٰ شعبة من نفاق**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال[1]: «الجهاد تحقيق كون المؤمن مؤمنًا؛ ولهذا روىٰ مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من مات ولم يغزُ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو؛ مات علىٰ شعبة من نفاق**».

وذلك أن الجهاد فرض علىٰ الكفاية، فيُخاطب به جميع المؤمنين عمومًا، ثم إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين.

ولا بد لكل مؤمن من أن يعتقد أنه مأمور به، وأن يعتقد وجوبه، وأن يعزم عليه إذا احتيج إليه، وهذا يتضمن تحديث نفسه بفعله، فمن مات ولم

(١) جامع الرسائل (٩/ ٣٦١).

يغزُ أو لم يُحدِّث نفسه بالغزو؛ نقص من إيمانه الواجب عليه بقدر ذلك؛ فمات علىٰ شعبة نفاق».

فالجهاد تحققك بشعب الإيمان، كما قال شيخ الإسلام: «تحقيق كون المؤمن مؤمنًا»، ويدل لذلك أيضًا حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**»[١].

قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ **لعمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ: أي الجهاد أفضل؟ قال: جهاد الهوىٰ[٢].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «جهاد العدو الظاهر، وهو جهادُ الكفار، وكذلك جهاد العدوِّ الباطن، وهو جهاد النَّفس والهَوىٰ؛ فإنَّ جهادَهُما من أعظم الجهاد، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**المجاهدُ مَنْ جاهد نفسه في الله**».

وقال عبد الله بنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **لمن سأله عن الجهاد**: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها.

وقال بقيةُ بن الوليد: أخبرنا إبراهيمُ بن أدهم، حدثنا الثقة، عن عليِّ ابن

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢١، ٢٢)، والترمذي (ص٣٩٢ - رقم ١٦٢١)، وقال: حديث حسن صحيح، دون قوله: «في طاعة الله»، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (١/ ١٥٢ - رقم١٤)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٨١ - رقم٥٤٩).

(٢) المجالس وجواهر العلم (ص ٣٣٥ - رقم ١٩٦٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٩، ٤٩٠).

أبي طالب، قال: أوَّلُ ما تُنكرون من جهادكم جهادكم؛ أنفسكم».

والجهاد بالسيف فرض كفاية، وجهاد النفس فرض عين، ولا يمكن للمسلم أن يجاهد بالسيف إذا لم يجاهد نفسه وهواه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يحتاج المسلم في ذلك إلىٰ أن يخاف الله، وينهىٰ النَّفس عن الهوىٰ، ونفس الهوىٰ والشَّهوة لا يعاقب عليه، بل علىٰ اتِّباعه والعمل به، فإذا كانت النَّفس تهوىٰ وهو ينهاها؛ كان نهيه عبادةً لله، وعملًا صالحًا، وثبت عنه أنَّه قال: «**المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله**»، فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلىٰ جهاد نفسه أحوج، فإنَّ هذا فرض عين وذاك فرض كفاية، والصَّبر في هذا من أفضل الأعمال، فإنَّ هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد، فمن صبر عليه صبر علىٰ ذلك الجهاد، كما قال: «**والمهاجر من هجر السَّيِّئات**».

ثمَّ هذا لا يكون محمودًا فيه إلَّا إذا غلب، بخلاف الأوَّل فإنَّه ﴿وَمَن يُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٧٤]، ولهذا قال ﷺ: «**ليس الشَّديد بالصُّرعة، الشديد من يملك نفسه عند الغضب**»؛ وذلك لأنَّ الله أمر الإنسان أن ينهىٰ النَّفس عن الهوىٰ، وأن يخاف مقام ربِّه، فحصل له من الإيمان ما يعينه علىٰ الجهاد، فإذا غُلب كان لضعف إيمانه، فيكون

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٦٣٥، ٦٣٦).

مفرِّطًا بترك المأمور، بخلاف العدوِّ الكافر؛ فإنَّه قد يكون بدنه أقوىٰ».

فالنفس في سيرها إلىٰ الله تحتاج إلىٰ صبر ومجاهدة علىٰ الطاعة حتىٰ توافي ربها بموجبات الرضا، ولا ينقطع بها السير بتضييع العمل بطاعة الله.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وفُسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه علىٰ طاعة الله؛ فإن النفس مَيَّالةٌ إلىٰ الكسل عن الخيرات، أمارةٌ بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلىٰ صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها علىٰ الصبر عند المصائب، وهذه الطاعات هي: امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر علىٰ المقدور.

فالمجاهد حقيقةً: من جاهدها علىٰ هذه الأمور؛ لتقوم بواجبها ووظيفتها.

ومن أشرف هذا النوع وأجلِّه: مجاهدتُها علىٰ قتال الأعداء، ومجاهدتهم بالقول والفعل؛ فإن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين».

فقيام المسلم بما فرض الله عليه من شعب الإيمان، وعمارته للأرض بالوجوه المباحة لتحقيق العبودية لله وحده لا شريك له هو من الجهاد في سبيل الله؛ عن عبيد بن خالد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «آخىٰ النبي ﷺ بين رجلين فاستُشهد أحدهما، وبقي الآخر بعده عامًا، ثم مات فاتَّبعنا جنازته، ومعنا نبي الله ﷺ، فجعلنا ندعو الله ونرغب إليه أن يُلحقه بصاحبه! فقال النبي ﷺ:

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ٥١، ٥٢).

أيهما تعدُّون أفضل؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم! ثم قلنا: الشهيد أفضلهما! فقال النبي ﷺ: **ألا تعدُّون لهذا فضيلته: صلاته، وعمله بعد عمله! لما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض**»(١).

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «والذي فيه من الإبانة عن فضل صالح الأعمال، وأن الفاضل من الناس إنما يفضل غيره بفضل زيادة أعماله الصالحة علىٰ عمل من فَضلَهُ، وذلك أن النبي ﷺ لما ذُكر له أمر الرجلين اللذين استُشهد أحدهما، وعاش الآخر بعده سنة، قال في الذي عاش بعده صاحبه: «**أليس قد أدرك رمضان وصامه، وصلىٰ كذا وكذا سجدة؟**»، فلما قالوا له: بلىٰ! قال: «**فلما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض!**».

وذلك من قوله ﷺ نظير الأخبار الواردة عنه؛ أنه قال إذ قيل له: أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**»».

ومن الأحاديث المبيّنة لأنواع الجهاد: حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»(٣)، فهذا الحديث من

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٦٣) وابن ماجه كتاب تعبير الرؤيا، باب تعبير الرؤيا (ص٥٦٢ - رقم ٣٩٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) تهذيب الآثار (الجزء المفقود) (ص ٣٧٢، ٣٧٣).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٢٤)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو (ص٣٦٣ - رقم ٢٥٠٤)، وقال الحافظ ابن عبد الهادي: علىٰ شرط مسلم. «المحرر» (٢/ ٤٣٩).

جوامع كلم النبي ﷺ المبيّنة لأنواع الجهاد: الجهاد بالمال، وجهاد الكلمة بالعلم والتعليم ونصرة السنة والرد علىٰ المبتدعين والحث علىٰ جهاد الكفار، والجهاد بالسيف.

ومن النصوص الخاصة، الدالة علىٰ أن طلب العلم وتعليمه من الجهاد: حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع**»[١]، وعلىٰ هذا كلمة الصحابة؛ قال معاذ ابن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «تعلَّموا العلم؛ فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد».

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «من رأىٰ الغدو والرواح إلىٰ العلم ليس بجهاد؛ فقد نقص عقله ورأيه».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «وكذلك من يشتغل بالعلم؛ لأنه أحد نوعي الجهاد، فيكون اشتغاله بالعلم كالجهاد في سبيل الله والدعوة إليه».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «ومن أعظم الجهاد سلوك

---

(١) رواه الترمذي كتاب العلم، باب فضل طلب العلم (ص٦٠١ - رقم ٢٦٤٧).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص٩٤).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (ص٦٠).

(٤) الحكم الجديرة بالإذاعة، جامع رسائل ابن رجب (١/ ٢٤٤).

(٥) الفتاوىٰ السعدية (ص ٤٥).

طريق التعلم والتعليم؛ فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيّته لا يوازنه عمل من الأعمال؛ لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلىٰ الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المتفقهين في دين الله يوازون تمامًا المجاهدين في سبيل الله؛ فالمتفقه في دين الله وهو يتصفح كتبه ويحضر إلىٰ مجالس العلم، هو كالذي يتفقد قوسه ورمحه مجاهدًا في سبيل الله. والذي يُعرّض بصره وفكره وقلبه لإدراك المسائل العلمية، كالذي يُعرّض رقبته لأعداء الإسلام ليقاتلهم؛ حتىٰ تكون كلمة الله هي العليا، ولست أقول ذلك مجازفة أو محاباة لكم، ولكني أقول ذلك مستندًا إلىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فتأمل أخي الطالب قول ربك عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ﴾، اللام في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، ليست تعليلًا للفرقة النافرة، ولكنها تعليل للفرقة الباقية ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾، أي: القاعدون الذين لم ينفروا للجهاد ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، فأنتم الآن ومن في

---

(١) وصايا وتوجيهات لطلبة العلم (ص ١٧٥، ١٧٦).

ميدان القتال سواء».

وأفضل أنواع الجهاد بالعلم: نصرة السنة والرد علىٰ المبتدعة، قال محمد بن يحيىٰ الذهلي: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: الذب عن السنة أفضل من الجهاد في سبيل الله. فقلت ليحيىٰ: الرجل ينفق ماله، ويُتعب نفسه، ويجاهد، فهذا أفضل منه؟!

قال: نعم، بكثير[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من الحكايات المشهورة التي بلغتنا: أن الشيخ أبا عمرو ابن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا».

وسبب هذا التفضيل يرجع إلىٰ حفظ بناء الإسلام من الداخل، الذي لا يستطيع القيام بجهاد الدفع ولا الابتداء ما لم يكن قويًّا متماسكًا.

قال أبو الفضل الهمداني شيخ ابن عقيل الحنبلي[3] رحمهما الله: «مبتدعة الإسلام والكذابون والواضعون للحديث؛ أشد من الملحدين؛ هؤلاء قصدوا إفساد الدين من خارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل، فهم

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥١٨).

(٢) نقض المنطق (ص ١٥٦).

(٣) الصارم المسلول (ص ١٧١).

كأهل بلد سعوا في فساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من خارج، فالدخلاء يفتحون الحصن؛ فهم شرٌّ على الإسلام من غير الملابسين له».

ومع أن العالم وطالب العلم هو من المجاهدين في سبيل الله؛ لإظهاره نور النبوة وإعزاز الدين الذي بسببه تكون كلمة الله هي العليا، فإن منزلته عند الله فوق شهداء المعركة، لا يسبقه أحد ولا يكون أعلىٰ منه رتبةً في الجنة إلا الأنبياء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أفضل منه - الشهيد - من أوتي منازل الصديقين، وحمل الناس علىٰ شرائع الله وسنن نبيه ﷺ، وقادهم إلىٰ الخيرات، وسبّب لهم أسباب المنفعة في الدين والدنيا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن أفضل الدرجات: النبوة، وبعدها الصديقية، وبعدها الشهادة، وبعدها الصلاح، وهذه الدرجات الأربع التي ذكرها تعالىٰ في كتابه في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، فمن طلب العلم ليحيي به الإسلام؛ فهو من الصديقين،

---

(١) شرح صحيح البخاري (٥/ ٧، ٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢١).

ودرجته بعد درجة النبوة».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ما من شيء مما خلق الله أعظم عند الله في عظيم الثواب من طلب علم؛ لا حج، ولا عمرة، ولا جهاد، ولا صدقة، ولا عتق، ولو كان للعلم صورةً لكانت صورته أحسن من صورة الشمس، والقمر، والنجوم، والسماء، والعرش».

ومع ما تقرّر من أن منزلة العلماء تلو الأنبياء وفوق الشهداء، فإن المجاهد لا يستغني عن استفتاء العلماء؛ لبيان أحكام الجهاد بشروطه التي دلّ عليها الكتاب والسنة.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن طلب العلم ينبغي أن يكون أفضل من الجهاد وغيره؛ لأن الجهاد لا يكون إلا بعلم حدوده، وما أحل الله منه وحرّم، ألا ترىٰ أن المجاهد متصرف بين أمر العالم ونهيه، ففضل عمله كله في ميزان العالم الآمر له بالمعروف والناهي له عن المنكر، والهادي له إلىٰ السبيل، فكما أن أجر المسلمين كلهم مذخور للنبي ﷺ؛ من أجل تعليمه لهم وهدايته إياهم سبيل العلم، فكذلك يجب أن يكون أجر العالم؛ فيه أجر من عمل بعلمه».

والجهاد إذا لم يقم المسلمون به، بشروطه التي دلّ عليها القرآن والسنة،

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ١٦).

(٢) شرح صحيح البخاري (٥/ ٤٩، ٥٠).

ربما انعكست مقاصده علينا، وكان ذلك من أسباب تسلط الكافرين علىٰ ديار المسلمين واستباحة حرماتهم.

فالجهاد يتعلق بأمن المسلمين العام وسيادة أراضيهم ودمائهم وأعراضهم وثرواتهم، فأمر بهذه الأهمية والخطورة لم يفرضه الله عَزَّوَجَلَّ مرسلًا بدون شروط، فإن هذا مما يأباه العقل فضلًا عن الشريعة الحكيمة، فكما أن للصلاة وسائر العبادات شروطًا، فإن للجهاد شروطه.

وشروط الجهاد هي:

١- **القدرة**: لا شك أن القدرة شرط في جهاد الأفراد والجماعة، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]، قال ابن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «للمريض أن يتخلف عن الغزو، والزَّمِن كذلك، يُقال: إن قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾، نزل في ابن أم مكتوم».

وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]، قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «عذر الله في هذه الآية أهل العذر من العُرج

---

(١) الإقناع (٢/ ٤٥١).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ٤٨٥، ٤٨٦).

والعُمي والمرضىٰ، ورفع الحرج عنهم في كل جهاد إلىٰ يوم الدين، إلا أن يحدث حادث في مستقر ما، فالفرض متوجه بحسب الوسع، ومع ارتفاع الحرج إذا حضروا الغزو فأجرهم فيه مضاعف، وقد غزا ابن أم مكتوم، وكان يُمسك الراية في بعض حروب القادسية رضي الله تعالىٰ عنه وعن سائر الصحابة أجمعين».

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، قال: «**إن في المدينة لأقوامًا ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ إلا كانوا معكم فيه.** قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: **نعم، وهم بالمدينة حبسهم العذر**»[1].

والعذر عام للمرض وغيره، فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم.** فقام رجل فقال: يا رسول الله! اكتُتبت في غزوة كذا وكذا، وخرجت امرأتي حاجَّة؟ قال: **اذهب واحجج مع امرأتك**»[2].

فالقدرة شرط في جهاد كل فرد بلا ريب، وهذا من مسائل الإجماع

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر (رقم ٤٤٢)، ومسلم كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من اكتتب في جيش فخرجت امرأته حاجة (رقم ٣٠٠٦)، ومسلم كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلىٰ حج وغيره (رقم ١٣٤١).

ومواضع الاتفاق، قال محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اتفقوا كذلك أن المرأة، ومن لم يبلغ، والمريض الذي لا يستطيع القتال؛ لا جهاد فرضا عليه».

وأما بالنسبة لشرط القدرة للجماعة، فقد قال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أبان في كتابه أنه وضع عنهم أن يقوم الواحد بقتال العشرة، وأثبت عليهم أن يقوم الواحد بقتال الاثنين».

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[(٣)]: «إن فرَّ رجل من اثنين فقد فر، وإن فرَّ من ثلاثة لم يفر».

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ معلقًا علىٰ كلام ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[(٤)]:

---

(١) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ٧٠٧).
(٢) الرسالة (ص ١٢٧ - رقم٣٧٢).
(٣) السنن الكبرىٰ للبيهقي (٩/ ٧٦).
(٤) الرسالة (ص ١٢٨ - رقم ٣٧٤).

«وهذا كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - إن شاء الله -، وقد بيَّن الله هذا في الآية، وليست تحتاج إلىٰ تفسير».

قال ابن قدامة رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إنَّما يجب الثَّبات بشرطين: أحدهما: أن يكون الكفَّار لا يزيدون علىٰ ضعف المسلمين، فإن زادوا عليه جاز الفرار، لقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وهذا إن كان لفظه لفظ الخبر، فهو أمر، بدليل قوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾.

ولو كان خبرًا علىٰ حقيقته، لم يكن ردُّنا من غلبة الواحد للعشرة إلىٰ غلبة الاثنين تخفيفًا، ولأنَّ خبر الله تعالىٰ صدق لا يقع بخلاف مخبره، وقد علم أنَّ الظَّفر والغلبة لا يحصل للمسلمين في كلِّ موطن يكون العدوُّ فيه ضعف المسلمين فما دون، فعلم أنَّه أمر وفرض، ولم يأت شيء ينسخ هذه الآية، لا في كتاب ولا سنَّة؛ فوجب الحكم بها».

والمسلم إذا كان معذورًا، وفعل ما وجب عليه بقدر الاستطاعة، وكان قلبه منعقدًا علىٰ نصر الدين والذب عنه؛ فهذا لا جناح ولا إثم عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «ومن كان عاجزًا عن إقامة

---

(١) المغني (١٣/ ١٨٧).

(٢) السياسة الشرعية (٢٣٥).

الدين بالسلطان والجهاد، ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه، والدعاء للأمة، ومحبة الخير، وفعل ما يقدر عليه من الخير، لم يُكلف ما عجز عنه».

٢- الذكورية: من شروط وجوب الجهاد الذكورية، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] **في فوائد الآيات:** «دليل علىٰ أن النساء لا جهاد عليهن وإن أطقنه؛ لأنه جَلَّجَلَالُهُ قد ذكر الخوالف مرتين في الآية: الأولىٰ، والثانية، ولم يُخرجهن، إنما أخرج من تشبّه في التخلف عنه بمن لا جهاد عليه، ورضي الكينونة معه عما هو مندوب إليه».

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت:** قلت: يا رسول الله! إنّا نرىٰ الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟

قال: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور»[2].

ومن الأدلة علىٰ عدم وجوب القتال علىٰ النساء: أنه لم يكن يُسهم لهن في الغنيمة، قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «ولا يُسهم لامرأة، ولا صبي،

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ٥٦٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير (رقم ٢٧٨٤).

(٣) الكافي (٥/ ٥٢٤).

ولا مملوك؛ لأنهم من غير أهل القتال، ويُرضخ[١] لهم دون السهم، لما روىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء، فيداوين الجرحىٰ، ويُحْذين من الغنيمة، وأما سهم؛ فلم يضرب لهن»، رواه مسلم.

وهذا من مسائل الإجماع؛ قال محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «واتفقوا كذلك أن المرأة ومن لم يبلغ، والمريض الذي لا يستطيع القتال؛ لا جهاد فرضا عليه».

وأما خروج النساء لغير القتال، للخدمة ومداواة الجرحىٰ، فجائز حيث تؤمن عليهن الفتنة، وقد كان النساء يخرجن مع النبي ﷺ وأصحابه في غزواته، فيقمن بخدمة المجاهدين ومداواتهم، فعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة معها من الأنصار؛ يسقين الماء ويداوين الجراحات»[٣].

وعن الرّبيع بنت معوذ بن عفراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت**[٤]: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنسقي الماء، ونخدمهم، ونرد الجرحىٰ والقتلىٰ إلىٰ المدينة».

---

(١) **الرضخ**: عطاء من الغنيمة دون السهم، شرح الزركشي علىٰ مختصر الخرقي (٦/ ٤٩٥).

(٢) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ٧٠٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة النساء مع الرجال (رقم ١٨١٠).

(٤) رواه البخاري، باب مداواة النساء الجرحىٰ في الغزو (رقم ٢٨٢٩).

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وخروجهن مع الرجال في الغزوات وغير الغزوات مباح إذا كان العسكر كثيرًا تؤمن عليه الغلبة».

وقال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «في الحديث دليل علىٰ جواز الخروج بالنساء في الغزو لنوع من الرفق والخدمة، فإن خاف عليهن لكثرة العدو وقوتهم، أو خاف فتنتهن لجمالهن، وحداثة أسنانهن؛ فلا يخرج بهن، وقد رُوي عن النبي ﷺ أن نسوة خرجن معه فأمر بردهن؛ فيشبه أن يكون ردُّه إياهن لأحد هذين المعنيين».

٣- الحرية: من شروط الجهاد الحرية، قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، والعبد ممن لا يتملك فهو داخل في جملة ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾.

قال محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فأما العبد: فالجمهور علىٰ أنه ليس من أهل الفرض في الجهاد، وأنه لم يُخاطب بذلك إلا الأحرار؛ لأن فعل الجهاد تُصاب فيه النفس والمال بالإتلاف، وهو مقصور علىٰ ذلك بالشرع.

---

(١) التمهيد (١٩/ ٢٦٦).

(٢) شرح السنة (١١/ ١٣، ١٤).

(٣) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ١٠٨).

قال قوم: ولو غزا مع سيده ليخدمه، فلا يقاتل إلا بإذنه، إلا أن يدخُلَ العدو عسكر المسلمين، فليقاتل ويدافع. فمنعوه من القتال ابتداءً، لأن في ذلك الهلاك غالبًا، وهو مال لمالكه، محظور في الشرع، تصرَّف فيه بما يُعرّضه للهلاك من غير إذن سيده، فأما في ضرورة الاقتحام ونحوه، فذلك أمر يتعيَّن فيه القتال علىٰ كل مكلف قادر، والله أعلم.

إلا أن من يقول بإيجاب الجهاد عليه – أعني الذي هو فرض كفاية – كما يكون ذلك علىٰ الأحرار، إلا ما تأتي عليه أصول الظاهر، فإنهم يرون الخطاب الوارد في الشرع موردًا للعموم يتناول الحر والعبد علىٰ حد سواء، إلا أن يُخصص شيئًا من ذلك قرآن أو سنة ثابتة أو إجماع صحيح».

فالعبد لا يجب عليه القتال، لكن لو خرج مع سيده بإذنه؛ فإنه يُرضخ له، وليس له سهم في الغنيمة؛ لأنه ليس من أهل القتال، وكتب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلىٰ نجدة الحروري: «سألت عن المرأة والعبد: هل كان لهما سهم معلوم إذا حضر الناس؟ وإنه لم يكن لهما سهم معلوم، إلا أن يأخذا من غنائم القوم»[1].

٤ – **التكليف**: الجهاد لا يجب علىٰ غير البالغ العاقل، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: عُرضتُ علىٰ النبي ﷺ يوم أُحد، وأنا ابن أربع عشرة؛ فلم

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب النساء الغازيات يُرضخ لهن ولا يُسهم (رقم ١٨١٢).

يجزني، وعُرضت عليه يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة؛ فأجازني[١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مناط إجازة الحرب كانت عنده ﷺ خمس عشرة سنة، فكان لا يجيز من لم يبلغها، ومن بلغها أجازه، فلما كان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يوم أحد ممن لم يبلغها لم يُجِزْه، ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إن النبي ﷺ ردَّه لما استصغره عن القتال، وأجازه لمَّا وصل إلىٰ السِّنِّ التي رآه فيها مطيقًا».

وهذا من مواضع الاتفاق؛ قال محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «واتفقوا كذلك أن المرأة، ومن لم يبلغ، والمريض الذي لا يستطيع القتال، لا جهاد فرضًا عليه».

وقال أبو زكريا ابن النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «ولا يجب الجهاد علىٰ صبي، ومجنون، وامرأة».

٥ - وضوح الراية: الراية التي ينبغي أن يقاتل المسلم تحت لوائها هي

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (رقم ٤٠٩٧).

(٢) الفصول في سيرة الرسول (ص ١٦٤، ١٦٥).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٧٠).

(٤) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ١٠٧).

(٥) مشارق الأشواق (ص ٩٩).

الراية التي تحقق مقصود الجهاد، وهو أن يكون الدين لله، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وروح الإنسان ليست رخيصة حتىٰ يجازف بها في الرايات الشركية والبدعية، قال محمد ابن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا ينبغي لمسلم أن يُهريق دمه إلا في حق».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**من قاتل تحت راية عُميّة يغضب لعصبية، أو يدعو إلىٰ عصبية، أو ينصر عصبية، فقُتل؛ فقتلةٌ جاهلية**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «سمىٰ الراية عُميّة؛ لأنه الأمر الأعمىٰ الذي لا يُدرىٰ وجهه، فكذلك قتال العصبية: يكون عن غير علم بجواز قتال هذا».

وما أكثر الرايات العُميّة؛ كالقومية، والاشتراكية، والبعثية، والنصيرية، والرافضية، والحرورية الخارجية، والعلمانية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «والكتاب والسنة مملوءان بالأمر بالجهاد وذكر فضيلته، لكن يجب أن يُعرف الجهاد الشرعي - الذي أمر الله

---

(١) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ١٥٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (رقم ١٨٤٨).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤٩).

(٤) الإخنائية (ص ٤٧٣، ٤٧٤).

به ورسوله ﷺ - من الجهاد البدعي؛ جهاد أهل الضلال الذين يجاهدون في طاعة الشيطان، وهم يظنون أنهم مجاهدون في طاعة الرحمن؛ كجهاد أهل البدع والأهواء كالخوارج ونحوهم الذين يجاهدون في أهل الإسلام».

٦ - **تمايز الصفوف:** تمايز الصفوف بحيث لا يكون المؤمنون مختلطين بالكفار علىٰ وجه لا يمكن جهادهم إلا بإصابة المسلمين أو قتلهم، فإن ترك هذا ومحاذرته من شروط الجهاد.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾، أي: لو تميّز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتالًا ذريعًا».

وقال محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قول الله تعالىٰ في تأخير القتال عن أهل مكة عام الحديبية: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٤).

(٢) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ١٩٤).

لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

فهذا نص في وجوب التوقي، فإن قيل: إن ذلك خاص بأهل مكة! فهو دعوىٰ؛ لأن الله تعالىٰ إنما جعل الحرمة في ذلك للإيمان لا للبلد».

٧ - **إذن ولي الأمر**: الجهاد لا بد له من إذن ولي الأمر، وقد تضافرت الأدلة علىٰ ذلك من الكتاب والسنة والإجماع، قال تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: ٤٤]؛ وهذا لأن الجهاد في غزوة تبوك فرض عين علىٰ من استنفره الإمام، فوجب علىٰ الكل الخروج، وكذلك لو كان فرض كفاية، فلا بد فيه من إذن الإمام.

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩٣]، وهذه الآية صريحة في أخذ إذن الإمام للتخلف عن الغزو، إذا استنفر الإمام المسلمين.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة: ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢]، والأمر

الجامع: هو الذي يُجمع له، كالجهاد في سبيل الله[1].

قال المهلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذه الآية أصل في أن لا يبرح أحد عن السلطان إذا جمع الناس لأمر من أمور المسلمين يحتاج فيه إلىٰ اجتماعهم أو جهادهم عدوًّا إلا بإذنه؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿**فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ**﴾ [النور: ٦٢]، فعُلم أن الإمام ينظر في أمر الذي استأذنه، فإن رأىٰ أن يأذن له؛ أذن، وإن لم يرَ ذلك؛ لم يأذن له؛ لأنه لو أُبيح للناس تركه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والانصراف عنه؛ لدخل الخرم وانفض الجمع، ويجد العدوُّ غرَّةً، فيثبون عليها وينتهزون الفرصة في المسلمين».

والأدلة من السنة علىٰ اشتراط إذن ولي الأمر للجهاد كثيرة، منها حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيَّة، وإذا استنفرتم فانفروا**»، رواه البخاري ومسلم، فمفهومه واضح أن الإمام هو الذي يستنفر الرعية للجهاد.

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت**: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد، فقال: «**جهادكن الحج**»، رواه البخاري، وهذا صريح في طلب إذن ولي الأمر للجهاد.

ومن الأدلة كذلك: حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «عُرضتُ علىٰ النبي ﷺ

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (١٧/ ٣٨٦).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ١٣٥).

يوم أحد، وأنا ابن أربع عشرة، فلم يجزني، وعُرضتُ عليه يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة، فأجازني»، رواه البخاري، ودلالة هذا الحديث بيّنة؛ حيث لم يقاتل ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ إذ لم يأذن له النبي ﷺ.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**الإمام جُنّة يقاتل من ورائه**»، رواه البخاري ومسلم، وهذا دال علىٰ أنه لا يجوز الافتيات علىٰ ولي الأمر، ولا التقدم بين يديه في القتال، وإنما يُقاتل من ورائه.

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «أمر الجهاد موكول إلىٰ الإمام واجتهاده».

وحكىٰ القرافي الإجماع علىٰ ذلك؛ فقال[2]: «اعلم أن تصرفه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ينقسم إلىٰ أربعة أقسام: قسم اتفق العلماء علىٰ أنه تصرف بالإمامة كإقامة الحدود وإرسال الجيوش ونحوها».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ[3]: «أربع من أمر الإسلام إلىٰ السلطان: الحكم، والفيء، والجهاد، والجمعة».

فإقامة الجهاد والحدود من أشهر العلامات الفارقة بين الراعي والرعية، وهذا ما استدل به الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ في رد قول من يُنكر ولاية أمير

---

(١) المغني (١٣/ ١٦).

(٢) الإحكام في تمييز الفتاوىٰ عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام (ص ١٠٩).

(٣) مسائل الإمام أحمد وإسحاق، رواية حرب الكرماني (ص ٣٩٢).

المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال[١]: «رجل كان يقسم الفيء، ويرجم، ويقيم الحدود، ويُسمىٰ أمير المؤمنين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «سنة رسول الله ﷺ وسائر خلفائه الراشدين ومن سلك سبيلهم من ولاة الأمر في الدَّولة الأمويَّة والعبَّاسيَّة: أنَّ الإمام يكون إمامًا في هذين الأصلين جميعًا؛ الصَّلاة والجهاد. فالَّذي يؤمُّهم في الصَّلاة يؤمُّهم في الجهاد، وأمر الجهاد والصَّلاة واحد في المقام والسَّفر».

وقد اعترض عبد الرحمن عبد الخالق علىٰ أدلة وجوب استئذان ولي الأمر للجهاد بقوله تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء: ٨٤]، حيث توهّم أن الواجب أن تقاتل وحدك ولو لم يكن هناك أمير أو جيش!! قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[٣]: «إن الله يخاطب الإمام، إمام الأمة، لا أنه يُخاطب كل واحد، ولهذا قال: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، وهذا الرجل إذا خرج بدون إذن الإمام خارج عن الجماعة، ومخطِيء علىٰ نفسه، خصوصًا في عصرنا هذا؛ لأنه إذا خرج مجاهدًا ثم عُثر عليه وعلمت دولته صار هناك مشاكل بينهما[٤]، فالواجب أن الإنسان لا يأخذ النصوص من

---

(١) السنة للخلال (١/ ٤٢٧ – رقم ٦٤٨).

(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٥/ ١١٧).

(٣) شرح السياسة الشرعية (ص٤١).

(٤) يريد الشيخ ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ [الأنفال: ٧٢].

جانب واحد وينظر إليها بعين الأعور، بل الواجب أن يأخذ بالنصوص من كل جانب، ولهذا قال العلماء: يحرم الغزو بدون إذن الإمام».

ومما يدل علىٰ خطأ عبد الرحمن عبد الخالق في اجتزاء النصوص وعدم ضم بعضها إلىٰ بعض؛ أن موسىٰ وهارون - عليهما السلام - نكل قومهما عن القتال وقالوا لهما: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فلم يقاتلا وحدهما بل اعتذرا إلىٰ ربهما من نكول قومهما وعدم قدرتهما علىٰ إقامة الجهاد منفردين ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

كذلك استدل بعضهم بقصة أبي بصير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال العلامة صالح الفوزان رادًّا عليهم[1]: «أبو بصير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ليس في قبضة الإمام ولا تحت إمرته، بل هو في قبضة الكفار وفي ولايتهم، فهو يريد أن يتخلص من قبضتهم وولايتهم، فليس هو تحت ولاية الرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ سلَّمه لهم بموجب العهد والصلح الذي جرىٰ بينه وبين الكفار، فليس هو في بلاد المسلمين ولا تحت قبضة ولي الأمر».

واستدل البعض بقول العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ، بأنه أفتىٰ بأنه لا يُشترط إذن ولي الأمر للجهاد، قال حفيده العلامة محمد ابن

(١) الجهاد أنواعه وأحكامه (ص ٩٤).

حسن آل الشيخ - حفظه الله - مبينًا المحامل التي خرج عليها قول الجد عبد الرحمن: إن كلام الجد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما كان بسبب غزو العساكر التركية للدرعية، وأخذهم للإمام عبد الله آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ غدرًا، فكلامه خرج علىٰ هذا الحال.

وأئمة الدعوة كلهم يقولون باشتراط إذن الإمام للجهاد، قال العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «والجهاد: جهاد الكفَّار أعداء الله، يعني: مع ولاة الأمور؛ فإنَّهم الَّذين يتولَّون إقامة الجهاد في سبيل الله، كما أنَّهم يتولَّون فيئه وخمسه، ونحو ذلك، فكذلك يتولَّون إقامته وتدبيره وأمره وشئونه، فلا ينازعون فيه؛ فإنَّه لا جماعة إلَّا بإمامة، ولا إمامة إلَّا بسمع وطاعة».

٨ - **إذن الوالدين**: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد؟ فقال: **أحي والداك؟** قال: نعم. قال: **ففيهما فجاهد**»(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أي: إن كان لك أبوان فابلغ جهدك في برهما والإحسان إليهما؛ فإن ذلك يقوم لك مقام قتال العدو».

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٣٨).

(٢) رواه البخاري (رقم ٥٩٧٢)، ومسلم (رقم ٢٥٤٩).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٠٣).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رجلًا هاجر إلىٰ النبي ﷺ فقال: **هل لك أحد باليمن؟** فقال: أبواي. قال: **أذنا لك؟** قال: لا. قال: **ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما»**[(١)].

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «لا خلاف علمته أن الرجل لا يجوز له الغزو ووالداه كارهان أو أحدهما».

وكذلك لا يخرج للجهاد إذا أذن أحد الوالدين ورفض الآخر؛ سُئل الأوزاعي عن رجل أراد الغزو، وله والدان أذن أحدهما ومنعه الآخر، قال: لا تخرج. قيل: إن أراد والده أن يغزو به ويخدمه، ويعينه، فمنعته والدته، قال: لا يخرج[(٣)].

وكذلك لو أذن الوالدان ثم تراجعا أو أحدهما، فإنه ينبغي علىٰ الابن الرجوع من الجهاد، قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٤)]: «وإن خرج في جهاد تطوع بإذنهما، فمنعاه منه بعد سيره وقبل وجوبه؛ فعليه الرجوع؛ لأنه معنىٰ لو وُجد في الابتداء مُنع، فإذا وُجد في أثنائه مُنع كسائر الموانع».

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٧٦)، وأبو داود (رقم ٢٥٣٠)، وصححه ابن حبان (١/ ٣٢٥).

(٢) الاستذكار (١٤/ ٩٦).

(٣) شرح السنة (١٠/ ٣٧٩).

(٤) المغني (١٣/ ٢٧).

وهذا الكلام في استئذان الوالدين المسلمين، أما إن كانا كافرين أو أحدهما، فلا إذن لهما، قال العلامة محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اختلفوا في الأبوين إذا كانا مشركين؛ فقيل: لا يغزو إلا بإذنهما لعموم الأمر في ذلك. رُوي ذلك عن سفيان الثوري، وقال به سحنون وغيره، قيل: إلا أن يكون يعلم أنهما يمنعانه لعداوة الإسلام.

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: له أن يغزو بغير إذنهما إذا كانا مشركين. فخصَّص الأمر في ذلك بالمسلمين».

وقال البهاء المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن كان أبواه غير مسلمين فلا إذن لهما؛ لأن كثيرًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجاهدون وآباؤهم مشركون لا يستأذنوهم، منهم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة كان يوم بدر مع النبي ﷺ، وأبوه رئيس المشركين قُتل ببدر، وأبو عبيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قتل أباه في الجهاد، فأنزل الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

والبعض يُحَبِّب الأبناء علىٰ الآباء، ويذهب بهم إلىٰ القتال بدون إذن الوالدين، ويُلقي في قلوبهم شبهة: أن الشهادة تُكفِّر كل الذنوب إلا الدَّيْن،

(١) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص١١٠).

(٢) العدة في شرح العمدة (ص ٧٥٢).

كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، رواه مسلم!!

وهذا تحايل مردود من عشرة أوجه:

الأول: لا بد من توضيح معنىٰ الحديث وبيان فقهه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن عدم بقاء شيء من التبعات علىٰ السالم من الدَّين؛ إنما هو من ضرورة الواقع لا من جزاء الشهادة».

الثاني: الحديث دال علىٰ نقيض استدلال المتحايلين.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إن فائدة الاستثناء في قوله: «إلا الدَّيْن» الإشارة إلىٰ التفرقة بين من لا تبعة عليه، فلا يُعوّقه شيء عن التنعّم بثواب الشهادة، وبين من عليه تبعة، فيتعوّق ويتنغّص بسبب التبعة، إلىٰ أن يُوفِّيها لصاحبها».

الثالث: إن الله يتقبل عمل من اتقاه في ذلك العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ومن خرج بدون إذن والديه هذا ما اتقىٰ الله في العمل ولا في والديه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «المراد: من اتقىٰ الله في ذلك العمل».

---

(١) بذل الماعون في فضل الطاعون (ص ١٤٦، ١٤٧).

(٢) بذل الماعون في فضل الطاعون (ص ١٤٦، ١٤٧).

(٣) شرح حديث جبريل (ص ٣٤٧).

الرابع: عقوق الوالدين من الكبائر، وتكفير الذنوب مشروط باجتناب الكبائر، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان علىٰ رمضان؛ مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»، رواه مسلم.

الخامس: كل فعل أو قول رتب عليه الشارع تكفير الذنوب، فالمراد به القول أو الفعل التام، قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «كل قول رتّب الشارع ما رتّب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام».

السادس: سيئة العقوق تذهب بحسنات الجهاد لو تُقبِّل، قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «الكبائر يقاوم إثمها ثواب الجهاد، ويصير بمنزلة من عمل حسنة وسيئة بقدرها، فكأنه لم يعمل شيئًا».

السابع: عن معاذ الجهني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**من ضيّق منزلًا أو قطع طريقًا فلا جهاد له**»، رواه أبو داود وسعيد بن منصور.

فمن ضيّق الطريق لا جهاد له، فما ظنك بالجهاد بدون إذن الوالدين؟!

الثامن: هذا تألٍ علىٰ الله، وخوض في الغيب، فمن أين لهم أن الله

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣١).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٨٠).

سيغفر لهم، ويقبل عملهم كاملًا، فالجهاد كسائر الطاعات، ليس كل من حمل السلاح حصل له ثواب الجهاد، قال النبي ﷺ: «**رُبَّ صائم حظُّه من صيامه الجوع والعطش**»، رواه أحمد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن قول الزور والعمل به في الصيام أوجب إثمًا يقابل ثواب الصوم، وقد اشتمل الصوم علىٰ الامتثال المأمور به والعمل المنهي عنه، فبرئت الذمة للامتثال، ووقع الحرمان للمعصية».

التاسع: حال هؤلاء مضاد تمامًا لحال السلف، فهؤلاء ضامنون ثواب وقبول العمل قبل فعله، والصحابة وجلون بعد العمل أن لا يُقبل منهم!!

العاشر: الذنوب التي تكفرها الشهادة - لو قُبلت - هي ما كان في حقوق الله لا حقوق المخلوقين، قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال علماؤنا: ذكر الدَّين تنبيه علىٰ ما في معناه من الحقوق المتعلقة بالذمم؛ كالغصب وأخذ المال بالباطل، وقتل العمد وجراحه، وغير ذلك من التبعات، فإن كل هذا أولىٰ ألّا يغفر بالجهاد من الدَّين؛ فإنه أشد».

وفقه الصحابة وكلامهم معروف في أنه لا يُغفر للعبد كل شيء بإطلاق، فعن زاذان عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «القتل في سبيل الله يكفِّر كل ذنب

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٣٠٣).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ٢٧٢).

إلا الأمانة: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة - وأشياء عدَّدها -، وأعظم ذلك الودائع»، فأتيت البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقلت: ألا ترىٰ إلىٰ ما قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قال: كذا، وكذا.

قال البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: صدق، أما سمعت قول الله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] (١).



(١) أسنده ابن أبي الدنيا، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «إسناده جيد». البداية والنهاية (٢٠/ ٣٦).

عموم الرسالة للثقلين

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**وافترض طاعته على جميع الثقلين الجنِّ والإنس والدليل قوله تعالى:** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ **[الأعراف: ١٥٨]، وكمّل الله به الدين، والدليل قوله تعالى:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ **[المائدة: ٣]**».

الشَّرح:

أبان الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القطعة من العقيدة، أن شريعة الإسلام خاتمة الرسالات، لازمة للثقلين: الإنس والجن، وهو كذلك، والله عَزَّوَجَلَّ كلّف الجن وتوعد عاصيهم بالعذاب ومطيعهم بالثواب، وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الإنس والجن جميعًا مجزيون بأعمالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وأخبر الله أنه سيحاسبهم جميعًا ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٨، ٢٩).

والجن ليس فيهم رسل، بل فيهم منذرون، ينذرون قومهم برسالة نبينا محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

فالجن لم تذكر رسالة ولا رسولًا اختصوا به في دعوتهم، بل ذكروا أنهم مأمورون باتباع خاتمة الرسالات، رسالة الإسلام التي بُعث بها النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هل يكون في الجن رسل؟ **الأكثرون علىٰ أنه لا رُسُلَ فيهم**، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**لم يبعث الله نبيًّا** من أهل البادية، **ولا من الجنِّ**، ولا من النساء».

والجن الذين استمعوا إلىٰ قراءة النبي ﷺ في صلاة الفجر، قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠] مع أن

---

(١) النبوات (٢/ ١٠٠٤، ١٠٠٥).

(٢) النبوات (٢/ ١٠٠٥).

عيسىٰ والإنجيل الذي أوحي إليه بعد موسىٰ، ولم يكن بين محمد ﷺ وعيسىٰ رسول، لأن الإنجيل في الأصل تبع للتوراة، وشريعة عيسىٰ جاءت بتقرير شريعة موسىٰ، ولم تخالفها إلا في يسير من الأحكام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ليس في الإنجيل حكم عام، بل عامَّته الأمر بالزهد ومكارم الأخلاق، وهو مما يأمُرُ به المسلمون أيضًا».

قال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وهذا أيضًا مما يُقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم -: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامُ تقرير: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]؛ أي: من جملتكم. **والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل**، كما قد نص علىٰ ذلك مجاهد، وابن جُرَيْج، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف.

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (١/ ١١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٢١).

وحكىٰ ابن جرير، عن الضحاك بن مُزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلًا، واحتج بهذه الآية الكريمة، وفيه نظر؛ لأنها محتملة، وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ [الرحمن: ١٩] إلىٰ أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يُستخرجان من الملح لا من الحلو. وهذا واضح، ولله الحمد.

وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير.

والدليل علىٰ أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] إلىٰ قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبعٌ للإنس في هذا الباب».



الإيمان بالبعث والحساب

الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن تحدّث عن وفاة النبي ﷺ، تحدّث عن البعث؛ ليبيّن أن الخلق لم يُخلقوا عبثًا، وأنهم مجزيون بأعمالهم يوم الحساب.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والدّليل علىٰ موته ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

والناس إذا ماتوا يبعثون، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وبعد البعث محاسبون ومجزيُّون بأعمالهم، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]».

فتضمنت هذه القطعة من العقيدة الكلام علىٰ جملتين من جمل الاعتقاد «البعث، والحساب».

والبعث حق، والبعث يكون لذات الأبدان والأرواح التي عاشت في الدنيا؛ فإن هذا أكمل في القدرة في إحياء الموتىٰ من خلق نفوس جديدة، وهو مقتضىٰ العدل، فتجزىٰ الأبدان والأرواح بما اجترحت في الدنيا وقد أرانا الله قدرته في بعث ذات

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٩، ٣٠).

أرواحنا وأبداننا في أنفسنا، فإنه سبحانه يقبض أرواحنا ثم يعيدها لذات الأبدان التي كتب لها الحياة إلى أجل مسمى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل نصف زمان الآدمي على التقريب موتًا، ونصفه بعثًا، ليكون مستدلًا بنومه على موته، وبيقظته على بعثه عند ممسى كل يوم ومصبحه، وإقبال كل ليل وانقضائه، فهذا بعث بعد موت يراه الآدمي في كل ليلة ويوم».

وقال العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لم يقل الله تعالىٰ ولا رسوله ﷺ: إنه يعدمهم العدم المحض ويأتي بغيرهم. ولا إنَّ المثاب غير من عمل الطاعات في الدنيا، ولا إنَّ المعذب غير من مرد علىٰ المعاصي؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، بل قال تعالىٰ: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]؛ فالذين خلقهم من الأرض هم الذين أعادهم فيها، وهم الذين يُخرجهم منها، ليسوا غيرهم كما يقول الزنادقة - قبّحهم الله تعالىٰ -».

وأهوال يوم القيامة عظيمة، ويفزع الناس إذا نُفخ في الصور، وبعث الله عبيده لحسابهم، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، إلا أن

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٣٦٧). (٢) معارج القبول (٢/ ١٧٨).

المؤمنين يطمئنهم الله من الفزع والخوف ومن أهوال يوم القيامة، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح في الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

قال ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «بلغنا أن المؤمن حيث يبعثه الله من قبره، يتلقاه مَلَكاه اللَّذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن. فيؤمِّنُ الله خوفه، ويُقرُّ الله عينه؛ فما من عظيمة تغشىٰ الناس يوم القيامة، إلَّا هي للمؤمن قُرَّة عينٍ لما هداه الله، ولما كان يعملُ في الدُّنيا».

والحساب حق لا ريب فيه، فالله لم يخلق خلقه عبثًا، ولم يكتب لهم الخلود في الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وفي الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه: «**إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها**»[(٢)].

فالحساب لا بُدَّ منه، قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٣٥٨).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (١١٢٨ – رقم ٦٥٧٢)، من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وأما قوله تعالىٰ: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [الرحمن: ٣٩]، فهذا في حالٍ دون حالٍ؛ فإن يوم القيامة الناس لهم فيه مواقف في عرصات يوم القيامة قبل أن يُساقوا إلىٰ الجنة أو النار؛ فإنهم لا يُسألون عن ذنوبهم بعد أن يُؤمر بهم إلىٰ النار، وقد كانوا سُئلوا قبل ذلك[1].

وقيل: المراد: لا يُسألون سؤال استعلام بما وقع؛ لأن الله عالم بذلك، وإنما يُريد مجازاة عباده.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا[2]: «لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟!».

وجعل الله لأهل الجنة والنار علامات يُعرفون بها، قال تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال سبحانه: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١].

والناس أصناف في الحساب يوم القيامة:

الصنف الأول: وهو الأكمل، من يدخل الجنة بلا حساب، وهؤلاء هم أهل التوحيد الخالص، الذين لا يسترقون، وعلىٰ ربهم يتوكلون، وهم سبعون ألفًا[3]، وقد ورد مرفوعًا من حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٤٩٩). (٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٩٩).

(٣) رواه البخاري كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب (ص١١٣٣ - رقم ٦٥٤١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا =

قال: «**مع كل ألف سبعين ألفًا**»[١]، وورد مرفوعًا أيضًا أن «**مع كل واحد أو رجل سبعين ألفًا**»[٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وهذا يحتمل أن يكون مع كل واحد من الألوف، ويحتمل أن يكون مع كل واحد من الآحاد، وهو أشمل وأكثر».

الثاني: من يُحاسب حساب عرض، وهؤلاء هم أولياء الله المتقون، تُعرَض أعمالهم مجرد عرض بلا نقاش، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**ليس أحد يُحاسب يوم القيامة إلا هلك**»، فقلت: يا رسول الله! أليس قد قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحدٌ يُناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّبَ**»[٤].

=

عذاب (ص١١٢ – رقم ٥٢٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٨٠)، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٥)، من حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٢٩) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وجوّد إسناده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٨)، وأحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وجوّد إسناده ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٤١١).

(٢) رواه أبو يعلىٰ (٦/ ٤١٧)، وجوّد إسناده ابن كثير في التفسير (١/ ١٠٠).

(٣) البداية والنهاية (٢٠/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (رقم ١٠٣)، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها.

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معنىٰ قول النبي ﷺ: «**من نُوقش الحساب عُذِّب**»؛ النقش: هو الاستقصاء حتىٰ لا يُتْرَك منه شيء».

ثم قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أبشروا، فإنه ما استقصىٰ كريم قط».

الصنف الثالث: من يحاسب حساب مناقشةٍ، وهم أصحاب الشِّمال، يحاسبون حسابًا عسيرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ [الانشقاق: ١٠، ١١]. وهؤلاء يأخذون صحائفهم بشمائلهم وراء ظهورهم.

وأمَّا دعوىٰ أنَّ العصاة من المؤمنين يأخذون صحائفهم بشمائلهم أمامهم، فقد قال الماورديُّ: إنَّه لا قائل بهذا القول، وإنَّ الفاسق الَّذي مات علىٰ فسقه دون توبةٍ يأخذ كتابه بيمينه[3].

ومن الفروق في الحساب بين المؤمن والكافر، أن المؤمن يخلو به ربُّه ويقرِّره بذنوبه حتَّىٰ إذا رأىٰ أنَّه هلك، قال الله له: «**سترتها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفرها لك اليوم ولا أبالي**»[4].

(١، ٢) سنن الصالحين (٢/ ٨٥٣).

(٣) لوامع الأنوار (٢/ ١٨٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن علىٰ نفسه (ص١٠٥٩ - رقم ٦٠٧٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وأمَّا الكفَّار والمنافقون فمع ما يعرفون به من سيماهم، ينادىٰ بهم علىٰ رءوس الخلائق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حساب الكفَّار يوم القيامة؛ ما نصُّه[2]: «إن الحساب يراد به عرض أعمالهم عليهم، وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب موازنة الحسنات والسَّيِّئات؛ فإن أريد بالحساب المعنىٰ الأوَّل فلا ريب أنَّهم يحاسبون بهذا الاعتبار.

وإن أريد المعنىٰ الثَّاني، فإن قصد بذلك أنَّ الكفَّار تبقىٰ لهم حسنات يستحقُّون بها الجنَّة فهذا خطأ ظاهر.

وإن أريد أنَّهم يتفاوتون في العقاب، فعقاب من كثرت سيِّئاته أعظم من عقاب من قلت سيِّئاته، ومن كان له حسنات خفِّف عنه العذاب، كما أن أبا طالبٍ أخفُّ عذابًا من أبي لهبٍ.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النَّحل: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التَّوبة: ٣٧]، والنار دركات؛ فإذا كان بعض الكفَّار عذابه أشدُّ عذابًا من بعضٍ - لكثرة سيِّئاته وقلَّة حسناته - كان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنَّة».

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، للعلامة محمد العثيمين (٢/ ١٥٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣٠٥، ٣٠٦).

وفرق ما بين دخول الموحدين والكافرين النار معلوم، فرق في المكث، فالكافر يُخلد في النار أبد الآبدين، والموحدون لا يُخلدون، بل يُعذبون فيها بمقدار ذنوبهم حتىٰ يُنقوا، ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة، فكذلك يفارق الموحدون الكافرين في صفة العذاب.

قال العلامة أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٤٩هـ)[1]: «وكان شيخنا سهل بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: المؤمن المذنب وإن عُذب بالنار، فإنه لا يُلقىٰ فيها إلقاء الكفار، ولا يبقىٰ فيها بقاء الكفار، ولا يشقىٰ فيها شقاء الكفار.

ومعنىٰ ذلك: أن الكافر يُسحب علىٰ وجهه إلىٰ النار، ويُلقىٰ فيها منكوسًا في السلاسل والأغلال والأنكال الثقال، والمؤمن المذنب إذا ابتلي بالنار، فإنه يدخل النار كما يدخل المجرم في الدنيا السجن علىٰ الرجل، من غير إلقاء وتنكيس.

ومعنىٰ قوله: «لا يلقىٰ في النار إلقاء الكفار» أن الكافر يحرق بدنه كله؛ كلما نضج جلده بُدِّل جلدًا غيره؛ ليذوق العذاب، كما بيّنه الله في كتابه في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦].

وأما المؤمنون فلا تلفح وجوههم النار، ولا تحرق أعضاء السجود منهم؛

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ٢٧٦ - ٢٧٨).

إذ حرم الله علىٰ النار أعضاء سجوده.

ومعنىٰ قوله: «لا يبقىٰ في النار بقاء الكفار»، أن الكافر يُخلّد فيها، ولا يخرج منها أبدًا، ولا يخلد الله من مذنبي المؤمنين في النار أحدًا.

ومعنىٰ قوله: «ولا يشقىٰ بالنار شقاء الكفار»، أن الكفار يؤيسون فيها من رحمة الله في كل حال، وعاقبة المؤمنين كلهم الجنة؛ لأنهم خُلقوا لها، وخُلقت لهم؛ فضلًا من الله ومنّة».

والمؤمنون يوم القيامة يدخلون الجنة بأبدانهم وأرواحهم، ويدخلون الجنة بأرواحهم في البرزخ بعد مماتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وجنة الجزاء مخصوصة بمماتهم، كقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦-٢٧]؛ فإن أرواح المؤمنين تدخل الجنة من حين الموت، كما في هذه الآية: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال تعالىٰ لما ذكر أحوال الموتىٰ عند الموت: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ

---

(١) النبوات (٢/ ٧٠٩ - ٧١١).

نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٤].

وهذا غير ما ذكره في أول السورة، من انقسامهم يوم القيامة الكبرىٰ إلىٰ سابقين، وأصحاب يمين، ومكذبين؛ فانه سبحانه ذكر في أول السورة انقسامهم في القيامة الكبرىٰ، وذكر في آخرها انقسامهم عند الموت، وهو القيامة الصغرىٰ، كما قال المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من مات فقد قامت قيامته». وكذلك قال علقمة، وسعيد بن جبير - رحمهما الله - عن ميت: «أما هذا فقد قامت قيامته»؛ أي: صار إلىٰ الجنة أو النار؛ وإن كان بعد هذا تُعاد الروح إلىٰ البدن، ويقعد بقبره».

واعلم أن الله ذكر أصناف المسلمين في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣].

وأكثر أمة محمد ﷺ من المقتصدين والسابقين بالخيرات، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المسيء: هو الظالم لنفسه، والمحسن نوعان: مقتصد وسابق بالخيرات؛ فإن الوجود شامل لهذا القسم، **بل هو أغلب أقسام الأمة**».

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٤٣٤).

ونصوص الوعيد في حق من ظلم نفسه بغير الشرك نقول بمقتضاها، لكن قد يتخلف مقتضاها بالنسبة لبعض المسلمين؛ لتأويل فيها فعلوه، أو لوجود الحسنات والتوبة والشفاعة في حقهم؛ فالحكم ثابت في العموم، أما التعيين فلا نُعيِّن؛ فإن هذا ضرب من الخوض في الغيب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن نصوص الوعيد من الكتاب والسنة كثيرة جدًّا، والقول بموجبها واجب علىٰ وجه العموم والإطلاق من غير أن يعيَّن شخص من الأشخاص. فيقال: «هذا ملعون» أو «مغضوب عليه» أو «مستحق للنَّار»؛ لاسيَّما إن كان لذلك الشَّخص فضائل وحسنات.

فإنَّ من سوىٰ الأنبياء تجوز عليهمُ الصَّغائر والكبائر، مع إمكان أن يكون ذلك الشَّخص صدِّيقًا أو شهيدًا أو صالحًا؛ لما تقدَّم؛ أنَّ موجب الذَّنب يتخلَّف عنه بتوبةٍ أو استغفار أو حسنات ماحية أو مصائب مكفِّرة أو شفاعة مقبولة أو لمحض مشيئة ربه ورحمته.

فإذا قلنا بموجب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص ٢٦٣ - ٢٦٩).

بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠]، إلىٰ غير ذلك من آيات الوعيد.

أو قلنا بموجب قوله ﷺ: «**لعن الله من شرب الخمر، أو من عقَّ والديه، أو من غيَّر منار الأرض**»، أو «**لعن الله السَّارق**»، أو «**لعن الله آكل الرِّبا وموكله وشاهديه وكاتبه**»، أو «**لعن الله لاوي الصَّدقة والمعتدي فيها**»، أو «**من أحدث في المدينة حدثًا أو آوىٰ محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والنَّاس أجمعين**»، أو «**من جرَّ إزاره بطرًا لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، أو «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر**»، أو «**من غشَّنا فليس منَّا**»، أو «**من ادعىٰ إلىٰ غير أبيه أو تولَّىٰ غير مواليه فالجنَّة عليه حرام**»، أو «**من حلف علىٰ يمين كاذبة ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان**»، أو «**من استحلَّ مال امرئ مسلم بيمين كاذبة، فقد أوجب الله له النَّار، وحرَّم عليه الجنَّة**»، أو «**لا يدخل الجنَّة قاطع رحم**» إلىٰ غير ذلك من أحاديث الوعيد - لم يجز أن نعيِّن شخصًا ممَّن فعل هذه الأفعال ونقول: هذا المعيَّن قد أصابه هذا الوعيد. لإمكان التَّوبة وغيرها من مسقطات العقوبة، ولم يجز أن نقول: هذا يستلزم لعن المسلمين، ولعن أمَّة محمَّد ﷺ، أو لعن الصِّدِّيقين أو الصَّالحين؛ لأنَّه يقال: الصِّدِّيق والصَّالح متىٰ صدرت منه بعض هذه الأفعال، فلا بدَّ من مانع يمنع لحوق الوعيد به، مع قيام سببه.

ففعل هذه الأمور ممَّن يحسب أنَّها مباحة باجتهاد أو تقليد أو نحو ذلك، غايته أن يكون نوعًا من أنواع الصِّدِّيقين، الَّذين امتنع لحوق الوعيد بهم لمانع، كما امتنع لحوق الوعيد به لتوبة أو حسنات ماحية، أو غير ذلك.

واعلم أنَّ هذه السَّبيل هي الَّتي يجب سلوكها.

فإنَّ ما سواها طريقان خبيثان:

أحدهما: القول بلحوق الوعيد لكلِّ فرد من الأفراد بعينه، ودعوىٰ أنَّ هذا عمل بموجب النُّصوص.

وهذا أقبح من قول الخوارج المكفِّرين بالذُّنوب، والمعتزلة وغيرهم، وفساده معلوم بالاضطرار، وأدلَّته معلومة في غير هذا الموضع.

الثَّاني: ترك القول والعمل بموجب أحاديث رسول الله ﷺ، ظنًّا أنَّ القول بموجبها مستلزم للطَّعن فيمن خالفها.

وهذا التَّرك يجرُّ إلىٰ الضَّلال، واللُّحوق بأهل الكتابين، الذين ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لم يعبدوهم، ولكن أحلُّوا لهم الحرام فاتَّبعوهم، وحرَّموا عليهم الحلال فاتبعوهم**».

ويفضي إلىٰ طاعة المخلوق في معصية الخالق، ويفضي إلىٰ قبح العاقبة، وسوء التَّأويل المفهوم من فحوىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ

مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

ثمَّ إنَّ العلماء رحمهم الله يختلفون كثيرًا؛ فإن كان كلُّ خبر فيه تغليظ خالفه مخالف، ترك القول بما فيه من التَّغليظ، أو ترك العمل به مطلقًا؛ لزم من هذا من المحذور ما هو أعظم من أن يوصف، من الكفر، والمروق من الدِّين.

وإن لم يكن المحذور من هذا أعظم من الَّذي قبله، لم يكن دونه.

فلا بدَّ أن نؤمن بالكتاب كلِّه، ونتَّبع ما أُنزل إلينا من ربِّنا جميعه، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وتلين قلوبنا لاتِّباع بعض السُّنَّة، وتنفر عن قبول بعضها، بحسب العادات والأهواء؛ فإنَّ هذا خروج عن الصِّراط المستقيم، إلىٰ صراط المغضوب عليهم أو الضَّالِّين».

وأمة أكثر أهلها مقتصد وسابق بالخيرات، وظالمهم لا يُخلد في نار جهنم، وقد يتخلف الوعيد في حقه لتوبة أو شفاعة أو غيره، لا شك أنها أمة مرحومة.



الإيمان بالرسل

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى:** ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ **[النساء: ١٦٥]**».

الشَّرح:

الرسل جمع رسول، بمعنىٰ مُرسل؛ أي: مبعوث بإبلاغ شيء، والمراد: من أُوحي إليه من البشر، وأُمر بتبليغه[(٢)].

وحاجة الناس إلىٰ الرسالة فوق كل الحاجات؛ لأن الرسل هم الوسائط بين الله وخلقه، وهم الأدلَّاء إلىٰ الشرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «وليست حاجة أهل الأرض إلىٰ الرسول، كحاجتهم إلىٰ الشمس والقمر والرِّياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان

---

(١) الأصول الثلاثة (ص٣٠).

(٢) نبذة في العقيدة الإسلامية، لشيخنا العثيمين (ص٢٥).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٠١).

إلىٰ حياته، ولا كحاجة العَين إلىٰ ضوئها، والجسم إلىٰ الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشد حاجة من كل ما يُقدَّر ويخطر بالبال؛ فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السُّفراء بينه وبين عباده».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(١): «ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثارُ الرسل موجودةً فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض، وانمحت بالكُلِّية، خرَّب الله العالم العلوي والسفلي، وأقام القيامة».

وقال أيضًا(٢): «ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلىٰ تفاصيل النافع والضَّارِّ في المعاش والمعاد».

والرسالة اصطفاء؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وليست اختيارًا كما يقوله الملاحدة والزنادقة من غلاة الصوفية ومن ضاهاهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله اختصَّهم بوحيه، وجعلهم أمناء علىٰ رسالته، وواسطته بينه وبين عباده».

ونؤمن أن بعض الرسل أفضل من بعض، قال تعالىٰ: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٠١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٠٠).

(٣) بدائع التفسير (٣/ ٣٤٣).

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وأفضل الرسل هم أولو العزم – عليهم السلام –، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذكر الخاص علىٰ العامِّ يكون لأسباب متنوعة: تارة لكونه له خاصِّيَّةٌ ليست لسائر أفراد العام، كما في نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «العزم الذي مدح الله به خيار خلقه، كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، هو قوة الإرادة وجزمها علىٰ الاستمرار علىٰ أمر الله، والهمَّة التي لا تني ولا تفتر في طلب رضوان الله، وحسن معاملته، وتوطين النفس علىٰ عدم التقصير في شيء من حقوق الله».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أعلاهم منزلة أولو العزم منهم، المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٧٥).

(٢) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ١٩).

(٣) بدائع التفسير (٣/ ٣٤٣).

﴿وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة حتىٰ يردُّوها إلىٰ خاتمهم وأفضلهم ﷺ».

وأفضل الأنبياء - عليهم السلام- نبينا محمد ﷺ، فهو سيد ولد آدم، وهو إمام الأنبياء في الإسراء، وهو حامل لواء الحمد، وأول من يشفع في أهل الجنة أن يدخلوها، وهو الذي بُعث إلىٰ الناس كافة، وهو أكثر الرسل تابعًا يوم القيامة، وهو خاتم الأنبياء - عليهم السلام - جميعًا.

والإيمان بالرسل يقتضي الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ممَّا يتضمنه الإيمان بالرسل الإيمان بمن علمنا اسمه منهم».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]».

والنبيون جميعًا دعوتهم واحدة، وهي توحيد الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلذلك وجب الإيمان بهم جميعًا ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١) نبذة في العقيدة الإسلامية (ص٢٦).

(٢) نبذة في العقيدة الإسلامية (ص٢٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ومن خالف ما جاؤوا - الرسل - به من توحيد الله وإفراده بالدعاء فهو من أعظم المخالفين لهم اعتقادًا وقولًا وعملًا، فإن أعظم ما دعوا إليه التوحيد، فالمخالف له من أعظم الناس مخالفة لهم. وقد بيّنا في «الصارم المسلول» أن التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان، وكل أمة لا تصدق الرسل فلا تكون إلا مشركة، وكل مشرك فإنه مكذب للرسل».

والتفريق في الإيمان بين الرسل كفر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «والله جعل من دين الرسل أن أوَّلهم يُبَشِّرُ بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدِّقُ بأولهم ويؤمن به».

ولهذا كان المُكذِّبُ برسول واحد مكذِّبًا بجميع المرسلين، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، قال والدانا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «جعلهم مكَذِّبين لجميع الرسل، مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذَّبوه».

---

(١) الرد علىٰ البكري (١/ ٤٠٧).

(٢) الرسالة التدمرية (ص ١٧٠).

(٣) نبذة في العقيدة الإسلامية (ص٢٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وقد اتفق المسلمون علىٰ ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزل الله من الكتب؛ فمن كفر بنبي واحد تُعلم نبوَّته مثل إبراهيم ولوط وموسىٰ وداود وسليمان ويونس وعيسىٰ؛ فهو كافر عند جميع المسلمين، حكمه حكم الكفار».

والإيمان بالرسل يقتضي الإيمان بعصمتهم، والعصمة خالصة لهم من دون الناس، خلافًا للرافضة الذين ادَّعوا العصمة لأئمتهم، وغلوا فيهم غلو النصارىٰ[(٢)].

وعصمة الأنبياء إنما هي فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتِّفاق الأمَّة، وهم معصومون من الإقرار علىٰ الذُّنوب مطلقًا، وهذا لا ينافي التأسي بهم، لأن التأسي بهم إنما هو مشروع فيما أُقروا عليه دُون ما نُهوا عنه ورجعوا عنه.

أمَّا ما احتج به نُفاة الذنوب عن الأنبياء مطلقًا، من أن الذنوب تنافي الكمال، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح، أو أنها توجب التنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقلية، فهذا إنما يكون مع البقاء علىٰ ذلك، وعدم الرجوع،

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٣٤٣).

(٢) منهاج السنة (٦/ ١٨٩ - ١٩١).

وإلا فالتوبة التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلىٰ أعظم ممَّا كان عليه، كما قال بعض السلف: كان داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

وقال آخر: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتُلِيَ بالذنب أكرمُ الخلقِ عليه، والله تعالىٰ لم يذكر في القرآن شيئًا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونًا بالتوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرىٰ في البداية، والأعمال بخواتيمها[١].

هذا هو التحقيق فيما يتعلق بعصمة الأنبياء، وإيَّاك أن تُلمَّ بشيء من أقوال أهل البدع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حُجَّةٌ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها، وإنما **مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة**، وحجَّتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]».

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، دال علىٰ

(١) تهذيب لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوىٰ (١٠/ ٢٨٩ - ٢٩٩).

(٢) جامع الرسائل (١/ ٢٦٧)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

وجوب الإيمان بجميع الرسل، فهذا معنىٰ الآية، وهو أننا لا نفرق في الإيمان بنبوة المرسلين، فنؤمن بهم جميعًا، وأما حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله**». وكذلك ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تفضلوني علىٰ موسىٰ**». فهذه الأحاديث دالة علىٰ النهي عن التفضيل علىٰ وجه يؤدي إلىٰ تنقص بعضهم، أو التفضيل بمجرد الأهواء والعصبية[١].

وقد سبق في شرح الأصل الثالث: معرفة نبيكم ﷺ الإفاضة في شرح وبيان رسالة ونبوة خاتم المرسلين محمد ﷺ.



(١) الشفا، للقاضي عياض (١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، وفتح البيان، لصديق حسن خان (١/ ٤١٧).

دعوة المرسلين

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**وكلُّ أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد** ﷺ **يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدَّليل قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]».

الشَّرح:

بيَّن الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القطعة من العقيدة محتوىٰ دعوة المرسلين ليتّبعهم الدعاة في سلوك منهجهم في الدعوة بمحتوىٰ ما دعوا به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وجميع الرسل إنما دعوا إلىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنهم كلهم دعوا إلىٰ توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلىٰ آخرهم، فقال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم - عليهم السلام -

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٣٠، ٣١).

(٢) مدارج السالكين (ص ٦٨).

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]».

وقال سماحة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فلمَّا كانت عقيدة التوحيد هي الأساس الذي قامت عليه دعوة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم، والتي هي في الحقيقة امتداد لدعوة الرسل جميعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ [التوبة: ٣١]، وفي حديث عَديّ بن حاتم - وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما - وكان قد قدم علىٰ النبي ﷺ، وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية، قال: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «**أليس يُحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويُحلون ما حرَّم الله فتحلونه؟!**» قال: فقلت: بلىٰ. قال: «**فتلك عبادتهم**».

---

(١) حراسة التوحيد (ص ٢٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٢٤٦، ٢٤٧).

وكذلك قال أبو البختري: أما إنهم لم يُصلُّوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم، فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أُمروا به ونُهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستنصحوا الرِّجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

فقد بيّن النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ لا أنهم صلَّوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله؛ فهذه عبادة للرجال، وتلك عبادة للأموال، وقد بيّنها النبي ﷺ، وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١]».

فإفراد الله بالحكم هو من توحيد الربوبية؛ لأنه متعلق بأفعال الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهو متعلق كذلك بتوحيد الأسماء والصفات؛ فإن من أسماء الله الحسنىٰ «الحكم»، وهو متعلق أيضًا بتوحيد العبودية؛ لأنه ينبغي علىٰ العبد أن يعتقد حكم الله في الأمور كلها مع إذعان وانقياد وانشراح صدر ولزوم لأحكامه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

الكفر بالطاغوت وأنواع الطواغيت

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.**

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**معنى الطاغوت: ما تجاوز به العبد حدّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع**».

والطواغيت كثيرون، رؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عُبد وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئًا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله».

الشَّرْح:

في هذه القطعة من العقيدة تحدّث الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وذكر التعريف الجامع للطاغوت، ثم تكلم في أنواع الطواغيت ورؤوسهم.

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٣١، ٣٢).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **شارحًا تعريف ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **للطاغوت**(١): «مشتق من «الطغيان»، وهو تجاوز الحد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ لأن الماء الذي أغرق الله به الكفار بنوح تجاوز الحد حتىٰ وصل إلىٰ ما فوق قمم الجبال، فالمعبود كالأصنام طاغوت؛ لأن الإنسان تجاوز بها حدّه في العبادة، والمتبوع كالأحبار والرهبان الضالين طاغوت، لأن الإنسان تجاوز بهم الحد في تحليل ما حرّم الله عَزَّوَجَلَّ أو تحريم ما أحل الله عَزَّوَجَلَّ، والمطاع كالأمراء ذوي الجور والضلال».

والله عَزَّوَجَلَّ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الحكيم فهو ذو الحكمة البالغة، والحكمة هي أن جميع ما يحكم بل جَلَّ وَعَلَا موافق ومطابق للمصالح، ما من شيء يحكم الله به إلا وهو حكمة عظيمة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]. فمعنىٰ الحكيم: أي: ذو الحكمة البالغة، وله معنىٰ آخر وهو: ذو الحكم التام، فإن الله تعالىٰ له الحكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورىٰ: ١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٦٦).

(٢) تفسير سورة الحجرات (ص٣٣).

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩] ولا أحد يحكم بهواه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١﴾ [المؤمنون: ٧١]».

ونهىٰ الله عن الطغيان وأمر بالعدل، فقال سبحانه ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾ [الرحمن: ٧، ٨]، قال العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: وضع العدل، والدليل علىٰ أن المراد بالميزان هنا العدل قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ يعني: العدل، وليس المراد بالميزان هنا الميزان ذا الكفتين المعروف، ولكن المراد بالميزان العدل، ومعنىٰ وضع الميزان أي: أثبته للناس، ليقوموا بالقسط أي بالعدل، ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾ يعني: ألا تطغوا في العدل، يعني: وضع العدل لئلا تطغوا في العدل فتجوروا، فتحكم للشخص وهو لا يستحق، أو علىٰ الشخص وهو لا يستحق، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، يعني: وزنكم للأشياء أقيموه ولا تبخسوه، فتنقصوا، لهذا قال: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾، أي: لا تخسروا الموزون، فصار الميزان يختلف في مواضعه الثلاثة: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾ [الرحمن: ٧]، أي: العدل، ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾ [الرحمن:٨] لا تجوروا في الوزن، ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن:٩]، أي: الموزون».

---

(١) تفسيرة سورة الرحمن (ص٣٠٣، ٣٠٤).

وفي ذكر أنواع الطواغيت بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإبليس لأن الأربعة بعده من فروعه فهم أطاعوه، فإن الشرك والدعوة لعبودية غير الله وادعاء علم الغيب والحكم بغير ما أنزل الله سببه طاعة الشيطان، وتقديم الهوىٰ علىٰ الهدىٰ، والغي والضلال علىٰ الهدىٰ والرشد.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠-٦١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم».

فالكُهّان الذين يزعمون معرفة الغيب يستعينون بالشياطين في استراق السمع لما قُضي في السماء، وفرعون الذي ادّعىٰ الألوهية أضله الشيطان، وهكذا قريش الذي أباحوا الميتة وحرّموا المذكاة أضلهم الشيطان بقياسهم الفاسد فقالوا: كيف تُحرمون ما قتل الله وتبيحون ما تقتلون؟!

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لو أراد الله تعالىٰ أن لا يُعصىٰ ما خلق إبليس، وهو رأس الخطيئة، وإن في ذلك لعلمًا من كتاب الله، جهله من جهله، وعرفه من عرفه، ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية (٥/ ٣٣١).

(٢) الشريعة (ص١٢٨، ١٢٩)، ط – دار الحديث – القاهرة.

مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣]».

وقال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلقًا** [1]: «وقال تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥]، وقال تعالىٰ في سورة الزخرف: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

قد أخبركم الله تعالىٰ يا مسلمين، أنه يُرسل الشياطين علىٰ من لم يجر له في مقدوره أنه مؤمن، فيُضلهم بالشياطين، فيُزينوا لهم قبيح ما هم عليه.

وقد أخبرنا الله تعالىٰ أنه هو الذي فتن قوم موسىٰ حتىٰ عبدوا العجل بما قيّض لهم السامري، فأضلهم بما عمل لهم من العجل، ألم تسمعوا إلىٰ قوله لموسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالىٰ في سورة حم المؤمن: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ [غافر: ٣٧]».

فالكهان يستعينون بالشياطين، والسحرة كذلك، والمنجمون كذلك فإن تنجيمهم من شعب السحر، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ:

---

(١) الشريعة (ص١٢٨، ١٢٩)، ط – دار الحديث – القاهرة.

«**من اقتبس علمًا من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»، رواه أحمد وأبو داود، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية(١) والحافظ الذهبي(٢).

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إن قيل: كيف أضاف النبي ﷺ علم النجوم إلىٰ السحر؟

فالجواب: لأنهما وقعا من التمويه والخِداع والأباطيل موقعًا واحدًا، إذ النجوم لا فعل لها في خير ولا شرٍّ، وإنما الله تعالىٰ الفاعل عند(٤) حركتها وكذلك السحر».

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥): «إن ناسًا جهلةً بأمر الله تعالىٰ قد أحدثوا في هذه النجوم كهانةً: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من النجوم نجم إلا يُولد به الطويل والقصير، والأحمر والأبيض والحسن والذميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضىٰ الله تعالىٰ أنه ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ولعمري لو أن أحدًا عَلِمَ الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله تعالىٰ بيده،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣).

(٢) الكبائر (ص١٢٣)، ط - دار التراث - المدينة.

(٣) القول في علم النجوم (ص١٨٠).

(٤) الله الخالق للنجوم والحوادث، وقد أبطل الله اعتقاد الجاهلية الباطل في اعتقادهم تأثير الأحوال العلوية على الحوادث الأرضية، فقد كُسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت لموته فقال عليه السلام: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**». متفق عليه.

(٥) القول في علم النجوم (ص١٨٦، ١٨٧).

وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، فأكل منها رغدًا حيث شاء، ونهاه عن شجرة واحدة، فما زال به البلاء حتىٰ وقع ما نهي عنه، ولو كان أحد يعلم الغيب لعلمه الجن حين مات نبي الله سليمان عليه السلام، فلبث الجن يعملون له حولًا في أشد العذاب وأشد الهوان لا يشعرون بموته، و﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ وهي في مصحف عبد الله [تبينت الإنس أن الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين]، قال: قد كانت تقول قبل ذلك: إنَّا نعلم، فابتلاهم الله تعالىٰ، وجعلَ موت سليمان للجن والإنس عبرة».

وحقيقة الكهان والمنجمين كما قال النبي ﷺ حين سئل عن الكهان، فقال: «**ليسوا بشيء**»، فقالوا: يا رسول الله! إنهم يُحدِّثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًّا، فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيُّ فيُقرُّها في أذُن وليِّه، فيخلطون معها مائة كذبة**»، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي ليس قولهم بشيء يُعتمد عليه».

ومرَّ النبي ﷺ بنساء من الأنصار في عرس يغنِّين: وفينا رسول يعلم ما في غد. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يعلم ما في غد إلا الله**»، رواه الطبراني في المعجمين الصغير والأوسط وحسن إسناده الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢١٩).

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: «كيف يُسلّم للمنجمين ما يدَّعونه وأحدهم علىٰ التحقيق ما يعرف ما حدث في منزله ولا ما يصلح أهله وولده، بل لا يعرف ما يُصلحه في نفسه، ويؤثر عنه أنه يُخبر بالغيب الذي لم يؤته أحدًا».

وقد أظهر النبي ﷺ في مناظرته لابن صيّاد عجز الكهان والمنجمين والدجاجلة عن معرفة الغيب، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ انطلقَ قِبلَ ابن صيَّاد، ووجده يلعب مع الصبيان فلم يشعر حتىٰ ضربَ النبيُّ ﷺ بيده علىٰ ظهره فقال له: «**ماذا ترىٰ؟**» قال ابن صيَّاد: يأتيني صادقٌ وكاذب. فقال النبي ﷺ: «**خُلِّطَ عليك الأمر**»، ثم قال له النبي ﷺ: «**إني قد خبأْتُ لك خبيئًا**»، فقال ابن صيَّاد: هو الدُّخُّ، فقال النبي ﷺ: «**اخسأ عدو الله فلن تعدو قدرك**».

قال الحافظ ابن المُلقِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله عليه السلام له: «**خُلِّط عليك الأمر**»، أي: خلط عليه شيطانه ما يُلقي إليه من السمع مع ما يكذب إلىٰ ذلك».

ومن لطائف ما يُذكر من أخبار المنجمين: أن منجمًا دخل علىٰ هارون الرشيد، وأخبره أنه سيموت هذه السنة، فاغتم هارون الرشيد لذلك، فدخل جعفر فسأل فأخبروه بشأن كهانة اليهودي، فقال جعفر لليهودي: أنت كم

(١) القول في علم النجوم (ص١٩٤).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٠/ ٨٩).

بقي لك من العمر؟ فذكر مدّة طويلة، فقال جعفر للرشيد: يا أمير المؤمنين! اقتله حتىٰ تعلم كذبه، فأمر الرشيد باليهودي فقُتل، وسُرِّي عن الرشيد همّه الذي كان يجده[1].

فالإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الرسالة المختصرة نبّه علىٰ رؤوس الطواغيت، وقصد بذلك نصيحة المسلمين في تحقيق التوحيد وإبطال التنديد.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أي: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يُعبد من دون الله، ووحّد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد ثبت في أمره، واستقام علىٰ الطريق المثلىٰ، والصراط المستقيم».

فالحاصل: أن فروع الشيطان وأولياءه كإمامهم يدعون إلىٰ الشرك والنار، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٣٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (ص٢٠٢).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إياكم والكهانة؛ فإن الكهانة تدعو إلىٰ الشرك، والشرك وأهله في النار»(١).

والأمر كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فإن الكُهّان تُعينهم الشياطين، وكذلك السحرة، والشياطين لا تعين إلا من أطاعته في الشرك بالله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ١٠٠]، قال ثعلب: والذين هم به مشركون، أي: لأجله مشركون، أي: لأجل إبليس، قال العلامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «وهذا معنًىٰ صحيح، لأن من يشرك بإبليس لا يكون مؤمنًا بالله، فالمعنىٰ هذا».

وقال الإمام المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «إن الرسول ﷺ قد نهىٰ عن إتيانهم وسؤالهم وتصديقهم - الكهان والعرافين -، لما في ذلك من المنكر العظيم والخطر الجسيم والعواقب الوخيمة، ولأنهم كذبة فجرة، كما أن في هذه الأحاديث دليلًا علىٰ كفر الكاهن والساحر، لأنهما يدّعيان علم الغيب، وذلك كفر؛ ولأنهما لا يتوصلان إلىٰ مقصدهما إلا بخدمة الجن وعبادتهم من دون الله، وذلك كفر بالله وشرك به سبحانه.

---

(١) رموز الكنوز (٦/ ٧٠).

(٢) تفسير القرآن (٣/ ٢٠١).

(٣) حكم السحر والكهانة وما يتعلق بهما (ص٦).

والمصدّق لهم في دعواهم علم الغيب يكون مثلهم، وكل من تلقىٰ هذه الأمور عمن يتعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ.

ولا يجوز للمسلم أن يخضع لما يزعمونه علاجًا كتمنمتهم بالطلاسم أو صب الرصاص، ونحو ذلك من الخرافات التي يعملونها؛ فإن هذا من الكهانة والتلبيس علىٰ الناس».

وتحدّث شيخ الإسلام عن طرائق المشعوذين والظالمين في الاستعانة بالجن؛ فقال[1]: «وكذلك من رقىٰ المسحور بالرقىٰ الشرعية، فهذا حسن لا شبهة فيه، وأما استحضار الجن بآيات القرآن وغيرها بإزالة عقل عاقل، ومخاطبة الجن علىٰ لسانه أو غير لسانه، وتصديقهم فيما يُخبرون به من مواضع الغيب، والأمور المسروقة ونحو ذلك، وأخذ الناس بمجرد هذا الإخبار؛ لا يجوز لوجهين:

أحدهما: أن في هذا ظلمًا للمصروع غير مستحق عليه، وذلك بإزالة عقل عاقل لنفع غيره، بل أصل إزالة العقل محرّم، لا سيما والذي يُصرع يبقىٰ بعد الإفاقة فيه نوع من الخبل، وفيه تطريق للجن عليه.

والوجه الثاني: أنه لا يُوثق بخبر الجن، ولا يُخبر المصروع عنهم مع تيقّن حضورهم، فإنه لم يُعرف صدقهم وعدلهم، بل أهل التجارب لهذه الأمور يعلمون أن هذه الأخبار يكثر فيها الكذب، بل قد يكون الكذب فيها أكثر

(١) تحريم أقسام المعزّمين (ص٣٠، ٣١).

من الصدق، فيبقىٰ مثل أخبار المنجمين وأمثالهم ممن لا يجوز الاعتماد علىٰ أخبارهم، وكذلك أخبار الكهان؛ فإنه قد عُلم أن الكهان تُخبرهم الشياطين بالخبر الذي يسترقونه من السماء، ومع هذا فقد نهىٰ النبي ﷺ عن إتيانهم لأنهم يخلطون الصدق بالكذب».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أتىٰ عرّافًا فسأله عن شيء فصدّقه، لم يقبل الله له صلاة أربعين يومًا**»، ولهذا نصّ الإمام أحمد وغيره علىٰ أن العرّاف والكاهن بمنزلة الساحر، فإذا كان هذا الكاهن الذي لم يصرعه أحد، ولم يُزل أحد عقله، ولا ظلمه، ولا استحضر أحدٌ الجن، بل أتوه باختيارهم؛ لا يجوز إتيانه ولا تصديقه بما يُخبره، بل تجب عقوبته كما يُعاقب الساحر، فكيف بمن يقصد له صرعه إزالة عقله، وإحضار الجن له، وإكراههم علىٰ أن يخاطبوا علىٰ لسانه أو غير لسانه؟!».

وقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في رؤوس الطواغيت**[2]: «ومن عُبد وهو راضٍ»، احتراز من الذي عُبد وهو غير راضٍ، فهذا ليس بطاغوت إذا كان مؤمنًا، كالملائكة والمسيح ابن مريم عُبدوا من دون الله وهم غير راضين بذلك.

---

(١) تحريم أقسام المعزّمين (ص٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٥٩).

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠١]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: «الحكمة في دخول الأصنام النار وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب: بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عُبد وهو راضٍ بعبادته، وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم، ممن عُبد من الأولياء؛ فإنهم لا يُعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]».

فالنبيون عليهم السلام والمؤمنون الصالحون لا يرضون باتخاذهم شركاء مع الله، قال تعالىٰ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

فالنبيون عليهم السلام بُعثوا بالتوحيد والمؤمنون إليه يدعون ويجردون

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٥٩).

التوحيد لله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصنف الثالث من الطواغيت «ومن دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه».

هذا الصنف هو من دعا الناس إلىٰ عبادته، وهو بذلك لا بد أن يكون راضيًا، وهذا وقع من فرعون الذي استعبد قومه، وقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وفرعون كان مقرًّا في باطنه بألوهية الله وصحة نبوة موسىٰ عليه السلام والمعجزات التي آتاه الله إياها، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) : «﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا بآيات الله، جاحدين لها، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: ليس جحدهم مستندًا إلىٰ الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم بصحتها ﴿ظُلْمًا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ علىٰ الحق وعلىٰ العباد، وعلىٰ الانقياد للرسل».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٥).

والصنف الرابع من أصناف الطواغيت الذين ذكرهم الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ادّعىٰ شيئًا من علم الغيب».

وتسمية الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدّعي الغيب طاغوتًا هو سلوك لمنهج الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك، وهذا ما أشار إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفسه في كتابه الماتع النافع المبارك «كتاب التوحيد»، فإنه في (باب ما جاء في السحر)[1] ساق قول الله تعالىٰ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، ثم قال[2]: «قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان. وقال جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الطواغيت كهّانٌ كان ينزل عليهم الشيطان في كل حيٍّ واحد».

والكهان يدّعون معرفة الغيب وهم كاذبون في ذلك؛ فإن الغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، فمن ادّعىٰ علم الغيب أو اعتقد ذلك في مخلوق؛ فهو كافر؛ لأنه مكذّب للقرآن؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل علىٰ محمد** ﷺ» رواه أبو داود.

---

(١) كتاب التوحيد الباب الثالث والعشرون (ص٤٥).

(٢) كتاب التوحيد (ص٤٦).

ومن يدّعي علم الغيب أصناف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العرَّاف: اسم للكاهن والمنجّم والرَّمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق(١).

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متىٰ ينزل الغيث إلا الله**»، رواه البخاري.

وفي الصحيحين: أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ: **متىٰ تقوم الساعة؟** فقال النبي ﷺ: «**ما المسؤول بأعلم من السائل**».

فالغيب لا يعرفه ملك مقرّب ولا نبي مرسل، قال عيسىٰ ابن مريم عليه السلام مقررًا اختصاص الله وحده بعلم الغيب: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].



---

(١) كتاب التوحيد (ص٥١، ٥٢).

ولاحظ حسن تصنيف الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الرسالة المجملة في الدين والاعتقاد «الأصول الثلاثة وأدلتها»، حيث ابتدأها بذكر الأصول الثلاثة الجامعة لحقيقة الإسلام كله: ربك، ودينك، ونبيك، ثم ختمها بالتحذير مما يضادها، حيث قال[1]: «افترض الله علىٰ جميع العباد الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله».

ومن جملة الطواغيت التي حذّر منها[2]: «ومن حكم بغير ما أنزل الله».

فمن رضي بالله ربا لزمه أن يتخذه حكمًا،

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «الرضا بالله ربًّا أن لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالىٰ يسكن إلىٰ تدبيره، ويُنزل به حوائجه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «سيدًا وإلهًا»؛ يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو ربّ كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٣٢).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص٣٣).

(٣) مدارج السالكين (ص٤٤٢، ٤٤٣).

أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟! وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلىٰ غير كتابه، وقد أنزله مفصَّلًا، مبينًا كافيًا شافيًا؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها، فكثير من الناس يرضىٰ بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضىٰ به وحده وليًّا وناصرًا، بل يوالي من دونه أولياء؛ ظنًّا منه أنهم يقربونه إلىٰ الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه؛ فإن هذا من تمام الإيمان وتمام موالاته؛ فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون، **ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه**؛ فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا، يتحاكم إليه، ويُخاصم إليه، ويَرْضىٰ بحُكْمه، وهذه المقامات الثلاثة هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهًا، ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربًّا أن يسخط عبادة ما دونه، وهذا هو الرضا بالله إلهًا، وهو من تمام الرضا بالله ربًّا؛ فمن أعطىٰ الرضا به ربًّا حقه، سخط عبادة ما دونه قطعًا؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية».

ولا يجوز لأحد قصر وعيد الحكم بغير ما أنزل الله في اليهود والنصارىٰ، صحيح أن سياق الآيات فيهم إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٤-٤٦].

قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ذكروا ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال رجل من القوم: هذا في بني إسرائيل!

قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نعم الإخوة لكم إن كان لكم الحلو، والمُرُّ لهم، كلا والذي نفسي بيده حذو السِّية بالسِّية[١].

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لمّا أنبأكم الله بصنيع أهل الكتاب قبلكم، بأعمالهم أعمال السوء، وبحكمهم بغير ما أنزل الله ـ وعظ الله نبيه ﷺ والمؤمنين موعظة بليغة شافية، فليعلم من ولي شيئًا من هذا الحكم أنه ليس شيء بين العباد وبين الله يعطيهم به خيرًا، ولا يدفع عنهم به سوءًا إلا بطاعته، والعمل بما يرضاه، فلما بيَّن الله للنبي ﷺ وللمؤمنين صُنع أهل الكتاب وجورهم؛ قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ يقول: الكتب التي قد خلت قبله ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، وقال: شاهدًا علىٰ الكتب التي قد خلت قبله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «المقصود هنا الاعتبار، فإن بني إسرائيل قد ذهبوا أو كفروا، وإنما ذُكرت قصصهم عبرة لنا، وكان بعض السلف يقول: «إن بني إسرائيل ذهبوا، وإنما يعني أنتم». ومن الأمثال السائرة: «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فكان فيما خاطب الله به بني إسرائيل عبرة لنا».

---

(١) أخبار القضاة (١/ ٤٠).

(٢) أخبار القضاة (١/ ٤٣، ٤٤).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٠).

والحكم بغير ما أنزل الله مضادة لله في أمره وحكمه؛ فالله أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

والله خلق الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ لتجري أمور الخلق علىٰ الصلاح والعدل، ومضادة الله في شرعه وأمره إفساد للخلق والخليقة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الحكم بما أنزل الله فيه صلاح الدنيا والآخرة، والحكم بغير ما أنزل الله فيه فساد الدنيا والآخرة».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من تمسك بهذا القرآن العظيم فله المجد والعزة والكرامة والرفعة، ولهذا ننصح أمتنا الإسلامية بادئين بأفراد شعوبها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، ونوجِّه الدعوة علىٰ وجهٍ أوكد إلىٰ ولاة أمورها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، وألا يغرهم البهرج

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٠٢).

(٢) تفسير جزء عم (ص١٤٤، ١٤٥).

المزخرف الذي يَرِدُ من الأمم الكافرة التي تضع القوانين المخالفة للشريعة، المخالفة للعدل، المخالفة لإصلاح الخلق، أن يضعوها موضع التنفيذ، ثم ينبذوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراء ظهورهم؛ فإن هذا - والله - سبب التأخر، ولا أظن أحدًا يتصور الآن أن أمة بهذا العدد الهائل تكون متأخرة هذا التأخر؛ وكأنها إمارة في قرية بالنسبة للدول الكافرة؛ لكن سبب ذلك - لا شك - معلوم، هو أننا تركنا ما به عزتنا وكرامتنا، وهو التمسك بهذا القرآن العظيم، وذهبنا نلهث وراء أنظمة بائدة فاسدة، مخالفة للعدل، مبنية علىٰ الظلم والجور».

وكيف تطيب نفس مسلم بتعطيل شرع الله وحكمه، وكلٌّ موقن أنه لا أحد أعلم ولا أحكم من الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وهذا يشمل جميع ما حكم به، وأنه أحسن الأحكام وأكملها وأصلحها للعباد، وأسلمها من الخلل والتناقض، ومن الشر والفساد، إلىٰ غير ذلك من الآيات البيّنات العامة والخاصة.

أما عقائد هذا الدين وأخلاقه وآدابه ومعاملاته، فقد بلغت من الكمال والحسن والنفع والصلاح - الذي لا سبيل إلىٰ الصلاح بغيره - مبلغًا لا

---

(١) مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السعدي (٢٢/ ١٩٨، ١٩٩).

يتمكن عاقل من الريب فيه، ومن قال سوىٰ ذلك فقد قدح بعقله، وبيّن سفهه ومكابرته للضرورات.

وكذلك أحكامه السياسية ونظمه الحكمية والمالية مع أهله ومع غيرهم؛ فإنها نهاية الكمال والإحكام والسير في صلاح البشر كلهم، بحيث يجزم كل عارف منصف أنه لا وسيلة لإنقاذ البشر من الشرور الواقعة والتي ستقع إلا باللجوء إليه والاستظلال بظله الظليل، المحتوي علىٰ العدل والرحمة والخير المتنوع للبشر، المانع من الشر، وليس مستمدًّا من نظم الخلق وقوانينهم الناقصة الضئيلة، ولا حاجة به إلىٰ موافقة شيء منها، بل هي في أشد الضرورات إلىٰ الاستمداد منه؛ فإنه تنزيل الحكيم العليم بأحوال العباد ظاهرها وباطنها، وما يُصلحها وينفعها، وما يُفسدها ويضرها، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وأعلم بأمورهم.

فشرع لهم شرعًا كاملًا مستقلًّا في أصوله وفروعه، فإذا عرفوه وفهموه وطبقوا أحكامه علىٰ الواقع صلحت أمورهم؛ فإنه كفيل بكل خير.

ومتىٰ أردت معرفة ذلك فانظر إلىٰ أحكامه حكمًا حكمًا، في سياسة الحكم والمال والحقوق والدماء والحدود، وجميع الروابط بين الخلق - تجدها الغاية التي لو اجتمعت عقول الخلق علىٰ أن يقترحوا أحسن منها أو مثلها تعذر عليهم واستحال».

وتعطيل آحاد أحكام الشريعة ذريعة لتعطيلها كلها، ناهيك أن تعطيل حكم شرعي هوًىٰ من أسباب الزيغ الذي قد يقع معه بعد ذلك مسح تعظيم الشريعة من الأفئدة والركون إلىٰ القانون الوضعي وانشراح الصدر به؛ فإن الأمور تبدأ صغارًا ثم تعود كبارًا، ولذلك قال أبو بكر الصدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إني أخشىٰ إن تركت شيئًا من أمر رسول الله ﷺ أن أزيغ». رواه البخاري ومسلم.

ولا يفهم أحد من تشنيع العلماء علىٰ استبدال الشريعة كلها إلا في الأحوال الشخصية بقانون وضعي من صناعة البشر كما وقع من العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ تهوين تعطيل الشريعة في آحاد مسائلها، فهذا لم يرده الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ إطلاقًا، وإنما بيّن أن تعطيل الشرع في كل أحكامه إلا ما ندر، أغلظ، وأحوال العلامة ابن إبراهيم رَحِمَهُٱللَّهُ في حراسة الثغر السعودي من تبديل آحاد أحكامه الشرعية معلومة، ولعلي أذكر هنا نموذجًا من نصيحته لولاتنا في ذلك:

(من محمد بن إبراهيم إلىٰ حضرة صاحب السمو الملكي أمير الرياض سلمه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد[1]:

فبالإشارة إلىٰ خطابكم (رقم ٤٩٢٨، وتاريخ ١١/ ٤/ ١٣٧٥) المرفق به

(١) فتاوىٰ ورسائل سماحة الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٢/ ٢٥٠، ٢٥١).

الأوراق الخاصة بموضوع تأسيس غرفة تجارية بالرياض، نفيدكم:

إنه جرىٰ درس النظام المرفق، ولاحظنا عليه ملاحظات أهمها الفقرة (د) من المادة (٣) التي نصّها : أن تكون الغرفة مرجعًا لحل الخلافات التجارية بين المتنازعين من التجار، سواء كان المدعىٰ عليه مسجلًا أو غير مسجل.

وقد انتهىٰ إلينا نسخة عنوانها «نظام المحكمة التجارية للمملكة العربية السعودية» المطبوع بمطبعة الحكومة بمكة عام ١٣٦٩، للمرة الثانية، ودرسنا تقريبًا نصفها فوجدنا ما فيها نظمًا وضعية قانونية لا شرعية، فتحققنا بذلك أنه حيث كانت تلك الغرفة هي المرجع عند النزاع أنه سيكون فيها محكمة، وأن الحكام غير شرعيين، بل نظاميون قانونيون، ولا ريب أن هذه مصادمة لما بعث الله به رسوله ﷺ من الشرع الذي هو وحده المتعين للحكم به بين الناس، والمستضاء منه عقائدهم وعباداتهم، ومعرفة حلالهم من حرامهم، وفصل النزاع عندما يحصل التنازع.

واعتبار شيء من القوانين للحكم بها ولو في أقل قليل، لا شك أنه عدم رضا بحكم الله ورسوله ونسبة حكم الله ورسوله إلىٰ النقص وعدم القيام بالكفاية في حل النزاع وإيصال الحقوق إلىٰ أربابها، وحكم القوانين إلىٰ الكمال، وكفاية الناس في حل مشاكلهم، واعتقاد هذا كفر ناقل عن الملة ، والأمر كبير مهم، وليس من الأمور الاجتهادية.

وتحكيم الشرع وحده دون كل ما سواه شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه؛ إذ مضمون الشهادتين أن يكون الله هو المعبود وحده لا شريك له، وأن يكون رسوله ﷺ هو المتّبع المحكّم ما جاء به فقط، ولا جُردت سيوف الجهاد إلا من أجل ذلك، والقيام به فعلًا وتركًا وتحكيمًا عند النزاع ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وولي أمر المسلمين أيده الله بالحق، لا يعدل بحكم الله ورسوله حكم أي من الناس، ولا أي قانون، لو كان في ذلك ما كان، بل هو حرب القوانين، ومؤيد شريعة سيد المرسلين».

وقد قام ولي الأمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالواجب وهو التحاكم للشرع، وقد شكره الإمام المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ ذلك، وقال[1]: «وجوب إلغاء المحكمة التجارية التي قد وفق الله ملك المسلمين لإلغائها».

ولم تنته حيل رئيس الغرفة التجارية عند هذا؛ فبذل مساعيه ليكون للمتخاصمين حرية الاختيار بين حكم الله وشرعه، وحكم قوانين الغرفة

---

(١) فتاوىٰ ورسائل ابن إبراهيم (١٢/ ٢٥٥).

التجارية؛ فكتب إليه سماحة الإمام المجدّد محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ زاجرًا وواعظًا[١]: «لعمر الله! لقد جاء صاحب هذه الكلمة شيئًا فريًّا، متىٰ كان التخيير في التحكيم إلىٰ المتحاكمين، وأن لهم تحكيم من اتفقوا علىٰ تحكيمه من حاكم شرعي وغير شرعي؟! أوليس الله يقول : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]؟فإن الضمير وهو «الواو» في قوله: ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾ المراد به المتخاصمون؛ فليس الأمر إليهم في ذلك، بل لا يسوغ لهم أبدًا أن يرجعوا عند التنازع وينتهوا عند التخاصم إلا إلىٰ الشرع المحمدي والتحاكم إليه، وهو التحاكم إلىٰ حملته الحاكمين به.

وما أشبه هذه الكلمة السيئة المتضمنة ما تقدم بما قد اشتهر قديمًا عند بعض رؤساء القانونيين من تخييرهم الخصمين عندما يرفعان الشكاية إليهم من قوله: تريد الشرع الشريف، أو القانون المنيف؟! ما أشبه الليلة بالبارحة؟!».

ومن طعون العلمانيين الكاذبة الفاجرة في الإسلام التي اتخذوها ذريعةً لتعطيل الشريعة، دعواهم أن الدين الإسلامي والشرع الحنيف هو سبب تأخر المسلمين في حضارة الصناعة، وهذا من أعظم المغالطات وأشنعها تزييفًا للواقع، فالمسلمون أسبق في حضارة الصناعة من الغرب، فحضارة المسلمين الصناعية والعمرانية في الأندلس أسبق من حضارة أوربا وأمريكا،

---

(١) فتاوىٰ ورسائل ابن إبراهيم (١٢/ ٢٥٥).

والغرب نفسه مُقر بأن حضارته إنما كانت من فيض حضارة المسلمين بالأندلس، والإسلام دين علم وعبادة وعمل وحضارة، ما تقهقر المسلمون إلا لما تركوا تعاليمه.

قال العلامة عبد الله بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد سمعنا وقرأنا كثيرًا مما يدل علىٰ ذلك، فقد ذكر بعض عقلاء المستشرقين الذين يكتبون لبيان الحقيقة والواقع لا للسياسة: أن نشأة أوربا الحديثة إنما كانت رشاشًا من نور الإسلام فاض عليها من الأندلس، ومن صفحات الكتب التي أخذوها في حروبهم مع المسلمين في الشرق والغرب.

وقال القس تايلور: إن الإسلام يمتد في إفريقيا، وتسير الفضائل معه حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والإقدام من نتائجه.

وقال كونتنس: يمتاز المسلمون علىٰ غيرهم برفعة في السجايا، وشرف في الأخلاق، قد طبعته في نفوسهم ونفوس آبائهم وصايا القرآن، بخلاف غيرهم، فإنهم في سقوط تام من حيث ذلك.

ولسنا - ولله الحمد - في حاجة إلىٰ شهادة هؤلاء وأمثالهم بفضل الإسلام وعلو مكانته، ولكن ذكرنا هذا لمّا قصّر أهله في فهمه والعمل به، وعَرف منه أعداؤه ما لم يعرفه بنوه؛ إذ جهلوا مصالحه، وتطلعوا إلىٰ غيره من

---

(١) مجموع رسائل العلامة عبد الله بن حميد (ص١٤٠-١٤٤).

النظم الفاسدة المتناقضة، وأعداؤه يفضلونه ويشهدون له بالكمال، وأنه فوق كل نظام.

ولا شك أنه الدين الصحيح الكفيل بكل ما يحتاجه البشر علىٰ وجه يكفل لهم المصالح، ويدرأ عنهم المفاسد، دين الفطرة السليمة، دين الرقي الحقيقي، دين العدالة بأسمىٰ معانيها، دين المدنية والحرية بمعناها الصحيح، دين العمل دين الاجتماع، دين التوادد والتناصح والتحابب، دين رفع ألوية العلم والصنائع والحرف، لم يقتصر علىٰ أحكام العبادات والمعاملات، بل شمل جميع منافع العباد ومصالحهم علىٰ مَرِّ السنين، وتعاقب الدهور إلىٰ أن تقوم الساعة.

ولكن يا للأسف! ويا للمصيبة.

إن أبناء هذا الدين جهلوا قدره، وجهلوا حقيقته، بل كثير منهم عادَوْه، وأصبحوا يدسون عليه معاولهم؛ ليهدموه، وليفرقوا أهله، ويُفضِّلون أهل الغرب علىٰ المسلمين، ظنًّا منهم بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة أن الدين هو الذي أخّرهم، ولكنهم أخروا أنفسهم بالإعراض عن تعاليم دينهم، وأخلدوا إلىٰ الكسل، وقنعوا بالجهل؛ فأصبحوا في حيرة من أمرهم، إنهم لو عرفوا دينهم وطبقوا تعاليمه، لوصلوا فوق ما وصل إليه غيرهم من التقدم الصناعي، ولكنهم تركوا دينهم، واقتنعوا بالترف والنعيم، وأهملوا العناية

به، فوالله لو أن أهله قاموا بها يجب عليهم، لحازوا شرف الدنيا والآخرة».

وبوق العلمانيين وشعارهم في تعطيل الشريعة قولهم: «الدين لله والوطن للجميع»، وقولهم: «دعوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، وهذا من أبطل الكلام وأقبحه وأعظمه معاندة ومكابرة لله، بل نقول كما قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ولا أمر لأحد مع أمر الله وشرعه، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]؛ فالله هو الربّ، والمخلوق مربوب، أوجده الله من عدم، وكما أن ناصيته بيده يميته متىٰ شاء؛ فواجبه أن يكون منقادًا لأمر الله وشرعه، لا مضادًّا له ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

والكون بمن فيه ضبطه الله بشرعه الإلهي، لا حرية لأحد من البشر في إفساده؛ فالله هو الذي استخلف خلقه في الأرض، وجعل لهم شرعًا يُساسون به؛ لتنتظم مصالحهم، ويحصل بذلك مقصود استخلافهم.

وتحدّث العلامة أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مبدأ هذه الكلمة «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» فقال[1]: «كلمة يحكيها النصارىٰ علىٰ لسان عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «دعوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». وهي كلمة ذل واستحذاء، أبريء عيسىٰ نبي الله منها، ولعلها صدرت من بعض أتباعه ضعفًا وجبنًا حين اضطهدهم الرومان وأذلوهم بعد رفعه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ».

(١) تقرير عن شئون القضاء والتعليم (ص٦٠).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **رادًّا علىٰ هذه العبارة**[1]: «كل هذه الأشياء وأمثالها تحليل لما حرّم الله، واستهانة بحدود الله، وانفلات من الإسلام، وكلها حرب علىٰ عقائد المسلمين، وكلها تعطيل لفروض الدين».

وقال علامة مصر إمام الحرم المكي عبد الظاهر أبو السمح؛ رادًّا علىٰ العلمانيين المطالبين بفصل الدين عن السياسة[2]: «وأما جعل الزعامة الإسلامية قسمين: زعامة دينية، وزعامة سياسية، وتفريق المحرِّر بين الزعامتين، فهي فكرة غير إسلامية، وليدة هذا العصر الموبوء بالإلحاد والزندقة، وهي فكرة غير تصرّح عن باطنها، وتعلن عن نفسها بأن الدين الإسلامي لا يصلح للسياسة ولا للحكم، وإنما هو عبارة عن عبادة في المحاريب، وعلاقة بين العبد وربه، لا أكثر ولا أقل، كما قالها بعض الملاحدة من مقلدة الإفرنج.

والقرآن والسنة مصرحان بخلاف ذلك، وناطقان بأنه دين السياسة الحكيمة والمدنية الصحيحة، وسيرة النبي ﷺ بين أيدي الناس شاهدة بأنه ﷺ كان يقود الجيوش، ويقرأ ويكتب للملوك يدعوهم إلىٰ الإسلام، ويبعث البعوث، ويحكم بين الناس بشرع الله السماوي في كل شيء، قال تعالىٰ:

---

(١) تقرير عن شئون القضاء والتعليم (ص٦٨).

(٢) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية (١/ ١٩٧).

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٩]، ولو كان دين عبادة في المحاريب فقط لما أمر الرسول ﷺ أن يحكم بين الناس، ولما كان ثمّة ما يدعو إلىٰ الحكم بينهم؛ إذ الحكم لا يكون إلا في الخصومات، والعبادات لا خصومة فيها بين العبد وربه، وإنما هي بين العباد بعضهم لبعض، فمن قرأ سورة الأنفال والتوبة علىٰ الأقل علم يقينًا لا شك فيه أن الإسلام دين عبادة وسياسة، جمع بين الأمرين، وبما جرىٰ من سيرة النبي ﷺ وخلفائه يتبيّن صدق ما نقول، وأن التفريق بين الزعامتين رأي مأفون».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «السياسة حقيقة ما جاء في شرع الله، ولهذا نقول: إن الإسلام شريعة وسياسة، ومن فرّق بين السياسة والشريعة فقد ضل، ففي الإسلام سياسة الخلق مع الله، وبيان العبادات، وسياسة الإنسان مع أهله، ومع جيرانه، ومع أقاربه، ومع أصحابه، ومع تلاميذه، ومع معلميه، ومع كل أحد، كل له سياسة تخصه؛ وسياسة مع الأعداء الكفار؛ ما بين حربيين، ومعاهدين، ومستأمنين، وذميين».

وعلمانية الغرب وفصلهم للدين عن السياسة واقعهم وشرورهم من الإباحية، والانهيار الاقتصادي لمؤسساتهم الربوية، كما حصل في عام ٢٠٠٨م، وفساد أخلاقهم، وتشتت عقائدهم في تيه الكفر والإلحاد ينادي علىٰ

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٣٦).

علمانيتهم بالفساد، ويبيّن أن شرع الله عصمة لهم من الضلال والفساد والشرور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان، فسدت أحوال الناس».

ولا أدل علىٰ نقص القوانين الوضعية وشرورها من سعي أصحابها إلىٰ تغييرها كل حين؛ لعدم استيعابها لحاجات الخلق، وما ظهر من فسادها وعدم صلاحها لأزمنتهم الحاضرة، وما أوقعته من الشرور والضرر بالخلق في تطبيقها.

أما شريعة الرحمن فهي ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، صالحة لكل زمان ومكان، تطبيقها بوسطيتها سلامة للخلق من الظلم والنقص والضرر والفساد.

قال أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن الأشياء المخلوقة في الأرض، منه غذاء، ومنه دواء، ومنه سم، والتجربة لا تفي بمعرفتها إلا بعد الأدواء العظيمة، ومع ذلك ففيها خطر علىٰ الأكثر، وفي البعثة فائدة معرفة طبائعها ومنافعها من غير ضرر ولا خطر».

والإسلام مع مرور الأيام يظهر من كماله وعدله في تطبيقه ما فيه أعظم

---

(١) السياسة الشرعية (ص٢٣٤).

(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين (ص٥١٦).

توجيه للزومه والحكم به، قال العلامة عبد الله بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الشريعة الإسلامية؛ فهي صالحة لكل زمان ومكان، مضىٰ عليها أربعة عشر قرنًا، وهي هي في كمالها، ومناسبتها، وحفظها لكافة أنواع الحقوق لجميع الطبقات، وأهدأ الناس حالًا، وأنعمهم بالًا، وأقرهم عيشًا، أشدهم تمسكًا بها، سواء في ذلك الأفراد، أو الشعوب، أو الحكومات، وهذا شيء يعرفه كل أحد إذا كان عاقلًا منصفًا، وإن لم يكن من أهلها، بل وإن كان من المناوئين لها».

والمؤمنون تحكيمهم لشرع الله توحيد لله، وعبادة له، وربوبية له، وطاعة لله، وإيمان به، ليس تحكيمًا محضًا لطلب العدل ومصالح العباد فقط، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا تمام للدين والدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع؛ لحاجة بعضهم إلىٰ بعض تعاونًا وتناصرًا، يتعاونون علىٰ جلب المنفعة، ويتناصرون لدفع المضرة، إذ الواحد منهم لا يقدر وحده علىٰ جلب جميع منافعه، ودفع جميع مضارِّه، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس».

وقال أيضًا[٣]: «إن الله تعالىٰ أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتمُّ ذلك إلا بقوَّة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجب من الجهاد والعدل،

---

(١) كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر (ص١٣٩-١٤٤).

(٢) السياسة الشرعية (ص٢٣٢).

(٣) السياسة الشرعية (ص٢٣٣).

وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة».

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقُرْبة يُتقرب بها بالعمل الصالح فيها إلىٰ الله تعالىٰ؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ من أفضل القربات».

وقال العلامة صالح الفوزان - حفظه الله - [٢]: «ليس المقصود من التحاكم إلىٰ الشريعة هو مجرّد تحقيق الأمن والعَدالة بين الناس؛ فهذا لا يكفي، لا بدّ أن يكون تحكيم الشريعة تعبُّدًا وطاعةً لله؛ فالّذين يُحكِّمون الشّريعة من أجل ما فيها من المصالح والعدل بين الناس فقط، فهذا لا يدلّ علىٰ الإيمان؛ لا بد أن يكون تحكيم الشّريعة صادرًا عن إيمان وتعبُّد لله عَزَّوَجَلَّ، وطاعة لله؛ لأنّ هذا من التّوحيد».

ومما ينبغي التنبيه عليه أن العدل هو في تحكيم شرع الله ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، وكل ما خالف حكم الله وشرعه فهو ظلم وليس بعدل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

---

(١) السياسة الشرعية (ص٢٣٥).

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٢/ ١٢٧).

والإحسان إلىٰ الخلق يكون بفعل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، لا في اتباع أهوائهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وليس حسن النية للرعية والإحسان إليهم أن يفعل ما يهوونه ويترك ما يكرهونه، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالىٰ للصحابة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وإنما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا، ولو كرهه من كرهه».

وقال أيضًا[٢]: «إن الناس دائمًا يسألون وليَّ الأمر ما لا يصلح بذله من الولايات، والأموال، والمنافع، والجود، والشفاعة في الحدود، وغير ذلك؛ فيعوِّضهم من جهة أخرىٰ إن أمكن، أو يردهم بميسور من القول، ما لم يحتج إلىٰ الإغلاظ».

وقال الإمام المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لا يجوز أن يُحتج بما وقع فيه أغلب المسلمين اليوم من التحاكم إلىٰ القوانين الوضعية، فإن ذلك لا يبرره ولا يجعله جائزًا، بل هو من أنكر المنكرات، وإن وقع فيه الأكثرون،

---

(١) السياسة الشرعية (ص١٧٢).

(٢) السياسة الشرعية (ص١٧٣).

(٣) الفتاوىٰ البازية (١/ ٢٧٤، ٢٧٥).

وليس وقوع الأكثر في أمر من الأمور دليلًا علىٰ جوازه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وكل حكم يخالف شرع الله فهو من حكم الجاهلية، قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]».

والواجب علىٰ كل من ولي من أمر المسلمين شيئًا أن يُعظِّم الله، ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وأن يُعظِّم شرع الله، فلا يتقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ﴾ [الحجرات: ١].

والواجب علىٰ كل من ولي من أمر المسلمين شيئًا، أن يرفع ويزيل كل ما يخالف شرع الله.

قال العلامة صالح الفوزان – حفظه الله – [١]: «إنْ كنتم تريدون الحق فارجعوا عمّا أنتم عليه، وتوبوا إلىٰ الله كما عرض الله التّوبة علىٰ مَن كان قبلكم.

أزيلوا هذه القوانين وهذه الطاغوتيّة إنْ كنتم صادقين، وتوبوا إلىٰ الله، والله يتوب علىٰ مَن تاب.

أما الاستمرار علىٰ الذّنب مع إظهار التّوبة والاستغفار، فهذه مخادَعة لا تجوز؛ لأن شروط التّوبة: الإقلاع عن الذّنب، والعزم أن لا يعود إليه، والنّدم

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٢/ ١٢٦).

علىٰ ما فات».

وكما يجب علىٰ الولاة إصلاح الأحكام وردها إلىٰ الله، فكذلك يجب علىٰ الرعية إصلاح المجتمع، قال سماحة العلامة المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المجتمع المحارب للدين، والذي ليس فيه قائد يعينك علىٰ الإصلاح والتوجيه، تعمل فيه كما عمل رسول الله ﷺ في مكة، تدعو إلىٰ الله بالحسنىٰ وبالأسلوب الحسن، وبالكلمات الليّنة، حتىٰ يدخل ما تقول في القلوب، وحتىٰ يؤثر فيها، فيحصل بذلك انجذاب القلوب إلىٰ طاعة الله وتوحيده، وتتعاون مع إخوانك ومن سار علىٰ نهجك في دعوة الناس وإرشادهم بالطرق الليّنة في المجتمعات التي يمكن حضورها؛ حتىٰ يثبت هذا الإيمان في القلوب، وحتىٰ ينتشر بين الناس بأدلته الواضحة.

وفي المجتمع الإسلامي، ووجود القائد الإسلامي الذي يعينك، يكون لك نشاط أكثر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاتصال بالمسئولين عند وجود المعاندين، والذين يخشىٰ من عنادهم الخطر علىٰ المجتمع، وتكون مع ذلك سالكًا المسلك القويم بالرفق والحكمة والصبر، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

---

(١) الفتاوىٰ البازية (١/ ٢٥١).

فلا بد من صبر وتواصٍ بالحق، ودعوة إليه؛ حتىٰ تنجح في مهمتك، وكذلك المسئولون والكبار الذين يُخشىٰ من شرهم علىٰ الدعوة، يُنصحون بالأسلوب الحسن، ويوجهون، ويدعون بالكتابة والمشافهة من أعيان الأمة ورجالها وقادتها وأمرائها».

وفي سؤال وُجه للجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء[1]: من لم يحكم بما أنزل الله، هل هو مسلم أم كافر كفرًا أكبر؟ وتُقبل منه أعماله؟

جاء الجواب كما يلي:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، لكن إن استحل ذلك واعتقده جائزًا؛ فهو كفر أكبر، وظلم أكبر، وفسق أكبر يخرج من الملة، أما إن فعل ذلك من أجل الرشوة أو مقصد آخر، وهو يعتقد تحريم ذلك؛ فإنه آثم، يعتبر كافرًا كفرًا أصغر، وظالمًا ظلمًا أصغر، وفاسقًا فسقًا أصغر لا يخرجه من الملة، كما أوضح ذلك أهل العلم في تفسير الآيات المذكورة.

---

(١) فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٧٨٠).

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه، وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الرئيس	نائب رئيس اللجنة	عضو
عبد العزيز بن عبد الله بن باز	**عبد الرزاق عفيفي**	**عبد الله بن غديان**

وتغليظ علمائنا القول في الحكم بغير ما أنزل الله في التشريع العام لا يريدون به تهوين استبدال حكم الله وتحريم الحلال في آحاد مسائله، وإنما **تغليظ** كلامهم لأنهم شاهدوا ما لا قبل للمسلمين به طوال قرون حكم المسلمين بشرع الله، ولذلك من حرّم الحلال المجمع عليه مستحلًّا لذلك، ولو في آحاد مسائله؛ فإنه يكفر، وقد أنكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأويل عبد العزيز الكناني لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] علىٰ ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا تأويل عبد العزيز الكناني، وهو أيضًا بعيد؛ إذ الوعيد علىٰ نفي الحكم بالمنزّل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه».

وقد يقول قائل: كيف نعرف المستحل الحكم بغير ما أنزل الله؟

فالجواب: أنه يُعرف بدلالة المقال أو الحال، فدلالة المقال أن يقول: إن شرع غير الله أفضل من شرع الله أو مساوٍ له، أو أنه يجوز التحاكم إلىٰ غير

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٥)، ط ـ دار الكتب العلمية، ط ـ الأولىٰ.

الشريعة، أو أن الناس بالخيار؛ إن شاءوا حكموا بشرع الله أو بغيره.

وأما دلالة الحال، فقد قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله، وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله؛ فهذا قد بدّل الشريعة بهذه القوانين؛ فهو كافر؛ لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله».

وفي أجوبة اللجنة الدائمة للإفتاء بخصوص طرق معرفة مراد المتحاكم إلىٰ غير شرع الله، جاء جوابها كما يلي[(٢)]:

المراد بالإرادة في قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، ما صحبه فعل أو قرائن وأمارات تدل علىٰ القصد والإرادة، بدليل ما جاء في الآية التي بعد هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٦١]، ويدل علىٰ ذلك أيضًا: سبب النزول الذي ذكره ابن كثير وغيره في تفسير هذه الآية، وكذلك المتابعة دليل الرضا، وبذلك يزول الإشكال القائل: إن الإرادة أمر باطن فلا يحكم

---

(١) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (ص٤٧٢).

(٢) فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٧٨٤، ٧٨٥).

علىٰ المريد إلَّا بعلمها منه، وهو غير حاصل.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الرئيس	نائب رئيس اللجنة	عضو	عضو
عبد العزيز بن عبد الله ابن باز	عبد الرزاق عفيفي	عبد الله بن غديان	عبد الله بن قعود

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مستدلًا بقوله تعالىٰ:** ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢] في معرفة حال المتحاكم إلىٰ غير الشريعة: «يحلفون ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق، كحال من يرفض اليوم أحكام الإسلام، ويحكم بالقوانين المخالفة لها زعمًا منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر».

والعلامة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته «تحكيم القوانين» ذكر أقسام الحاكمين بغير ما أنزل الله، وذكر أنواع القسم الأول: كفر الاعتقاد، وذكر منه النوع الخامس[1]:

وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية؛ إعدادًا وإمدادًا وإرصادًا

---

(١) تحكيم القوانين، مطبوع ضمن «مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة»، المجموعة الأولىٰ (٢/ ٣٥٦).

وتأصيلًا وتفريعًا وتشكيلًا وتنويعًا وحكمًا وإلزامًا ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستمدات مرجعها كلها إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتىٰ وقوانين كثيرة؛ كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلىٰ الشريعة، وغير ذلك».

وهنا مسألة مهمة تتعلق بحكم التجاء المسلم إلى محاكم القوانين الوضعية إذا كانت له مظلمة عند أحد:

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا كنت في بلد لا يحكم إلا بالقوانين الوضعية، كبلد الكفار، أو من أخذ بقوانينهم، فأنت الآن بين أمرين: إما أن يضيع حقك، وإما أن تلجئك الضرورة إلىٰ التحاكم إلىٰ هؤلاء؟

الجواب: قد يظهر للإنسان في أول وهلة أنه لا يجوز أن نتحاكم إليهم؛ لأن هذا تحاكم إلىٰ الطاغوت، ولكن نقول: لك أن تتحاكم لا باعتقاد أن ذلك حكم ملزم، ولكن لأجل الوصول إلىٰ حقك الذي لا يمكن أن تصل إليه إلا بهذه الطريق، ثم إذا حكموا لك بما يوافق الشرع فخذ به؛ لأنه شرع الله، وإن حكموا لك بخلاف ذلك فلا تأخذ به، وهذا هو الذي يحفظ

---

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٤٥٩).

للناس حقوقهم؛ لأنه من المشكل إذا كنت في بلد لا يحكم إلا بالقانون الوضعي، وقد أشار إلىٰ هذا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول كتابه «الطرق الحكمية»».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لو قال قائل: إذا كان الإنسان في بلاد الكفار، هل له أن يتحاكم إليهم ليصل إلىٰ حقه؟

الجواب: إذا كان لا يمكن أن يصل إلىٰ حقه إلا بهذا، فليتحاكم إليهم لا علىٰ نية أن حكمهم صحيح، لكن علىٰ نية أنهم كالشرطة يستخرجون له حقه من هذا الظالم، ولو لم نقل بذلك لضاع حقه، ففرق بين أن نُحكمهم علىٰ أن حكمهم شريعة، وبين أن نُحكمهم ليخلصوا حقه، لكن يجب أن يعتقد أن حكمهم باطل في الأصل، وأنهم ليسوا حكامًا شرعيين».

ولا يجوز لأحد أن يلجأ إلىٰ المحاكم والقوانين الوضعية في قوانينها التي تخالف الشريعة للمضارة بالخلق، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لا يحل لأحد أن يستعمل النظام ضد أحد فيما يخالف الشريعة، فكل نظام يخالف الشريعة فهو نظام باطل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]».

---

(١) تفسير سورة المائدة (١/ ٤٨٥).

(٢) شرح منظومة أصول الفقه وقواعده (ص٣٨).

وفي سؤال وُجه للجنة الدائمة للإفتاء عن حكم دراسة القوانين الوضعية، وعن حكم الاشتغال في وظائف المحاماة، أجابت اللجنة بما يلي(١):

أولًا: إذا كان من يريد دراسة القوانين الوضعية لديه قوة فكرية وعلمية يُميِّز بها الحق من الباطل، وكان لديه حصانة إسلامية يأمن معها من الانحراف عن الحق ومن الافتتان بالباطل، وقصد بتلك الدراسة المقارنة بين أحكام الإسلام وأحكام القوانين الوضعية، وبيان ميزة أحكام الإسلام عليها، وبيان شمولها لكل ما يحتاجه الناس في صلاح دينهم ودنياهم وكفايتها في ذلك؛ إحقاقًا للحق وإبطالًا للباطل، والرد علىٰ من استهوته القوانين الوضعية فزعم صلاحيتها وشمولها وكفايتها - إن كان كذلك فدراسته إياها جائزة، وإلا فلا يجوز له دراستها، وعليه أن يستغني بدراسة الأحكام الإسلامية في كتاب الله تعالىٰ والثابت من سنة رسول الله ﷺ علىٰ ما درج عليه أئمة علماء الإسلام وطريقة سلف الأمة في دراستها والاستنباط منها.

ثانيًا: إذا كان في الاشتغال بالمحاماة أو القضاء إحقاق للحق وإبطال للباطل شرعًا، ورد الحقوق إلىٰ أربابها، ونصر للمظلوم - فهو مشروع؛ لما في ذلك من التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وإلا فلا يجوز؛ لما فيه من التعاون علىٰ

---

(١) فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ٧٩٢، ٧٩٣)، فتوىٰ رقم (٣٧١٢)، الطبعة الرابعة - ١٤٢٣هـ.

الإثم والعدوان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الرئيس	نائب رئيس اللجنة	عضو	عضو
عبد العزيز بن عبد الله ابن باز	عبد الرزاق عفيفي	عبد الله بن غديان	عبد الله بن قعود

والتكفير حكم إلهي يُقال فيه بما تقتضيه الأدلة من القرآن والسنة، والناس في التكفير طرفان ووسط: طرف غالٍ متعالم يتكلم بالتكفير بغير علم ويُكفِّر بغير مكفِّر، وطرف قابل البدعة ببدعة وعطّل أحكام الله عما تقتضيه في حق من استحق التكفير، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، فالتكفير حكم شرعي مرده إلىٰ الله، يخوض فيه العلماء الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب بما تقتضيه الأدلة من الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وهؤلاء الَّذين اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا؛ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحلَّ الله، يكونون علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنَّهم بدَّلوا دين الله، فيتبعونهم علىٰ التَّبديل؛

(١) الإيمان الكبير (ص ٢٥١، ٢٥٢).

فيعتقدون تحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحلَّ الله؛ اتِّباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنَّهم خالفوا دين الرُّسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا - وإن لم يكونوا يصلُّون لهم ويسجدون لهم - فكان من اتَّبع غيره في خلاف الدِّين مع علمه أنَّه خلاف الدِّين، واعتقد ما قاله ذلك، دون ما قاله الله ورسوله، مشركًا مثل هؤلاء.

والثَّاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتًا، لكنَّهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي الَّتي يعتقد أنَّها معاصٍ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذُّنوب، كما ثبت في «الصَّحيح» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّما الطَّاعة في المعروف**»، وقال: «**علىٰ المسلم السَّمع والطَّاعة فيما أحبَّ أو كره ما لم يؤمر بمعصية**»، وقال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»، وقال: «**من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه**».

ثمَّ ذلك المحرِّم للحلال والمحلِّل للحرام، إن كان مجتهدًا قصده اتِّباع الرَّسول، لكن خفي عليه الحقُّ في نفس الأمر، وقد اتَّقىٰ الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه علىٰ اجتهاده الَّذي أطاع به ربَّه.

ولكن من علم أنَّ هذا خطأ فيما جاء به الرَّسول ثمَّ اتَّبعه علىٰ خطئه وعدل عن قول الرَّسول ﷺ، فهذا له نصيب من هذا الشِّرك الَّذي ذمَّه الله، لا سيَّما إن اتَّبع في ذلك هواه، ونصره باللِّسان واليد، مع علمه بأنَّه مخالف

للرَّسول ﷺ؛ فهذا شرك يستحقُّ صاحبه العقوبة عليه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه المسألة - أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله - من المسائل الكبرىٰ التي ابْتلي بها حكام هذا الزمان، فعلىٰ المرء أن لا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتىٰ يتبين له الحق؛ لأن المسألة خطيرة - نسأل الله تعالىٰ أن يُصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم - كما أن علىٰ المرء الذي آتاه الله العلم أن يبيّنه لهؤلاء الحكام؛ لتقوم الحجة عليهم وتتبين المحجة، فيهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بيّنة، ولا يحقرن نفسه عن بيانه، ولا يهابن أحدًا فيه؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين».

وفي التكفير لا بد من التفريق بين الحكم علىٰ الفعل بالكفر، والحكم علىٰ الفاعل، فالحكم علىٰ المعيّن لابد فيه من استيفاء شروط الحكم وانتفاء موانعه.

ومن موانع التكفير: الخطأ، والتأويل، والإكراه.

ودليل العذر بالخطأ حديث الرجل الذي أضل راحلته في أرض فلاة، وأيس منها ونام، فلما استيقظ وجدها أمامه فقال: «اللهم أنت عبدي، وأنا ربك»، قال النبي ﷺ: «**أخطأ من شدة الفرح**». متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) شرح ثلاثة الأصول (ص ١٥٩).

وأما العذر بالتأويل فدليله حديث الرجل الذي أوصىٰ أهله أنه إن مات أن يحرقوه ويذروه في اليم، فبعثه الله، فقال: ما حملك علىٰ ما فعلت؟ قال: خشيتك يا رب! فغفر الله له، رواه البخاري من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إن الإيمان بقدرة الله علىٰ كل شيء ومعاد الأبدان من أصول الإيمان، ومع هذا، فهذا لما كان مؤمنًا بالله وأمره ونهيه، **وكان إيمانه بالقدرة والمعاد مجملًا، فظن أن تحريقه يمنع ذلك؛** فعل ذلك، ومعلوم أنه لو كان قد بلغه من العلم أن الله يعيده - وإن حرق - كما بلغه أنه يعيد الأبدان، لم يفعل ذلك».

وأما العذر بالإكراه فدليله ما وقع من عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه سبّ النبي ﷺ إكراهًا؛ أكرهه كفار قريش علىٰ ذلك، فعذره الله، قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «أجمع أهل العلم علىٰ أن من أُكره علىٰ الكفر حتىٰ خشي علىٰ نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجه، ولا يُحكم عليه بالكفر».

ونبّه بعض العلماء إلىٰ أن الرخصة في الإكراه في القول دون الفعل، قال

---

(١) السبعينية (ص٣٤٢).

(٢) أحكام القرآن (١٠/ ١٨٢).

الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «القول الثاني: أن التقية إنما تكون في الأقوال، ولا تقية في الأفعال، ولا إكراه عليها. رُوي ذلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأبي العالية، وأبي الشعثاء، والربيع بن أنس، والضحاك، وهو رواية عن أحمد، وروي عن سحنون أيضًا».

فالحكم علىٰ الأعيان بالتكفير لا بد فيه من استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، ومنهج الصحابة في ذلك معلوم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أمَّا من لم تقم عليه الحجَّة، مثل أن يكون حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الإسلام ونحو ذلك، أو غلط فظنَّ أنَّ الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات يُستثنون من تحريم الخمر، كما غلط في ذلك الَّذين استتابهم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأمثال ذلك - فإنَّهم يُستتابون، وتُقام عليهم الحجَّة، فإن أصرُّوا كفروا حينئذ، ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك، كما لم يحكم الصَّحابة بكفر قدامة بن مظعون؛ لما غلطوا فيه من التَّأويل».

وقد ظهر من ينال من أهل السنة ويرميهم بالتشدد؛ لحمايتهم جناب التوحيد، وحرصهم علىٰ صيانة عقائد الناس من الشرك الأكبر، فضلًا عن الشرك الأصغر؛ لتكون عاقبتهم في الآخرة حميدة.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧٢).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٥٥٢، ٥٥٣).

قال العلامة صالح الفوزان حفظه الله[1]: «إن من ينكر هذه الأمور، وينبّه الناس إلىٰ خطرها، ويدعو إلىٰ التوحيد - يرمونه بأنه متشدّد، وأنه خارج عن الأمة؛ لأن الأمة عندهم هم عُبَّاد القبور، ومن أنكر عبادة القبور صار خارجًا عن الأمة، وهذا من قلب الحقائق - والعياذ بالله -، فالدين الذي جاءت به الرسل هو إخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الدين».

فدعاة التوحيد من لدن عهد النبي ﷺ وصحابته إلىٰ يومنا هذا أهل إحسان إلىٰ الخلق؛ يأخذون بأيدي الناس من الشرك إلىٰ التوحيد، ويعتقون رقابهم من النار؛ رحمةً بهم، ونصحًا لهم، ولكن الناس أعداء ما جهلوا.

فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ رأىٰ رجلًا في يده حلقة من صُفْرٍ، فقال: «**ما هذه؟**» قال: من الواهنة! قال: «**انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهنًا؛ فإنك لو مِتّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا**». رواه أحمد، قال الإمام محمد بن عبد الوهاب بسند لا بأس به.

ورأىٰ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا في يده خيط من الحمىٰ فقطعه، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]. رواه ابن أبي حاتم.

ودعاة الباطل شناعتهم علىٰ دعوة علماء الأمة المجددين للتنفير منها معلومة، غرضهم من ذلك الصدّ عن الحق ودعاته؛ ليبقىٰ المغرر بهم أسرىٰ

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/ ٣٠٩).

شركهم الذي يقتاتون به، بما يأخذونه من الناس من أموال للتمائم التي يصنعونها لهم، وما يأكله سدنة القبور من أموال الناس حين يأذنون لهم بالطواف بالقبور التي بنوا عليها القباب وجعلوها مزارًا كالكعبة، يطوفون بها، ويستغيثون بالموتىٰ، بسؤالهم مباشرة، أو اتخاذهم وسائط بينهم وبين الله، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقد نال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من شناعة المبتدعين، والطعن عليه، ورميه بالتكفير بالباطل ما هو من الافتراء والبهتان والعدوان الذي أبان الإمام نفسه عن كذبهم عليه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأما الكذب والبهتان، فمثل قولهم: إنا نكفر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا علىٰ من قدر علىٰ إظهار دينه، وإنا نكفر من لم يكفر، ومن لم يقاتل. ومثل هذا وأضعاف أضعافه؛ فكل هذا من الكذب والبهتان، الذي يصدون به عن دين الله ورسوله ﷺ.

وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي علىٰ قبر عبد القادر، والصنم الذي علىٰ قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم - فكيف نكفّر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، أو لم يكفر ويقاتل؟! ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا

---

(١) الدرر السنية (١/ ١٠٤).

﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]».

وأئمة الدعوة - ولله الحمد - ما حرّفوا دين الله، ولا كتموا بيان حق الله الخالص في توحيده، ولا كتموا حكم الله فيمن وقع منه الشرك الأكبر أو أتىٰ بنواقض الإسلام مصانعة ومحاباةً للخلق، فهم مبلغون عن الله، لا يلينون لغامز، كما أنهم لم يجازفوا مجازفة الخوارج بالتكفير باللازم ومن غير إقامة الحجة.

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكلام أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم من أهل العلم والفتوىٰ، معروف مشهور مقرر في محله في حكم من عدل بالله وأشرك به، وتقسيمهم للشرك إلىٰ أكبر وأصغر، والحكم علىٰ المشرك الشرك الأكبر بالكفر مشهور عند الأمة، لا يكابر فيه إلا جاهل لا يدري ما الناس فيه من أمر دينهم، وما جاءت به الرسل.

وقد أفرد هذه المسألة بالتصنيف غير واحد من أهل العلم، وحكىٰ الإجماع عليها، وأنها من ضروريات الإسلام، كما ذكره تقي الدين ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وابن عقيل، وصاحب الفتوىٰ البزازية، وصنع الله الحلبي، والمقريزي الشافعي، ومحمد بن حسين النعمي الزبيدي، ومحمد بن إسماعيل الصنعاني، ومحمد بن علي الشوكاني، وغيرهم من أهل العلم.

---

(١) مصباح الظلام (ص٢٢، ٢٣).

وأما قوله[١]: «وجعل بلاد المسلمين كفارًا أصليين»، فهذا كذب وبُهت، ما صدر ولا قيل، ولا أعرفه عن أحد من المسلمين فضلًا عن أهل العلم والدين، بل كلهم مجمعون علىٰ أن بلاد المسلمين لها حكم الإسلام في كل زمان ومكان.

وإنما تكلم الناس في بلاد المشركين الذين يعبدون الأنبياء والملائكة والصالحين، ويجعلونهم أندادًا لله رب العالمين، أو يُسندون إليهم التصرف والتدبير كغلاة القبوريين، فهؤلاء تكلم الناس في كفرهم وشركهم وضلالهم، والمعروف المتفق عليه عند أهل العلم، أن من فعل ذلك ممن يأتي بالشهادتين **يُحكم عليه بعد بلوغ الحجة بالكفر والردة**، ولم يجعلوه كافرًا أصليًّا».

وقال العلامة عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وما رأيت شيخ الإسلام أطلق علىٰ بلد من بلاد المنتسبين إلىٰ الإسلام أنها بلد كفر، ولكنه قرّر أن دعاء الصالحين وعبادتهم بالاستعانة والاستغاثة والذبح والنذر والتوكل، علىٰ أنهم وسائط بين العباد وبين الله في الحاجات والمهمات، هو دين المشركين وفعل الجاهليين الضالين من الأميين والكتابيين، فظن هذا أن لازم قوله أنه يحكم علىٰ هذه البلاد أنها بلاد كفر، وليس هذا بلازم، ولو لزم فلازم المذهب ليس بمذهب، ونحن نطالب الناقل بتصحيح نقله. نعم، ذكر

---

(١) المفتري هو عثمان بن منصور التميمي.

(٢) مصباح الظلام، ص (٢٣).

الحنابلة وغيرهم أن البلدة التي تجري عليها أحكام الكفر، ولا تظهر فيها أحكام الإسلام بلدة كفر، وما ظهر فيها هذا وهذا فقد أفتىٰ فيها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه يُراعىٰ فيها الجانبان؛ فلا تُعطىٰ حكم الإسلام من كل وجه، ولا حكم الكفر من كل وجه، كما نقله عنه ابن مفلح وغيره».

وقد ظهر قبلنا من ينال من علمائنا بسبب تكفيرهم تارك الصلاة!! وكأن تكفير تارك الصلاة ليس من فقه الصحابة؟!

ناهيك أن الصلاة جعلها النبي ﷺ حدًّا فاصلًا بين الإسلام والكفر، وجعلها من آكد العلامات الفارقة بين دار الإسلام ودار الكفر.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الذي يقول: من قال بكفر تارك الصلاة - مع دلالة الكتاب والسنة وأقوال الصحابة علىٰ ذلك، والمعنىٰ الصحيح والنظر الصحيح - هو خارجي، فهو الخارجي الحقيقي».

فهذا من أعجب العدوان علىٰ أدلة الكتاب والسنة ومذاهب الصحابة، ماذا بقي من الإسلام إذا ضُيعت الصلاة؟!!

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة».

وقال شقيق بن عبد الله العقيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما كان أصحاب محمد ﷺ يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة». رواه الترمذي.

---

(١) شرح السياسة الشرعية (ص٣٧٦)، ط دار ابن حزم.

وقال النبي ﷺ: «**بين الشرك والكفر ترك الصلاة**». رواه مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها، فقد كفر**»، صححه الترمذي من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ **(ت: ٣٩٤هـ)**[(١)]: «أفلا ترىٰ أن **تارك الصلاة ليس من أهل ملة الإسلام** الذين يُرجىٰ لهم الخروج من النار، ودخول الجنة بشفاعة الشافعين، كما قال ﷺ في حديث الشفاعة الذي رواه أبوهريرة وأبو سعيد - رضي الله عنهما جميعًا -: «**أنهم يخرجون من النار، يعرفون بآثار السجود**»، فقد بيّن لك أن المستحقين للخروج من النار بالشفاعة هم المصلون.

ألا ترىٰ أن الله ميّز بين أهل الإيمان وأهل النفاق بالسجود، فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق: ٢١]، **أفلا تراه جعل علامة ما بين ملة الكفر والإسلام، وبين أهل النفاق والإيمان في الدنيا والآخرة الصلاة**».

وكان النبي ﷺ إذا أراد غزو قوم انتظر حتىٰ يسمع النداء بها وإلا أغار عليهم. رواه البخاري.

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ١٠٠٩، ١٠١٠).

فالصلاة دليل الإيمان وآكد خصاله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ: «**من صلىٰ صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم**». رواه البخاري.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنها علمُ الإيمان وأعظمُ خصاله البدنية».

والقائلون بعدم تكفير تارك الصلاة عطلوا قول النبي ﷺ: «**أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل**». رواه البخاري ومسلم، مع أن هذا النص بيان للمجمل في الأحاديث الواردة في إثبات دخول الجنة بقول: لا إله إلا الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأما الذين لم يكفروا بترك الصلاة ونحوها، فليست لهم حجة إلا وهي متناولة للجاحد، كتناولها للتارك، فما كان جوابهم عن الجاحد كان جوابًا لهم عن التارك، مع **أن النصوص علّقت الكفر بالتولي** كما تقدم.

وهذا مثل استدلالهم بالعمومات التي يحتج بها **المرجئة**، كقوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه؛ أدخله الله الجنة**»، ونحو ذلك من النصوص».

---

(١) فتح الباري (١/ ١٩٠).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٥٦٢، ٥٦٣).

فالدعاة الناصحون يوجهون الأمة لإقامة أركان الإسلام، لا إسقاطها، كما يقول بعضهم: «تضييعها معصية غير الشهادتين، والصلاة مختلف فيها»؛ فهذا ما فقه حقيقة الإيمان وأسقط حقيقة الإسلام، شعر أم لم يشعر!!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الإسلام الذي في القلب لا يتم إلا بعمل الجوارح، فهُنَّ مبانٍ له ينبني عليها، فالمباني الظاهرة تحمل الإسلام الذي في القلب، كما يحمل الجسد الروح، وكما تحمل العُمُدُ السقف، والقبة الأركان».

ومباني الإسلام أمر الله بها لتحقيق التوحيد، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «حيث أجاب النبي ﷺ بذكر الإيمان أو بذكر الصلاة؛ فإنما مقصوده التمثيل بأفضل مباني الإسلام.

ومراده المباني بجملتها؛ فإن المباني الخمس كالشيء الواحد، وكل من دخل في الإسلام بالإقرار بالشهادتين، أو بالصلاة علىٰ رأي من يرىٰ فعلها إسلامًا، فإنه يؤمر ببقية المباني، ويُلزم بذلك، ويُقاتل علىٰ تركه».

وواجب طلبة العلم التفريق بين نواقض الإسلام وما يضاد أصل التوحيد، وبين الذنوب التي لا تزيل الإيمان بالكلية أو ما يضاد كمال التوحيد.

---

(١) المجموعة العليَّة من كتب ورسائل وفتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٧٦، ٧٧).

(٢) فتح الباري (٤/ ٢١٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ونحن إذا قلنا: أهل السنة متفقون علىٰ أنه لا يكفر بالذنب، فإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب».

وحبوط العمل تارة يكون كليًّا، وهذا يكون بسبب الشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ويكون أيضًا بسبب الإتيان بناقض من نواقض الإسلام، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أُنزل علىٰ محمد ﷺ**»، رواه أبو داود.

فمن اعتقد أن الكُهان يعلمون الغيب وصدّقهم في ذلك، فقد كفر لأنه مكذب للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ويكون حبوط العمل غير كلي، قد يكون كبيرة من كبائر الذنوب تذهب بحسنات عظيمة؛ فقد روىٰ ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإخلاص ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل صالح، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]، فخافوا الكبائر بعد أن تُحبط الأعمال.

---

(١) الإيمان (ص٢٨٦).

وعن معمر عن الزهري في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، قال: بالكبائر.

وبإسناده عن قتادة في هذه الآية قال: من استطاع أن لا يُبطل عملًا صالحًا عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والآثار عن السلف في حبوط الأعمال بالكبيرة كثيرة جدًّا يطول استقصاؤها، حتىٰ قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأما من زعم أن القول بإحباط الحسنات بالسيئات قول الخوارج والمعتزلة خاصة، فقد أبطل فيما قال، ولم يقف علىٰ أقوال السلف الصالح في ذلك».

ولاحظ - أيها المتعلم المستفيد - قول الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطواغيت كثيرون، ورؤوسهم خمسة: ... ومن حكم بغير ما أنزل الله». ثم قال: «وهذا معنىٰ لا إله إلا الله».

وهذا الذي ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو ما دلّ عليه حديث عديّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٠٠).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٠٠).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الحكم بما أنزل الله تعالىٰ من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضىٰ ربوبيته، وكمال ملكه وتصرفه، ولهذا سمّىٰ الله تعالىٰ المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالىٰ أربابًا لمتبعيهم، فقال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فسمّىٰ الله تعالىٰ المتبوعين أربابًا؛ حيث جعلوا مشرعين مع الله تعالىٰ، **وسمّىٰ المتبعين عُبَّادًا؛ حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقد قال عدي بن حاتم لرسول الله ﷺ: إنهم لم يعبدوهم. فقال النبي ﷺ: «**بل إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فتلك عبادتهم إياهم**»».

وذهب عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن الوعيد في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] للجاحد لحكم الله، وقد أنكر عليه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا القول، فقال[2]: «وهو تأويل مرجوح؛ فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها علىٰ ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، قال: ويدخل في

---

(١) شرح الأصول الثلاثة (ص ١٥٤، ١٥٥).

(٢) مدارج السالكين (ص ٢١٠).

ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام، وهذا تأويل عبدالعزيز الكناني.

وهو أيضًا بعيد؛ إذ الوعيد علىٰ نفي الحكم بالمنزّل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها علىٰ الحكم بمخالفة النص، تعمدًا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاه البغوي عن العلماء عمومًا.

ومنهم: من تأولها علىٰ أهل الكتاب، وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما، وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ فلا يُصار إليه.

ومنهم: من جعله كفرًا ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر، بحسب حال الحاكم؛ فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانًا مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة؛ فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخيَّر فيه مع تيقنه أنه حكم الله تعالىٰ؛ فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطيء له حكم المخطئين».

وقال الحافظ محمد بن علي الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فمن كان تاركًا لما أنزل الله في أحكامه علىٰ هذه الصفة، فقد ساوىٰ من أُنزلت فيهم الآيات من اليهود والنصارىٰ، واستحق اسم الكفر والظلم والفسق.

---

(١) نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ٣١٠، ٣١١).

ومن حمله حرص الدرهم والدينار، أو بلوغ ثأر، أو شهوة نفس، علىٰ ترك حكم الله، وهو عالم بعدوانه عارف بإساءته، حَذِرٌ من سوء صنيعه، مصدّق لربه فيما أنزل من الأحكام، شاهد عليها بالحق المفترض عليه العمل به، ولم يساوهم فيها، وهو باق علىٰ إسلامه، عاص لربه[1] فأفعاله تستوجب عقوبته إن لم يجد بالصفح عنه. فإن تاب[2] لحق بالتائبين».

وفرقٌ بين أن يتورع العالم في مسائل التكفير، وأن يُبرِّر الحكم بغير ما أنزل الله، فالأول ممدوح، والثاني مذموم؛ فالتوقي في مسائل التكفير أولىٰ من فرطات الإقدام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من مدائح أهل العلم أنّهم يُخطئون ولا يكفرون».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «علماء السوء الذين يدعون إلىٰ الضلال والكفر، أو يدعون إلىٰ البدع، أو إلىٰ تحليل ما حرّم الله، أو تحريم ما أحل الله طواغيت، والذين يزينون لولاة الأمر الخروج عن

---

(١) كان قد ذكر قبل ذلك صفة من جحد ما أنزل الله، أو حكم بغير حكم الله مدعيًا به علىٰ الله؛ أنه كافر. نكت القرآن الدالة علىٰ البيان (١/ ٣١٠).

والعلماء يُكفرون كذلك من اعتقد جواز أن يحكم بغير ما أنزل الله، أو أن شرع غير الله أفضل أو مساو لشرع الله.

(٢) توبة من يحكم بغير شرع الله أن يحكم بما أنزل الله أو يترك الحكم إذا لم يمكنه أن يحكم بشرع الله.

(٣) شرح ثلاثة الأصول (ص ١٥١).

شريعة الإسلام بنظم يستوردونها مخالفة لنظام الدين الإسلامي طواغيت؛ لأن هؤلاء تجاوزوا حدّهم؛ فإن حدّ العالم أن يكون متبعًا لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن العلماء حقيقة ورثة الأنبياء؛ يرثونهم في أمتهم: علمًا، وعملًا، وأخلاقًا، ودعوةً، وتعليمًا، فإذا تجاوزوا هذا الحدّ وصاروا يزينون للحكام الخروج عن شريعة الإسلام بمثل هذه النظم، فهم طواغيت؛ لأنهم تجاوزوا ما كان يجب عليهم أن يكونوا من متابعة الشريعة».

ومع وجوب تعظيم شرع الله، فإن مسائل التكفير من المسائل العظيمة التي يفتي فيها كبار العلماء، وقد رأينا بعض الشباب من حين بدأ في أداء الصلوات جماعة في المساجد، وصحبة الشباب المتديّن، والجلوس إلىٰ من يُعلّمه؛ أخذ في إطلاق لسانه في التكفير والمجازفة في ذلك والمسارعة إليه، وقد رأىٰ العلماء من ذلك عجبًا، فأنكروه؛ قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ منكرًا ركوب الجهلة من أهل زمانه هذا الأمر العظيم[(١)]: «فما بالك! وهذا أنت تعترف علىٰ نفسك أنك لا تعرف الحقَّ، ولا تعقل الصواب في مسائل الطهارة والتخلي والوضوء والصلاة؟ فكيف قمت هاهنا مقام تكفير المسلمين والحكم عليهم بصريح الردة جازمًا بذلك متحدثًا به مطمئنًا إليه؟».

وقد رأىٰ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسارعة

---

(١) أدب الطلب (ص٦٣).

ومجازفة البعض إلىٰ التكفير، بمصانعة ملوك الكفار بالهدايا وبالحكم بغير ما أنزل الله، فوعظهم في ذلك، وقال[١]: «بلغنا عنهم تكفير أئمة المسلمين بمكاتبة الملوك المصريين، بل كفّروا من خالط من كاتبهم من مشايخ المسلمين، نعوذ بالله من الضلال بعد الهدىٰ، والحَوْرِ بعد الكَور، وقد بلغنا عنكم نحو من هذا، وخضتم في مسائل من هذا الباب، كالكلام في الموالاة والمعاداة والمصالحة والمكاتبات، وبذل الأمور والهدايا، ونحو ذلك من مقالة أهل الشرك بالله والضلالات، والحكم بغير ما أنزل الله عند البوادي ونحوهم من الجفاة، لا يتكلم فيها إلا العلماء من ذوي الألباب، ومن رزقه الله الفهم عن الله، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب».

فواجب طلبة العلم رد الكلام في هذه المسائل العظيمة إلىٰ كبار العلماء، قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لا يزال الناس بخير ما كان العلم في أكابرهم، فإذا صار العلم في أصاغرهم، فذلك حين هلكوا. وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣]. فالفوضىٰ في التكفير تعالم يتورع عنه أهل العلم ويكلونه إلىٰ أهله، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]:

---

(١) عيون الرسائل (١/ ١٦٥، ١٦٦).

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ٢٠٣).

«أحكام الكفر ليست هيّنة حتىٰ تكون علىٰ ألسنة كل أحد».

وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّ الذي يُفتي الناس في كل ما يستفتونه مجنون»[١]. وقد قالها في مسائل دون مسائل التكفير خطورة، فحال بعض الشباب أنه لا يكاد يتورع في الفتيا، ولم يجرِ علىٰ لسانه قط أن قال: «لا أعلم»، أو: «الله أعلم».

قال أبو عبد الله ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «فهذا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحلف بالله أن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه مجنون.

ولو حلف حالف لبر أو قال: لصدق - أن أكثر المفتين في زماننا هذا مجانين[٣]؛ لأنك لا تكاد تلقىٰ مسؤولًا عن مسألة متلعثمًا في جوابها ولا متوقفًا عنها، ولا خائفًا لله، ولا مراقبًا له أن يقول له: من أين قلت؟ بل يخاف ويجزع أن يقال: سئل فلان عن مسألة فلم يكن عنده فيها جواب. يُريد أن يوصف بأن عنده من كل ضيق مخرجًا، وفي كل متعلق متهجرًا، يفتي فيما عيي عنه أهل الفتوىٰ، ويعالج ما عجز عن علاجه الأطباء، يخبط العشوة، ويركب السهوة، لا يفكر في عاقبة، ولا يعرف العافية، إذا أكثر عليه السائلون

---

(١) رواه أبو خيثمة في كتاب «العلم» (رقم ١٠)، بإسناد صحيح.

(٢) إبطال الحيل (ص٦٦، ٦٧).

(٣) هذا في زمانه قبل عشرة قرون، فكيف بزماننا هذا؟!!

وحاقت به الغاشية».

فالذي ننصح به أنفسنا وطلبة العلم أنه قد لا يتأتىٰ لنا الجزم قطعًا بتكفير بعض الأعيان في بعض المسائل، فاحذر أيها المسلم واعتبر بنصيحة كبار علماء الأمة الإسلامية الذين قالوا: إنه لا يتأتىٰ لنا التكفير في كل مقام، فأين أنت منهم؟!!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا ينبغي أن يُظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يُدرك قطعًا في كل مقام، بل التكفير حكم شرعي يرجع إلىٰ إباحة المال وسفك الدماء والحكم بالخلود في النار، فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية، فتارة يُدرك بيقين، وتارة يُدرك بظن غالب، وتارة يتردد فيه، ومهما حصل تردد فالتوقف عن التكفير أولىٰ، والمبادرة إلىٰ التكفير إنما تغلب علىٰ طباع من يغلب عليهم الجهل».

والعلماء يقررون في تقريراتهم العلمية وتطبيقاتهم العملية الفرق بين التكفير كحكم شرعي وتعيينه في آحاد الناس، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن حكم الوعيد علىٰ الكفر لا يثبت في حق الشخص المعيّن حتىٰ تقوم عليه حجة الله التي بعث بها رسله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥]».

---

(١) السبعينية (ص٣٤٥)، ط ـ مكتبة العلوم والحكم، ط ـ الثالثة، ١٤٢٢هـ.

(٢) السبعينية (ص٣١١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ثبت في صحيح البخاري عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصة «حمار» الذي تكرر منه شرب الخمر وجلده لما لعنه بعض الصحابة، قال النبي ﷺ: «**لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله**»، وقال: «**لعن المؤمن كقتله**»، متفق عليه. هذا مع أنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه لعن الخمر وشاربها، فقد ثبت أن النبي ﷺ لعن عمومًا شارب الخمر، ونهىٰ في الحديث الصحيح عن لعن هذا المعيّن».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «العلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء وتخليدهم في النار، وما من الأئمة إلا من حُكي عنه في ذلك «قولان»، كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وصار بعض أتباعهم يحكي هذا النزاع في جميع أهل البدع، وفي تخليدهم حتىٰ التزم تخليدهم كل من يعتقد أنه مبتدع بعينه، وفي هذا من الخطأ ما لا يُحصىٰ، وقابله بعضهم فصار يظن أنه لا يُطلق كفر أحد من أهل الأهواء، وإن كانوا قد أتوا من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والاتحاد.

والتحقيق في هذا: أن القول قد يكون كفرًا كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، ولا يُرىٰ في الآخرة، ولكن قد يخفىٰ علىٰ بعض الناس

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٤٨٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٦١٨، ٦١٩).

أنه كفر، فيُطلق القول بتكفير القائل، كما قال السلف: من قال القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يُرىٰ في الآخرة فهو كافر، ولا يكفر الشخص المعيّن حتىٰ تقوم عليه الحجة».

وفي سؤال الشباب الجزائري لشيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مسألة الحكم بغير ما أنزل الله؟

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد يحكم بغير ما أنزل الله عدوانًا وظلمًا مع اعترافه بأنَّ حكم الله هو الحق، فهذا لا يكفر كفرًا مخرجًا عن الملة، وقد يحكم بغير ما أنزل الله تشهيًا ومحاباةً لنفسه أو لقريبه، لا لقصد ظلم المحكوم عليه ولا لكراهة حكم الله، فهذا لا يخرج عن الملة، إنَّما هو فاسق، وقد يحكم بغير ما أنزل الله كارهًا لحكم الله فهذا كافر كفرًا مخرجًا عن الملَّة، وقد يحكم بغير ما أنزل الله طالبًا موافقة حكم الله لكنَّه أخطأ في فهمه، فهذا لا يكفر، بل، ولا يأثم، لقول النبي ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وإن أصاب فله أجران**»».

وقال المحاور الجزائري لشيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يا شيخ! التكفير، التشريع العام، والتكفير العيني، هذه المسائل يا شيخ! قد يأخذون

---

(١) فتاوىٰ العلماء الأكابر فيما أهدر من دماء في الجزائر (ص١٦٤، ١٦٥).

(٢) فتاوىٰ العلماء الأكابر فيما أهدر من دماء في الجزائر (ص١٧٦).

الفتوىٰ منكم ثم يُطبِّقونها علىٰ الحاكم!

الشيخ: عملهم هذا غير صحيح.

السائل: نعم! ثم لمَّا نقول له: يا أخي ما قالها الشيخ ابن عثيمين، يقول لك: لكن الشيخ ابن عثيمين مثلًا في كتبه قال: التشريع العام: من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر بدون تفصيل، والآن عندنا هذا الحاكم لا يحكم بما أنزل الله فهو كافر.

قال الشيخ: أقول: بارك الله فيكم: **الحكم علىٰ المسألة بالحكم الذي ينطبق عليها غير الحكم علىٰ شخص معين**».

والحكم بغير ما أنزل الله وعيده غير مقصور علىٰ الحُكام، فالعلماء وطلبة العلم يقع من بعضهم دفع نصوص الكتاب والسنة وردها أو تعطيل أدلتها ومقتضاها، وكلام السلف كثير في التحذير من رد النصوص من القرآن والسنة، وهذا وقع من المبتدعين، وبعض الفقهاء يدفع في نحور النصوص، فلا ينقاد إلىٰ عقائدها وأحكامها؛ لضعف تعظيم كلام الله ورسوله ﷺ في نفسه، ولغلبة الهوىٰ والتعصب والانتصار للأحزاب والمذاهب، فلا يزال بعضهم في هذا المسلك الوخيم حتىٰ يخرج من الملة.

قال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «حَرَمَ الله

---

(١) خلق أفعال العباد (٢/ ١٧٠).

- جلَّ وعزَّ - أهل الأهواء كلهم أن يجدوا عن أشياعهم أو بأسانيدهم حُكمًا من أحكام الرسول أو فرضًا أو سنَّةً من سنن المرسلين إلا ما يَعْتَلُّون بأهل الحديث إذا بدا لهم، كالذين جعلوا القرآن عِضين، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض؛ فمن ردَّ بعض السنن مما نقله أهل العلم فيلزمه أن يَرُدَّ باقي السنن حتىٰ يتخلىٰ من السنن والكتاب وأمر الإسلام أجمع، والبيان في هذا كثير».

فتعظيم أحكام الله واجب على جميع المسلمين لا يختص بالولاة والعلماء بل هو لازم لهم وللعامة جميعًا.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: أتى النُّعْمان بن قَوْقَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله! أرأيت إذا صلَّيْت الصلوات المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرَّمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئًا، أأدخل الجنَّة؟ قال: «**نعم**».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «في قوله: «أحللت الحلال وحرَّمت الحرام» دليل على أنه لابدَّ من اعتقاد الحل فيما هو حلال، واعتقاد التحريم فيما هو حرام، وهذا أمر زائد على الفعل فيما يحلُّ ، وعلى التَّرْك فيما يحرم، لأن من فعل ما يحلُّ لا باعتقاد الحِل، فإنه نقص عليه عقيدة، وهي عقيدة الحكم الشرعي في هذا الذي فعله، وكذلك من تجنب الحرام دون اعتقاد تحريمه، فقد نقص عليه العقيدة في حكم هذا الشيء».

---

(١) التعليق على صحيح مسلم (١/ ١١٧).

وما دوّنه الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته النافعة المباركة «الأصول الثلاثة» من بيان التوحيد، وأنواع العبادة، وأركان الإسلام، وحقيقة الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة، وشعب الإيمان هي الدين كله، وهو العلم النافع الذي من أقامه حاز خيري الدنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّما المطلوب منّا الاستسلام لله، وإخلاص الدين له، وطاعة أمره ونهيه ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]؛ فإن الدين: الإيمان والبرّ والتقوىٰ وطاعة الله ورسوله والإحسان والعمل الصالح ونحو ذلك هو المطلوب منّا والمراد بنا في دين الله تعالىٰ وكتابه».



---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص ١٠).



الخاتمة

هكذا يسّر الله وحده التعليق والشرح لمتن «الأصول الثلاثة وأدلتها» لشيخ الإسلام المجدّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا المتن المبارك نافع جدًّا؛ لضرورة حاجة الناس إليه، ولسهولة عبارته، وشموله لمسائل الدين كلها، وتضمنه لدليل كل مفردة من مفردات العقيدة في هذا المتن المبارك.

هذا المتن المبارك في مجمل اعتقاد أهل السنة هو امتداد للسلسلة الذهبية في العقيدة السلفية كـ«اعتقاد أئمة الحديث»، و«لمعة الاعتقاد»، و«العقيدة الواسطية»، التي نفع الله بها كثيرًا، وكانت من أسباب حفظ عقائد المسلمين وتثبيت أهل الحق علىٰ عقيدتهم الصحيحة، وهداية من وفقه الله للحق ممن أراد الله به خيرًا في تلقي صحيح الاعتقاد من المتون الصحيحة المتوارثة عن القرون المفضلة.

هذا المتن لبنة من مجموع لبنات مهمة في بناء العقيدة السلفية الصحيحة التي كتبها الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلها هام للعامي وطالب العلم والعالم في هدايته للحق وتثبيته عليه، فهذا المتن مع «كشف الشبهات» و«كتاب التوحيد»، و«القواعد الأربع»، و«مسائل الجاهلية»، أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعظم بركة الانتفاع بها، وبسائر كتبه ومصنفّاته ويجزي شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

والحمد لله أولًا وآخرًا لتيسير أسباب شرح متن «الأصول الثلاثة وأدلتها»، والله الموفق لكل خير.





دليل الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

